



ترجم الأحاديث عن الإغريقية
الدكتور محمد صقر خفاجة
قدم لها وتولى شرحها
الدكتور أحمد بدوي

دار الفلم



هزرو
يتحدث عن مصر

هزور

يتحدث عن مصر

قدم لها وتولى شرحها
في ضوء ما عرف من تاريخ الحياة المصرية

الدكتور أحمد بدوي

عضو مجمع اللغة العربية

ترجم الأحاديث عن الإغريقية
المرحوم الأستاذ الدكتور

محمد صقر خفاجة

عميد كلية الآداب سابقاً



١٩٦٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هَرْمُدُوتُ يَتَحَدَّثُ عَنْ مِصْرَ

فِي « كِتَابِهِ الثَّانِي » « ΕΥΤΕΡΠΗ »

إِنَّهُ ثَانِي كِتَابِهِ التَّسْعَةَ^(١) وَأَحَبُّهَا إِلَيْنَا ، وَأَعَزُّهَا عَلَيْنَا ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ اخْتَصَّ بِهِ وَطَنَنَا الْحَبِيبَ « مِصْرَ » وَشَعْبَهَا الْعَظِيمَ الْمُبْتَكِرَ ، الَّذِي لَفَتَتْ عَظَمَتُهُ ، وَجَلَامِلُ أَعْمَالِهِ ، وَفَضَائِلُهُ ، أَنْظَارَ الدُّنْيَا ، وَاقْتَادَتِ الْعَيُونَ نَحْوَ دِيَارِهِ الْحُلُوةِ الْغَنِيَّةِ الْمُتَرَفَةِ ، وَمَا حَمَلَتْ أَرْضُهَا مِنْ مُخْتَلَفِ الْبِدَائِعِ وَالرَّوَائِعِ .

وَشَعْبُنَا عَظِيمٌ لَا يَشُكُّ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ ؛ آمَنَ بِرَبِّهِ وَوَطَنَهُ إِيْمَانًا لَا نَعْرِفُ أَنَّهُ اتَّفَقَ لِغَيْرِهِ مِنْ شُعُوبِ الْأَرْضِ ، وَأَحَبَّ وَطَنَهُ أَرْضًا وَسَمَاءَ وَمَاءَ وَهَوَاءَ وَزَرْعًا وَحَيَوَانًا نَمِ قَدَّسَ كُلُّ أَوْلَئِكَ .

وَلَمْ يَكُنْ حَبِيبُهُ ذَلِكَ مَصْدَرُهُ الْهَوَى ، وَلَكِنْ كَانَ حَبِيبًا مَصْدَرُهُ الْيَقِينُ ؛ بِحَيْثُ أَضْحَى لَدَى أَصْحَابِهِ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِيْمَانِ .

وَشَعْبُنَا آمَنَ بِكَرَامَةِ إِنْسَانِيَّتِهِ فَاسْتَحَقَّ الْخُلُودَ ، وَاحْتَلَّ مِنْ تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَّةِ صَفْحَةَ الذَّهَبِ مِنْ هَذَا الْوُجُودِ .

حَسَبْنَا أَنَّ تَارِيخَ هَذَا الشَّعْبِ قَدْ أَضْحَى نَفْعًا حُلُوءًا فِي فَمِ الدَّهْرِ يَنْفِيهِ فَيَطْرَبُ لَهُ الْكُونُ ، وَسَيُظَلُّ يَطْرَبُ مَا بَقِيَتْ مِصْرُ وَبَقِيَ فِي الدُّنْيَا مِنْ يَقْدَرُ تَارِيخَ مِصْرَ ؛ بَلْ إِلَى أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ فَتَبْدُلَ هَذِهِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ .

(١) أَنْظَرُ : ص ١٦ ، ١٧

ذلك كتاب كتبه كاتبه منذ خمسة وعشرين قرناً ؛ فأطلع الدنيا على كثير مما لم تكن تعرف من صور الحياة التي عاشها أسلافنا على ضفاف النيل . وإنما لصور — شهد الحق — مُشْرِقةً وضّاءةً ، ثم هي فوق ذلك مُشْرِقةٌ ترضينا وتسعدنا ، وتعطينا حقنا في اختيار مكاننا في الحياة دون أن نخمّرَ وجوهنا في طلبه .

وإذا كان « هردوت » قد ودع الدنيا إلى الآخرة ليلقى جزاءه بين يدي عالم الغيب والشهادة ؛ فإن من الحق علينا — نحن أبناء هذا الشعب الأمام البنّاء ، وخلفاء ذلك السلف الصالح الذي سبقنا إلى تعمير هذا الوطن ، والإسهام في تأدية رسالة النور والخير إلى العالم الإنساني كله — أن نذكر « هردوت » بالخير والشكر وعرفان الجليل ، وأن ندعو الله أن يغمره ببره ورحمته ، وأن يغفر له ما قد يكون وقع فيه من سوء بجهالة أو خطأ في التقدير ؛ فإله سبحانه وتعالى واسع المغفرة ، وهو الغفور الرحيم .

وبعد ، فأشهد أنني عَشِقتُ هذا الكتاب منذ عرفته قبل أكثر من ثلاثين عاماً ، ثم ازداد تعشقي إياه ؛ فأكبرتُ كاتبه ، وأخذت أعجب بقدرته ، وأذيع تصويبه كلما تَقَدَّمتُ في قراءة فصوله (١) بين يدي أستاذ من أساتذتي مضى إلى جوار ربه منذ أعوام ، وأعنى العالم البريطاني Waddell أستاذ الدراسات القديمة يومئذ .

كان ذلك أيام مرحلة الطلب في الجامعة المصرية (٢) . ولست أنسى مقدار فخرى واعتزازي بما وعيت يومئذ من فصول هذا الكتاب ، ولا مقدار أمانتي وحرصى على ما ادخرت في صدري من أحاديثه وأنا أمضى إلى أوروبا لطلب العلم في معاهدها . ولا مبلغ وفائي لتلك الذخيرة وفاء كان يلح على إلحاحاً شديداً

(١) انظر : ص ٢ هامش رقم ١ .

(٢) جامعة القاهرة الآن .

في العودة إلى معينها والرشف من قرآحه الصافي ما استطعت إلى ذلك سبيلا .
ولا ما ملأ نفسي من غبطة حين أكرمني الله فيسر على مهمتي بأن أتاح لي استكمال
متعق بالإفادة من هذا الكنز ، فأخذت أقرؤه مترجماً إلى بعض ما كنت
أعرف من لغات الغرب .

أذكر كل ذلك ولا أنساه ، وإن أنس لا أنس ، يوم تمت لي السعادة
بهذا الكنز أو كادت ؛ وذلك حين سعى إلى عالم عربي مصري شاب ، كنت
قد عرفته فألفته ، ثم توثقت صلتى به فأحببته . جاءني رحمه الله ذات يوم
يسعى على استحياء ، والكتاب الذي نتحدث عنه — مترجم بقلمه إلى العربية —
مطوى بيمينه . فلم يلبث أن نشره بين يدي ، وطلب إلي في حياء أن
أنظر فيه ، راجياً أن أجده من الوقت وفراغ البال ما يتيسر لي ذلك ، ويهد
لي السبيل إلى تحقيق فصوله (١) وتقدها وشرحها في ضوء ما قدّر — رحمه الله —
أن أعرف من تاريخ هذا الوطن .

وما كان أصدقه حين أنبأني أنه ليس بأول عربي نقل هذا التراث إلى
اللغة العربية ، وإنما سبقه إلى ذلك زميل كريم هو المرحوم الدكتور «وهيب كامل»
الذي مضى إلى جوار ربه بعد أن اختطفه الموت في عمر الزهر (٢) .

ترددت يومئذ كثيراً ؛ لأنني كنت أعرف ضعفي ، ثم عذت فقبلت لأنني
كنت أحب صاحبي كما كنت أحب الكتاب وأقدر صاحبه ، ولأن صاحبي
لم يسع إلي متطفلاً ، ولا راغباً في كسب مادي . ولست أذكر منذ عرفته أنه
سعى متطفلاً إلى أحد ؛ وإنما عرفت الناس يسعون إليه . ولا أذكر مطلقاً أنه
تهافت على صدارة بالرغم من غزارة علمه واتساع معارفه ؛ إذ كان يمنعه من ذلك
حياء نبيل واستعلاء كريم .

(١) إنها ليست فصولاً بالمعنى المعروف ولكنها أحاديث . وإنما أميهاها
كذلك في الشرح والتعليق تيسيراً على القارئ .

(٢) أنظر : كتابه « هيرودوت » في مصر (دار المعارف سنة ١٩٤٦) .

نعم ، هكذا والله كان صديقي ووالدي « محمد صقر خفاجة » ، وهكذا عرفته
فقدرته ، ثم ألفتها فأحببت عشرته ، ونعمت بها أياماً قصاراً كانت في حياتي
كأنضر أيام الربيع .

يرحمك الله يا بني الصديق ؛ لقد كنت في حياتي كنجم شاء الله
ألاَّ يُطْلَعَهُ إلا بقدر امتداد النظر إليه ، وارتداد الطرف عنه . نجم ما كاد يطلع
حتى أفل . فكانت فجيعتي فيك عظيمة .
أى بني وصديقي .

عرفتك مثالياً بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، تواق النفس إلى أعلى
مثال من الكمال ؛ ترى بينك وبين الكمال شقة واسعة تشعر دائماً بقصورك
وعجزك ، فاسأل الله العون والعزاء لصديقك الشيخ الذي يعلم من كفايتك
وباهر مواهبك ما لا يعلمه الكثيرون .

وإذا كان الموت قد فجعه فيك ؛ فإنه ظل وفيماً بعهديك ، أميناً على تراثك ،
قرأ الترجمة التي حَظَّطَهَا بيمينك مرة ومرات ، وقرأ غيرها أكثر من مرة .
ثم رأى أنه لا ينبغي لمثله أن يغير في الترجمة أو يبدل ، وإنما سعى ما قد رعى السعي ،
وبذل ما وسعه البذل ؛ فحقق ونقد وشرح في ضوء ما قدّر أنه يعرف من تاريخ
هذا الوطن ، ثم رأى أن يطمئن إلى نتيجة ذلك ؛ فقصده إلى رحاب أستاذه
وأستاذك « طه حسين » غير مرة ، وقرأ عليه ما سطر في مقدمة الكتاب ،
وما رأى في بعض فصوله ، كما سعى إلى أستاذه « شارل كوتنر » فقرأ عليه
الكتاب كله ليطمئن قلبه ؛ كل ذلك قبل أن يسعى بالكتاب إلى المطبعة .

فإلى هذين الصديقين الكريمين ، وإليك أيها الإبن البار العالم المتواضع
أتقدم بأصدق الشكر وأجمله وأوفاه ، راجياً أن يجد القراء في تراثك هذا أكثر
ما كانوا يبتغون من علم ومعرفة وثقافة .

وعلى الله قصد السبيل

أحمد بروي

أبو التاريخ « هردوت »

« ملأ الدنيا وشغل الناس » ١

فأما أنه « أبو التاريخ » (أى إمام كتّاب التاريخ) ؛ فذلك رأى رآه
الناس منذ نظروا فى تراثه وقلّبوا فيه . ولا حيلة لنا فيما رأى الناس
أو اصطّلحوا عليه . وتلك كسنية لم تعرف لواحد من قبله ولا من بعده .
وستظل له ما بقى التاريخ وبقى فى الدنيا من يقرأ التاريخ أو يكتب فيه .

وأما أنه « ملأ الدنيا وشغل الناس » ، فذلك رأى — إن رأيتُه اليوم فيه ،
وصفة إن استعرتها اليوم له — فما أحسبني قد ظلمت « المتنبي » أو تجنّيتُ عليه .
فالمتنبي شاعر فحل وقادر فذ ؛ لا خلاف فى ذلك ولا جدال فيه . إلا أنه
— مهما تكن فحولته بين شعراء العرب ؛ بل مهما تكن قيمته بين شعراء الدنيا ،
ومهما يكن له من بعد الصيت واتساع الشهرة بين أجيال الشعراء وطبقاتهم —
لا يمكن أن يبلغ من القيمة فى تاريخ الإنسانية ما بلغ « هردوت » ؛ ذلك لأن
أثر « المتنبي » لا يكاد يهز غير قرائه من العرب ، ولا يكاد يجاوز البيئة العربية .
فأما تراث « هردوت » فلم يكن — ولن يكون — ملكاً لشعب من
الشعوب ، وإنما هو مشاع مشترك بين شعوب الدنيا فى الشرق والغرب .

فإذا قلت إن « هردوت » قد « ملأ الدنيا وشغل الناس » ، فما أحسبني
شططت ، ولا جاوزت الصواب ؛ فما أكثر ما ردّدت الأيام اسم « هردوت » ،
وما أكثر ما ستردّدته ، وما أكثر ما نظر الناس فى تراثه وما سينظرون ،

وماً أكثر ما كتبوا عنه ، وماسيكيتيون^(١) ، وماً أكثر ما جادلوا
 (١) بدأ الاهتمام بتراث هردوت ، وبخاصة كتابه الثاني ، بعد ذلك الكشف
 الخطير الذى لفت أنظار الدنيا بين أيدي رجال الحملة الفرنسية ، وأعنى تلك الوثيقة
 التى يسمونها « حجر رشيد » والتى عُدَّتْ بحق مفتاح الدراسات الفرعونية .
 كان الذين ينظرون فى دراسة هذه الوثيقة يعرفون كتاب هردوت المشار إليه وجزءاً
 من كتابه الثالث ، ويعرفون فضلاً عن ذلك بمحنيين : أحدهما ذلك الذى أخرجه المواطن
 المصرى الذى ماش فى النصف الثانى من القرن الخامس وأعنى « Horapollon » انظر :
 (Hori Apollinis Hieroglyphica ed. Francesco Sbordone, Napoli, 1940)
 وحاول فيه تفسير الأشارات الهيروغليفية .

وثانيهما ذلك الكتاب الذى أخرجه أحد الآباء اليسوعيين ويدعى « Athanasius
 Kircher » واسمها Sphinx mystagoga 1676 انظر : (Erman, Entzifferungen)
 der Hierogl. Sitz. Bericht. Berl. Akad. 1922) . نعم كان هذان
 الباحثان ومن قبلهما كتاب هردوت الثانى وجزء من الثالث من البحوث
 المعروفة لدى المعنيين من رجال الحملة الفرنسية ومن اهتم بدهم بدراسة
 « حجر رشيد » . وقبل أيام الحملة لم يكن من السهل على المعنيين بتلك
 الدراسات أن يزوروا آثار مصر . لا نكاد نذكر منهم غير مستشرق ديناركي
 يدعى Niebuhr الذى استطاع زيارة مصر فى عام ١٧٦١ انظر :
 (Erman, Die Welt am Nil, (Leipzig 1936) S. 11)

ولا يفوتنا أن نذكر أن أول العلماء المحدثين الذين اهتموا بدراسة كتاب
 هردوت عن مصر وتدرسه للطلاب فى جامعة Thuring قد كان العالم
 الألمانى Friedrich Andria Stroth ، وكان ذلك فى الربع الأخير من القرن
 الثامن عشر . إلا أن جهود هذا الأخير لم يُنظر فيها إلا بعد ظهور « شامبليون »
 ومن جاء بعده من العلماء أمثال Lepsius ، Brugsch ، ثم Erman . وتتابعت
 دراسات المؤرخين الذين نظروا فى هذا الكتاب ، وكان أول بحث صدر فى ضوء التراث
 الفرعونى ، هو ذلك البحث الذى أخرجه المؤرخ الألمانى Alfred Wiedemann
 انظر : (Wiedemann, Herodots Zweites Buch mit sachlichen Erläuterungen Leipzig 1890)
 .والذى يقرأ هذا البحث ، يشعر فى سهولة
 ويسر أن كاتبه شديد الميل إلى عدم تصديق هردوت فى كثير مما روى عن
 مصر والمصريين .

فيه ، واختلفوا في أمره . وما أظن أن جدلهم فيه واختلافهم في الحكم على ترائه قد انتهى ؛ بل ما أظن أنهم سوف ينتهون من ذلك في وقت قريب .

إن الناس ما زالوا في شأنه فريقين : فريق له وفريق عليه (١) .

على أن اختلافهم هذا ، لم ينضّ مطلقاً من شهرته ، ولم ينقص ولن ينقص أبداً من قدره ؛ فهو بين الناس دائماً « أبو التاريخ » ؛ وبين المؤرخين إمام خالد ، ومثل غير مسبوق .

(١) من الذين انصفوا هردوت :

(١) العالم الألماني G. Mueller في بحث قام به عام ١٩٢٠ ثم توفي عنه ، ويعد الآن للنشر عالم ألماني شاب اسمه Luddeckens .

(٢) العالم الألماني W. Spiegelberg (أنظر : Spiegelberg, Die Glaubwuerdigkeit von Herodots Bericht ueber Aegypten)

(٣) وأخيراً العالم البلجيكي De Meulenaere في بحثه الذي نشره عام ١٩٥١

انظر : (De Meulenaere, Herodotus over de 26^{te} Dyn. Leuven 1951)

ومن الذين أثاروا الشك فيما كتب ؛ ففسوا عليه وغضوا من أماته :

(١) العالم الألماني « Wiedemann » الذي تقدم ذكره .

(٢) العالم البريطاني « Sayce » في كتابه « امبراطوريات الشرق القديمة » الذي

صدر في لندن عام ١٨٨٣ .

(٣) « Heidel » انظر : (William Arthur Heidel, Hecataeus & the egyptian priests in H. Book II

(Memoirs of the American Academy of Arts & Sciences

Vol. XVIII, part 2, (Boston 1935, p. 113 ff.)

(٤) وأخيراً العالم السويدي « Saeve — Soederberg »

انظر : (Soederberg, Zu den Aethiopischen Episoden bei Herodot, in Eranos 44, (1946) S. 68 — 80)

والعجيب من أمر ذلك الذى ملأ الدنيا بحق ، وشغل الناس بحق ، أنه لم يملأها بغير تراثه العقلى العظيم ، ولم يشغل الناس بغير ذلك التراث . ولا أدلّ على ذلك من أن حياته الخاصة مازالت مجهولة لا نكاد نعرف عنها غير القليل .

اسم ونسب

فإذا ما عرضنا حياته العامة ، ذكرنا اسمه « هردوت » « *Hērōdotos* » . وهو فى الغالب من الأسماء المركبة ؛ فهو مركب من صدر وعجز ، صدره « هيرا » معبودة الأغريق المعروفة ، وعجزه « دوت » أو « دوتا » من مادة فعل « أهدي » أو « أعطى » ؛ فإذا الاسم من بعد ذلك يساوى عندنا « هديّة هيرا » أو « عطاء هيرا » ، مثله فى ذلك مثل « عطاء الله » فى اللغة العربية . واسم أبيه « *Λύκος* » ، واسم أمه « *Ἀρπύ* » .

مولده ونسأته

وُلِدَ « هردوت » فى « هاليكارناسوس » من مدائن الرُّكن الجنوبي الغربى من آسية الصغرى (١) . ويختلف الباحثون فى تحديد تاريخ مولده ؛ فمنهم من يجعله حوالى عام ٤٨٩ ق . م ، ومنهم من يجعله بعد ذلك بخمسة أعوام . إلا أنهم يتفقون آخر الأمر على أنه لم يكن مجهول النسب . وهو نفسه يكاد يشير إلى هذا فى تواضع ومن طرف خفى ؛ وذلك حين يتحدث فى الفصل الثالث والأربعين بعد المئة من كتابه الثانى فى معرض الكلام عن نسب سلفه « هيكانيه الملطى » .

(١) اسمها الحديث « Budrun » . وموقعها فى إقليم « كاريا »

كانت أسرة « هردوت » معروفةً ، موسرةً غير مُعسرة ، مؤثرةً في توجيه السياسة التي كانت تهدف يومئذ إلى الحرية والخلاص من ظلم الطغاة .
فهذا عم له أو خال يدعى « بانياس » ، كان من الشعراء المعروفين المجيدين كما كان زعيم الحركة القومية التي هبَّت ثورتها لتحرير وطنه من حكم الطاغية « لجداموس الثاني » . وما نحسب أن ذلك كله قد وقع دون أن يؤثر في حياة « هردوت » ؛ فهو قد نشأ إذن في بيئة حبَّبت إليه الثقافة والمعرفة ، ورغبتَه في الاستزادة منهما ؛ فأكب صبيّاً على قراءة الأدب عامة ، وقراءة ما كان منه شعراً بخاصة .

وما من شك في أن أسرة هردوت الفتى — بمشاركتها في أحداث السياسة — قد تعرّضت لألوان من المحن التي أثّرت في حياته ؛ وقد كان مشاركاً فيها ولمّا يبلغ العشرين من سِنِّها ؛ فأثر الهجرة ينشُد الحرية ويسعى في سبيل الوصول إليها .

ويكاد من يقرأ تراثه يتبيّن فيه ميله إلى الديمقراطية بمعناها المعروف يومئذ ، وبفضّه للطنين وأهله .

هاجر الفتى إلى « ساموس » وهي يومئذ عامرة بالصناعة ، مزدهرة بالتجارة ، غنية واسعة الفتى ، كما كانت فضلاً عن ذلك كله مركزاً للثقافة أيام « Πολυκράτης » ، وكانت — حين وصل إليها هردوت — قد فازت باسترداد حريتها ؛ فأقام فيها حتى هبَّت له الظروف أن يبدأ أسفاره التي أتاحَت له أن يسمع ويرى ويسأل ويناقش ويفكر ويُفيد من كل ذلك ، ثم يعود آخر الأمر فيسجّل ذلك السُفر الضخم الذي ضيّنَ لاسمه الخلود في دنيا المؤرخين على الأقل .

وليس من المؤكد ما يراه بعض المؤرخين من أن « هردوت » قد عاد إلى وطنه ليشترك في أحداث السياسة مرة أخرى ؛ بل أكبر الظن أنه بقي في « ساموس » حتى بدأ رحلاته . وليس من المؤكد كذلك أنه تعرّض للاضطهاد فاضطر إلى رحلاته تلك ؛ ذلك لأن فكرة السفر والتنقل في أقطار الأرض لم تكن يومئذ ، ولا قبلئذ ، بالشئ الجديد على الأغريق . ولم يكن « هردوت » أسبق الرحّالين ؛ فقد سبقه في هذا المضمار كثيرون يكفي أن نذكر منهم على سبيل المثال « هكاتيه الملطي » .

فأسفار « هردوت » إذن لم تجيء عفواً ، ولا هرباً من ظلم ، أو ضيقاً بعيش ؛ وإنما جاءت بعد تفكير وتدبير . وأحسب أنه كان مُعدّاً لها إعداداً قوياً ؛ كان معدّاً بحكم ثقافته الواسعة ومعرفته الغنيّة ، ثم بشدة ميل معاصريه وألوان اتجاههم الفكريّ يومئذ . وأحسب كذلك أنه زوّد نفسه لأسفاره تلك ؛ مقدّراً ما قد يلقى فيها من مشقة وعسر ، وأنه استطاع — بعزمته ، وقوة إرادته ، واستعداده الذهني ، وثقته بنفسه ، وإيمانه بما تفيد أمته — نتائج أسفاره — أن يردّ عن نفسه المخاوف ، ويهونَ عليها الصعاب ، ويذلّ أمامها العقبات . وقد تم له كل ذلك فوق في أكثر ما طلب .

وحين أحسَّ « هردوت » بضخامة ما اجتمع بين يديه من تراث ، عكف على التدوين ، واستطاع أن يترك للأجيال تراثاً — مهما يختلف الناس في الحكم عليه — يعدُّ وحدة متّصلة وبناء قوياً لم يهدمه الزمن ؛ وإنما بقي ثابتاً كالطود الشاخ الأشم لا يتزعزع . ثم هو موردٌ عذب لم ينصرف عنه — رغم طول الزمن — واردٌ إلى يومنا هذا . وأحسب أنه سيظل كذلك دهرًا طويلاً .

سمّى « هردوت » كتابه « *ἱστορίας ἀπόδειξις* » « تمحيص الأخبار »

فكلمة « *ἱστορίη* » اليونانية و« *HISTORIA* » اللاتينية معناها «الفحص» أو «البحث» ؛ فكأنَّ المعنى إذن ينصبُّ على خاصَّتين من خواص الفكر الإغريقي في ذلك الوقت وهما :

الرؤية (= المشاهدة) ، ثم التساؤل (= الاستفهام) .

وهاتان خاصَّتان من الخصائص المميَّزة للروح اليوناني منذ أيام القرنين السابع والسادس قبل ميلاد المسيح ؛ ونعني ذلك الروح الذي أخذ يُحرِّك الفكر عند اليونان ، ويوجِّهه نحو أوطان الحضارات القديمة ؛ فنراه يتجهون إلى أقاليم آسية ، ويركبون البحر إلى شمال إفريقيا ؛ فينتشرون في مختلف بقاع الأرض بهاتين القارتين ؛ يصفون طبيعتها ، ويتحدثون عن مزاياها ، وعن كنوزها وأرزاقها ، ويتحسَّسون من أممها وشعوبها وقبائلها ؛ يحاولين فهم طبائعهم ، وأهوائهم ، وأصول عقائدهم . وكانوا في كل أولئك ينصيِّدون ، ويدوِّنون ، ويقيدون ؛ ملتسمين ما يؤمنون أنه يُشبع رغبتهم في العلم ، ويرضى في نفوسهم حاجتهم المُلِحَّة إلى المعرفة ، محيطين صَوَّرَ كلَّ أولئك بإطار يُوشيه الخيال . فإذا ما عادوا إلى وطنهم أفرغوا عبايهم الثقيلة ، وجعابهم المترعة بين أيدي قومهم ، ثم عرضوها في معرض شائق يثير الإعجاب ، ويُبهر الأبصار ؛ ثم يهزُّ النفوس فيحركها إلى تلك البقاع الغنيَّة بأرزاقها وحضاراتها ، وعلومها ، ومعارفها ، وطرافة ما يمارس أهلها من ألوان الحياة ، وغرائب التقاليد .

مثل هذا النحو الذي يهدف إلى جمع ذلك المزيج المختلط من ألوان المعرفة من جغرافيٍّ ، وتاريخيٍّ ، ودينيٍّ ، وقصصيٍّ ، هو تحوُّ يوناني أصيل ؛ نحاه أصحابه مغترضين ثم داروا به حول محور وطنيٍّ واضح ؛ ونعني تاريخ الحروب

وحوادثها ؛ الحروب والوقائع والحوادث التي أجرتّها الظروف بين آسية وبلاد اليونان ، وشقى اليونان بأحداثها وعواقبها ، وصمدوا لشدتها ، وصبروا على أذاها حتى خرجوا منها آخر الأمر بعافية مهما يكن من أمر فإن . ذلك النحو الذي قدمنا في إيجاز وجيز ، هو با كورة التاريخ المكتوب على كل حال .

وواضح من تاريخ « هردوت » أنه زار كثيراً من أقاليم الدنيا في آسية وإفريقية — وهما أقدم قارتين ؛ بل أقدم وطنين من أوطان الحضارات الإنسانية — ثم في أوربة أيضاً . ولكن مسيرته في أسفاره تلك غير واضحة المنهج . وليس من السهل علينا أن نرتب أسفاره ترتيباً تتابعياً .

وكل مانعرف ، أن « هردوت » حين انتهى من أسفاره توجه تلقاء THURII إحدى المدائن الواقعة في الجنوب من إيطاليا ، وكان ذلك حوالي عام ٤٤٤ قبل مولد المسيح . وأقام هناك حتى أدركه الموت ؛ فودّع دنياه حوالي عام ٤٢٥ ق.م . ودُفِنَ في سوق المدينة (١) . ولشدة حبه تلك المدينة ، وتعلقه بها ، وطول إقامته فيها ، ثم لموته آخر الأمر بها ، نسبة بعض المؤرخين إليها فأسموه أحياناً « هردوت الثوري » . وفي تلك المدينة عكف « هردوت » على كتابة سفره الضخم ، إلا أن الموت أدركه قبل أن يتمّه . والكتاب في صورته التي نعرفها من حيث وضعه في أجزاء تسعة ، من عمل النحويين السكندريين ؛ كل جزء منها لإحدى

(١) الواقع أن المؤرخين لا يعرفون كيف يحدّدون تاريخ وفاته تحديداً مضبوطاً ، ولكنهم يستنتجون استنتاجاً ، ويقرّبونه تقريباً ؛ فيجعلونه في أواخر الربع الأخير من القرن الخامس ق . م .

عرائس العلوم والفنون من بنات « زيوس » التسع . فأما « هردوت » فقد كان عندما يشير إلى أجزاء كتابه لا يسميها بغير عبارات عامة كالأحاديث اليبية ، أو الروايات الآشورية . . . الخ وهلم جرا .

والكتاب في جملة وُوحده إنما يدور — كما قدّمنا — حول محور واحد وهو تاريخ الحروب والوقائع التي جرت بين قومه الهلّينيين الأوربيين وبين أعدائهم من الفرس الآسيويين .

وقوم « هردوت » في نظره أبطال أمجاد نبلاء ، استطاعوا — على قلة عددهم ، وبفضل شجاعتهم ، ونبل مشاعرهم ، وحيد سلوكهم ، وتأيد أربابهم — أن يتّجّوا أوطانهم من هوان الاستعباد ومذلة الرّق (١) .

وكتاب « هردوت » لم يوضع عفواً ، ولا ارتجالاً ، وإنما فيه مقصد واضح ؛ جعل له وحدة ظاهرة ؛ هي أنه أورد قومه الأغريق أعق وأعذب معين يرتشفون منه ما يروى عنهم من مختلف ألوان المعرفة التي ترضيهم من وصف أوطان الأرض ، وخصائص الشعوب التي تسكنها برغم ما فيه من تلك الصور التي حشاها بين صحائفه من ملاحم الأبطال ، والاستطراد في سرد الحوادث ، ثم من تلك الأوصاف الجغرافية والصور التاريخية والقصصية (٢) .

وليس من شك — كما قدّمنا — في أن النحو الذي نجاه « هردوت » في وضع كتابه هذا نحو قديم ؛ وأنه لم يكن وفقاً عليه ، وإنما ألفه قومه من قبل ، واتّبعه أمثاله ممن جاءوا بعده .

(١) انظر (Heubeck, Das Nationalbewusstsein des H. 1936.)

(٢) انظر الكتاب الأول (فصل ١٨٦) والكتاب الرابع (فصل ١٩)

من كتب هردوت .

وظاهر في تراث « هردوت » ، أن معارفه وثقافته الإغريقية قد لوّنت أسلوبه في وضع كتابه بلون خاص ؛ فهو متأثر أشد التأثر بشعر الملاحم «ملاحم الأبطال» ؛ ذلك الشعر الذي شاع بين القرنين الثالث عشر والحادي عشر قبل مولد المسيح . ثم هو متأثر أشد التأثر بفن القصص المنثور الذي حلّ محلّ القصص المنظوم في بلاد اليونان أيام القرنين الثامن والسابع قبل مولد المسيح . وهو متأثر آخر الأمر بمذهب السوفسطائيين وحركاتهم التي عمّت بلاد اليونان أيام القرن الخامس قبل مولد المسيح ؛ ونعني تلك الحركة التي قيل إنها أيقظت الناس من سبات الفكر ، والرُّكون إلى التقاليد المألوفة ، والعادات الجارية ، والتي أيقظت في نفوسهم الشك النظريّ والشك العملي ؛ كما أدّت لديهم إلى خلق ملكة أدبيّة وذوق في النقد لم يكن للناس بهما عهد من قبل .

ولكن هذه الحركة — على الرغم من الوصف الذي قدمنا — قد « جرّت أنصارها إلى المتاجرة بالعلم ؛ فقلّت مبالأهم بالحقائق ، وباعدت بينهم وبين روح البحث النزيه المقرون بالأمانة ، المبرأ من الغرض والهوى ، كما أضعفت فيهم روح الصبر على تحريّ الحقائق المجردة . ثم هي بعد هذا كله قد جرّت بهم وراء شقشقة اللسان ؛ بحيث ضعفت لديهم العناية بالإقناع ؛ فباتوا منصرفين عن المعرفة الآمنة ، والبحث عن الحقيقة ، كما مالت بهم إلى المظهر ؛ فأصبحوا مشغوفين بالأثر الخارجى ، كلفين بالمنافع العاجلة » (١) .

(١) أدین بما أعرف عن هذا المذهب لزمیلی وصدیقی الدكتور « عثمان أمين » رئيس قسم الفلسفة بجامعة القاهرة ، كما وصفه في كتابه المُنتع « شخصيات ومذاهب فلسفية » .

ترى هل نستطيع بعد هذا أن نغنى « هردوت » من آثار ذلك ؟

في رأينا أن الحكم على ذلك لن يصح إلا إذا استعرضنا كُتبه التسعة وقلبنا فيها . وما نظن أن ذلك ممكن في هذه المقدمة التي قُصد بها إلى النظر في واحد من تلك الكتب ؛ ونغنى « كتابه الثانى » الذى حدّثنا فيه عن رحلته إلى مصر .

ثم إن تراث « هردوت » ، ونغنى كتابه كله ، قد ظلّ دهرًا موضع جدل طويل ؛ شغل النقّاد من القدماء والمحدثين ، فتجادلوا في الغرض منه وتساءلوا ؛ أراد به صاحبه أن يكون مدوّنة لتاريخ من عرف من شعوب الدنيا ، أم قصد به إلى أن يكون سجلًا لبعض الحوادث والأوصاف العامة التى رأى أنها تُرضى حاجة المشغوفين من قومه بالمعرفة ؟

لم يفت النقّاد بحث المراجع التى اعتمد عليها « هردوت » واستمد منها معارفه ، وتشكك بعضهم في قيمة عمله ؛ بل إن منهم من اتهمه صراحة بالسرقة والانتحال والكذب ، وعلى رأس الذين اتهموه من القدماء « بولوتارخ » الذى رماه بالخبث^(١) ، ثم THUCYDIDES . ومن المحدثين الناقد البريطانى SAYCE فى كتابه الذى أخرجه عام ١٨٨٣ بعنوان « إمبراطوريات الشرق القديم » وحاول فيه أن يُثبت جهل « هردوت » وعجزه عن إدراك الحقائق ، كما اتهمه بأنه كان ينقل عن سبقوه دون الإشارة إليهم^(٢) .

وعلى الرغم من كل ذلك ، مكّن الزمن لهردوت أن يكسب في عالم المؤرخين كثيرين من الأنصار والمعجبين والمريدين ، والمقلّدين أيضًا .

(١) إن لپولوتارخ في هذا مقالاً خصصه للتدليل على خبث هردوت .

(٢) انظر ماسبق من حديث عن كانوا له وعمن كانوا عليه (ص ١١ هامش رقم ١)

واستحق كتابه أن يكون كتاب الدهر الخالد الذي لا يهرم ولا يشيخ .

وقد يكون من الخير في هذه العجالة أن نكتفي الآن بنظرة سريعة في أقرب كتبه إلينا ، وأثرها عندنا ؛ ونعني « كتابه الثاني » الذي اختص به وطننا المصري الحبيب وشعبنا العظيم البناء .

وهو كتاب لا يفوت من يقرؤه — على مكث — أمران :

الأول : أن « هردوت » لم يترك فرصة تمر — وهو يعرض ما سمع ورأى في هذا الوطن — دون أن يعبر عن إعجابه الشديد بالمصريين ، ودون أن يُشيد بتفوقهم وعظمتهم وسبقهم في ميادين العلوم والمعارف . ثم هو يمتدح فضائلهم ، ويستريح إلى تقواهم ، ونزاهتهم ، ويُثبت لهم الفضل في الكشف عن كثير من العلوم والمعارف التي أفادت منها الإنسانية عامة ، وأفاد منها قومه الإغريق خاصة . وربما كان ذلك مما أسخط عليه « بولتارخ » فاتهمه بأنه صديق للبرابرة (١) .

والأمر الثاني : الذي يلفت نظر من يقرأ الكتاب ، هو الحذر الشديد ، والحيلة البالغة عند الكلام عن دين المصريين . وحسبنا أن المؤلف قد ذكر في صراحة أنه لا يتكلم عن الدين إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطرارا (٢) .

أيسكون مصدر حذره احترامه البالغ للأديان ؟ أم هي لباقة الرجل حين أحس أن الكلام عن الدين قد يؤدي عواطف المصريين وينفرهم منه ؟

أكاد أشعر أن سبب الحذر والحرص قد كان شيئاً مرجعه إلى الجهل بأمور الدين ، وأن الرجل أراد بسلوكه هذا أن يُخفي جهله ؛ فأقامته القصيرة

(١) انظر : ص ١٩

(٢) انظر الفصول (٣ ، ١٢٠ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٥١ ، ١٥٥) من كتابه الثاني

في مصر ما كانت لتتيح له — ولو طالت — أن يُذكر من أمور هذا الدين القديم العتيق المعقد كثيراً ولا قليلاً^(١).

ولنا لنعجب أشدَّ العجب — ولا ندري كيف نستطيع تصديقه حين يزعم في الفصل التاسع والتسعين من هذا الكتاب — أن كلَّ ما ورد فيه إنما هو نتيجة ملاحظاته الشخصية ، ومشاهداته ، وبحوثه الخاصة . مع أن إقامته في مصر لم تجاوز في الغالب أربعة أشهر^(٢) .

افتتح هردوت كتابه عن مصر بحملة « قبيز » عليها ، ثم خلص من ذلك — مستطرداً — إلى الحديث عن طبيعة أرض مصر ، فتحدث عن مائها ، وهوائها ، ثم تحدث عن أصل سكانها وتقاليدهم ، وعن طعامهم وشرابهم ولباسهم ، ثم عن حيوانهم أيضاً . وأضاف إلى كل ذلك ما زعم أنه رأى وسمع ولاحظ في البلاد أثناء إقامته فيها .

ويعدُّ كتابه هذا ملحمةً طريفةً مختلفة الألوان ؛ جمع عناصر نسجها من كل ما زعم أنه رأى وسمع ، ثم حشا بين طياتها ألواناً مختلفة من معارفه اليونانية ، ووشى إطار صورها بكثير مما سمع من الشعب عن حياة السلف من ملوك مصر وحكامها .

(١) وعلى الرغم من كل ذلك ، لا يجد أكثر علماء الدراسات المصرية مناصاً من تصديق « هردوت » في أكثر ما روى عن الشعائر الدينية .

(انظر : Erman, Relig. d. Aeg. S. 331 ff.)

(٢) يكاد المؤرخون المحدثون وفي — مقدمتهم Ed. Meyer — ينفقون على أن

الزيارة وقمت حوالي عام ٤٤٠ ق . م ، وعلى أنها كانت في أيام الفيضان .

(انظر : Ed. Meyer, Forschungen zur alten Gesch. I, (1892) S. 156)

ثم Sourdille, C. La durée et l'étendue du Voyage d'Hérodote en Egypte, Paris 1910)

لقد كانت مصر يومئذ وقبلئذ مطمح أنظار الإغريق ؛ يرونها من أغنى موارد الرزق ومهدا لأعرق الحضارات ، ويمدّون أنفسهم إليها مدّاً قوياً .

وظاهر من أحاديث « هردوت » أنه بذل غاية الجهد في أن يحمل إلى قومه صورة صادقة من طبيعة هذه الأرض ومعالمها ، ومشاهداتها ، وأوصافها ، وطبائع سكّانها ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، وخصائصهم ، وسير حكّامهم ؛ نعم فعل ذلك ليرضى في قومه حاجة ملحة إلى العلم والمعرفة .

ثم هو قد ذكر في مطلع كتابه أن حديثه عن مصر سيطول ؛ نظرا لكثرة ما تحمل أرضها من عجائب المخلوقات ، ومن البsdائع والروائع في سائر الفنون والصناعات . وكان « هيكاتييه الملطي » قد سبقه إلى زيارة هذه الأرض وحمل إلى قومه كلاماً لم يرض « هردوت » عن أكثره كما أشار في مواضع مختلفة (١) . فرأى أن من واجبه أن يتحرّى الحقيقة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ليعوّض قومه ما فوّته عليهم سلفه « هيكاتييه » .

ويتشكك بعض النقاد فيما روى « هردوت » . بل إن منهم من استطاع أن يثبت سطوه على تراث السلف من الكتّاب (٢) . كل ذلك يحملنا اليوم على اتهام « هردوت » في أمانيته (٣) ، وسوء الظن في قصده ، والشك في أمره .

(١) انظر : الفصول ، ٢١، ٦٨، ٧١، ٧٧، ١٤٣ ، ثم ١٥٦ من الكتاب الثاني

(٢) (انظر : Jacoby, Hekataios (Pauly - Wissowa, Sp. 2675 ff.

(٣) ليس بين المؤرخين والكتّاب في كافة ألوان العلوم والفنون والمعرفة من لم ينتفع بعلم من تقدموه في البحث ، ولا ضير مطلقاً على من يقتبس من جهود من تقدموه بشرط أن يكون أمينا في الاقتباس ، بل أمينا في النقل ؛ بحيث ينسب الفضل إلى أهله .

ولا بأس علينا في أن نشك — على ضوء ما نعرف من حال مصر يومئذ ،
وتَطَّلَعُ الإغريق إليها — في أن كتابه هذا قد كان تذكرة لقومه ، وإغراء لهم
بالتطلع إلى هذا الوطن المصري الغني المترف ، وإرهاصاً بشيئة القدر السياسي
الذي قد يحقق للإغريق بعد ذلك ما كانت تنطوي عليه صدورهم من الطمع
في كنوز هذا الوطن ، والتمتع بخيره الذي صورّه لهم « هردوت » جَنِيًّا
سهل المنال (١) .

يضم كتاب « هردوت » عن مصر بابين عظيمين ؛ يتناول أولهما الحديث
عن أرض مصر وطبيعتها الغنية السمحة ، وخصائص شعبها ؛ مدّعياً أنه اعتمد
في ذلك على مشاهداته وآرائه الخاصة . ويتناول الثاني الحديث عن تاريخ من
اشتهروا من فراعين الوادي وأعمالهم ؛ زاعماً أنه اعتمد في ذلك على رواية
الثقات من كهّان البلاد ؛ وهم يومئذ وقبلئذ أهل العلم والمعرفة وأصحاب الثقافة
الواسعة والغنية المترفة في آن معا (٢) .

أطال « هردوت » وأسهب واستطرد حين تحدث في الباب الأول عن
أرض مصر ، وتكوينها الطبيعي وحدودها (٣) ، ثم عن النيل وما راعه من
طبيعته وأثره في تكوين هذه الأرض وتلوينها ، وتشكيل طبيعتها ، وتكييف
حياة أهلها ، وعن فضل هذا النهر عليهم ، ثم عن عقيدتهم فيه . ثم تحدث عن
فيضانه السنوي وروعته ، وعن منابعه ومصبّاته ، ثم عن فروعهِ أيضاً .

(١) الله يشهد أن الشك لم يثر في نفسى بالنسبة لهردوت وحده ، ولكن
بالنسبة لكثيرين غيره ، وقد يكون سبب ذلك هو طول النظر في تاريخ وطني
الطويل ، وما حانى أسلافنا ومانينا نحن من غدر المستعمرين قديماً وحديثاً .

(٢) انظر : Heidel, Hecataeus & the Eg. priestes in H. Book II
p. 53 — 134

(٣) انظر : الفصول : ٦٤٥ ، ٧٤ ، ٨٤ ، ٩٤ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١٨ من كتابه الثاني .

وتحدث عن أوجه الشبه أو الخلاف بين طبيعة ذلك النهر وطبيعة الأنهار في بلاد الإغريق^(١). ثم عاد ففصل الحديث عن تقاليد الناس وعاداتهم وبعض عقائدهم، وبخاصة ما اتصل منها بالموت؛ كطرق التحنيط والدفن وكل ما يتصل بذلك من شعائر. ولم ينس في كل أولئك أن يتحدث عن تقديمهم في العلوم التي بزوا بها شعوب الدنيا، ودور عبادتهم وما ضمت عمائرهما الرائعة من قصور ومسلات، ومن تماثيل وصور ومحاريب، ومن كنوز رائعة. وتحدث عن الأهرام، وعن قصر التيه «اللابيرنت»، وعن القناة التي تصل ما بين النيل والبحر الأحمر، وعن بحيرة «موريس» وعظمتها، وعن قيمتها وأثرها في حياة البلاد الزراعية والاقتصادية.

كل أولئك أشياء وصفها «هردوت». وليس من الإنصاف أن ننكر عليه فضله في ذلك. جزاه الله — برغم كل شيء، وبرغم كل ظن — عن هذا الوطن وشعبه خيرا.

كيف تمت رحلته إلى مصر

الغالب أن يكون الرجل قد ركب إلى مصر إحدى سفائن التجارة الإغريقية التي حملته إلى «نوكراتيس»؛ وكانت يومئذ مركزاً من مراكز التجارة الإغريقية الهامة^(٢)، ثم تولى عنها فزار أقاليم الدلتا، ثم غادرها مصعباً في النهر لزيارة أقاليم الوادي؛ فلم يزل حتى بلغ أقصى حدوده الجنوبية من وراء أسوان^(٣).

(١) انظر: (فصل ١٩، ٣٤ من كتابه الثاني).

(٢) انظر: (الفصل ١٧٨ وما بعده من الكتاب الثاني).

(٣) يرى بعض النقاد أن «هردوت» لم تستد إقامة في مصر أرض الدلتا وواحة الفيوم.

(انظر Heidelberg, ibd. p 55). ولكننا لا نعتقد أن هذا الرأي يقوم على أساس

قوى؛ فن المرجح أن «هردوت» زار صعيد الوادي، وإن كانت إقامته فيه لم تطل.

وكان يقيس مراحل انتقاله بحساب الأيام (١) . كما زعم أنه لقي في سفره هذا كثيرين من أهل البلاد ، فتحدث إليهم ، وسمع منهم . وتلك مسألة فيها نظر ؛ ذلك لأنه لم يكن يعرف لغتهم (٢) ، وإنما كان يستعين بالأغارقة الذين كانوا يقيمون في مصر من ناحية ، ثم بالأدلاء والتراجمة الذين كانوا يلقون الغرباء ويصحبونهم في زياراتهم مشاهد البلاد وعجائبها ومعابدها من ناحية أخرى (٣) .

تاريخ الرمد

تمت الرحلة في القرن الخامس قبل مولد المسيح ، ومصر يومئذ تحت حكم الفرس ، وعادات أهلها وخصائصهم وتقاليدهم ومظاهر حياتهم باقية كما كانت لم يغير منها الاحتلال الفارسي إلا بمقدار (٤) .

(١) انظر : حديثه عن ذلك في الفصول (٥٨ ، ٩٩ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ١٣١) من كتابه الثاني .

(٢) نحب أن نقرر — إنصافاً للحق — أنه على الرغم من أن « هردوت » لم يكن يعرف لسان المصريين ، وعلى الرغم مما وجد في تفكير المصريين وسائر ألوان حياتهم من غرائب ، فإن قومه الإغريق قد أفادوا من الحقائق التي وردت في تراجمه ، كما أفاد منها القراء المحدثون أيضاً .

(٣) ما أكثر ما خدع المؤرخون بين أيدي التراجمة كما يُخدع السائحون اليوم ، وما أكثر ما ظهرت بساطة هردوت حين صدق ما سمع منهم ؛ ومن أمثلة ذلك ما جاء في بعض الفصول (انظر : ١٢٥ ، ١٥٤ ، ١٦٤) من كتابه الثاني .

(٤) بقيت عقائد المصريين وتقاليدهم كما كانت على الرغم من وجود حاكم فارسي يمثل ملك فارس ، ويجلس على عرش مصر ؛ فيدير شئون البلاد ، ويجمع خراجها ، ويبعث به إلى فارس ، ثم يجعل على حدودها وثغورها حراساً من جنود الفرس .

وليس من شك في أن ظروف البلاد يومئذ — بحكم وقوعها تحت سلطان فارس ، وبحكم انتشار الإغريق فيها — قد مهّدت سبيل الزيارة أمام « هردوت » ، وسهّلت عليه أمورَ التنقل بين أقاليم البلاد ومشاهدِها . وبذلك استطاع الرجل أن يرى ما لم يكن يُقدّر له أن يراه في ظروف أخرى (١) . ثم هو — كما ذكر — لم يعدم الوسيلةَ إلى بلوغ الغاية في المشاهدة ودقّة الوصف والتّمسّح حقائق الأخبار (٢) .

ومن المحقّق أن « هردوت » قد خُدِع فيما تَمَّيع من روايات الأدلاء والتراجمة (٣) . وذلك أمر من شأنه أن يكون له خطرُه العظيم في تقدير ما سجّل لنا من معارفه . غير أنه — مهما أضعف من شأنها ، أو قلّل من قدرها — لا يمكن أن يُفقدَها كلّ قيمتها ، فالرجل قد زعم غير مرة أنه لم يكن يُصدّق كلّ ما كان يسمع ، وإنّما كان له فيما يسمع تقدير خاص .

(١) كانت مقدّسات المصريين أسراراً لا يعرفها إلا الكهان وخاصة الخاصة منهم ؛ ومع ذلك مكسّنت الظروف « هردوت » — كما زعم — من رؤية الحيوانات المقدسة والعناية بها في الأماكن التي كانت مخصصة لها عند دور العبادة (أنظر : فصل ٦٨ وما بعده ، هم الفصول : ٧١ ، ٧٣ ، ٧٦) من كتابه الثاني .

(٢) يذكر « هردوت » أنه لم يكن دائماً يطمئن إلى آراء مُحدّثيه ، وإنّما كانت له آراؤه الخاصّة ؛ ومن ذلك ما جاء في حديثه عن فيضان النهر (فصل ١٩) وعن منابه (فصل ٢٨) . « وهردوت » بزعمه هذا قد حال بيننا وبين ما كان يمكن أن يتاح لنا من التماس العذر له من الخطأ في التقدير أو الميل عن الحق والواقع ، ممّ الغرض من قيمة السلف الذين انتفع بسابق علمهم ومعارفهم .

(٣) أنظر : Saeve - Soederberg, ibd. s . 69 ff, 73 f . ثم ما قدّمنا عن ذلك من حديث في ص ٢٥ هامش (رقم ٢ ، ٣) .

ومهما يكن من شيء ، فإن في كتاب « هردوت » عن مصر ما يدل على أنه بذل من الجهد في إخراج ما يدفعنا إلى النظر فيه ؛ بل من الحق علينا أن نفعل ؛ ولكن في كثير من الخيطة والحذر والشك ، والحرص على تحرى الحقيقة المجردة في غير تعصب أو تحج أو قسوة في نقد .

فليكن « هردوت » إذن صادقاً في وصف كل ما زعم أنه شهد ورأى وسمع ، وليكن صادقاً أيضاً حين يزعم أن أكثر أخباره التاريخية مأخوذة عن الثقات من كهّان البلاد وأصحاب الثقافة فيها . ولن نتردد مطلقاً في تصديقه مادامت أقواله ورواياته تلائم الواقع الثابت من آثار المصريين أنفسهم ، ثم ما حققه الكتّاب والمؤرخون في ضوءها من ناحية ، وما دامت تتفق وواقع الظروف والأحوال السياسية والدينية التي كانت تسود مصر يومئذ من ناحية أخرى .

نعم . ليس من السهل علينا أن نتمضى في تصديق « هردوت » دون أن نتصور حوائل من الشك لا مناص من الوقوف عندها ومعالجة أسبابها المختلفة . إذ ليس من الصعب أن نفرض أن « هردوت » لم يكن يعرف من لغة المصريين كثيراً ولا قليلاً^(١) . ولا نستطيع كذلك أن نقدر أن بين المصريين من كان يعرف لغة الإغريق إلا أن تكون قلة نادرة لن يلقاها الرجل في كل ما زار من مكان^(٢) . فلم يكن هناك إذاً من سبيل إلى إدارة الحديث بين

(١) انظر الحديث عن ذلك ص ٢٥ وتعليقنا على ذلك .

(٢) جاء على لسان هردوت أن « إيسماتيك » قد عهد إلى الجالية الإغريقية في مصر بتعليم بعض الصبية الوطنيين اللسان الإغريقي ؛ ومن هؤلاء انحدرت السلالة التي وُجِدَتْ في زمانه من التراجمة (انظر : فصل ١٥٤) من كتابه الثاني . كما جاء على لسانه أيضاً — عند الكلام عن طبقات هذا الشعب — وجود طبقة التراجمة (انظر : فصل ١٦٤) من كتابه الثاني . على أن عددهم — مهما كثر — لم يكن ينتشر في سائر الأقاليم ، وقد كانوا — أكبر الظن — يقيمون في الدلتا .

« هردوت » وبين من زعم أنه لقيهم من كهّان البلاد إلا بين يدى ترجان^(١) ،
أو واحدٍ من بنى قومه يُلمُّ بشيءٍ من لغة المصريين على الأقل . فأما التراجمة
فما نذكر أن « هردوت » قد أشار إليهم إلا قليلاً^(٢) .

وأما الإغريق الذين لا شك في أنه قد استعان بهم ؛ فما أقل ما أشار
إليهم إلا أن يكون ذلك غرضاً من قيمةٍ من سبقوه منهم إلى زيارة مصر وبخاصة
« هيكاتيه المملطى »^(٣) . وذلك أمر قد يثير الشك في قصده ويغض من أمانته .

وقد يكون من الغفلة وقصر النظر حين تفكر في الصلة بين المصريين
والأغارقة فتصورها سليمة صافية ؛ ذلك لأن الناظر في تاريخ مصر أيام
« هردوت » لن يعدم الإحساس البين الصريح بما كانت تنطوى عليه صدور
المصريين من سُخْطٍ ومرارة ، وتفيض به قلوبهم من كره الغرباء والضيق بهم
بسبب ما أصاب البلاد على أيديهم من قَرْح ، ونزل بأهلها من مَحَن .

ولقد يُقال إن الأغارقة من أهل « أثينا » قد أعانوا المصريين في ثورتهم
على الفرس حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . ولكن ما الذى يمنعنا
من أن نفرض أن ذلك لم يكن مبعثه حبّ المصريين وإيثارهم على الفرس .
ولإنما كان الغرض منه مناهضة الفرس بغية السيطرة على مصر . وليس أدلّ
على ذلك من أن الأغريق لم يغادروا مصر بعد النصر ؛ وإنما بقوا فيها سادة ،
وظلوا كذلك حتى عاد الفرس فخاربوهم وأجلوهم عنها . فالأمر — كما نرى —
كان أمر منافسة بين قوتين من قوات الاستعمار تتناحran من أجل السيطرة
على مصر .

(١) انظر فصلى ١٢٥ ، ١٢٩ من كتابه الثانى .

(٢) انظر الفصول ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٥٤ ، ١٦٤ من كتابه الثانى .

(٣) انظر ص : ٧ ، ١٠ ، ١٨

وليس من شك كذلك في أن احتضان البيت المصري الحاكم في «ساين»
الزلاء الأغارقة من المرتزقين وأصحاب التجارة ، قد أثار نفوس المصريين كرهاً
لهم وفجّرهما حقداً عليهم ، حتى باتوا يضيقون بجوارهم ، ويكرهون لقاءهم كما
يبدو ذلك بوضوح وبخاصة أيام «أمازيس»^(١).

وليس بخاف كذلك ، أن الإغريق الذين كانوا يقيمون في مصر — سواء
منهم من كان يرتزق من العمل في الجيش ، ومن كان يعمل في التجارة —
إنما كانوا يؤثرون الفرس على المصريين طمعاً في الكسب الوفير ، والعيش
الرخيص . وذلك شأن الغريب المرتزق في كل زمان ومكان ؛ فهو واجدٌ
— على الدوام — في ظل الاستعمار فساداً يستطيع أن يُفيد منه في سهولة ويسر^(٢).

وهردوت الإغريق لم يكن يختلف كثيراً عن سائر بنى قومه أو عن غير
بنى قومه من الغرباء الطامعين في مصر ؛ بدليل أنه لم يستغ ثورة المصريين
في سبيل الحرية^(٣) ، بل ظلّ يمتدحُ الفرس ، ويُشيد بنبلِ مسلّكهم إزاء من

(١) انظر ص ٤٨

(٢) ظاهر أن احتلال الفرس أرض مصر قد أَرْضى الإغريق الذين
كانوا يقيمون فيها ، وليس أدل على ذلك من انضمام بعضهم إلى صفوف الغزاة.
(انظر كتاب هردوت الثالث فصل ٤ ، ١٣ ، ١٣٩) . وقد ازداد نشاطهم في
البلاد يومئذ وتتابعت هجرة قومهم إليها ، كما ازدهرت تجارتهم في «نوكراتيس»
(٣) يرجّح بعض المؤرخين من أهل الشك أن «هردوت» قد زار مصر مرّتين
بتوصية من الفرس (انظر: Jacoby, Herodot, Pauly - Wissowa, Sp. 266)
ويرى آخرون غير ذلك ؛ فيقولون إن الثورة التي هبت في مصر لم يكن للعصريين
يد فيها ؛ وإنما قام بها الليبيون الذين كانوا يسكنون أرض الدلتا وأطرافها الغربية.

انظر : Kienitz (Friedrich Karl), die politische Gesch.

Aegyptens vom 7. bis zum 4. Jhd. (Berlin 1935, s. 68)

أخضعوا من شعوب الأرض (١).

كل أولئك أمورٌ أقلّ ما يمكن أن يقال عنها لأنها بغضت الإغريق إلى نفوس المصريين ، وقد كان بغضاً لم تخف أسبابه ومظاهره على « هردوت » (٢). وكان على رأس الساخطين كهّانُ البلاد ؛ وهم يومئذ وقبلئذ قادةُ أهل الفكر ، وأئمة المجاهدين ، وأرباب الثقافة ، وأصحاب التوجيه والإرشاد ، وزعماء حركة التحرير في هذا الوطن المصري .

ألا إن أقل ما يمكن أن نستنتجه من كل هذه الحقائق ، هو أن جلّ اعتماد « هردوت » أثناء زيارته مصر — في وصف مشاهداتها ومعالمها ، وآثارها العمرانية ، ونقل أخبارها التاريخية — قد كان في الأغلب الأعم على النزلاء من بنى قومه ؛ وهم ناسٌ — مهما طال مكثهم في مصر ، ومهما ازدادت معارفهم عنها — لم يكن من قدرهم ، ولم يكن في وسعهم أن يبلغوا بثقافتهم تلك فهم الحياة المصرية الطويلة العريقة ، ولا فهم العقائد المصرية وأصولها العميقة المليئة بالأسرار ، ولا فهم الروح المصري الذي أذخر من تراث الماضي وودائعها ومن أخباره وتقاليدته ، وتجارب أهله ، وعبره ، وعظاته ، وأسراره ، ما يضيق به ونحى الغريب ، مهما اتسع إدراكه وعظم حظه من العلم والثقافة .

فكيف إذن لهردوت — وهذه مصادر معرفته — أن يستطيع فهم الروح المصري ، وأن يبلغ من فهم حقائق الأشياء ما ينبغى للمؤرّخ الشّبت . وكيف إذا جاءنا « هردوت » يزعم أن رواته في مصر كانوا من الثقات ؛

(١) انظر هردوت ج ٣ (فصل : ١٢) .

(٢) انظر هردوت ج ٢ فصل : ٤١ ، ٩١ .

منهم سمع ، وعندهم أخذ كل ما سجل لنا في كتابه من عقائد قومهم وتقاليدهم ومن سير ملوكهم وحكامهم .

ترى أيكون مبعث ذلك — إن صح زعمه — حرص الكهّان المصريين على الإلمام بعقائد الإغريق ؟ أم تراهم أرادوا أن يُطلِعُوا ذلك الزائر المثقف من بلاد الإغريق على مبلغ سلطانهم الروحي بعد أن فقدوا في غمرات المحن المتتابة سلطانهم السياسي ؛ وآثروا أن يتحدثوا إليه لبيادلوهم علماً بعلم ، ومعرفة بمعرفة ؛ يأخذون عنه ما يعرف من عقائد قومهم ، ويعطونه من معارفهم مثل ذلك ؟

لقد نستطيع أن نقدر ذلك تقديرًا ، أو أن نفرضه فرضًا . ولكننا لا نستطيع أن نجزم بصحته على كل حال ؛ ذلك لأننا نعرف « العصر الصاوي » الذي جاء « هردوت » في أعقابه ، ونعرف أحداثه السياسية ، ونعرف سير ملوكه وأمرائه . ونعرف ما بقي من تراثه بين أيدينا . ونرى آخر الأمر في كل ذلك أدلة واضحة على قيام نهضة يصفها بعض المؤرخين بأنها كانت نهضة بعث وإحياء ؛ ذلك لأن قوادها وروادها كانوا يهدفون في سيرتهم إلى الرجوع بالبلاد إلى مظاهر ماضيها ، وردّ الناس إلى عقائدهم العريقة الأصيلة (١) .

ونستطيع بعد ذلك أن نقدر ما كان لتلك النهضة من أثر ؛ أقل ما يمكن أن يوصف به أنه أيقظ في الناس الشعور بوجوب تطهير حياتهم مما كان فيها من غرائب وشوائب أخذت تسعى إليها وتنسُد فيها منذ أواخر أيام الإمبراطورية الفرعونية خلال القرن الرابع عشر قبل مولد المسيح (٢) .

(١) انظر في « موكب الشمس » ج ١ ص ٧٩ .

(٢) إن حياة المصريين في ذلك الوقت ، وبين يدي تلك النهضة كانت قد صفت بحيث لم نعد نرى فيها أثرًا من ذلك . وإيمان المصريين بتقاليدهم ، وصددهم عما =

ليس من السهل — بعد الذى قدّمنا — أن نتصور أن كهّان البلاد الذين أسماهم هردوت الثقات قد أعطوه تلك الصورة الممسوخة المشوهة من تقاليدهم الدينية أو من تاريخ أسلافهم . ثم أن المؤرخين والنقاد الذين نظروا فى كتاب « هردوت » هذا — على ضوء ما قدمنا — يختلفون فى طريقة نقده والحكم على آراء صاحبه وصحة مصادرها، وإن كانوا يجمعون على إثارة الشك فيما روى ؛ فروايته التى تتصل بتاريخ الملوك تنقسم قسمين ؛ يضم أولها تاريخ الملوك وأخبار أيامهم من زمان « منا » حتى مطلع أيام « إسماتيك » . ويزعم أنه استمد معارفه عن ذلك من أحاديث الكهان المصريين (١) .

فأما ما عدا ذلك فيقول إنه قد ورد فيه معينا مختلطاً من أحاديث المصريين والأغارقة (٢) .

والذى رواه « هردوت » فى القسم الأول من تاريخ الملوك لا يستقيم مطلقاً لئاء ما كان معروفاً من مصادر التاريخ الفرعونى فى زمانه ؛ وكانت تنحصر يومئذ فى الأثبات المعروفة ؛ سواء منها ما نُقش على الحجر أو سُطر فى القراطيس .

== عداها من عقائد الشعوب الأخرى وتقاليدها قد كان شيئاً معروفاً لا يكاد يخفى أمره على أحد ؛ بل إننا لنلحس الدليل على ذلك فى أخبار بنى إسرائيل التى وردت فى سفر الخروج (٢٦:٨) ، ثم فى ثورة المصريين على اليهود فى جزيرة الفيلة وتخريب معبد إلههم « يهوى » ، وأخيراً فيما ذكره « هردوت » نفسه فى كتابه الثانى (فصل ١١٠) من أن كهّان منف قد رفضوا أن يقام لدارا الفارسى تمثال فى معبد بتاح . ومن قبل رفض كهّان مصر « مذهب فيقاروس » الاغريقى على الرغم من توصية ملوكهم « أمازيس » .

(١) انظر : هردوت ج ٢ (فصل : ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٤٢ ، ١٤٧) .

(٢) انظر : هردوت ج ٢ (فصل : ١٤٧ ، ١٥٤) .

ثم في السَّيرِ ؛ يحفظها الثقات من الكهَّان الذين يقدسون أسلافهم ويعظمون سيرهم . ثم في ذلك القصص الذي كان شائعاً بين الناس ؛ يروونه ويروونه الناشئة من أجيالهم ؛ فيحفظونه ، ويوشونه بألوان من الخيال الذي يشيع في نسيج القصة ؛ فترقُّ حواشيه بحيث تؤثر في النفوس ؛ وتوقظُ العواطف ؛ وتلهبُ الحماس . ولكنها لا تطمس ما بين طَيَّاتِهِ من حقائق .

فكيف نظمنا إذا جاءنا « هردوت » بما صوّر في كتابه الثاني من تاريخ ملوك مصر فألفيناهُ خلواً من كُلِّ أثرٍ لذلك القصص الوطني الشعبي الحبيب ؟

وكيف نظمنا إذا زعم لنا أن ثَبَّتًا من أثبات أسماء الملوك قد قرئ عليه في معبد « پتاح » بمدينة منف^(١) ، على حين نراه قد جهل ترتيب المشاهير من أولئك الملوك وتتابع عهودهم . وقد كان أمراً أكثرهم — على الأقل — لدى المتقنين وأنصاف المتقنين في مصر يومئذٍ أجلاً وأخطرَ من أن يُهمَلَ فيُنسى؟

ثم كيف نظمنا إذا جاءنا كتاب « هردوت » خلواً من كُلِّ خبرٍ من أخبار الملاحم التاريخية — وعلى الأخص تلك الملحمة الخطيرة — التي تصوّر هجوم « الهكسوس » على مصر ، ثم ثورة المصريين عليهم ، ثم إجلاءهم عن أرض الوطن بعد أمة ؟ وملحمة الهكسوس ملحمة ذاع خبرُها ، وخُلد ذكرُها ، حتى أضحت

(١) انظر : هردوت ج ٢ (فصل ١٠٠ ، ١٥٤) . والواقع أننا لن نكون منصفين إن نحن طالبنا « هردوت » بمعرفة التاريخ الرسمي لحكام مصر وسيرهم المضبوطة . فالعقول أن نترك « هردوت » يعتمد على السماع ، وهو — من غير شك — قد جمع كثيراً ولا بأس عليه من ذلك ؛ جمع ما حفظت الأجيال من سير الملوك والآبطال في قالب قصصي . إلا أن « هردوت » لم يحسن فهم ما سمع . وعذره في ذلك واضح .

الدى المصريين من أحاديث العمر يروونها في كل زمان ومكان ، ويروونها
الذَّشء في مختلف دور التربية والثقافة (١) .

ألم يكن ذلك التراث وأمثاله معروفاً أيَّام جاء هردوت إلى مصر؟ أم كان
المصريون قد نسوه لطول عهدهم به ؟

لا نظن مطلقاً أنَّ المصريين نسوا ذلك مهما تقادم العهد عليه .
ولو جاز ؛ لما وقع عليه مؤرِّخنا الوطني السِّمنودى « منتون » الذى جاء
بعد زمان « هردوت » بدهر طويل اللهم إلا أن يكون الكهان قد عمدوا
إلى تضليل « هردوت » ضناً بأسرارهم ، أو أن يكون هو قد اتصل بأقلامهم معرفةً
وأدناهم طبقة ؛ فأعطوه من صور البلاد المشوَّهة ما جعل كتابه محشواً بالأخطاء .

لو مال « هردوت » حقاً إلى الثقات — كما يزعم — واطمأنوا إليه
— كما أوم قراءه — إذن لأعطوه من معين معارفهم ما نفعه ، ولاستطاع أن
يقدم لنا تاريخاً — إن لم يكن صحيحاً كله — كانت فيه فى نهاية الأمر أصالة
على كل حال .

ولو تحرَّى الدِّقَّة ، وأعمَلَ الفكرَ فيما سمع ؛ لاستطاع إذن أن ينقل إلينا
عن الهرم وعمارته وقصَّة بنائه كلاماً — إن لم يكن سليماً كله — كان على الأقل
أقربَ إلى الواقع وأبعد من الشُّطط والسُّخف الذى سجله فى كتابه .

(١) وَجِدَتْ بعض أخبار تلك الملاحمة التاريخية على لوح من تلك الألواح
التي كان التلاميذ يكتبون فيها ما يحفظون من ألوان الدروس فى التربية الوطنية
ويعرف ذلك اللوح فى كتب العلماء والمؤرخين باسم « لوح كارنارثون » .
(أنظر : فى موكب الشمس ج ٢ ص ٣٥٤) .

يقول « هردوت » إنه زار الهرم ؛ ونحن نعتقد أنه فعل . وهو يذكر في مطلع حديثه أنه سمع من السكهان ، ثم لا يلبث أن ينسى ذلك حين يسند الرواية التي سمعها إلى ترجمان . وفي ذلك ما يدل على الخلط وعدم الدقة والنظر إلى الأمور في غير تحفظ وتفكير وروية .

ولقد نفهم أن يُخدع عامة الناس عن الحقائق في كثير مما يرون أو يسمعون ، وأن يُخدع السائحون في أكثر ما يسمعون من أقوال الأدلاء والتراجم . ولكننا لا نرضى أن تجوز الخديعة على « هردوت » ذلك الذي ادعى العلم والمعرفة والثقافة والتقوى وحصافة الرأي حتى خدع قراءه دهرًا ، وحتى بات لديهم « أبا التاريخ » وإمام المؤرخين . فأكثر الحقائق كانت يومئذ ماثلة أمامه ، وأمور البلاد كانت عارية غير مستورة ، والاحتلال الفارسي قد مهد له سبيل الزيارة وأتاح له ما لم يتح لغيره من قبل (١) .

ليس هناك شك في أن مصر قد كانت أيام الاحتلال الفارسي تمتحن في عزتها وكرامتها وأرزاقها وكافة أمور دنياها . ولكن أمور الدين قد بقيت كما كانت لم يبطئها الاحتلال ولم تبدل فيها رذائله كثيراً ولا قليلاً .

فكيف نصدق إذا جاءنا « هردوت » فزعم أن كره المصريين لذكرى « خوفو » وخليفته قد حملهم على الغضب من سيرتهما ، والظعن عليهما بكل جارح من القول وشائن من الاتهام ؛ على حين يضع التاريخ بين أيدينا من الوثائق ما يشير إلى ما ترك الحكم الفارسي من آثار تدل على مشاركة الفرس في تعمير دور العبادة عامة وعلى قيام الخدمة الدينية وشعائر الجنائز عند ضريح « خوفو » بخاصة .

(١) انظر ص ٢٦ و ٢٩

وليس هناك شك في أن « هردوت » قد سمع تلك القصة السخيفة عن بناء هرم « خوفو » والسبيل المنكرة التي سلكها الرجل ليحصل على نفقات البناء .
ولسنا نسكركه منه تسجيل تلك الرواية — برغم ما فيها من سُخْفٍ ثَقِيلٍ وَجُحُونٍ أَقْلٍ ما يوصفُ به أنه لَوْنٌ من الافتراء المفضوح — وإنما الشيء الذي نأخذ عليه ونسكركه منه ، هو أن يقبل مثل هذا السُخْفِ ، فيثبته في كتابه في غير نقدٍ ولا حرجٍ ولا ورعٍ ؛ ليناع على الناس و ، ليوَصِّمَ به شَعْبٌ كانت الفضائل لديه — وعلى الأخص ما اتصل منها بالعفة وصيانة العرض — من قواعد الإيمان .
فأين إذن ثقافة « هردوت » ، وأين علمه ، وأين دِقَّتُهُ ، وأين رُوِيَّتُهُ ، وأين حصافته ، وأين صدقه في اتهام من سبقوه في الحديث عن خصائص هذا الشعب . ثم أين تقواه آخر الأمر ؟

في الحق إن الطعن في مسلك « خوفو » وقبيله ، والتجريح في عقائدهم لم يكن بالشيء الجديد على دنيا المصريين ؛ ذلك لأن مرجعه إلى زمان الدولة القديمة ، وكان مصدره دعاية الدّاعين إلى مذهب عبادة الشمس من أعداء بيت « خوفو » (١) . ولكنه طعنٌ — مهما كان مبعثه ، ومهما قيل فيه — لم يبلغ من الأسفاف والتخريف والسُخْفِ الثَقِيلِ ، وسوء التفكير ، ما بلغته رواية « هردوت » على كل حال .

ولست أريد أن أنتهى من حديثي القصير هذا عن « هردوت » ، دون أن أشير إلى حقيقة واضحة ؛ وهي أن « هردوت » بشرٌ من أمثالنا يخطئ ويصيب ، وأن له ككافة البشر حسناتٍ وسيئات ، وأن الحسنات يذهبن السيئات .

(١) أنظر (في موكب الشمس ج ١ ص ١٥٩ وما بعدها ثم ص ٢١٨ وما بعدها)

وأشهدُ لو كنتُ مكانه ، وعشتُ حياةَ كحياته ، ولقيتُ ما لقي من ظروف دهره ، إذن لأخطأتُ أضعافَ ما أخطأ . ولضلتُ أكثر مما ضل .

وإني لأشعر آخر الأمر أنني قسوت عليه ، وأن من واجبي أن أشفق عليه ، وأن أعذره وأعتذر له ؛ لا أكاد آخذ عليه غير ما ادّعاء من أن روايته كانوا من الثقات ، على حين تقوم الأدلة على أنهم لم يكونوا كذلك ؛ بل لم يصلوا في معارفهم إلى طبقات أنصاف المثقفين ، ولا إلى أرباعهم أيضاً . وأنه كان يُصدر في أكثر ما روى عن معينٍ إغريق ، وعن معارفٍ أدلاء متأثرين بثقافة الإغريق وأساطيرهم ، وأنه كان يفكر — فيما يرى ويسمع — بعقل إغريق ، ثم ينسج في روايته على منوال إغريق ، ويدسُ بين طيات نسيجه ما كان قد وقع عليه في كتب من تقدّموه من أسلافه الإغريق وفي مقدمتهم « هيكانيه الملطي » ، ثم يعود في جرأة جريئة فينسبُ أكثر ما روى إلى روايته الثقات من كهّان مصر .

ونستطيع — في ختام الحديث ، وعلى ضوء ما قدّمنا — أن نخرج من الباب التاريخي في كتاب « هردوت » عن مصر بحقيقة واضحة ؛ وهي أن الشطر الأول من هذا الباب ؛ وهو الذي ينتهي عند مطلع « العصر الصاوي » يكاد يخلو تماماً من القيمة التاريخية . وأن الشطر الثاني الذي افتتحه بعصر « إسماتيك » قد ظاهره فيه التوفيق ؛ وذلك لأن روايته كانوا من الإغريق ، وكانوا يعرفون أسرة ذلك الملك التي احتضنتهم وأكرمهم وأشركتهم في كثير من الأمر^(١) .

أحمد بدوي

تمهيد

نظرة سريعة في أهوال مصر والتمرد القريب قبيل أيام هردوت

لم تكد مصر الفرعونية تستقبل من تاريخها الطويل أيام القرن الثامن قبل مولد المسيح ، حتى كانت الشيوخوخة قد وهنت عظامها ؛ فباتت وكأنها لا تقدر على شيء .

وآية ذلك أن الزمن قد أغرقها في بحر جلي من الفوضى ؛ فأخذت أمواجه الطاغية العاتية تضربها من يمين ومن يسار ؛ حتى خارت قواها ، وظلت عواصفها الهوج تلطم شراعيها الرقيق من كل جانب حتى مزقت أوصاله شراً ممزق .

ثم تسكن الريح ، وينصت الدهر ليستمع إلى صوت هذه الأمة المفرقة ، فإذا الفتنة قد استيقظ شيطانها ، وراح يوسوس في صدور أمراء الأقاليم بشر ما كان يوسوس به يومئذ من أسباب الفرقة والخلاف ، حتى ملأت الأطياع نفوسهم ؛ فباتوا يتنازعون أمرهم بينهم (١) ولم يلبثوا حتى فشلوا وذهبت ريجهم ، حين دهمتهم جيوش الأثيوبيين من جنوب الوادي (٢) ثم انتقضت

(١) بقيت مصر غارقة في هذا النوع من غمرات الانحلال نحو قرن ونصف قرن . يتقاسم حكمها أمراء الأقاليم وحكام المدائن . وكان من نتائج ذلك أن تعطلت فيها وسائل الإرواء ، والطرق العسكرية التي خلت من حراسها . وانعدم الأمن ؛ بحيث أصبح الناس لا يأمنون على حياتهم حين ينتقلون من قرية إلى قرية ، أو من مدينة إلى مدينة ، كما تعطلت التجارة الخارجية .

(٢) فوجئت مصر في عام ٧٢١ قبل مولد المسيح بهجوم الأمير الأثيوبي =

عليهم جيوش الآشوريين من الشرق ، فدخلوا ديارهم عام ٦٧١ ق. م. ثم اصطدموا بقوات الآثيوبيين فطاحوا بأميرهم «طهرقة» (١) .

== « يعنخى » الذى دم البلاد فاحتل صعيدها ، وطوى من ورائه أقاليمها الوسطى حتى بلغ « هرقليوبوليس » (إهناسية) ، ثم لم يلبث حتى بلغ الفيوم . وهناك دانت له أكثر الأقاليم فى غرب الدلتا . ولقى « يعنخى » فى زحفه هذا مقاومة شديدة من أحد أمراء الدلتا وكان يدعى « تفنخت » الذى ظل يقاوم حتى استنفد كل ما كان يملك من وسائل المقاومة ؛ فلجأ إلى جزيرة معزولة عند مصب الفرع الغربى للنيل . ولما أعجزته الوسائل وأعيته الجبل ، سَلِمَ أخيراً للغازى فأصبح « يعنخى » بذلك ملكاً على مصر .

على أن الحوادث فيما بعد قد برهنت على أن تسليم ذلك الأمير المصرى المكافح لم يكن غير وسيلة إلى الخلاص من ورطة مؤقتة ؛ بل كان خدعة قصد بها إلى تمكين نفسه من الاستعداد لتخليص البلاد من يد الغاصب . فلما عاد الغازى إلى بلاده ، أخذ الأمير يعد نفسه لما أراد ، واستطاع أن يجعل من نفسه حاكماً (بل فرعوناً) على مصر ثمانية أعوام . وفى غضون ذلك كانت الأسرة الثالثة والعشرون تقضى فى الحكم أو المشاركة فيه أيامها الأخيرة .

(انظر J.H. Breasted, Gesch. Aeg., Deutsch v. Ranke (1960) s. 284 ff)

واستطاع « بوخوريس » بن « تفنخت » أمير « سايس » حوالى عام ٧١٨ ق. م. أن يحكم مصر السفلى جميعاً . ومعنى ذلك أن مصر كانت عام ٧١١ ق. م. تحت سلطان الآثيوبيين . وعند مؤرخنا المصرى السمنودى « منتون » أن « شباكا » كان مؤسس تلك الأسرة الآثيوبية التى جعلها الخامسة والعشرين فى ترتيب الأسر التى حكمت مصر .

(١) لما دخلت جيوش الآشوريين مصر تراجع « طهرقة » متقهقراً حتى بلغ « منف » ، وتبعه « أسرحدون » ؛ فحاصر المدينة وفتحها ، ثم نكل بأهلها ، وخرَّب دورها ، ونهب أرزاقها . وفر « طهرقة » إلى جنوب الوادى .

(انظر Breasted, ibd. s. 292 ثم Zeisel (Helene von), Aethiopen

und Assyrier in Aegypten (Aegyptologische Forschungen (14))

هنالك تراءى للأسوريين أن الخير كل الخير في اجتذاب المتنافسين من أمراء الأقاليم ، ومحاولة إرضاء أطماعهم جميعاً ؛ وآية ذلك أنهم نجحوا في جعل حكومة البلاد قسمة بين أولئك الأمراء ، ليضمنوا بذلك القضاء على وحدتهم ، وتحقيق سيادة آشور .

لم يكد أولئك الأمراء يتمتعون بمذاق ذلك العسل المسموم ، ولم تكد جيوش آشور تغادر البلاد ولها فيها حاميات ، حتى هتف الهاتفون منهم بطهرقة الذي كثر على ديارهم فحفوا إليه يتفاوضون^(١) .

ولما بلغ ذلك صاحب آشور ، أخذهم بالصارم العنيف ، حتى إذا ما أصبحوا في يمينه ، لأن لهم ، وأكرم منهم من وثق به ، واختص بعطفه « نحاو » صاحب إمارة « سايس » (صا الحجر) ، وكانت يومئذ من أشهر إمارات مصر وأظهرها ، ثم بالغ في إكرامه والعطف عليه حين جعل ولده « إيسماتيك » أميراً على إقليم « أتريب »^(٢) .

وكان « طهرقة » قد عاد إلى دياره ولبث فيها حتى هلك عام ٤٦٣/٤٦٤ ق . م . فحمل راية الكفاح من بعده « تنتامون » ابن « شباكا » الذي بادر بالحملة على مصر فدخلها في سهولة ، وأخذ يطوى أقاليمها طياً سريعاً ، حتى إذا ما بلغ « منف » ، طار إليه بعض أمراء الدلتا ممن خافوا بأسه وطمعوا في عطائه^(٣) .

(١) انظر : Breasted, ibid. S. 293

(٢) انظر : Breasted, ibid. S. 293

(٣) انظر : Winkler, Untersuchungen zur altoriental. Gesch. IV S. 925—928

فأما « إسماتيك »^(١) فقد خال السلامة عند صاحب آشور ، ففرَّ إليه ، ولقي عنده ما تمَّيَّ ، حين رآه يهبُ لنصرته ، ويركب معه إلى مصر ؛ ليضرب فيها صاحب « أثيوبيه » ، ثم يتبعه بجنوده حتى يبلغ « طيبة » ، فيدخلها منتصراً عام ٦٦٣ ، ويخرب ديارها تخريباً منكراً . ثم يعود إلى بلاده تاركاً « سايس » و « منف » بين يدي « إسماتيك » الذي لم يلبث أن بسط سلطانه على سائر أقاليم البلاد .

وتبتسم الدنيا لإسماتيك حين يجد من أيام دهره ، ومن ظروف نصيره ما مهد له السبيل إلى العرش والتاج ؛ فيظل ولياً لنصيره ، ويبعث إليه بالجزية في حينها ؛ فيبيت راضياً عنه كل الرضا ، مطمئناً إليه كل الاطمئنان . ولما كادت الأمور تستقر بين يدي « إسماتيك » ، أحس أنه في حاجة إلى أن يستوثق لنفسه ، ويحتاط لحادثات الأيام وفاجعات الليالي ؛ فنظر في الدلتا ، وهي يومئذ غاصة بالأغارقة ؛ ينتشرن فيها للبيع والتجارة ، ثم ينتهون إلى سوق لهم في « نوكراتيس »^(٢) . فقدَّرَ أن يفيد منهم ، فوسَّع عليهم سوقهم تلك .

(١) كان صاحب آشور قد جعله على إقليم « أتريب » بعد أن جعل أباه « نخاو » على إقليم سايس (انظر : Breasted, ibd. S. 279)
(٢) كان الإغريق وبخاصة أهل « ملاطيه » ينتشرون في الدلتا منذ أيام القرن الثامن . ق . م . حين أخذوا يمدون أنفسهم إلى مصر مداً قويا . وكانوا من قبل قد انتشروا في حوض البحر الأبيض ، وأخذوا يترددون على ثغور مصر عند مصاب النهر ، وبخاصة مصبه الغربي عند « أبوقير » ؛ يبلغونه من « بحر إيجيه » في سهولة ، ويأمنون عنده نشاط من كان ينافسهم من المينيقيين . واستطاعوا حوالي عام ٧٠٠ ق . م . أن يتخذوا لتجارهم سوقاً قرب « سايس »
(انظر : Breasted, ibd, S. 373) عرفت أول أمرها باسم « قاعة الملطيين » ثم أطلق عليها من بعد ذلك اسم « نوكراتيس » .

وبذلك انتشر الرخاء المادى فى مصر ، وأفاد « إيسماتيك » نفسه من ذلك فائدة مادية كبرى . ولما أغراه كل ذلك ، استخدم من الأغارقة فى بلاطه وعساكر جيشه عدداً كبيراً^(١) . وهناك أحسن بقوته فاطمان إليها . وكان من نتائج ذلك أنه توقّف عن إرسال الجزية إلى صاحب آشور . وكان هذا الأخير قد شغل عن أمور مصر لاشتباكه فى حروب مع العلاميين^(٢) ، كما اضطرت حاميته فى مصر إلى الانسحاب حين هبّت الثورة فى « بابل » .

ويخلو الجو لإسماتيك ، فيستقل بمصر عام ٦٦٣ ق . م . ويجعل عرشه فى « سايس » (صا الحجر) . ويبدأ بذلك عصراً جديداً ، فيؤسس أسرة جديدة ، ويمكن لها فى أسباب الحكم ؛ فتجلس على عرش البلاد قرناً ونيفاً . وتظل كذلك حتى يدال من سلطانها إلى سلطان الفرس الذين دخلوا مصر عام ٥٢٥ ق . م .

كانت أسرة « إيسماتيك » قد رأت من حسن السياسة أن تعود بالبلاد إلى مظاهر عهدها القديم ، فسارت فى نظامها وإدارتها ، ومظاهر عقائدها ، وثقافتها على سنة السلف الصالح من حكام الدولتين القديمة والوسطى . وطلمت علينا آثارها الدينيّة والفنيّة تتحدّث بذلك فى صراحة ووضوح ، حتى اعتقد بعض المؤرخين والكتّاب أن عصرها عصر بعث وإحياء^(٣) ، وخُذع أكثرهم فباتوا فاعْتقدوا أن تلك الأسرة كانت

(١) انظر : ص ٤٤

(٢) كان ذلك فى عام ٦٥٢ ق . م . (انظر : Breasted, ibd, S.296)

(٣) أليست هذه طبيعة النفس البشرية فى كل زمان ومكان ؛ نحن إلى الماضى وتنسى محنه وشروء كما هزها من الأحداث جديد . ولقد كان لأحداث الزمن التى أصابت نفوس المصريين من جراء الفتن والقلق الداخلى ، ثم لم يحزن الغزو =

مصرية وطنية لهما ودما ، وأن سياستها قد كانت سياسة قومية خالصة . إلى أن نبه إلى فساد هذا الرأي المؤرخ الألماني Ed. Meyer حين قال إنها أسرة غربية ، وإن أصلها قد يرجع إلى فول أسرة ليبية نزلت بمصر وانتشر أفرادها في أقاليمها أواخر أيام الرعامسة .

ومن الواضح في تاريخ تلك الأسرة وسيرتها ، أنها اعتمدت في كفاحها وتثبيت دعائم سلطاتها على عناصر غربية عن مصر ؛ إذ لم تكد أمور مصر تستقر بين يدي عاهلها « إسماتيك » حتى بادر إلى مكافأة جنوده المرتزقين — وأكثرهم يومئذ من الأغارقة — فلأبهم بلاطه ، وجعل منهم خاصة جنده وحراسه . ثم بالغ فجعل منهم حماة الثغور ، يرذون عنها إغارات المغيرين ، وعبدوان المعتدين^(١) وتزداد مبالغته في إكرامهم حين يطلق أيديهم في إنشاء

= التي زلزلت كيان المصريين أثر ظاهر في سياسة هذه الأسرة التي كانت تهدف فيها إلى الرجوع بمصر إلى نظامها القديم ، (انظر : Breasted, ibd. 299 ff). ولم يكن مثل هذا التفكير بالشيء الجديد في حياة المصريين ؛ فكذلك كانوا يفكرون ، وكذلك كانوا يعزّون أنفسهم كلما نزلت بهم الحن (انظر في موكب الشمس ج ٢ ص ٨٠) . على أن الوسيلة إلى ذلك النصر المشار إليه لم تكن سهلة ولا ميسورة ؛ ذلك لأن الظروف قد تغيرت ، والأحوال قد تبدلت ، وأيام الدهر — بما امتلأت من ألوان الحن الحشنة الثقيلة المضنية — قد باعدت بين المصريين وماضيهم ذاك الذي كانوا يحسّون إليه ، وعناصر القوة الحية التي كان يمكن أن تعينهم على ذلك قد ضعفت بحيث لم تعد تنهض بالمصريين إلى ما كانوا يبتغون . ولم تجد محاولات الأسرة الجديدة في نفوس المواطنين صدى إلا في العزوف عن تفديس المعبودات الدخيلة .

(١) اختلف المؤرخون في تحديد أصل « إسماتيك » وأسرتة ؛ ففريق يرجع بأصله إلى « ليبية » ، وفريق يرجع به إلى « إيثيوبية » ، وفريق يرى أنه مصري . فاما الذين يرجعون به إلى « ليبية » فهم :

المزارع، والمؤسسات التجارية في « سايس »، « نوكراتيس »، « أبو قير »^(١).

(Lepsius, Ueber die XXII. aegyptische Koenigsdynastie, 291) انظر Lepsius =

(Stern, Z.Ae.S. 21 (1883) S. 24 : انظر Stern ثم

(Piehl, PSBA. 13 (1891) S. 236 : انظر Piehl ثم

(Erman, Aegypten S. 52 : انظر Erman ثم

(Hall, CAH. III, p. 291 : انظر Hall ثم

(Smith, JSOR. 10 (1926) p. 132 : انظر Smith ثم

(Drioton — Vandier, L' Egypt p. 549 : انظر Drioton وأخيراً

ويراه من أصل أميوني كل من :

(Brugach, Gesch. Aegyptens S. 731 — 733 : انظر Brugach

(Schaefer, Z.Ae.S. 33 (1895) S. 116—120 : انظر Schaefer ثم

(Petrie, Hist. O. Egypt III, p. 320, 321 : انظر Petrie ثم

(Wadell, Manetho. p. 170, 172 : انظر Wadell وأخيراً

وأما الذين يرونه من أصل مصري فهم :

(Ebers, Z.Ae.S. 19 (1881) S. 68 : انظر Ebers

(Wiedemann, Aeg. Gesch. S. 623 : انظر Wiedemann

(Spiegelberg, OLZ. 8 (1905) S. 559—562 : انظر Spiegelberg ثم

(Max Mueller, OLZ. 16 (1913) S. 49—52 : انظر Mueller وأخيراً

أولئك هم الذين بحثوا في أصل هذه الأسرة واختلفوا في الرأي وكلهم

من فحول العلماء ؛ « كل يؤيد رأيه يا ليت شمرى ما الصحيح » ؟ الله وحده يعلم .

(١) لا رأى إسمائيل أن يحصن بلاده جعل على حدودها حاميات ثلاث

كانت أولاهها عند « جزيرة الفيلة » وكان جنودها من المواطنين ، وكانت الثانية

والثالثة في الشمال ؛ إحداها في « دفنه » عند خليج السويس ، والأخرى في « ماريا »

(مربوط) . وكان الجند في كاتيهما من الإغريق .

ولقد يكون من الأنصاف — على الرغم من كل ذلك — أن نقرر أن تلك الأسرة قد استطاعت — أن تقيل عثرة مصر ، وأن تُصلح ما فسد من أمورها، وأن تنهض بأحوالها الاقتصادية ، حتى استتب الأمن ، وعم الرخاء المادى ، وحتى استقامت أمور البلاد فى أكثر نواحي الحياة (١) وذلك بفضل ما بذلت من مختلف الجهود فى سبيل تثبيت سلطانها على النحو الذى قدّمنا ، وبفضل ما أبداه أهلها الأول من الدهاء والمهارة والحزم فى سياسة البلاد أيام حكمه .

ولم ير « إسماتيك » — على الرغم من توفيقه ، وقوته التى مكنته من الاستقلال بمصر عن سلطان آشور — أن يقف من نصيره صاحب آشور موقف العداء . وإنما بقى له ولياً حميماً ، وظل حليفاً له حتى هلك عام ٦٠٩ ق . م . وسار خلفاؤه من بعده على نفس النهج الذى سلكه فى سياسته الداخلية والخارجية ، وإن كان قد حاول ، وحاول خلفاؤه من بعده — كما واتهم الظروف — أن يتدخلوا فى الشئون الآسيوية بغية استرداد أملاك الإمبراطورية المصرية فى الشرق القريب (٢) .

كانت الأقاليم الآسيوية يومئذ مسرحاً للفتن والأحداث الخطيرة والقتال المثير ، فالثورات تشتعل نيرانها حول ملك آشور ، والاضطرابات السياسية تقيم بقية الشعوب الآسيوية وتقعدها . وفى غضون ذلك تولد على حدود آشور مملكة جديدة تجمعت عناصرها من قبائل الميديين . فأخذ أصحابها

(١) انظر : Mallet, Les premiers établissements des Grecs en Égypte (Mem. Miss. Archeol. Franç. (Caire XII, Y. Paris 1893).

(٢) انظر : Kees. zur Innenpolitik der Saiten Dynastie

يوسعون رقعتها، ويمدون في أطرافها على حساب الفتن المضطربة نيرانها في آسية الدنيا؛ وآية ذلك أنهم تمكنوا من إخضاع القبائل الفارسية المتاخمة لحدود أملا بهم، وجعلوا عاصمتهم «أكبتان» (١).

وتنتهز بابل فرصة هذه الفتن لتخلص من نير آشور، ولتظهر على مسرح الدنيا بين يدي عاهلها NABOPOLASSER الذي سارع إلى التحالف مع صاحب «ميديا» ليفزوا معا «نينوى» التي اندك صرحها وتم تخريبها عام ٦١٢ ق. م. وهناك استطاع الميديون أن يستقروا في الشمال إلى الشرق والغرب من نهر دجلة؛ على حين سيطر البابليون على شرق العراق، وعلى سورية، وحاول صاحب مصر «نخاو الثاني» أن يفيد من تلك الحوادث، فسارع إلى التدخل في الشؤون الآسيوية متعللاً بمساعدة حليفه «آشور بالبيت» صاحب آشور الذي كان قد تمكن من جميع فلول جيشه وظل يحارب به بابل وأنصارها ثلاثة أعوام. فلما بلغ «نخاو» آسية، أخذ يتقدم فيها بجيشه؛ وكان غاصاً بالمرتزقين من الأغارقة، فأخضع به سورية، ثم مضى فبلغ الفرات، وكان ذلك عام ٦٠٥ ق. م. وهناك تصدى له صاحب بابل بجيش عقد لواءه «لنبوخذ نسر». فلما التقى الجمعان هُزم جيش مصر وفرت فلوله راجعة إلى الدلتا. وكان من نتائج تلك الهزيمة أن استولى صاحب بابل على كل ما كان لفرعون من حدود وادي النيل حتى الفرات.

وهكذا أخفقت جميع المحاولات التي بذلها فرعون «نخاو الثاني» في سبيل مساعدة حلفائه الآشوريين على أعدائهم البابليين. أو بعبارة أصح تبذرت

(١) مكانها الحالي عند «همدان».

أحلامه في استغلال أحداث الشرق القريب لصالح مصر^(١) ؛ فانصرف إلى النظر في شئون بلاده الداخلية ، وراح يعمل على النهوض بأمور مصر الاقتصادية .

ولما ودّع دنياه ، خلفه على العرش « إسماتيك الثانى » ومن وراء « إسماتيك » « أبريس »^(٢) . وكان كلاهما يؤثر الأغارقة ويختصمهم بعطفه . إلا أن الأخير قد بالغ في ذلك إلى الحد الذى فجّر قلوب الوطنيين كرها وغيظا فأشعلوا من حوله نار ثورة حامية ؛ يحمل لواءها قائد من الوطنيين المغامرين يدعى « أمازيس » (أحموسى) ؛ فظلت مشتعلة حتى نودى بهذا القائد البطل المغامر ملكاً على مصر . فقام بالحكم إلى جانب « أبريس » ، وظل حكم البلاد شركة بينهما إلى أن انتهى الأمر بمصرع الأخير عام ٥٦٨ ق . م^(٣) . استقل « أمازيس » (أحموسى الثانى) بعرش مصر ، ولم يستطع إزاء إلتفاف الوطنيين من حوله ومؤازرتهم إياه إلا أن ينظر إلى الأغريق في مصر بأحدى عينيه ويستمع إليهم بأحدى أذنيه ؛ فسلك معهم طريقاً وسطاً ؛ حين أجلى جنودهم عن الثغور ، فنقل حامية « دفنة » إلى « منف » ، وجعل من المحاربين الأغارقة حرسه الخاص ليكونوا تحت سمعه وبصره (انظر : هردوت ج ٣ فصل ١٥٤) كما جمع المدينين منهم فأنزلهم في « نوكراتيس » (انظر : هردوت ج ٣ فصل ١٧٨) .

(١) انظر : (١) (سفر الملوك الثانى ٢٤ : ٧)

(٢) Wiedemann, (A.) Der Zug Nabucadnazar's

gegen Aegypten, bestaetigt durch eine aeg. hierogl. Inschrift
in Z. Ae. S. 19 (1878) S. 2 — 9

Wiedemann, Nabucadnazar & Aeg. ibd. 77—89 (٣)

Breasted, Gesch. Aeg. S. 309 (٤)

(١) تصحيف أغريق لاسمه المصرى (واح — إيب — رع)

(٣) انظر : ص ٥٠

كان عهد « أمازيس » (أحموسى الثانى) أشبه شىء بما يسمونه « صحوّة الموت » فى حياة مصر ؛ فهى قد بلغت بين يديه أقصى ما كان يمكن أن يهَيَّأَ لها من مكان ؛ فراجت تجارتها ، وازدادت ثروتها ، ونشطت حركة البناء فى عمائرها الدينية ، وازدهرت فى رحابها نهضة العلوم والفنون ، واطمأن الناس إلى حياتهم ؛ فباتوا يستمرون لذاتها ، ويجنون من خيراتها ثمار ما أنفقوا من جهد فى كفاحهم المبرر الطويل . وما كانوا يحسبون أن القدر قد كان يبيت لهم ولوطنهم شر ما يكرهون من نازلات الأيام وفاجعات الليالى .

ويكاد عصر « أمازيس » (أحموسى الثانى) من هذه الناحية يشبه عصر « أمينو فيس الثالث » الذى عاشه المصريون قبل عصر « أمازيس » بثمانية قرون .

كان « أمازيس » — كما صورته هردوت — صاحب لهُو وشراب وزير نساء . وكان سلفه البعيد « أمينوفيس الثالث » صاحب لهُو وصيّد وتبع نساء أيضاً . وكان « أمازيس » مع ذلك صاحب فطنة وذكاء وسياسة رشيدة ، وقد أعانه كل ذلك على تهيئة جو ملؤه الصفو الشامل والهدوء الكامل^(١) ، فهو برغم

(١) ذكرنا فيما سبق كيف كان « إيسباتيك الأول » يعتمد على الإغريق ، وكيف أنه بالغ فى إكرامهم ، وأطلق أيديهم فى إنشاء المستعمرات الزراعية ، والمؤسسات التجارية . وقد استطاع أحد الدوريين يومئذ أن ينشئ مدينة على شاطئ ليبية عرفت باسم Cyrène (برقه) (انظر: De Muelenaer, ibid) وكرم اللويون ذلك ، وظلوا يطوون صدورهم على هذا الكرم أكثر من ستين عاماً ؛ إلى أن كانت أيام « أبريس » ؛ هنالك أخذت طوائف الإغريق تتوافد على ليبية ، وتحتل من أرضها بقاعاً واسعة ، وأهاج ذلك الليبيين وأثارهم ؛ ففزعوا إلى « أبريس » ؛ يشكون إليه أمرهم ، ويلتمسون عنده العون والنجدة . ولم يكن =

انحيازهم إلى قومه من الوطنيين ، لم يهمل جانب من آزره من الإغريق ، بل عاملهم بالحسنى ، سواء منهم من كان يرتزق من العمل في الجيش ومن كان يعمل في التجارة . ثم بالغ فوثقَ صلته بمن كانوا يقيمون منهم في برقة

== في وسع الرجل أن ينجدهم بالمرتزقين من الإغريق ؛ فبعث إليهم بنجدة من المصريين ، لم يواتها التوفيق ، ولم يحالفها النصر ؛ فهزمت وأيدت عن آخرها على حد قول هردوت (انظر : كتابه الثانى الفصل رقم ٦١ وكتابه الرابع الفصل رقم ١٥٩) .

وكان وقع الهزيمة على المصريين شديداً ، واهتز لها رأى العام في البلاد اهتزازاً دفع الناس إلى الثورة ؛ فاندلعت نيرانها . وبادر « أپريس » فعهده إلى القائد المواطن « أحموسى » (أمازيس) بإطفائها . فلم يلبث هذا أن أصبح نصير الثورة لا عدوها ، ومع الثوار لا عليهم . فحمل لواءها ومضى فى قيادتها ؛ حتى إذا ما استوثق الثوار لأنفسهم منه ، نادوا به ملكاً على الودادى . إلا أنه لم يستطع يومئذ خلع « أپريس » الذى كان يتدرج بالأغارقة ؛ وهنالك بقى أمر الحكم فى البلاد قسمة بين الرجلين — ولكن على كره منهما — أكثر من عامين . ولما كان العام الثالث ، سار « أپريس » بجيش من المرتزقين ليضرب به « أحموسى » (أمازيس) وقبيله ؛ فلما التقى الجمعان عند « مومفيس » ، تمكن « أحموسى » من إلهاب شعور المواطنين ، حين أخذ يذكرهم بوطنهم الجريح ، وبالحنن التى نزلت بهم على يد « أپريس » وأعدائه من الإغريق . واستطاع بذلك أن يفجر قلوبهم غيظاً ، وأن يملأ نفوسهم أملاً . فالتوا معه على خصومهم ميلة واحدة ، كان النصر لهم من وراءها ، وسقط زعيمهم « أپريس » فكان « أحموسى » (أمازيس) كريماً إزاء خصمه ؛ بل كان أكرم مما ينبغى . أظهر الحزن على وفاته ، واحتفل بتشييع رفاتة إلى مقرها الأخير . (انظر :

Daressey, Rec. Trav. 22. p. 143 ff. (١)

Breasted, A.R. IV, 1001, 1007. (٢)

Breasted, Gesch. ibd. S. 312. (٣)

(Cyrene) حتى قيل إنه سعى إليهم فربط بينهم وبينه برباط من الصهر عندما تزوج أميرة منهم يسمونها LADYKE (انظر هردوت ج ٢ فصل ١٨١) .

ويعوت « أمازيس » ، (أحوسى الثانى) ، فتدق ساعة الخطر ، وتبدو عيون الشر حمراء ترمى بالشرر ، وتنذر به مستطيراً على حدود مصر الشرقية .

وقد لا يعجز المطلع على تاريخ الشرق القريب يومئذ — فى ضوء الأحداث التى أجرتها الأيام على مسارحه فى القرن الخامس قبل مولد المسيح — أن يتبين ذلك النزاع الخطير الذى تفجرت برا كينه بين الميديين والفرس ، وكيف انتهى الأمر إلى صالح الفرس (انظر : هردوت ج ١ فصل ١٢٩) . وآية ذلك أن ينكشف الغبار عن آثار تلك الملاحم الخطيرة ، وترفع الأستار عن مسارح الأحداث ، فإذا الدنيا قد جلت بطلما فى ذلك الوقت وهو « قورش » CYRUS وكان — كما قيل — سليل أسرة طامحة ، مارست ألوان الحكم فى بلاد ANZAN قبل ذلك بقرن من الزمان تحت سيادة الميديين . واستطاع هو أن يظفر بعاھلهم وهو يومئذ ASTYAGES بن KYAXARES . فأضحى بذلك سيد فارس وميديا فى آن معا . واهتزت آسية الدنيا كلها بهذا الحادث ، حتى ملأ الرعب قلوب الملوك والحاكمين . فسارعوا إلى إنشاء حلف ضم « ليديا » و « مصر » و « بابل » و « إسبرطة » . إلا أن ذلك الحلف لم يوق أصحابه شر « قورش » الذى لم يلبث أن انقض على « ليديا » فانتزعها من يد ملكها CROISUS ، وكان هذا من أبرز ملوك زمانه ، وأشد هم بأساً ، وأكثرهم للإغريق ولاء . فلما ظفر به « قورش » أخذه أسيراً قبل أن يتمكن حلفاؤه من النهوض إلى نجدة (انظر : هردوت ج ١ فصل ٧٧ وما بعده) .

ولم يكـد « قورش » يتذوق حلاوة هذا النصر ، حتى ولَّى وجهه شطر الشرق — وكان يومئذ هدفاً لإغارة جديدة يحتمل أن يقوم بها مهاجرون من الآريين — فخرَّب كل ما لقي في طريقه من بلاد آسية العليا بغية المحافظة على تخومه . وحين اطمأن إلى سلامة حدوده الشرقية ، أخذ يفكر في الاتجاه إلى بابل ففعل ، ولم يلبث أن استولى عليها في غير عناء كبير ، وكان ذلك في عام ٥٣٩ ق . م . فأصبح بذلك سيد آسية الدنيا غير منازع . وظل يستمتع بتلك السيادة عشرة أعوام ، ثم ولَّاه الموت عنها عام ٥٢٩ ق . م .^(١) فخلّفه على العرش « قبيز » ولده من « كاسنداني » بنت « فارناسيس » فاستأنف سيرة أبيه ، وتطلع إلى مصر ، وأخذ يمد نفسه إليها مدّاً قويا . ولم يكن « أحموسى » (أمازيس) صاحب مصر بغافل يومئذ ولا قبلئذ عما يجري في الشرق من أحداث^(٢) ، بل كان بصيراً بها مدركاً بأس « قورش » وشدته ، مقدراً عواقب

(١) يختلف الرواة في وصف موته وأسبابه ، فيقول Xenophon إنه مات حتف أنفه . ويقول « ديودور » إنه أخذ أسيراً ثم مات مصلوباً ، ويقول Ktasia — وهو طبيب إغريقى ولد في Kindos ثم ذاعت شهرته حوالى عام ٤٠٠ ق . م . بعد أن خدم في بلاط « إجزرتسيس » سبعة عشر عاماً وكان من عشاق « قورش » وأكثر المعلمين بأخباره — إنه مات من جرح أصابه في المعركة التي دارت رحاها بينه وبين رُحِّل المغول تحت إمرة ملكهم TOMYRUS . (انظر : Lehmann H., Art. Kambyzes, in RE. X2. Sp. 1812—1823)

(٢) يشاء القدر أن يكون « أمازيس » (أحموسى الثانى) بطلا كسلفه وتلميذ « أحموسى الأول » الذى حرر مصر من المكسوس بعد أن سيطروا عليها قرناً ونصف قرن . وإن كان — كما وصفه هردوت — بطلا مغامراً ، وصاحب شراب يكاد فى رأى يشبه فى سيرته بطلا من المغامرين البنائين فى العصر الحديث ، وأعنى الغازى «أتاتورك» (انظر : Armstrong, The Greywolf

نشاطه الخطير . فسارع إلى إخضاع « قبرص »^(١) ، ومحالفة CROISUS صاحب « ليديا »^(٢) . وحين سقط هذا الأخير بين يدي « قورش » على النحو الذي قدمنا^(٣) سارع إلى محالفة POLYCRATE طاغية « ساموس » (انظر هردوت ج ٣ فصل ٣٩) ، إلا أن هذا الطاغية قد اضطر أمام الرعب الفارسي إلى الانضواء تحت لواء « قمبيز »^(٤) . وأعلن خضوعه وولاءه في الوقت الذي كان « قمبيز » يتهاى فيه للوثوب على مصر .

هنالك بقي صاحب مصر بلا نصير ، ثم ودع دنياه تاركاً أمور وطنه الملتاع بين يدي خليفته « إسماتيك الثاني » . وكانت الدسائس يومئذ تملأ بلاط فرعون ، حتى قيل إن أحد قواده قد خانته ولاذ ببلاط « قمبيز » ، ودله على أقرب السبل وأيسر الوسائل إلى فتح مصر . وقيل إن القائد الخائن لم يكتف بذلك القدر من الخيانة المقتنعة بل أعلنها سافرة مفضوحة فقاد بنفسه جيش العدو (انظر : هردوت ج ٣ فصل ٤) على « طريق حورس » المعروف ونعى ذلك الطريق الممتد على ساحل غزّة ، والذي طالما ركبته جيوش مصر إلى الشرق أيام مجد الفراعنة ، والذي ركبه الآشوريين إلى مصر قبل الفرس بزمان قصير^(٥) .

(١) انظر : الفصل الثاني والثمانين بعد المئة من كتاب « هردوت » الثاني .

(٢) انظر : ص ٥١

(٣) انظر : ص ٥١

(٤) كان ذلك بين عامي ٥٤٦ — ٥٤٤ ق م . (انظر Breasted, ib l. S. 316)

(٥) انظر : Meissner, Das Datum d. Einnahme Aeg. durch :

Kambyses (Z. Aeg. S. XXIX 1891, S. 123—124).

وتحركت جيوش مصر في ربيع عام ٥٢٥ ق.م. فالتقت بجيوش فارس عند « فرمة » فقاتلوا — وكانوا خليطاً من الوطنيين والمرزقين من الأغارقة — قتالا شديداً. وحين اشتد الكرب على جيوش المصريين أخذوا يتراجعون حتى بلغوا « منف » ، وأتبعهم « قبيز » بجنوده ، حتى إذا ما أدركهم في « منف » ضرب من حولها الحصار ، وظل يُضيق عليها حتى اضطرت حاميتها إلى التسليم . وجيء بصاحب مصر إلى حضرة « قبيز » ، فقيل إنه أكرم لقاءه ، وأحسن معاملته ، غير أن ذلك لم يثنيه عن الكفاح ؛ فعمد إلى إثارة مواطنيه على الفرس . فلما أخفقت جهوده وتبخرت أحلامه ، آثر الانتحار خشية الوقوع في يد « قبيز » (انظر : هردوت جـ ٣ فصل ١٧) .

ولما اطمأن « قبيز » — حين أدرك جيش مصر في منف فضيق عليه الحصار — أخذ في إتمام الفتح ؛ فأخضع صعيد الوادي بعد أقاليمه الوسطى في غير عناء ، ثم بعث بحملة على الواحات الخارجة ، وقاد أخرى إلى بلاد النوبة (١) .

ويقول « هردوت » إنه اقترب على أثر ذلك كثيراً من الشرور والآثام ، وشطط في استعمال العنف والقسوة (٢) ، وظلَّ يمعن في ارتكاب الآثام حتى

(١) أطال « هردوت » في الحديث عن حملة « قبيز » على أقاليم « إيثيوبية » (أقاليم النوبة الجنوبية) . ثم تحدث عن فشل تلك الحملة (انظر : هردوت جـ ٣ فصل رقم ١٧ وما بعده) . والواقع أننا لا نملك من وثائق التاريخ في مصر ما يشير إلى تلك الحملة غير رواية « هردوت » . فإذا صح ما رواه « هردوت » فأكبر الظن أن تلك الحملة قد وقعت في زمان الملك الإيثوبي « NESTESEN » . حوالى عام ٥٢٥ (انظر : Breasted, ibd. S. 295)

(٢) ذكر هردوت في معرض الحديث عن مصرع الفحل المقدس (أپس) على يد « قبيز » ، أن فعلته تلك — بالإضافة إلى حملته على « إيثيوبية » (النوبة) —

أصيب بلوثة فجن، ثم هلك عند سورية في طريق عودته إلى فارس عام ٥٢٢ ق.م. تلك فامحة الخبر والحديث عن الفتح الفارسي كما رواها « هردوت » ؛ ولولاها لما وجدنا غير قليل من الحديث عن تلك الحقبة من تاريخ مصر . ذلك لأن الآثام لم تضع أيدينا ولا أبصارنا على شيء من الوثائق المصرية يمكن أن نقرنها بما جاء في رواية هردوت ، وإن كانت قد ادرخت لنا بعض الخبر في سيرة رجل يدعى « وازى — حور — رسنه » نقرؤه على تمثال له آل إلى متحف الفاتيكان (١) . عاش صاحب تلك السيرة أيام الفتح الفارسي . وكان فيما يظهر أميراً للبحر عند دخول جيش « قبيز » . وقد جاء في سيرته عبارات ملتوية ، يغشاها كثير من الغموض ؛ نفهم منها أن فتنة وقعت في إقليم « سايس » ثم لم تلبث حتى عمت مصر جميعاً (٢) . ثم هو يزعم أنه استطاع أن

== إنما كانتا من نتائج الحبل الذى أصاب الرجل . فأما حملته على النوبة فليس في حكم العقل ولا في حكم الظروف يومئذ ما يمنع من أن تكون قد حدثت . وإنما الأمر الذى يحتمل الشك هو أن يكون « قبيز » قد صرع الفحل المقدس ، وإن كان قد روى ذلك بعض الكتاب والمؤرخين القدامى من الإغريق والرومان أمثال بلوتارخ (فى قصة إيزيس وأزوريس ٤٤) و « كليمانت السكندري » .

ولقد أنكر المحدثون تلك القصة وقالوا إن مبعثها الخلط فى تحديد التاريخ الذى نفق فيه الفحل والتاريخ الذى دفن فيه (انظر :

Pasner, Le premier domination perse en egypte p. 174—5 .

(١) انظر : Erman, Relig. S. 331 ثم 37,72 Schaefer, Z. Aeg. S.

(٢) الواقع أن حديث الرجل طويل ولكنه برغم ذلك سكت عن ذكر أصل الفتنة ولم يشر إلى أعمال الغزاة فى مصر ، ولا إلى الفظائع والأحوال التى ذكرها « هردوت » ، وإن كنا لا نشك مطلقاً فى أنه كان يعرف كل ذلك . ولكنه كان — فيما يظهر — كثير من الخونة والنمّازين الذين ينون مجددم الباطل ==

يدفع عن بلاده كثيراً من الأذى ، ويرد عنها كثيراً من الشر ، ذلك لأنه اتصل بالفتح وأخذ يحدثه عن مصر وأهلها حديث العارف الواصل ، فدله على أرباب البلاد وعقائد الناس فيها ؛ فهو يذكر لنا كيف أن الفتح اطمأن إليه وإلى صدق حديثه فصحه إلى « سايس » ، وأظهره على عظمتها ، وروعة بيتها المقدس وفيه مزار ربها NEITH وقُدسها . وكيف أن الفتح لما دخل القدس خرّ لها ساجداً ، ثم قام فضحى لها وقرّب كما كان يفعل فراعنة الوادى .

ويستأنف الرجل حديثه فيزعم أنه استطاع بساوكه هذا أن يستدرّ عطف الفتح على المواطنين ، ويثير اهتمامه بمعبد « سايس » حين شكّا إليه ما يؤذى الحجاج في هذا المعبد من عبث النزلاء الأجانب الذين يعيشون من حوله . وكيف أن « قبيز » حين سمع ذلك فعل ما لم يفعله الملوك من آل فرعون ، إذ أصدر أوامره بإخراج أولئك النزلاء من دورهم ثم أمر بها فهدمت وأسكن أصحابها خارج أسوار المدينة .

ويمضى الرجل في حديثه فيذكر ماثر ملوك فارس من خلفاء « قبيز » ، ويمجد أعمالهم في مصر ، ويمتدح سلوكهم في أسلوب يحملنا على الشك في روايته وإن كنا لا نستبعد أن خلفاء « قبيز » قد قصدوا إلى إزالة ما نزل بقلوب المصريين من رعب أيام سلفهم « قبيز » ، وإلى استماله نفوسهم بحسن المعاملة

== وسلطانهم الزائف على الأقاض والأشلاء ؛ يرون القوة في جانب الغزاة فينطلقون إلى صفوفهم ، وينطوون تحت أعلامهم ، يطلبون في ركا بهم السلامة ويلتمسون الرخاء المادى والعيش الحفيظ في الفتات من حول موائلهم . وليس يبعد أن يكون قد اتخذ من زميله القائد الخائن الذى مر ذكره (ص ٥٣) مثلاً في الضعف والخيانة ، فانتقل إلى صفوف العدو ، وسلم الأسطول إلى « قبيز » .

واحترام العقائد . وهناك من وثائق التاريخ ما يشير إلى ذلك ؛ فهذا « دارا »
يقيم لآمون معبداً في واحة الخارجة ، ثم نعث على آثار له في « منف » تشير إلى
احترامه عقائد المصريين^(١) . بل إننا لا نستبعد ما رواه DIODOR من أن
المصريين قد قدّروا ذلك لدارا ، فرفعوه إلى مراتب ملوكهم من فراعنة
الوادي^(٢) .

أحمد بروي

(١) انظر :

Amir (Mustafa), JEA. 43 (1948) p. 51—56 ثم JEA. (1941) p. 165

(٢) نستطيع أن نرى أثر ذلك على شاهد من حجر آله إلى متاحف برلين
يحمل لدارا الفارسي صورة في هيئة الصقر . هذا بالإضافة إلى أن من أيام هذا
الملك آثاراً تدل على حكمته ، وجمال سياسته ، وسلامة مسلكه ، وحسن معاملته ،
وشدة حرصه على إرضاء عواطف المصريين وبخاصة الدينية .

(انظر : (Ed. Meyer, Der Papyrusfunde von Elephantin S. 36

نص الكتاب

- ١ — بعد وفاة « قورش »^(١) تولى الملك « قبيز » ، ولده من « كاسنداني » ، ابنة « فارناسيس » . ولما ماتت هذه قبل زوجها « قورش » ، حزن هو نفسه عليها حزنا شديداً ، وأمر كل رعيته بأن تلزم الحداد أيضاً .
- فأما « قبيز »^(٢) ، ابنها من « قورش » ، فكان يعد « الأيونيين » و « الأبوليين » عبيداً^(٣) ، ورثهم عن أبيه . وعندما جهز حملة على مصر^(٤) ، ضمّن من أخذ من شعوب مملكته ، اليونانيين الذين كانوا تحت إمرته .
- ٢ — قبل حكم « ايسماتيك » ، كان المصريون يعتقدون أنهم أقدم الناس في الوجود^(٥) . ولكن لما تولى « ايسماتيك » الحكم ، أراد أن

(١) مات « قورش » في أواخر عام ٥٢٩ ق . م . (انظر : ص ٥٢)

(٢) انظر : ص ٥٢

(٣) تلك كانت نظرة الغالب إلى المغلوب في العالم القديم (وهي لم تزل كذلك حتى يومنا هذا) ؛ يفرض عليه سلطانه ، ويستغل أرزاقه ، ويسوقه مكرهاً إلى الحرب . هكذا فعل الفرس بمن غلبوا من شعوب الأرض ، وهكذا نظر المصريون من آل فرعون إلى أسراهم من شعوب الدنيا . وهكذا سلك اليونان والرومان إزاء من حكموا من الأمم والشعوب في سائر أقطار الدنيا .

(٤) خلف « قبيز » أباه « قورش » على العرش في عام ٥٢٩ ق . م . وكان مقدراً أنه بدأ حملته على مصر في عام ٥٢٧ ، ثم تبين من بعد ذلك أن الحملة وقعت في عام ٥٢٥ ق . م . (انظر : ص ٥٣) .

(٥) الواقع أن ذلك لن يبدو غريباً من آل فرعون ؛ فتاريخهم بالقياس إلى من جاورهم من شعوب الأرض — وبخاصة في حوض البحر المتوسط — قديم =

يعرف أى الشعوب أقدم . ومنذ ذلك الحين يعتقد المصريون أن

== بل عتيق ، وحياتهم منذ قومتها مزدهرة بألوان من الحضارات الرفيعة ؛ لم يسبقهم إليها من تلك الشعوب سابق . وكانوا يعرفون ذلك ؛ فهم فى رأى أنفسهم « الناس » وغيرهم من أشباه الناس ؛ لسانهم إلهى مقدس ، والسنة غيرهم — من أشباه الناس — رطانة . نيلهم بحر ، وأنهار من عداهم من شعوب الأرض ترع وجداول . أرضهم أرض السواد (أى الخصب) ، وماعداها من أرض أوطان الدنيا صحراء جدياء . تلك أمور عرفها الإغريق وتحدث عنها كثيرون من كتّابهم الذين سبقوا « هردوت » .

ويزعم العلماء الذين كتبوا فى علم الأجناس أن البحوث التى أجريت على جماجم المصريين التى عُثِرَ عليها فى كثير من قبورهم القديمة ، تشير إلى أن أقوى العناصر التى تكون منها شعب مصر قد كان عنصر اشمالياً ، على حين كانت العناصر الأخرى مزيجاً مختلطاً من سودان الأرض ومن القبائل السامية التى دخلت الوادى من أبوابه الشرقية . ويرى المؤرخ الألمانى Ed. MEYER أن أكثر سكان وادى النيل الأسفل وأقاليمه الوسطى إنما يرجعون بأصولهم إلى ديار شمالية ؛ يجعلها عند جبال القوقاز ، ويرجح أن هجرتهم وقعت أيام العصر الجليدى فى أوروبا ، وأنهم بلغوا شمال إفريقيا عبر « جبل طارق » ؛ فنزل بعضهم على هضاب « برقه » ، ومن هؤلاء قبائل البربر المعروفة . ونزل آخرون على عيون الماء المنتشرة فى بطون الصحراء الليبية وأوديتها ، على حين اندفع أكثرهم نشاطاً وأشدهم طموحاً إلى وادى النيل ؛ فنزل أكثرهم فى بقاعه الشمالية وبقاعه الوسطى ، ومنهم من بلغوا أقاليم النوبة واستقروا فيها ، ومن بلغ سواحل « الصومال » التى أسماها المصريون « بنط » . والواقع أن لراى المؤرخ الألمانى المذكور من الشواهد والأدلة ما يؤيده ويرجح صدقه ؛ فقبايل البربر شقر وذوو عيون خضر ، وكذلك كان سكان الواحات — كما نرى فى بعض صورهم التى رسمها المصريون القدماء — . والنوبيون كذلك ليس لهم من مميزات الأفريقيين غير السمرة الشديدة ، وأهل الصومال الذين أمماهم الفراعنة أهل « بنط » لا تسكاد سخهم وألوانهم — كما تبدو فى صورهم التى سجلها المصريون من رجال البعثة أيام الملكة « حتشبسوت » — تختلف عن سخن المصريين وألوانهم فى شئ .

« الفريجيون » (١) أسبق منهم ، وأنهم أنفسهم أقدم من الآخرين جميعا .
ولما لم يستطع الملك ، بأية وسيلة من الوسائل ، الاستعلام عن أى الشعوب
أعرق في الوجود ، فكر فيما يلي : —

عهد بطفلين حديثي المولد ، من بين العامة ، إلى راع ليربيهما بين ماشيته
على النحو الآتي : أمر الملكُ بالآلا ينطق أحدُ بكلمة ما أمام الطفلين ، وأن
يوضعا في مكان منعزل ، وأن يُحضَرَ إليهما الراعى عززات في ساعة معينة ،
وبعد أن يشبعهما من لبنها ، عليه أن يقضى سائر حاجتهما . قام « إسماتيك »
بهذا العمل ، وأصدر أوامره رغبةً في أن يسمع أول صوت يصدر من الطفلين
بعد أن يقدرا على إخراج المقاطع (٢) واضحة . وهذا ما حدث : انقضى عامان

(١) الفريجيون قوم سكنوا آسية الصغرى منذ عصور قديمة . وكانت ديارهم

في المناطق الوسطى منها . انظر : Breasted, Gesch. Aeg. SS. 227,263

(٢) يكاد الناظر في هذه القصة يرى من خلالها أطيافا من الشك الذى يقفز
فيشط بها إلى مواطن الخيال ؛ إذ ليس من السهل أن تتصور أن آل فرعون
الذين أفنوا من عصر الزمان دهوراً يفاخرون أمم الأرض بمجدهم وعراقة أصلهم ،
وقدسية لسانهم ، هم يرون أنهم ارتفعوا بكل أولئك من عوالم الأرض إلى أجواز
السماء ، يلجأون إلى مثل هذه التجربة إلا أن تكون عقولهم قد شاخت فحرفت ،
كاشاخ من حولها الزمان أيام « إسماتيك » الذى تشكك كُتَّابُ التاريخ في أصله
حتى قال بعضهم إنه لم يكن من أصل مصرى عريق (انظر ص ٤٤/٤٥) . ولسنا
نرى في حكم العقل ، ولا في حكم المنطق ؛ ولا في حكم الزمن وظروف الحياة
المصرية يومئذ ما يمنع من أن تكون القصة صحيحة ؛ فالأيام كانت قد تغيرت ،
والوان الحياة كانت قد تبدلت ، وكبرياء المصريين وعزتهم كانت قد
رقت ؛ لكثرة ما نزل بهم من محن ، كما أن مليكهم « إسماتيك » لم يكن
مصرى الأصل — كما قدمنا — ، ولا مصرى الهوى فيما يبدو ؛ فرهطه الأدنون
وعشيرته الأقربون ، ورجال بلاطه ، وأمراء عسكره ، لم يكونوا من الوطنيين ،
وإنما كان أكثرهم — إن لم يكونوا كلهم — من الأفارقة النزلاء . ولن يستبعد =

والراعى يقوم بما سبق ذكره . ولكن حدث مرة عندما فتح الباب ودخل على الطفلين ، أن ارتى كلاهما عند قدميه ونطقا « بكوس » (١) . وقد مدّا

== — بعد الذى قدمنا — أن يكون « ايسماتيك » قد قام بتلك التجربة ؛ فتلها قد حكي عن « فردريك الثانى » ملك بروسيا ، وعن غيره من حكام العصور الحديثة . مثل Jacobus IV ملك اسكوتلانده . انظر :

(Waddell, W.G. HERODOTUS, (LONDON, 1939) Book II, p. 118, Note 1)

ثم (Wiedemann, Herodot's Zweites Buch S. 44 & 44—45)

مهما يكن من شىء ؛ فإننا نشعر أن هوى القصة إغريقى ، وأنها نسجت على منوال إغريقى ؛ فذكر العناز فيها يذكرنا بقصة « زيوس » عندما خشيت عليه أمه RHEA من بطش أبيه KRONOS فبعثت به إلى جبل IDA فى جزيرة « كريت » ؛ حيث قامت على رعايته أرواح الجبل يرضعنه من لبن عنزة أمموها AMALTHEA . وجاز بعد هذا كله أن تكون ثقافة « هردوت » الإغريقى ، وأثر بنى قومه من النزلاء فى مصر يومئذ ، قد مهدا لإخراج تلك القصة فى هذا الثوب الذى يلائم الثقافة الإغريقية ويستسيغه الذوق الإغريقى .

ولوكنت القصة مصرية الأصل والهوى ، لما اختير لغذاء الطفلين غير لبن البقر الذى شاش عليه « حورس الطفل » عندما اضطرت أمه « إيزيس » إلى تركه وحيداً بين أحراج الدلتا كما جاء فى الأسطورة الخالدة « إيزيس وأزوريس » .

(١) إذا كان المعروف أن الطفل يحاكى كل ما يسمع من صوت ؛ فليس يبعد أن يكون المقطع الأول الذى حاكاه الطفلان هو صوت العناز "Bek" (انظر : LEGRAND, HERODOT II, p. 66, Note 1—2)

والقصة بعد هذا كله — أياً كان بناؤها ولونها وهواها — إنما تدل على سذاجة فى التفكير . وأكبر الظن أن يكون مصدرها ما كان قائماً يومئذ بين الأفارقة النزلاء والوطنيين من أسباب المنافسة والبغضاء . وسرى — فيما روى « هردوت » عن العلاقة بين الفريقين — ما يدل على ذلك فى صراحة ووضوح (انظر الحديث عن ذلك فى المقدمة ص : ٤٩ ، ٥٠) .

وينبغى أن نفرض كذلك أن « هردوت » لم يكن مجرداً من الهوى والميل ؛ فإذا لم يستطع أن يميز قومه الأفارقة على المصريين من حيث القدم وعراقة الأصل ، فلا أقل من أن يبحث بين الشعوب عمن يفضل المصريين فى ذلك على كل حال .

أيديهما نحوه . وعندما سمع الراعى هذه الكلمة التزم الصمت أول الأمر . ولكن لما تكررت الكلمة مراراً كلما ذهب لزيارة الطفلين والعناية بهما ، نقل الخبر إلى مولاه الذى أمره بإحضارهما أمامه . وعندما استمع « إيسماتيك » بنفسه إلى الطفلين ، أخذ يستعلم : أى الشعوب أطلق كلمة « بَكُوس » على شيء من الأشياء . وبالبحث اكتشف أن « الفريجيين » يسمون الخبز بهذا الاسم . وهكذا اعترف المصريون وحكموا فى ضوء هذه التجربة بأن « الفريجيين » أقدم منهم . ولقد سمعت من كهنة « هيفايستوس » (١)

(١) رأى الإغريق فى معبودهم « هفايستوس » نظيراً لمعبود المصريين « بتاح » ؛ فخلعوا على هذا الأخير اسم معبودهم الذى ذكرنا . وهو لديهم ابن أكبر لمعبوداتهم « زيوس » ؛ أنجبته له زوجته « هيرا » ، وعرفه الرومان من بعد الإغريق فجعلوه من معبوداتهم ، ووسموه بصفته التى آمنوا بها فأسموه MULCIBER « مُلِبِين الحديد » ؛ فهو لدى أصحابه المؤمنين به إنما يمثل النار المنبعثة من جوف الأرض ، لا تتصل ببق السماء ورعدها وصواعقها . وكان « بتاح » فى عقيدة أصحابه من آل فرعون قد خرج من الأرض ؛ فصوروه فى هيئة آدمى . وكان الصراع بين أصحابه وبين منافسيهم من أصحاب المذهب الشمسى معروفاً منذ أواخر أيام الدولة القديمة .

كان « هفايستوس » عند الإغريق إذاً ، قريباً من الأرض بعيداً عن السماء ؛ يشير إلى ذلك ما جاء فى الأساطير من حذبه على أمه ، وبعده عن أبيه الذى كرهه وغضب عليه فقذف به من قمة جبل « أوليمب » فظل نهاره يهوى مساقطاً حتى إذا ما غربت الشمس وقع على جزيرة « LEMNOS » .

وفى رواية أخرى أن أمه « هيرا » ألقت به فى اليم فتلقته الأرواح ورعته ؛ فسكف عندها على العمل فى صياغة الذهب . وإذا كان يمثل النار ؛ فقد اتصل عمله — فضلاً عما ذكرنا — بكل ما يُسبى على النار من صناعة ؛ كصناعة الفخار فى « أثينا » . هذا ؛ ولم يكن الفخار وحده ، ولا المعدن وحده ، ولا غيرها معاً =

في « ممفيس »^(١) أن الأمر قد حدث كما شرحت . ولكن يروى اليونانيون

== من كل ما يصاغ على النار من منافع البشر وحسب ؛ بل كانت النار في الأرض خطوة مباركة في سبيل تقدم الحياة البشرية على كل حال . والذي ينظر إلى قيمة معبود المصريين « بتاح » وعقيدة أصحابه فيه ، ثم إلى قيمة نظيره « هفايستوس » عند الإغريق ، يرى الأول يشير إلى ذلك التطور الرفيع في سَيْر التقدم الإنساني ؛ فتحت رايته وباسمه خرجت مصر من طور الحياة الزراعية إلى طور الخلق والتصنيع ، وكذلك كانت لمعبود الإغريق مثل هذه القيمة فيما يبدو .

كان « بتاح » يمثل « الصَّنَاع الأعظم » بين أرباب مصر ؛ يحمى الصناعات والفنون ، ويرعى أربابها ، ويلهمهم آيات الفن الرفيع . كما كان كبير أحبار « إمام الصناعات » . وتحت راية « بتاح » ظهرت دنيا الفراغة بخير ما أُخْرِجَ للناس من بدائع النحت وروائع الفن . وفوق أديم « منف » وتحت راية كهانها صاغ صُنَاعها ورجال الفنون فيها من البدائع والروائع مالا يحصى ولا يوصف من تحف الذهب والفضة ، والبرنز والخشب والعاج والحجر ، ومن دروع الحرب وأسلحة القتال وعدته ، ومن عماثر الدين والدنيا ما يحير العقول ويهر الأبصار . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن نظيره « هفايستوس » عند الأغريق ؛ فهو الذي صنع درع أبيه « زيوس » وصاغ له صولجانه الرائع . وهو الذي سَلَّحَ « آخيل » وصاغ أسلحة « هرقل » ، ثم صاغ لنفسه — وكان أعرج — عكازتين من ذهب ، وأخرجهما في هيئة جارييتين . وكانت له دار صناعة في جبل AETNA بجزيرة « صقلية » يُعَيَّنُ مَنْ كنوزها أباء « زيوس » أيام الحرب والغارة ؛ فيبعث إليه بالآشداء من الآلهة مدججين بأجود أنواع الدروع والسلاح . والعجيب أن « ممفيس » مدينة « بتاح » وكعبته الخالدة ، قد جعلت منها الأيام والظروف معسكرا لجيوش فرعون ودارا لصناعة الحرب فضلا عن كل ما ذكرنا من صناعات .

انظر: BADAWI (Ahmad), MEMPHIS als Zweite Landeshauptstadt: im NR. (Cairo 1948) S. 53

(١) ممفيس «منف» ثانية عواصم الدولة المصرية المتحدة في تاريخ آل فرعون من حيث القدم ، وقد عرفت بهذا الاسم منذ أيام الأسرة السادسة . وكانت من قبل ذلك تعرف بالقلعة البيضاء أو « الدار البيضاء » .

— فيما يروون من سخافات متعددة — أن « إيسماتيك » قد أمر بقطع ألسنة بعض النسوة ، وطلب أن يقيم الطفلان بالقرب منهن (١) .

٣ — هذا ما قصه على الكهان بشأن تربية الطفلين .
وسمعت أيضاً في « ممفيس » حكايات أخرى حين تحدثت مع كهنة « هيفايستوس » . ولقد توجهت كذلك لتلقاء « طيبة » (٢)

= ينسب بناؤها إلى « منا » ما بين ٣٤٠٠ — ٣٢٠٠ ق . م . وقد أقامها يومئذ عند رأس الدلتا . وبعض أطلالها وخرائبها ما زالت بادية عند القرية المعروفة باسم « ميت رهينة » من قرى مركز البدرشين بمحافظة الجيزة . ولإن لها في تاريخ دنيا الناس طامة ، ودنيا المصريين بخاصة لشهرة فائقة ، كما أن لها من الأسماء والصفات غير ما ذكرنا .

(انظر : BADAWI (Ahmad) MEMPHIS. ibd S. 2 ff .)

ثم (أحمد بدوى ، « في موكب الشمس » ج ٢ ص ٦٣٠ وما بعدها) .

(١) انظر كيف يحاول « هردوت » تأكيد القصة حين يزعم أنه سمعها من كهان « منف » ثم استطرده مغترضاً ، ومحاولاً في آن معاً أن يستر غرضه ويدارى موقفه حين يرمى من تقدمه في روايتها من قومه بالسخرى ؛ ذلك لأنهم زعموا في روايتهم أن « إيسماتيك » قد عهد بالطفلين إلى نسوة ، ثم أمر بقطع ألسنتهم حتى لا يستطعن الكلام .

(٢) طيبة : يرجع بعض كُتّاب التاريخ بعهد نشأة هذه المدينة إلى أيام الأسرة الأولى (انظر : Beike, Egyptian Antiq. in the Nile Valley, p. 333) ويجعلون نواتها الأولى في المكان الممتد بين معبديها العظيمين (الكرنك والأقصر) على شاطئ النيل الشرقى ، وبين « ذراع أبي النجا » و « مدينة هابو » على شاطئه الغربى .

ولهذه المدينة العظيمة كآختها « منف » أسماء أخرى . إلا أن اسمها « طيبة » قد اشتهر في كتب المؤرخين القدامى من يونان ورومان حتى ملأ أسماع الدنيا ، وحتى كففت عن مجدها الشعراء ومنهم « هوميروس » ؛ الذي أعجب بكثرة كنوزها =

و « هيلوبوليس » (١) من أجل تلك الأمور بعينها ، رغبة في التأكد من أن

= وعظمة قصورها ، وجعل لها « مائة باب » يتسع كل منها لمروء مائتي رجل (انظر المرجع السابق ص ٣٤٢) . ويمثل ذلك وصفها ككتاب الغرب الأقدمون ومنهم « ديودور الصقلي » ، و « استرابون » ، و « بيلينيوس » مم « اسطفانوس البزنطى » حين أسموها EXATOMPOLUS (ذات المائة باب) أو « ديوس بوليس مجنا » مم « ديوس بوليس هيميچالى » أى (مدينة الله السكبى) . ولا يستبعد بعضهم أن يكون الاسم « طيبة » تصحيفاً لاسم مصرى قديم ، وأن يكون الأغريق قد اختاروا هذا الاسم — على قلة ذبوعه لدى المصريين يومئذ — بقصد الملاءمة بينه وبين اسم « ثيبا » الأغريقية ، وعلى ذلك يكون معناه — أن صح هذا التخمين — « القدس » . ولتلك المدينة فى تاريخ الدنيا عامة وتاريخ مصر والشرق القريب بخاصة شهرة لاتعد لها شهرة .

(انظر تفصيل الحديث عن ذلك فى الفصل السابع من كتابنا فى موكب الشمس ج ٢ ص ٣١٧ وما بعدها) .

(١) هيلوبوليس : (مدينة الشمس) اسم وُضِعَ للإغريق للمدينة المعروفة فى قلب هذا الوادى ، وكانت أول عواصم المملكة المصرية المتحدة . يرجع المؤرخون بتاريخ نشأتها إلى ما قبل عام ٤٢٤٠ ق . م . وذلك بعد ما اتسعت آفاق المصريين ، وفطنوا إلى قيمة الوحدة والائتلاف بمد طول التجارب ، وبعد ما تبين لهم أن أمور حياتهم لا تستقيم فى هذا الوادى إلا على أساس الاتحاد الشامل ؛ فبدلوا فى سبيل ذلك كل ما ملكوا يومئذ من جهد ، حتى بلغ بهم السعى غاية المنى ؛ فجعلوا عرش سلطانهم فى ذلك المكان الذى يتوسط أقاليم الديار فيقع منها مكان القلب ، وأسموها يومئذ « أون » التى جاء ذكرها فى التوراة . وأكبر الظن أن الاسم كان لبرج يرقب الكهان منه أفلاك السماء ؛ لاحبا فى النظر فيها ، والتطلع إلى سيرتها وحسب ؛ بل طمعا فى ضبط مواعيد فيضان النهر أولا وقبل كل شئ . فعلى فيضان النهر تتوقف أمور معاشهم . ولقد استطاعوا يومئذ أن يقيموا أمور حياتهم على قواعد ثابتة من النظام والحساب المنضبط .

كهنتها يوافقون على روايات كهنة « ممفيس » ؛ إذ أن كهنة « هليوبوليس » يُعتبرون أغزر المصريين علماً (١) ؛ أما الأحاديث التي سمعتها عن الآلهة ، فلا أحب أن أشرحها بالتفصيل ، ولكنني أكتفي بذكر أسماء الآلهة وحسب ؛ لأنني أعتقد أن الناس كلهم متساوون في القدر الذي يعرفون عن الآلهة (٢) .

= ولم يبق من آثار تلك العاصمة العتيقة غير تلك المسألة القائمة يقصد إليها الناس من السائحين أحياناً . وهي إحدى اثنتين أقامها فرعون مصر « سنوسرة الأول » ثاني ملوك الأسرة الثانية عشرة (انظر : « في موكب الشمس » ج ٢ ص ١٢٩ وما بعدها) .

وتعرف المدينة اليوم باسم « عين شمس » . ولسنا نستبعد وجود الصلة بين هذا الاسم الحديث وبين اسمها الفرعوني القديم ؛ ذلك إذا قدرنا أن لفظ « عين » تحريف أو تصحيف للفظ القديم « أون » وأن لفظ « شمس » قد أضيف إلى ذلك . ويكون معنى الاسم بعدئذ « برج الشمس » أو « معبد الشمس » أو ما يشبه ذلك . والله أعلم على كل حال .

(١) أما أن كهان « هليوبوليس » كانوا أغزر الناس علماً ؛ فذلك أمر لا شك فيه . وما نعرف في تاريخ آل فرعون الطويل ، أن طائفة من كهانهم قد استطاعوا أن يؤثروا في حياة مصر الثقافية والعقلية والروحية بقدر ما فعل أولئك الكهان . وإن نظرة خاطفة في مراحل التاريخ الفرعوني لتبين لنا تلك الحقيقة في وضوح وجلاء . (انظر : كتابنا « في موكب الشمس » ج ٢ ص ٧٣ و ٧٩ و ١٢٩ و ١٥١ و ١٦٨ و ١٩٩ و ٢٧٣ و ٣٠٤ و ٣١٠ و ٨٠٥ و ٨٠٨ و ٨٦٧ و ٨٩٤ و ٨٩٧ و ٩١٣ و ٩١٩ و ٩٢٤)

(٢) ليس من المعقول أن يكون أمر الناس في المعرفة على النحو الذي توهّمه « هردوت » ؛ فإما من شك في أنهم كانوا يختلفون في معارفهم اختلافاً شديداً ؛ فعبودات مصر الإقليمية قد تعددت وتطورت خلال تاريخها الطويل ، وأهل مصر — وأن اتحدوا سياسياً وإدارياً واجتماعياً — قد كانوا يستمسكون بأربابهم الإقليمية ، ويدعون لها كلها أتيح لهم ذلك ؛ فيدفعون بها إلى أمام ، =

فأما ما عسأى أن أذكره عنها ؛ فسأذكره مضطراً في سياق الحديث (١) .

٤ — أما بخصوص المسائل الإنسانية ، فالكهنة (٢) متفقون فيما بينهم على أن المصريين كانوا — من بين سائر البشر — أول من عرف السنة الشمسية ، وأنهم قسموا فصولها اثني عشر قسماً . ويقول الكهنة إنهم اهتموا

وينظمون في قيسمها وقدراتها ومناقبها وقدميها ، الطوال والقصار . وإنا لنظن أن أمر المعبودات في مصر قد غمض على « هردوت » لكثرة ما سمع من مختلف الروايات ، فتعلل بأيثار الصمت عن جهل وعجز .

وليس يفوتنا بعد ذلك أن نشير إلى ما ذكرنا (ص ٢٥) من جهل « هردوت » بلسان المصريين من ناحية ، ومن كره المصريين للأجانب ونفورهم منهم من ناحية أخرى .

كل أولئك أمور كان من شأنها أن تعوق الرجل عن إدراك كل ما سمع من الأدلاء والتراجمة من بنى قومه ، خصوصاً إذا أضفنا إلى ذلك طول العهد ، وجهل أكثر المصريين الذين اتصل بهم « هردوت » بأصول عقائدهم وتاريخ معبوداتهم . ثم لن يفوتنا بعد هذا كله مكر طوائف الكهان في عواصم الديار المختلفة بعضهم ببعض ، وضم الكهان عامة في كل زمان ومكان بأسرار عقائدهم . (١) مثال ذلك ما ورد في الفصل الخامس والستين من هذا الكتاب .

(٢) واضح أن « هردوت » لا يقصد كهان عاصمة بعينها ، وإنما يقصد كهان العواصم التي زارها ونفى : « ممفيس » و « هيليوپوليس » و « طيبة » على النحو الذي مر ذكره في الفصل السابق . أولئك هم الكهان الذين ذكر أنهم رواة ، وأنه سمع منهم ما ينسبون إلى شعبهم من فضل السبق في العلم والمعرفة . وواضح من ذلك أن « هردوت » يريد أن يقنع قراءه بأن ما أثبت في كتابه من معارف ومعلومات عن مصر وشعبها في هذا الباب إنما مرجعه إلى رواية الكهان ؛ يثبتها كما نقلها عنهم ، فإن صدقت فهي لهم وعندهم ، وإن كذبت فهي عليهم وليست عليه . لكأنما يريد الرجل أن يعتذر لقومه من إثبات تلك الفضائل الإنسانية التي سبقهم إليها آل فرعون .

إلى معرفة هذا التقسيم بمراقبة النجوم . وهم - في نظري - يتفوقون بتقويمهم هذا على اليونانيين ؛ لأن هؤلاء يضيفون كل ثلاثة أعوام شهراً نسيئاً إلى السنة حتى تستقيم الفصول . أما المصريون فيعدّون اثني عشر شهراً ، ولكل منها ثلاثين يوماً . ويزيدون على هذا العدد خمسة أيام كل سنة . وبذلك تنتهي دورة الفصول عندهم بنفس التاريخ الذي بدأ به التقويم (١) . ويقول الكهنة إن

(١) تلك حقيقة يقرها سائر الذين كتبوا في تاريخ آل فرعون ؛ فهم يقررون أنهم قد عرفوا سنة شمسية عدة أيامها خمسة وستون وثلاثمائة يوم ، وأنها تختلف في كثير من تلك السنة التي ترجع إلى زمان « يوليو قيصر » . وقد لا ندعو الواقع إذا نحن قررنا اليوم مطمئنين ؛ أن السنة الشمسية التي عم التأريخ بها في الغرب ، والتي جرى التأريخ بها في سائر بلاد العالم المعروف ، إنما هي أصلاً من حساب آل فرعون ؛ عرفوها منذ عصور بعيدة جداً ؛ عرفوها أواخر أيام الفجر الصادق من تاريخ حياتهم ، وجعلوا عدة شهورها اثني عشر شهراً ، ثم جعلوا الشهر ثلاثين يوماً ، ثم زادوا على أيام السنة من بعد ذلك خمسة جعلوها أعياداً يحتفلون فيها بذكرى موالد خمسة من أربابهم الكبرى ؛ وهي على التعاقب « أزوريس » و « إيزيس » و « ست » و « نفتيس » ثم « حوريس » . ثم وزعوا شهور السنة بين فصول ثلاثة ، يعدّ كل منها أربعة أشهر كاملة . وأول هذه الفصول فصل الفيضان ، وثانيها فصل الفلاحة والزرع ، وثالثها فصل الحصاد والجفاف . وذلك تقسيم طبيعي يلائم وجه الأرض وألوانه المختلفة على مدار العام . وإن في ذلك التقسيم الطبيعي الصادق وحسابه الفريد ما يشير إلى قيمة النيل وأثره الواضح في تفكير المصريين الأصيل المنبعث من طبيعة أرضهم ، ولن يبدو غريباً أن يجعل المصريون من بشائر الفيضان مطاعاً لعامهم . غير أنه قد بدا لهم من بعد ذلك أن مطلع العام ربما يختلف عن موعد الفيضان مع مرور الزمن ، وذلك بسبب تكرار الأيام الخمسة الزائدة على حساب الدورة ، كما تبين لهم أن أمر ذلك من العيوب الواضحة والقصور في الحساب . ويتضح الفرق من بعد ذلك بين السنة المصرية التي تبلغ عدة أيامها خمسة =

المصريين كانوا أول من سَمَّى الآلهة الإثني عشر بألقابها ، وإن اليونانيين

= وستين وثلاثمائة يوم . والسنة القبطية التي تعود دورتها كل خمسة وستين وثلاثمائة يوم ورابع يوم . ثم يبدو العيب آخر الأمر واضحاً في حساب السنتين معاً ، إذ أن الأخيرة تصبح سنة وستين وثلاثمائة يوم كلما ما استدار العام أربع دورات ، كما أن الأولى تقصر عن الأخيرة ربع يوم كلما استدار العام .

ويظل ذلك العيب واضحاً في الإثنين حتى يتمكن البابا « جريجوار » في غضون القرن السادس عشر الميلادي أن يدخل على السنة من الإصلاح ما يسقط يومها الزائد كل مائة دورة .

وليس يفوتنا آخر الأمر أن نسجل للمصريين في هذا المجال خطوة موفقة ثانية ، وهي أنهم — لطول نظرهم في نجوم السماء — قد لاحظوا مع مرور الزمن أن بشارت الفيضان كانت تطالعهم مع ظهور نجم يبدو في سمائم الصافية واضحاً قبيل شروق الشمس ، وهو النجم الذي أسماه العرب « الشعرى اليمانية » ، مكانه في دوائر الفلك خلف الجوزاء ، وهو أنور كوكبة الكلب الصغرى . وكانت « الشعرى » من معبودات قريش ، وجاء ذكرها في القرآن الكريم (سورة النجم) لكثرة عبّادها الذين افتتنوا بها فمشقوها .

ومن قبلهم عشيق المصريون بهذا الكوكب ، وتغنوا بطلعته في أشعارهم وأناشيدهم الدينية فأشبهوه « مجاب الفيضان » وجعلوه علماً على أمهم « إيزيس » . ولا غرابة فيما فعلوا ؛ فهم إنما يستقبلون بمطلعه الحياة كلما استدار العام ، فيتذكرون أمهم تلك ، وهي مصدر الغذاء الأول . فأما اسم الكوكب عندهم فهو « ستة » وكان عند الإغريق في صورة الكلب ولعل ذلك ما جعل الرومان من بعد الإغريق يصورونه في هيئة « إيزيس » تلعو كلباً .

(انظر : MEYER, Ed. Aegyptische Chronologie, Abhlg. d, : Preus. AK. d. W. Berlin 1904.)

(ERMAN (Ad.), Die Relig. d. Aegypter S. 397) ثم

والمؤرخون يقدرّون أن المصريين قد رصدوا مسيرة ذلك الكوكب وجعلوا من مشرقه مطلع العام أيام حكومتهم المتحدة الأولى في « هيليوبوليس » حوالى =

تقلوا ذلك عنهم (١). ويقولون إن المصريين كانوا أول من وقف

= عام ٤٢٤٠ ق.م. وعرفوا دائرة البروج؛ تذكر منها مثلاً ما وجد في رسوم سقف ضريح الملك « سبتى الأول » بوادى الملوك، ثم في سقف إحدى غرفات معبد « دندره ». وقد آل ذلك الأخير إلى متحف اللوفر بفرنسا. وفي المعبد الجنائزى الخاص بفرعون « رمسيس الثانى » والمعروف اليوم باسم (الرمسيوم). ثم في مقبرة « سنموت » من عهد الملكة حتشبوت بجبانة طيبة.

(١) لسننا نجد لمقالة « هردوت » التى يزعم أنه معها من الكهان المصريين من تعليل غير الخلط وسوء الفهم. إذ أن ذكر الأرباب الإثنى عشر من الأمور المعروفة عند الإغريق، يقصدون بها طائفة الأرباب العليا (أرباب أولمپ) وهى على التعاقب: زيوس. هيرا. بوسيدون. ديمتر. أبوللون. أترميس. هفايستوس. أثينا. پللاس. آريس. أفروديت. هرمس، ثم هستيا.

تلك هى المجموعة الكبرى التى ذكرها « هومير »، ثم زيد عليها بعد ذلك واحد وهو « ديونيسيس ». وقد عرف الرومان تلك المجموعة بالأسماء الآتية: جوبيتر. يونو. نپتون. كيريس. أبوللون. ديانا. فولكان. مينرفا. مارس. فينوس. مركور، ثم قستا.

أما المصريون فقد عرفوا التثليث فى كثير من عواصم ديارهم الكبرى مثل « هليوپوليس » و « ممفيس » و « طيبة ». ثم عرفوا « التساسوع » فى « هليوپوليس » من الأرباب الآتية: آتوم. شو. تفتوة. رجب. نوة. أزوريس. إيزيس. ست. ثم نفتيس. وزيد عليها بعد ذلك « حوريس ».

كذلك عرف المصريون فى هذا المجال ما نسميه « الثامون »؛ يرمزون بأعضائه إلى عناصر السكون الكبرى من ذكر وأنثى. فكان عندهم « نون » و « نونة » للماء الأزلى. و « حاح » و « حاحة » للفضاء اللانهائى، و « كاك » و « كاكة » للظلام المطبق، و « آمون » و « آمونة » للهواء. وتلك فى عقيدتهم عناصر السكون كما رآها كهان « الأشمونين ».

ولسننا نجد لرواية هردوت من سند بعد ذلك غير ما ذكرنا فى أول الحديث، إلا أن يكون لنظام الاقاليم فى زمان حكم الآشوريين — الذين قسموا مصر حين غزوها اثني عشر إقليماً — أثر فى تلك الرواية.

للآلهة الهياكل والتماثيل والمعابد ، وإنهم أول من حفر الصور على الأحجار (١) .
وقد برهنوا على أن أغلب ما قالوه قد حدث فعلاً . وقالوا أيضاً إن « منا »
كان أول ملك لمصر من البشر (٢) ، وإن مصر في عهده ، كانت كلها مستنقعا

(١) الغالب أنه يقصد بذلك الكتابة الميروغليفية ، ثم ما انتشر حولها من
صور ؛ بعضها محفور حفرأ غائراً في الصخر وبعضها بارز .

(٢) هكذا يتحدث « هردوت » عن « منا » . ويقول إنه سمع ذلك من
السكران . والظاهر أن أمر تلك القصة ؛ قصة « منا » وتوحيد أقاليم البلاد ،
بل توحيد القطرين على يديه ، وتحت رايته ، ثم بناء « القلعة البيضاء » أو « الدار
البيضاء » عند رأس الدلتا (انظر : BADA WI (Ahmad) Memphis S.1 ff)
لتكون عاصمة للمملكة المتحدة ؛ نقول إن أمر ذلك كله قد كان له في تاريخ البلاد
وفي وعى الأجيال المتتابة أثرٌ قوى جداً . وإن دوى تلك الأحداث قد ظل
يملا أعماع الدنيا دهوراً ، كما غدا بطل تلك الأحداث علماً من أعلام التاريخ ،
حتى عدّه أكثر رواة التاريخ وكتاب السير أول ملوك مصر .

فالأبواب التي نحصى أسماء الملوك وأسراهم تشير إلى ذلك ، والمؤرخ المصري
السمنودى « منتون » الذى كتب سير الملوك وأخبارهم فى زمان « بطلميوس
الثانى » (حوالى ٢٨٠ ق . م) قد جعل الأسر الحاكمة ثلاثين أسرة ، وجعل
رأس أولها « منا » .

وعلى الرغم من كل ما ذكرنا ؛ فليس حتماً علينا أن نأخذ بهذه الأخبار فنجد
« منا » أول حكام مصر من البشر ، كلاً ؛ لأنه لم يكن أول حكام مصر ، ولم
تكن أسرته أول أسرة حكمت مصر ، وإنما هناك أسر أخرى اضططعت بحكم
مصر قبل زمان « منا » وأسرتها . وإلى ذلك يشير « تبت بالرمو » ، وهو أقدم
جريدة تاريخية تشير إلى من حكموا مصر قبل ظهور « منا » وقبيله . غير أن
الظروف التى ظهر فيها « منا » على مسرح التاريخ ، واستطاع أن ينتقل بمصر
والحياة المصرية من طور إلى طور ، قد جعلت من أيامه فاتحة أمة جديدة ؛ قامت
وحدها تحت رايته وبين يديه ، فأخذ هو وخلفاؤه ينهضون بالبلاد .

ما عدا ولاية طيبة بينما لم يظهر فوق الماء جزء واحد من الأرض التي توجد الآن شمال بحيرة « مويريس »^(١)، وهذه تقع من البحر على سفر سبعة أيام تصعيداً في النهر^(٢).

== ومن أجل ذلك لم تستطع الأيام أن تنسى له ذلك الحادث العظيم ، ومن أجل ذلك أيضاً جعله الناس على رأس الحاكمين من ملوك البشر في هذا الوادى . وفى ذلك تجوز مبعثه بريق البطولة وتقديسها وبخاصة فى أشخاص من امتحّنا فى سبيل الوحدة طويلاً ، واكتنوا بنار الكفاح دهوراً ؛ فصبروا وصابروا حتى شاء الله أن يَصْرِفَ عنهم الكرب ويرزقهم نعمة الفياء فى ظل الوحدة .

انظر : (١) Sethe, Untersuchungen Bd. III, S. 16 ff.

(٢) BADAWI (Ahmad) Memphis, S. 1 — 2

(٣) أحمد بدوى ، « فى موكب الشمس » ج ١ ص ٩٣ — ١٠٠ .

(١) انظر الحديث عن تلك البحيرة (فصل رقم ١٤٩ من هذا الكتاب) .

(٢) تلك رواية نستطيع أن ننسب ما فيها من مبالغة ظاهرة إلى كهان

ممفيس ، اللهم إلا أن يكون « هردوت » قد أخطأ الفهم ؛ فكهان ممفيس الذين عشقوا مدينتهم وأحبوا أن ينسبوا الفضل فى تعمير الدلتا إلى بطلهم « منا » ، قد جاؤا المبالغة إلى الشطط حين زعموا أن الدلتا قبل أيام بطلهم « منا » كانت خراباً . إذ الواقع أن الدلتا يوم فتحها « منا » كانت عامرة أهلة بالسكان ، مزهوة بألوان من الحضارات الإنسانية التى لم يتوافر مثلها فى صعيد الوادى ولا فى أقاليمه الوسطى ، كل ذلك على الرغم مما كان يغشاها من المستنقعات والأحراج التى كانت تزخر بكثير من حيوان الصيد وطيئه . وإنه لمن الثابت — حتى فى أواخر أيام الدولة القديمة على الأقل — أن سادة البلاد والمترفين من أعيانها قد كانوا يترددون عليها للاستمتاع بين أحراجها بلهو الصيد ولذائنه .

أما المسافة بين البحر وبحيرة « مويريس » فلا ندرى على أى أساس قدر « هردوت » مداها من الوقت ، وبخاصة بعد أن قدر لرحلته من « هليوبوليس » إلى « طيبة » - وهى ضعف ما بين شاطئ البحر و « بحيرة مويريس » — تسعة أيام ، إلا أن تكون سبيله إلى البحيرة قد اختلفت ، أو أن يكون هو قد أخطأ التقدير .

٥ — ويظهر لى أن كلامهم عن وطنهم صحيح ؛ إذ يتضح لمن لم يستمع إليهم من قبل ، ولئن عساه أن يكون قدرأى البلاد وحسب ، وكان عليهما بصيراً ؛ يتضح له أن مصر التى يبحر إليها اليونانيون أرض مكتسبة ، وأنها هبة من النيل (١) . والإقليم الواقع على مسافة رحلة مداها ثلاثة أيام جنوبى البحيرة ، يشبه هذه الأرض فى تكوينه (٢) . وإن كان هؤلاء (الكهنة) (٣) لم يقولوا عنه

(١) يمثل هذا نحدث آخرون من الكتّاب الأقدمين عن ذلك الجزء من أرض مصر الذى يقع بين ذرغان النيل ، ثم ينتشر من حولها ، والذى اصطلاحوا على تسميته بالدلتا . ويعتبر « هيكاتيه المملطى » أول من أشار إلى هذه الحقيقة . ثم أتت « هردوت » حين قال إن هذه البقاع من أرض مصر « هدية النيل » . ومن الواضح أن ذلك رأى سليم ؛ فأبحاث الجيولوجيين قد أثبتت أن الدلتا كانت مغمورة تحت مياه البحر ، وأن النيل بناها وشكلها من رواسب طمية .

على أن الناظر فى طبيعة الوادى كله من وراء « أسوان » حتى ساحل البحر الأبيض ، لا يكاد يشك فى أن « هدية النيل » لا تشمل فى ذلك الجزء من شمال الوادى الذى يتحدث عنه هردوت وغيره من سبقوه وحسب ، بل أنها تشمل الوادى كله ؛ ذلك لأن مصر قبل النيل لم تكن شيئاً مذكوراً ، ولولاه لبقى ذلك الوادى الأخضر السعيد غمرأ فى مياه البحر ، أو جزءاً من تلك الصحراء العريضة التى شطرها مجرا شطرين ؛ صحراء العرب وصحراء ليبيا .

(٢) لا نستطيع أن نعرف أى الأقاليم يعنى « هردوت » بالضبط ؛ فهو يجمعه على مسيرة ثلاثة أيام من جنوبى « بحيرة مويريس » ؛ أى ثلث المسافة بين « هليوبوليس » و « طيبة » . فإذا صح تقديره وجب أن يكون ذلك الإقليم فى الشمال من موقع « سيوط » . ولسنا نستبعد أن يكون عند ذلك السكان الذى يفصل فيه فرع النهر المسمى « بحر يوسف » من أصله عند « ديروط » .

(٣) يقصد الكهنة الذين مر ذكرهم فى الفصلين الثالث والرابع ، أى كهنة العواصم الثلاث « هليوبوليس » و « ممفيس » و « طيبة » .

حتى ذلك الحين شيئاً من هذا القبيل . وهذه طبيعة أرض مصر ؛ عندما تبصرها إليها لأول مرة — وما زلت على مسيرة يوم من اليابسة — فإنك ستخرج طمياً إذا ألقيت بالمسبار على عمق أحد عشر باعا (١) . وهذا يشير بجلاء إلى أن الطبقة الطميية تمتد إلى هذا الحد .

٦ — ثم تمتد مصر على ساحل البحر ستين « إسخينوس » (٢) وقفاً .

(١) حوالى ٦٦ قدماً .

(٢) إسخينوس : σχοινός : مقياس من مقياس الأبعاد عند الإغريق ، يقدرونه عادة بنحو ستين « استاد » ؛ أى ما يساوى فرسخين . ويقال له الإغريق بمقياس كان لدى المصريين يقال له « إمرى » . ولأن كانوا لم يدققوا في ضبطه ؛ حيث ثبت من تحقيق المقياس التى وردت في كتب المؤرخين وأصحاب الوصف من الإغريق والرومان ، أنهم يحسبونه بمقدار ٣٠ « استاد » تارة ، و ٤٠ تارة ثانية ، و ٦٠ تارة ثالثة ، ثم ١٢٠ تارة رابعة .

ولما فكر الباحثون في ضبط هذه المقياس ، استطاعوا — بعد التحقيق والتدقيق — أن يثبتوا أن « الأسخينوس » يساوى فى الأغلب الأعم ٣٠ استاد ، وقد يتراوح أحياناً بحساب « الأستاذ الأتيكى » بين ٣٢ و ٣٣ ، أى ما يساوى ٩٤ ، ٥ ك م بحساب المقياس الحديثة . ثم تغير فى العصور المتأخرة فأصبح يساوى ٤٠ « استاد » أى ٧,٩٢ من الكيلو مترات .

(انظر : Schwarz, Berliner Studien fuer Klass. Phil. XV Heft 3. (1894))

ونستطيع — فى ضوء ما قدمنا — أن نثبت أن « هردوت » قد كان مخطئاً حين قدر « الأسخينوس » بستين « اسناد » أى ما يساوى ١١,٨٨ من الكيلو مترات .

فإذا كان طول الساحل المصرى فى حسابه قد بلغ ٦٠ « إسخينوس » وكان الأسخينوس يساوى ٦٠ استاد ، فإنه بذلك قد أبلغ طول الشاطئ ٣٦٠٠ =

لتحديدنا إياها من خليج « بلينثوس » (١) حتى بحيرة « سربونيس » (٢) التي
يمتد بجانبها تل « كاسيوس » (٣) . والستون « إسخينوس » تحسب — على
ذلك — ابتداء من هذه البحيرة .

إن الذين يملكون الشيء القليل من الأراضى ، يمسحونها بالبائع (٤) ،
ومن يملكون أكثر « بالاستاد » ، وأصحاب الأراضى الواسعة بالفرسخ ،
وأصحاب الضياع المترامية الأطراف بالأسسخينوس . ولما كان الفرسخ يساوى

= « استاد » ؛ أى ما يعادل ٧١٢,٨ من الكيلو مترات . على حين لا يجاوز
طول الساحل فى الواقع ٣٧٠ كم .

ويقضينا الإنصاف ، أن نقرر أن « هردوت » لم يقع وحده فى خطأ التقدير ،
وإنما وقع فيه آخرون . ومهما يكن من شىء فإن « الأسخينوس » لم يكن
مقداره مضبوطا فى أكثر الأحيان ؛ فهو يطول أحيانا ، ويقصر أحيانا أخرى ؛
يقصر حتى يساوى « استاد » ، ثم يطول فيبلغ الأربعين ، ولكنه لا يجاوز
ذلك بحال من الأحوال .

(١) خليج بلينثينى (نسبه إلى « بلينثين » Plinthine) . وهى بلدة كان
موقعها على شاطئ « بحيرة مريوط » . إنه الخليج المعروف اليوم باسم
« خليج مريوط » . وموقعه يقابل أقصى الغرب من البحيرة المذكورة .

(٢) « بحيرة سربونيس » : موقعها عند حافة التل المعروف باسم « كتيب
القلس » ، وفى أطراف المسكان المعروف اليوم باسم « سبخة البردويل » .

(انظر : J. Ball, P. 13) .

(٣) « تل كاسيوس » : يعرف اليوم باسم « كتيب القلص » .

(انظر : J. Ball, P. 13) .

(٤) الباع يساوى ٦٦ قدماً .

ثلاثين « استاد » ، والأسخينوس — وهو مقياس مصرى^(١) — يعادل ستين « استاد » ، فلذلك يبلغ طول الجزء الممتد من مصر على ساحل البحر ٣٦٠٠ « استاد » .

٧ — ومن الشاطئ إلى مدينة « هيليوپوليس » (نرى) مصر واسعة في الداخل ؛ كلها منبسطة . ماؤها وفير ، وطميها غزير ، والسبيل التي يقطعها الزاذهب من البحر إلى مدينة « هيليوپوليس » تبلغ في طولها (قدر) المدى بين هيكل الآلهة الإثني عشر في أثينا^(٢) ومعبد « زيوس » الأولي في « پيزا » . ولو حسبنا طول الطريقين ، لوجدنا أن الفرق بينهما طفيف ، بل إنهما يكادان يتساويان ؛ لأن الفرق لا يزيد عن خمسة عشر « استاد » . فالطريق من « أثينا » إلى « پيزا » تقل بمقدار خمسة عشر « استاد » عن الخمسة وألف « استاد » بينما المسافة من البحر إلى مدينة « هيليوپوليس » تبلغ ذلك القدر بأكملة^(٣) .

٨ — وتضيق مصر ابتداء من مدينة « هيليوپوليس » جنوباً ، فعلى أحد

(١) يقصد أنه كان مستعملاً في مصر .

(٢) يرى Thucydides أن ذلك الهيكل كان بميدان السوق في « أثينا » وأن الذي أقامه كان « Pisisistratus » ابن « Hippias » وحفيد « Pisisistratus الأكبر » . والغالب أن الناس كانوا يتخذون منه مكاناً تقاس من عنده أبعاد الأرض . (انظر : Herodot VI, chap. 108) ثم (Thucydides VI, 45) .
(٣) وهنا أخطأ « هردوت » في قياس البعد بين « الفرمة » و « هيليوپوليس » فجعله ١٥٠٠ « استاد » ؛ أي ٢٥ « إسخينوس » (بواقع ٦٠ « استاد » لسكل « إسخينوس ») أي ما يساوي نحو ٣٩٧ كم . ولو أصاب لجعله ٧٥٠ « استاد » (أي بواقع ٣٠ « استاد » لسكل « إسخينوس ») ؛ ذلك لأن البعد المضبوط بحساب اليوم لا يجاوز ١٦٥ كيلو متراً .

بجانبها تمتد سلسلة الجبال العربية من الشمال إلى الجنوب والجنوب الغربي (١)،
ويستمر امتدادها في اضطراب حتى البحر المسمى ببحر «إروتري» (٢). وهنا
توجد مقالع الأحجار (٣) التي استخدمت في بناء أهرام «ممفيس» (٤). وفي
هذا المكان يقف امتداد الجبال وتنحنى هذه نحو الجهات التي ذكرت (٥).

وأقصى اتساع لهذه الجبال من الشرق إلى الغرب يبلغ — كما علمت —
لمسيرة شهرين . وحدودها الشرقية تنتج البخور (٦) . هذه إذن هي الجبال

(١) يعني ابتداء من «الجبل الأحمر» ، فجبل «المقطم» . وامتداده
إلى الجنوب مع انحراف إلى الجنوب الغربي .

(٢) بحر إروتري (Egæon) هو «البحر الأحمر» . والمقصود هنا
بالضبط الخليج العربي . (انظر : Herodot I, 1) .

(٣) يقصد بالحجر الجرانيتية عند «أسوان» . وكان المصريون يقدّسون
منها أصاب أنواع الصخر وأجوده لبناء معابدهم وبعض قبورهم ، ويحتون منها
أصنام الأرباب وتماثيل الملوك ، مم المسلات . وما زالت آثار أعمالهم فيها بادية
حتى يومنا هذا .

(انظر : Baïke, J. Egypt. Antiq. in the Nile Valley, P. 713, 717)

(٤) يقصد بتلك الأهرام كافة أهرام الدولة القديمة المنتشرة في الصحراء
الغربية بين «دهشور» و «أبي رواش» ، وعلى طول امتداد «ممفيس»
التي امتدت عمارتها من جنوبي «البدرشين» إلى شمالي «المنارات» . ثم أخذت
تجري في امتدادها حتى بلغت في أواخر أيام الرومان وأوائل أيام العرب
ما يواجه «الفسطاط» على الشاطئ الشرقي للنيل .

(٥) يقصد بذلك «البحر الأحمر» .

(٦) تلك حقيقة لا شك فيها ، فقد كان المصريون يستوردون البخور الذي
يستخدمونه في شعائهم الدينية من بعض مناطق الشرق العربي .

العربية . وعلى جانب مصر من جهة ليبيا تمتد سلسلة أخرى من الجبال الصخرية ، مغطاة بالرمال ، توجد بها الأهرام . وهذه السلسلة تأخذ نفس اتجاه ذلك الجزء من سلسلة الجبال العربية الذى يمتد نحو الجنوب . وإذن ، فالبلاد من بعد « هيليوپوليس » — باعتبارها جزءاً من مصر — لم تعد عظمة الاتساع ، بل إن مصر تضيق لمرحلة أربعة أيام تصعيداً فى النهر . والأرض الواقعة بين سلسلتى الجبال التى سبق الكلام عنهما عبارة عن سهل لا يزيد اتساعه فى أضيق أجزائه — كما يبدو لى — على مائتى « استاد »^(١) ، فيما بين الجبال العربية والجبال التى تسمى بالجبال الليبية ، وبعدئذ تعود مصر إلى الاتساع مرة ثانية .

٩ — هذه إذن هى طبيعة البلاد . من « هيليوپوليس » إلى « طيبة » ؛ يستغرق الأبحار تسعة أيام تصعيداً فى النهر ؛ وهى مسافة ٤٨٦٠ « استاد »^(٢) ؛ لأنها تبلغ ثمانين « إسخينوس » . وهى أبعاد مصر مجمعة بالاستاد . لقد أوضحتُ فيما سبق أن طول الجزء المحاذى للبحر ٣٦٠٠ « استاد »^(٣) . والآن سأبين المسافة — وسط الأرض — من البحر حتى مدينة « طيبة » ، فهى

(١) أى حوالى خمسة أميال .

(٢) وهنا أخطأ « هردوت » حين جعل البعد بين « هيليوپوليس » و « طيبة » ٤٨٦٠ استاد (بواقع ٦٠ « استاد » لكل « إسخينوس ») ؛ فأبلغه ما يساوى بالحساب الحديث ٩٦٢ كم . على حين أنه لا يعدو فى الواقع ٧٢٢ كم .

(انظر : Sethe, Untersuchungen II, 3, S. 8)

(٣) انظر ما تقدم عن ذلك من حديث فى الفصل السادس (هامش رقم ١) من هذا الكتاب .

٦١٢٠ « استاد » (١). والمسافة من « طيبة » حتى المدينة المسماة « إليفانتينا »
١٨٠٠ ستاد (٢).

١٠ — والجزء الأكبر من الأراضي التي تكلمت عنها هو — حسب
أقوال الكهنة ، ووفقاً لاعتقادي الشخصي — جزءه اكتسبه المصريون .
فقد بدا لي أن السهل ما بين سلسلي الجبال التي تحدثت عنهما ممّا يلي
مدينة « ممفيس » ، كان فيما مضى خليجاً في البحر (٣) ، مثله في ذلك مثل
الأراضي التي حول « أليون » و « تيوترايا » و « إفسوس » وسهل
« مياندروس » (٤) . هذا إذا جازت المقارنه بين صغير الأشياء وكبيرها .

(١) وهنا جرى « هردوت » على ما تعود من خطأ في التقدير ؛ فجعل البعد
بين شاطئ البحر و « طيبة » ١٢٠ « استاد » ؛ أي ما يعادل ١٢١١,٧٦ كم .
ولو أصاب لجعل لكل « إسخينوس » ٤٠ « استاد » ، وبلغ البعد بذلك
ما يعادل ٨٤,٨٧ كم ؛ وهو مدى يقرب من الواقع المضبوط على كل حال .
فالبعد الصحيح بين شاطئ البحر ومدينة « طيبة » يبلغ نحو ٨٩٠ كم .
(انظر : المرجع السابق) .

(٢) ظاهر أنه أخطأ في تقدير البعد البالغ مداه ٣٠ « إسخينوس » حين جرى
على حساب ٦٠ « استاد » لكل « إسخينوس » ، فأبلغه بذلك ١٨٠٠ « استاد » ؛
أي ما يعادل بحسب مقاييس اليوم ٣٥٦,٤ كم . ولو أنه وفق فقدر لكل « إسخينوس »
٤٠ « استاد » ، إذاً لبلغ البعد بذلك ٢٣٧,٦ كم . وذلك تقدير يقرب من
الصحيح ؛ إذ أن البعد بين مدينة « طيبة » و « جزيرة الفيله » لا يجاوز ٢٢٠ كم .
(٣) يكاد كلام « هردوت » هنا يطابق ما يراه علماء الجيولوجية والجغرافية
من أن الدلتا وما يمتد وراءها من الوادي جنوباً قد كانت حتى أواخر العصر
الحجري القديم غمرأ تحت مياه البحر الأبيض المتوسط .
(٤) لم يكن هذا السهل يبعد كثيراً عن موقع « ملطية » وإن كان مكانه
اليوم قد تغير بعض الشيء . (انظر : Herodot I. 18) .

إذ ليس من الأنهار التي كوَّنت هذه البلاد بطميتها واحد يستحق أن يقارن — من حيث الحجم — بأحد فروع النيل . وفروع النيل خمسة (١) . وهناك أيضاً أنهار أخرى لا تقاس بالنيل في عظمتها ؛ ولكنها أوجدت آثاراً عظيمة . وفي مقدورى أن أسمى الكثير من هذه الأنهار ، ولكن أهمها هو نهر « أخيلوؤس » الذى يجرى فى « أكارنانيا » ويصب فى البحر . وقد أحال بالفعل نصف جزائر « أخيناديس » يابساً (٢) .

١١ — ويوجد فى بلاد العرب — غير بعيد من مصر — خليج يُوغل فى الدَّاخل من البحر الذى يسمى ببحر « أروتري » (٣) ، وهو خليج طويل وضيق جداً كما سأوضح ؛ إذا بدأ المسافر من جوف الخليج (٤) ، وضرب فى عرض البحر ، فإنه يستغرق فى عبوره طولاً أربعين يوماً مع استخدام المجاذيف . فى حين أن اجتيازه عرضاً — فى أوسع أجزائه — يستغرق إبحار نصف يوم . وبه يحدث مدّ وجزر كل يوم ويخيل إلى أن مصر كانت فيما

(١) أكبر الظن أن « هردوت » يقصد تلك الفروع الطبيعية التى رآها فى زمانه ؛ ذلك لأن المأثور أنه قد كان للنيل ذرمان عشر ، ثم صارت من بعد ذلك سبعة ، ثم انتهت إلى خمس . (انظر : الفصل رقم ١٥) .

(٢) أخيليوؤس : Ἀχιλλῶος : يجرى هذا النهر فى الشمال الغربى من بلاد الإغريق ؛ بين « أكارنانيا » و « أنوليا » ، ويعد أطول أنهار بلاد الإغريق ؛ إذ يبلغ طوله ١٣٠ ميلاً . وهو أقدم رمز لفرات الماء وصفوه عند الإغريق ويسمونه الآن النهر الأبيض Ἀσπροπόταμος . وقد كوّن من رواسب طميه خمس جزر وفيرة الخصب .

(٣) أى « البحر الأحمر » . (انظر : الفصل الثامن هامش رقم ٢) .

(٤) أى من « خليج السويس » حتى « بونغاز باب المندب » .

مضى خليجاً آخر مثل هذا ؛ أحدهما كان يمتد من البحر الشمالى (١) نحو « إثيوبية » (٢) . والآخر من البحر الجنوبى (٣) صوب « سورية » . وإن رأسيهما ليسكادان يلتقيان الواحد بالآخر ؛ لا تفصلهما إلا مساحة صغيرة من الأرض . ولذلك ، إذا ما قُدِّر للنهر أن يُغيّر مجراه نحو الخليج العربى فماذا يمنعه — وهو يصب فى الخليج — من أن يُنبِسه فى عشرين ألف عام ؟ إنى شخصياً أظن أنه يستطيع ردم الخليج فى عشرة آلاف عام . فكيف إذن ، فى العصور التى مضت قبل ميلادى لم يقدرّ لنهر هائل ومخصب مثل هذا أن يُنبِسُ خليجاً حتى ولو كان أكبر من هذا الخليج ؟ .

١٢ — وعلى ذلك فإنى لا آخذ برواية من حدثونى عن مصر وحسب ، بل أنا نفسى أو من كل الأيمان بأن ذلك قد وقع فعلاً . فقد شاهدت أن مصر تمتد

(١) أى « البحر المتوسط » .

(٢) نعتقد أن المقصود بأثيوبية هنا الأقاليم العليا من بلاد النوبة (النوبة العليا) التى أسماها الفراعنة « كوش » ، على حين أسموا النوبة السفلى « واوات » . ولتلك البقاع فى تاريخ آل فرعون منذ قيام حكومتهم المتحدة الثانية (٣٤٠٠ — ٣٢٠٠ ق . م) . مكان واضح ، وحديث متصل ، ثم إن لهم فيها لأناراً تتحدث عما كان لهم هناك من جهود متصلة ، ونشاط عمرانى واقتصادى . وكان يحكمها منذ قيام الإمبراطورية المصرية نائب لفرعون يسمونه « ابن الملك فى كوش » .

(انظر : فى « موكب الشمس » ج ٢ ص ٧) .

ومن تلك البقاع جاءت تلك الأسرة التى حكمت مصر من عام ٢١٥ إلى عام ٦٦٥ ق . م . وعرفت فى ترتيب الأسر الحاكمة بالأسرة الخامسة والعشرين .

(٣) يقصد « البحر الأحمر » .

في البحر دون غيرها من الأراضي المتاخمة ، وأن أصداف^(١) البحر تُرى فوق الجبال ، وأن هناك طبقة ملحية تتآكل بفعلها الأهرام^(٢) ، وأن الرمال لا توجد في مصر إلا على سلسلة الجبال التي تقع فوق « ممفيس » . وقد لاحظت ، علاوة على ذلك ، أن مصر ، في تربتها ، لا تشبه بلاد العرب التي تقع على حدودها ، ولا ليبيا ، ولا سورية . (فمناطق الساحل العربية مأهولة بالسوريين) . بل إن تربتها سوداء^(٣) وبها شقوق ، لأنها مكونة من رواسب الطمي التي جلبها النهر من « إثيوبية » . ولكننا نعرف أن تربة ليبيا رملية .

(١) ثبت بالفعل وجود مثل تلك الأصداف ؛ مما يدل على أن جزءاً غير يسير من الأرض التي نسميها مصر كان مغموراً تحت مياه البحر .
(انظر : Ritter, Erdkunde I, S. 858 ff)

(٢) تلك حقيقة أثبتتها البحث العلمي ؛ فإن في التربة المصرية أملاحاً تساعد الأرض على الاحتفاظ بودائعها إذا ما توافر فيها الجفاف ، وتنفذ العكس إذا توافرت فيها الرطوبة .

انظر : (١) Seth, Zur Geschichte der Einbalsamierung bei den Aegyptern (Sonderausgabe aus den Sitzungsberichten der Preussischen Akad. der Wissenschaften phil. Klasse (1934) XIII.
Lucas, J. EA. XVII, 125. م : (٢)

(٣) تلك حقيقة من الحقائق الواضحة في تاريخ مصر التي كسا النيل أرضها بتلك الطبقة السمراء التي يحملها فيضانه كل عام ؛ فيزها عما حولها من بقاع الصحراء ، وأسماء أهلها « كيم » أي السمراء أو السوداء . ويعتقد بعض أهل العلم أن ذلك اللفظ هو الأصل في اسم « الكيمياء » (العلم أو الفن الأسود) . وقد ساد ذلك الاعتقاد في القرون الوسطى حتى غدا أمره جدلاً بين العلماء .

(انظر : Lippmann, Entstehung & Ausbereitung der Alchemie (Berlin 1919) S. 223 — 314) .

ضاربة إلى الحمرة^(١) ، وأن تربة بلاد العرب وسورية صخرية وصلبة بعض الشيء .

١٣ — ولقد حدثني الكهنة أيضاً عن طبيعة هذه البلاد ، وقدموا لي هذا البرهان السكافي : قالوا إن النهر في عهد الملك « مويريس »^(٢) كان يروى من مصر الجزء الذى يلي « ممفيس » إذا ما ارتفع الماء فيه ثمانية أذرع

(١) ذلك صحيح ، فهكذا رأى المصريون لون الصحراء فأسموها « الحمراء » .

(٢) الملك « مويريس » : إذا أخذنا بتقدير « هردوت » وهو أن ذلك الملك قد عاش قبل أيامه بتسعة قرون ، فسيكون معنى ذلك أننا سنبلغ منتصف القرن الرابع عشر . ق . م ، أى أواخر أيام الأسرة الثامنة عشرة . ولا نعرف بين ملوك هذه الأسرة من يصح أن يكون اسمه قد صحف في لسان الإغريق على هذا النحو ، كما أننا لا نجد بينهم من قام بتلك المشروعات التى يتحدث عنها « هردوت » . وأكبر الظن أن يكون المقصود باسم « مويريس » هو الملك « أمنمحات الثالث » من ملوك الأسرة الثانية عشرة ، وصاحب مشروع البحيرة التى تحمل ذلك الاسم فى إقليم الفيوم .

والواقع أننا لا نكاد نذكر من يحمل مثل هذا الاسم « مويريس » بين فراعين مصر . وإن كنا نعرف أنه من أسماء البحيرة المعروفة فى الفيوم ، وأنه تصحيف أغريقى لاسمها المصرى « مر — ور » (البحيرة العظمى) . ولا نستبعد بعد ذلك أن صلة فرعون « أمنمحات الثالث » بمشروع البحيرة المذكورة ثم الخلط الذى وقع فى تصحيف اسمه أو تحريفه عند الإغريق قد انتهيا به أيام « هردوت » إلى ذلك المصير . فاسم « أمنمحات الثالث » المصرى « نى — ماعة — رع » قد ورد فى قراطيس البردى الإغريقية « مارس » تارة ، و « لامارس » تارة ثانية ، ثم « لابارس » تارة ثالثة .

(انظر : فى موكب الشمس ج ٢ ص ١٤٢ وما بعدها) .

فحسب . ولم تكن قد مرت على موت « مويريس » تسعمائة سنة عندما سمعت هذا من أفواههم . أما في الوقت الحاضر — إذا لم يرتفع النهر ستة عشر أو خمسة عشر ذراعاً على الأقل (١) — فإنه لا يفيض على الأرض بمائه . ويخيل إلى أنه إذا استمرت الأرض في الارتفاع بهذه النسبة وأخذت في الاتساع كذلك ، فسوف يعاني المصريون الذين يسكنون المناطق الواقعة فيما يلي بحيرة مويريس وخصوصاً الإقليم المسمى بالدلتا ؛ سوف يعانون على مدى الأجيال نفس المصير الذي سيتعرض له اليونانيون يوماً ما وفقاً لما كانوا هم أنفسهم يقولون (٢) ؛ ذلك أنهم عندما علموا أن المطر يروى بلاد اليونان كلها ، وأن هذه بخلاف مصر ، ليس بها أنهار تغذيها ؛ قالوا سيأتي يوم يخيب فيه أمل اليونانيين الكبير ، ويقاسون ألم الجوع المرير . ويقصدون بقولهم هذا أنه إذا

(١) كان فيضان النهر منذ أبعد عصور التاريخ موضع اهتمام البلاد حكومة وشعباً ؛ فعلى اعتدال منسوبه تتوقف أرزاق البلاد ، وعليه تقدر الضرائب المطلوبة لخزانة الدولة . ونحن نعرف أن المصريين في زمان البطالة والرومان كانوا يعتبرون فيضان النهر مباركا ميمونا إذا بلغ ارتفاعه ١٦ ذراعاً . والغالب أن الأمر قد ظل كذلك حتى تغير نظام الإرواء والصرف بعد إقامة المحابس والسدود في العصر الحديث . ويقدر « هردوت » — في ضوء ما سمعه من الرواة من أن النيل في زمان « مويريس » كان يروى أرض الشمال (أى أرض الدلتا) إذا بلغ ارتفاع فيضانه ثمانى أذرع — أن هذا الجزء الشمالى من أرض مصر سوف يصاب بمحنة القحط والجفاف نظراً لما ينتظر من ارتفاع في مستوى أرضه بسبب ما تصيب من رواسب طمي الفيضان على مر السنين ، مادام الاعتماد في إروائها على ماء النهر ؛ إذ أن ماء السماء لا يصيبها إلا غرارا .

(٢) يقصد رواته من الكهان المصريين الذين مر ذكرهم قبل ذلك في الفصل الثالث ، ويزعم أنهم كانوا أهل علم ومعرفة .

لم يشأ الإله (١) أن يُنزل عليهم الغيث ، وأراد أن يهرأهم بالجفاف المتصل ، فسوف يموتون جوعاً ما دام ليس لهم مورد غير « زيوس » وحسب .

١٤ — إن ما قاله المصريون عن اليونانيين صحيح . ولكن دعني أتحدث الآن عن المصريين أنفسهم . وهذا ما أريد تفصيله : إذا قُدِّر — كما قلت آنفاً — للأرض التي تحت « ممفيس » (وهي الأرض الآخذة في التزايد) — أن تستمر في الارتفاع بنفس النسبة التي تزايد بها في الماضي ، فماذا عساه

(١) ظاهر من ذلك أن « هردوت » كان متأثراً بالفكر الإغريقي والحياة الإغريقية ؛ فبلاده إنما تعتمد في حياتها الزراعية على ماء السماء ، وماء السماء في عقيدته وعقيدة قومه لا يصيب أرضهم إلا حيث يشاء الآله . ويعني بالإله هنا « زيوس » الذي ينزل الغيث (Jupiter pluvius) *Zeus úetios* . فأما المصريون فقد كانوا ينتظرون الحياة بين يدي النيل الذي يفيض عليهم في حينه كلما استدار العام . والواقع أنه من الأمور الواضحة في حياة هذا الوطن المصري أن النيل كان وما يزال أساس الحياة ومصدرها ، وأن آل فرعون قد أدركوا تلك الحقيقة وآمنوا بها . ولن يكون غريباً بعد ذلك أنهم قدسوا النهر أو عبدوه . « لم لا يؤلَّه من يقوت ويرزق » .

والذي ينظر في تراثهم الأدبي من ناحية ، وفيما أبقت عليه الأيام من رسوم تصور ألوان حياتهم من ناحية أخرى ، يستطيع أن يرى أثر ذلك واضحاً لا لبس فيه ولا غموض ولا لبهام ؛ فهذا « أخناتون » صاحب مذهب التوحيد يناجي ربه ويتحدث بنعمته الكبرى التي آتمها على شعبه بين يدي النيل فيقول مخاطباً ربه : « فَجَرَّتْ النيل لمصر من باطن الأرض ؛ تجريه بالزيادة والنقصان كيف تشاء . وأغثت العالم من حول مصر بماء السماء » . ثم يشير من بعد ذلك إلى مشيئة ربه في تفضيل أهل مصر على غيرهم من سائر خلقه . وذلك حين يناجيه في شأن النيل فيقول : « لنحفظ الحياة على أهل مصر ؛ لأنك اصطفيتهم لنفسك وأنت ربهم جميعاً » .
(انظر : « في موكب الشمس » ج ٢ ص ٨٢١) .

أن يحدث للمصريين الذين يقطنون هذه البقاع إلا أن يقاسوا مرارة الجوع مادام المطر لا ينزل ببلادهم والنهر لا يستطيع أن يروى حقولهم؟ ولكنهم في الوقت الحاضر، من بين سائر الشعوب الأخرى وبقى المصريين، يجنون ثمار أرضهم بغير مشقة تذكر^(١)، فهم لا يكمدون في تخطيط الأرض بالمحراث ولا في تفتيت

(١) ذلك ضرب من الوهم، لأن « هردوت » قد نظر إلى الأمر بإحدى عينيهِ، أو استمع إليه بإحدى أذنيه؛ فأهل مصر في ماضيهم وفي سائر ما تلا ماضيهم من دهور، وحتى يومنا هذا، لم يجنوا غلات أرضهم وثمارها في سهولة ويسر؛ لأن النيل الذي يسعدهم قد كان يشقيهم أيضاً؛ أشقاهم دهوراً أول عهدهم بالحياة على ضفافه حين أخذوا في تهذيبه وتبثرة واديه مما كان ينتشر فيه من الأخوار والمستنقعات التي كانت خاصة بالاحراج؛ تغشاها كواسر الوحش وجوارح الطير؛ فبعض العلماء يقررون أن النيل في أول عهده بهذا الوادي - وبخاصة في دلتاه - كان يشبه الجزء المعروف اليوم باسم « بحر الغزال ». وأن المصريين قد ظلوا ماكفين على مكافحة هذه الطبيعة حتى طهروا الوادي من آثارها وأحلوله إلى تلك الجنات الخضراء التي رآها « هردوت » ومن جاء بعده ممن وقعوا في هذا الخطأ، وجروا وراء أوهامهم ومنهم « ديودور » الصقلي (Diodor sic. I, 364). ثم ما أكثر ما أشقى النهر أصحابه كلما عزّ ماؤه، بل كلما زاد فيضانه، ففج عجاجه، وتلاطمت أمواجه، فكسرت السدود والحواجز؛ هنالك كانوا يقومون له الليل، ولا تفتر همتهم في النهار؛ يكافحون شدته ويتقون خطره، ويظلون كذلك حتى تهدأ ثورته. والفلاحون في مصر هم أنشط زراع الدنيا، وأصبرهم على العمل، وصور حياتهم المنتشرة على جدران قبورهم ترينا كفاحهم الدائب في سبيل العيش. ودور التحف في الشرق والغرب خاصة بما خلفوا من تراث حياتهم الزراعية وأدواتها من محارث وفؤوس ومناجل وغير ذلك. وهم - كما تشهد آثارهم الأدبية والدينية - لم يشقوا بالزراعة في حياتهم الدنيا وحسب، بل آمنوا باستئناس الشقاء في حياتهم الأخرى أيضاً؛ فرودوا أنفسهم لذلك بما خالوا أن يزاووا به أعمال الزراعة.

(انظر : ERMAN, (Adolf), Die Relig. d. Aeg. S. 276 f.)

التربة وتنسيقها ، ولا يقومون بأى عمل من الأعمال التي يشق بها الآخرون من أجل الثمر . ولكن عندما يفيض النهر عندهم من تلقاء نفسه ، ويرى الحقول ، ثم ينحسر ثلثية بعد ريها ، هنالك يلتقى كل منهم بالبدور في حقله ، ويطلق فيها الخنازير (١) ، وعندما تدوس هذه البدور وتغرسها ، ينتظر بعدئذ موسم الحصاد . وهنالك يُدرَسُ القمح بواسطة الخنازير (٢) ثم يحمل بعد ذلك إلى الدار .

١٥ — وإذا نحن أخذنا بآراء « الأيونيين » (٣) في مصر — وهم يظنون أن الدلتا وحدها هي مصر ، ويقولون إن ساحلها يمتد أربعين «إسيخينوس» (٤)

(١) كان المصريون القدماء — إذا ما حل موسم الزرع واستعدت الأرض لاستقبال الحب — يطلقون عليها بعض أنعامهم من الضأن والخنزير ليكسبوها اللين والنعومة ، وليسوا تربتها من بعد الحرث ، أو ليكفروا فيها الحب إذا كانت رطبة لم تجف بعد . وقد ظل استخدام الخنازير في ذلك أيام الدولة الحديثة معروفاً ، بل ظل قائماً حتى أدركه « هردوت » عندما زار مصر . وأكبر الظن أنه ذكر الخنازير وحدها لذيوعها في الدلتا ؛ وذلك نظراً لتوافر المراعى الصالحة لحياة هذا الحيوان ، ولأن أكثر إقامة « هردوت » قد كان يومئذ في الشمال .

(انظر : Kees, H. Kultur Geschichte des Alten Orients (Erste : Abschnitt Aegypten S. 35)

(٢) لم يستخدم المصريون في درس محاصيلهم الخنازير وحدها ، ولكن استخدموا غيرها من الأنعام كالبقر والحمير أيضاً .
(انظر : Kees, ibd. S. 36)

(٣) ظاهر أن « هردوت » يعنى بذلك ما رواه سلفه « هيكاتيه الملقى » .
(٤) يبلغ ذلك البعد في حساب « هردوت » نحو ٢٤٠٠ « أستاذ » أى ما يعادل ٤٧٥,٢ كم ، على حين أن المسافة لا تعدو في الواقع أكثر من نحو ٢٧٠ كم .

من المرقب (١) المسمى باسم «پرسیوس» (٢) حتى ملاحات «الفرغ الپيلوزى» (٣) وأنها تمتد حد قولهم ، من البحر فى الداخل حتى مدينة «كاركاسوروس» (٤) التى يتفرع النيل عندها إلى الفرعين «الپيلوزى» و «الكانوبى» (٥) . أما بقية مصر - فى رأيهم - فهى جزء من ليبيا وجزء من بلاء العرب . فإذا سلمنا بهذا القول ، كان معناه أنه لم يكن للمصريين وطن فيما مضى . فى الواقع أن الدلتا - كما يؤكد المصريون أنفسهم ، وحسب اعتقادى الشخصى - أرض طمئية ، وأنها فى نهاية القول حديثة التكوين . وعلى ذلك ، إذا لم يكن لهم وطن من قبل ، فلماذا يعتقدون أنهم أقدم الشعوب ؟ ولماذا يحاولون المستحيل

(١) الغالب أن يكون ذلك المرقب على بعد قريب من المكان المعروف باسم «أبو قير» . (انظر : Strabon, 17. 1, 18, p. 801)

(٢) پرسیوس : مرقب فى أقصى الغرب من دلتا النيل ، بالقرب من أبو قير : انظر : (Widemann, S. 87) .

(٣) موقع تلك الملاحات لم يكن يبعد عن تلك المدينة التى عرفت باسم «پيلوزيوم» (تل الفرما) ومكانها اليوم بين «تل أبى صيفه» و «تل الفراعين» . وقدما اشتهرت تلك البقاع بصيد السمك وتجفيفه وتمليحه وتصديره إلى الخارج وبخاصة إلى سورية . انظر : (Kees, H. ibid. S. 61, 109) . وشبهه بذلك ما يفعله سكان البقاع الواقعة حول «بحيرة المنزلة» فى العصر الحديث .

(٤) Cercasorus : مدينة لم يكن موقعها فى الغالب يبعد كثيراً عن رأس الدلتا . وأكبر الظن أنها كانت عند المكان المعروف اليوم باسم «الوراق» على الشاطئ الغربى للنيل تجاه «جزيرة الوراق» ، وعلى بعد حوالى ثلاثة كيلو مترات إلى الشمال من مدينة القاهرة .

(٥) نسبة إلى «كانوب» المعروفة اليوم «بكوم تمغدى» فى الشمال الشرقى من مدينة الإسكندرية . انظر : (J. Ball, p. 17) .

لإثبات ذلك ؟ منهم لم يكونوا في حاجة إلى القيام بالتجربة على الطفلين ومعرفة أول لغة يتكلمان بها (١) . ومهما يكن من أمر فأنا لا أصدق أبداً أن المصريين وُجِدُوا في نفس الوقت الذي تكونت فيه الدلتا التي يسميها « الأيونيون » مصر ، بل هم قد عاشوا دائماً منذ بدء الخليقة البشرية . ولما أخذت بلادهم في الامتداد بقي الكثير منهم في الورا ، بينما انحدر الكثيرون تدريجياً إلى الأرض الجديدة . وأياً كان الأمر ، فقد كانت « طيبة » التي بلغ محيطها ٦١٢ ستاد (٢) تسمى منذ القدم « مصر » (٣) .

١٦ — والآن : إذا صحت آراؤنا في ذلك ؛ فإن الأيونيين يخطئون في كلامهم عن مصر . أما إذا كان رأى الأيونيين صحيحاً ، فأحب أن أبين أن اليونانيين والأيونيين بالذات لا يفقهون حساباً حين يزعمون أن العالم جميعه مكون من ثلاثة أجزاء ، أوروبا ، وآسية ، وليبيا . إذ يجب عليهم أن يضيفوا

(١) انظر : (الحديث عن ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب) .

(٢) انظر تفصيل الحديث عن ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

(٣) أكبر الظن أن يكون ذلك أثراً من آثار الدوى الهائل الذي ملأ به الزمن أصماع الدنيا من شهرة « طيبة » وذكرها الخالدة منذ نهضتها المعروفة إبان الثورة على « المكسوس » ، وما كان لها في تاريخ الدنيا عامة ومصر بخاصة من خطر ؛ فهي قد غدت بذلك أم القُرى ، وزهرة المدائن ، وعاصمة أول إمبراطورية عرفها تاريخ العالم القديم . انظر : (في « موكب الشمس » ج ٢ ص ٣١٧ — ٣٧٣) . وقد ظلت ذكرها مدوية حتى أيام « هردوت » ، واستمرت كذلك أيام البطالمة والرومان . فاما اسم مصر (أيجيٲٲوس) الذي عرفه اليونان والرومان . وعرفته شعوب الغرب الحديث من وراء ذلك ، فلا صلة له بـ ~~طيبة~~ ، بل الغالب أنه تصحيف لأحد أسماء « ممفيس » ونعني اسمها الديني : « حة — كا — پتاح » . انظر : (في « موكب الشمس » ج ٢ ص ٦٣٢) .

إلى ذلك رابعاً ، (وهو) دلتا مصر ، ذلك لأنها إذا لم تكن جزءاً من آسية ولا جزءاً من ليبيا . لأن النيل في الواقع على هذا الحساب ، ليس هو الذى يفصل آسية عن ليبيا . ولكن عند رأس هذه الدلتا يتفرع النيل فرعين (١) بحيث تصبح مشاعاً بين آسية وليبيا .

١٧ — والآن لنترك رأى « الأيونيين » جانباً ، ونقول كلمتنا بهذا الخصوص: إن مصر هي كل البلاد التي يسكنها المصريون، كما أن « كيليسيا » (٢) هي البلاد التي يقطنها السكيليكيون ، و « آشور » هي البلاد التي يعيش بها الآشوريون. أما آسية وليبيا فلا نعرف لهما فاصلاً ولا يوجد بينهما - في الواقع - إلا الحدود المصرية . ولكننا إذا آمننا بالفكرة السائدة عند اليونانيين ، فسوف نعتقد أن مصر كلها ابتداء من الشلال ، ومدينة اليفانتينا ، تنقسم قسمين ، وتسمى بالاسمين معاً ، لأن أحد جوانبها جزء من ليبيا ، والجانب الثاني جزء من آسية ، ذلك لأن النيل في حقيقة الأمر، مبتدئاً من الشلال ، متجهاً نحو البحر ، يقسم مصر في النصف (٣) ، وينساب النيل في مجرى واحد حتى

-
- (١) انظر : الفصل الخامس عشر (هامش رقم ٦) من هذا الكتاب .
- (٢) كيليسيا (Cilicia) : موقعها في جنوب غربى آسية الصغرى ، وسكانها « السكيليكيون » في رأى « هردوت » من أصل فينيقي . (انظر : « هردوت » الفصل التاسع من كتابه السابع) .
- (٣) يرى « هردوت » أن النهر في هذه الحال إنما يشطر مصر شطرين : أحدهما في الشرق ، وهذا آسيوى . والثاني في الغرب وذلك لبي . ونظن أن أثر ذلك ما زال يبدو واضحاً في تعريف الصحراويين المصريين ، فالشرقية منهما تسمى « صحراء العرب » وهي آسيوية ، والغربية تسمى « صحراء ليبيا » .
- وحين يبلغ النهر شمال القاهرة يتغير مجراه ، وتتغير تبعاً لذلك طبيعة الأرض التي تعرف باسم « الدلتا » ، وهي في رأى « هردوت » لا شرقية ولا غربية ولا آسيوية ولا ليبية ، وإنما هي مشاع بين ذلك .

مدينة « كركاسوروس »^(١). ومن عند هذه المدينة يتفرع إلى فروع ثلاثة (٢) ،

(١) كركاسوروس : انظر الحديث عنها في الفصل الخامس عشر (هامش رقم ٦) من هذا الكتاب .

(٢) ظاهر أن « هردوت » إنما يتحدث عن فروع النيل السبعة أو الخمسة في حقيقة الأمر. إلا أن الزمن قد غيّر ما رآه « هردوت » ؛ فلم نعد نرى من تلك الفروع غير اثنين رئيسيين « فرع رشيد » و « فرع دمياط » . فأما الأفرع السبعة التي يعنها « هردوت » فقد كانت كالاتي :

(١) الفرع البوبسطى (نسبة إلى بوبسطة) ويعرف الآن بترعة « أبى النجا » . وكان قديما يصب في « الفرمة » .

(٢) الفرع المنديسى (نسبة إلى « منديس » ما بين « تل الربعة » و « البلقيّة ») . ويعرف الآن باسم « بحر أشمون الرمان » ويصب في « بحيرة المنزلة » .

(٣) الفرع التانيق ويعرف الآن باسم « بحر موسى » .

(٤) الفرع الفساطميتى ويعرف الآن باسم « فرع دمياط » .

(٥) الفرع السبينيّ (نسبة إلى سمثود) ويعرف الآن باسم « ترعة مليسج » .

(٦) الفرع البلبيتى وكان جزءا من « السكانوبى » ، يخرج منه عند الرحمانية ثم يجرى فيصب في البحر الأبيض .

(٧) الفرع السكانيوبى وهو المعروف الآن « بفرع رشيد » ؛ مطلع

عند رأس الدلتا ومجراه إلى الشمال . فإذا ما بلغ « الرحمانية » تفرع إلى فرعين : أحدهما « البلبيتى » الذى مر ذكره ، والثانى يتجه إلى الشمال الغربى حتى يدنو من هضاب « ليبسا » فيصب في البحر الأبيض ، وكان مجراه مكان « الترعة الحمودية » .

ومن كل أولئك يتبين أن الحال قد تغيرت كثيرا عما كانت عليه أيام « هردوت » ؛ وحتى بعد أيامه . وأن أكثر المصببات التى ذكرها قد عطلتها =

أحدهما يتجه نحو الشرق ويسمى الفرع الفيروزى ، والثانى يسير نحو الغرب وهذا يسمى الفرع الكاثونى . أما الفرع المستقيم من النيل فيجرب هكذا : عندما ينحدر النهر ويصل إلى رأس الدلتا ، (عند هذا الرأس) يشطر الدلتا فى الوسط ، ويصب فى البحر . وليس هذا الفرع هو أشح الفروع ماءً ولا هو أقلها شهرة واسمه الفرع السبئى . وهناك أيضاً فرعان آخران ينفصلان عن هذا الأخير ويجريان إلى البحر ، أحدهما يسمى الفرع «السايسى» والثانى الفرع «المنديسى» . أما الفرعان البوليبيثى والبوكولى فليسوا طبيعيين ولكنهما صنعان.

١٨ — وإن إجابة « وحي آمون »^(١) لتؤكد رأيي بأن مصر عظيمة الامتداد كما أوضحت. هذه الإجابة التى لم أعلم بها إلا بعد أن كنت قد كوّنت

= الرمال فانسدت ، ثم انتشرت فيما بين ذلك قنوات صغيرة^٢ لتصرف المياه من الفرعين الرئيسيين ولإمداد الأرض بالماء . (انظر : « على شافعى » أعمال المنافع العامة الكبرى فى عهد « محمد على الكبير » من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية طبع دار المعارف سنة ١٩٥٠ م الأطلس الملحق) .
(١) كان للجلالية الإغريقية معبد فى « واحة سيوه » ؛ يقدسون فيه « آمون » (زيوس آمون) ويستوحونه على لسان كهّانه . وقد فعل ذلك « إسكندر المقدونى » عندما جاء إلى مصر عام ٣٣٢ ق . م .
انظر : (Wilken, Alexander der Grosse) .

ثم ترجمة ذلك الكتاب بين يدى G. Richardes التى نُشرت عام ١٩٣٢ (ص ١٢١ — ١٢٩) . ثم انظر ذكر هذا الوحى فى الفصل الثانى والثلاثين والثانى والأربعين من الكتاب الثانى لهرودوت .

ثم
Panitz: Mythos und Orakel bei Herodot
(Greifswalder, Beitrage zur Literatur & Stiltforschung
7. (1935)
ثم Blackman, A.M. Oracles in Ancient Egypt (JEA. 11 (1925)
p. 249—255

رأى الخاص عن مصر . حدث أن أهل (مدينتي) « ماريا » و « آيس »^(١) الذين يسكنون من مصر أجزاءها التي تتاخم ليبيا ، كانوا يعتبرون أنفسهم لبيين لا مصريين . (وذلك) لما أثقلتهم الشعائر الدينية بما لاطاقة لهم به ، ورغبوا في أن يأكلوا اللحم البقر^(٢) ، وأرسلوا إلى « آمون » مدعين أن ليس هناك شيء يجمع بينهم وبين المصريين ؛ لأنهم يسكنون خارج الدلتا ، وأن ليست بينهم (وبين المصريين) صلة في اللغة ، وأنهم شاءوا أن يحل لهم أكل كل طعام : ولكن الإله لم يسمح لهم بذلك قائلاً : « إن مصر هي البلاد التي يجري فيها النيل ويروىها ، وإن المصريين هم الذين يقطنون البلاد ممّا يلي مدينة إلفانتينا ويشربون من ماء هذا النهر » . هذا ما أجابهم به الوحي .

(١) « ماريه » و « آيس » : واضح من سياق الحديث أن مكانهما في الصحراء الليبية من ظاهر الدلتا ، وإلى الغرب من « بحيرة مريوط » .
Kees, Marea (Mariotis) in RE. XIV, 2. Sp. 1676,1678.
فأما الأولى « ماريه » فكانت معروفة بكرومها الغنيّة ، وظلت كذلك حتى زمان الرومان ، وما زال مكانها وما حوله يحمل اسم « مريوط » حتى يومنا هذا . وأما الثانية « آيس » فما نعرف من آثارها ما يدل على مكانها ، وما نعرف من خبرها غير ما رواه « استرابون » من أنها كانت على مسيرة خمسة أيام من معبد « آمون » بواحة سيوه .

(٢) كانت عبادة « إيزيس » في زمان « هردوت » شعبيةً عامة في أقاليم مصر جميعاً . وكانت مزدهرة في الدلتا ، وكانت لها يومئذ صفة رسمية نظراً لأن عاصمة الدولة كانت في الدلتا . ولما كانت « إيزيس » تُصور في هيئة أنثى يزدان رأسها بقرني بقرة ، لم يكن من المستغرب أن يقدّس المصريون من أجل ذلك لمبات البقر ويُحسّرون على أنفسهم لحومها .

انظر : (Erman, Relig. d. Aegypten S. 337)

١٩ — والنيل وقت الفيضان لا يغمر الدلتا وحسب ؛ بل يفيض كذلك على بعض أجزاء من الأرض المسماة بالأرض الليبية ، وبعض من الأرض المسماة بالأرض العربية إلى مدى مسيرة يومين من كلا الجانبين ، وأحيانا يزيد على ذلك وأحيانا يقل . ولم أتمكن من الحصول على أية معلومات عن طبيعة النهر لا من الكهنة ولا من أى شخص آخر . ولو أننى كنت شديد الرغبة فى معرفة السبب الذى من أجله ينساب النهر فى فيضان جارف مدة مائة يوم ، ابتداء من الانقلاب الصيفى ، ثم بعد مضى هذه المدة من الأيام ، ينحسر ويغيبض ماؤه ، ويبقى على هذا الحال طوال الشتاء إلى أن يحين الانقلاب مرة ثانية (١) . لم أستطع مطلقاً أن أستقصى من المصريين أية معلومات بخصوص واحدة من هذه المسائل لما سألتهم عن قوة النيل التى تختلف بها طبيعته عن سائر الأنهار . ولقد أردت أن أستعلم عن الموضوعات التى ذكرتها ، وسألت أيضاً عن السبب فى أن النيل وحده — دون سائر الأنهار — لا يهب على صفحاته نسيم .

(١) لم يكن يسيراً على « هردوت » وأهل زمانه ، بل ولا على الذين جاءوا بعد ذلك بأجيال وقرون ، أن يعرفوا من طبيعة النهر وأسرار فيضانه ما يعرفه الناس فى أيامنا وقبل أيامنا بقليل ، ومن ذلك أن ماء النيل مُستمدٌّ من ذلك الفيض الزاخر الذى تَشْرَقُ به بحيرات إفريقية نتيجة لما يجرى إليها من ماء السماء الذى يهطلُ على جبال الحبشة ، فتتجه سيوله فى الأودية مغربةً لتلتقى بعد ذلك فى الفرعين الكبيرين (النيل الأزرق ونهر العطبرة) اللذين يُمَدُّان النيل بالماء بعد ذلك عند « الخرطوم » ؛ هنالك حيث يبدأ ماؤه فى الارتفاع تدريجياً منذ أوائل الصيف ، ثم يزداد الارتفاع خلال شهر يوليو ليبلغ أعلى درجاته فى أواخر شهر سبتمبر . وهنالك تبدو مصر فى تلك الصورة التى أبدع وصفها القائد العربى « عمرو بن العاص » فى رسالته المعروفة إلى أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه .

٢٠ — ولكن بعض اليونانيين — وقد أرادوا أن يشتهروا بالحكمة — ذهبوا في تفسير ظاهرة مائه ثلاثة مذاهب مختلفة ؛ أظن أن اثنين منها لا يستحقان الذكر لو لم أكن راغباً في مجرد الإشارة إليهما .

أحدهما يقول إن الرياح^(١) الموسمية هي التي تسبب فيضان النيل ؛ لأنها تعوق النهر عن أن يصب في البحر . ولكن كثيراً ما يحدث ألا تهب الرياح الموسمية ، ومع ذلك يعمل النيل نفس العمل . هذا إلى أنه إذا كانت الرياح الموسمية هي السبب في ذلك لوجب أن الأنهار الأخرى التي تجري في اتجاه مضاد للرياح الموسمية تتعرض تماماً لنفس الشيء الذي يتعرض له النيل ، بل يكون تأثيرها بهذه الظاهرة أكثر وضوحاً لأنها أصغر من النيل ، فيكون تيارها أضعف . ولكن هناك أنهاراً عديدة في سورية وأنهاراً عديدة في ليبيا لا تتعرض لما يتعرض له النيل .

٢١ — والمذهب الثاني أشد غموضاً من الذي تحدثنا عنه ، وأشد منه إثارة للعجب ، إن صح هذا التعبير . إذ يزعم أن هذه الظواهر تنتج من أن

(١) ذلك في الواقع رأى "فسد" . ولم يقل به غير Thales « تاليس الملقى » انظر : (Diod. sic. I, 39. 4) . ذلك على الرغم من أنه كان من أبرز علماء زمانه ، وقد تعددت معارفه نظراً لما اكتسب من أسفاره العديدة ، ثم هو قد زار مصر ورأى كثيراً من مشاهداتها ، كما كان أول من قدّر ارتفاع الهرم من امتداد ظله ، ثم تنبأ بكسوف الشمس عام ٥٨٥ ، وكان يعدّ من علماء الدنيا السبعة ، وأكبر الظن أن كثرة ركوبه البحر قد أوحى إليه ما رأى من تمليل فيضان النيل ، وهو رأى أنكره كثيرون من العلماء .

(انظر : Bahr, Die Musen des Herodotus von Halekarnasus, (Stuttgart 1866))

النهر يفيض من المحيط ، أما المحيط فيفيض حول الأرض كلها (١) .

٢٢ — أما المذهب الثالث (٢) — ولو أنه في مظهره أقربها جميعا إلى التصديق — إلا أنه بعيد عن الصحة كل البعد ، إذ لا طائل تحت ما يدعى من أن النيل يستمد ماءه من الثلوج الذائبة ، وأنه ينساب من ليبيا ماراً وسط إثيوبية ويصب في مصر . فكيف إذن يأخذ ماءه من الثلوج بينما يجري من أشد الأقاليم حرارة إلى أخرى أكثر منها برودة (٣) ؟ ولكن الأدلة كثيرة —

(١) ذلك أثر من خيال الشعراء القدامى ؛ اتبعه علماء الكلام وغيرهم من الكتّاب وأصحاب التأويل وأولهم « هكايتيه الملطي » ؛ وهو الذي عساه « هردوت » ورماه بالجهل دون أن يذكر اسمه . على أن النيل قد كان في عقيدة آل فرعون يستمد ماءه من منهر السماء عند منعطفه الجنوبي ؛ إذ كان الجنوب قبيلتهم التي اتجهوا إليها ، كما كان الغرب يمينهم ، والشرق يسارهم ، وكانوا قبل أن يوغلوا فيما وراء مضيق السلسلة يعتقدون أن النيل يفصل من السماء بين جزيرة « الفيلة » و منطقة « فيلة » .

انظر : (Maspero, Etudes de Mythologie et d' Archéologie : vol. II, pp. 17, 18.)

(٢) يُعزى هذا الرأي إلى Anaxagorās ، وقد تبعه في ذلك وأيده

Euripidēs ، إلا أن « ديودور الصقلي » أنكره . انظر : (Diodor I, 38)

(٣) ليس يبدو غريبا أن يستنكر « هردوت » مثل هذا الرأي ، فالجبال العالية ، وأمطار المناطق الاستوائية في قلب إفريقيا قد كانت لديه ولدى أهل زمانه من الأمور المجهولة ، كما أن أمطار الحبشة الاستوائية التي تهتمى بها الدسيم الشقال بين شهري مايو وسبتمبر من كل عام ، لم يُعرف أمرها إلا بعد أيام « هردوت » ، ولم يرد ذكرها إلا في أخبار من عاشوا بعد زمانه بكثير ؛ فعرفوا أسباب فيضان النيل . ومن هؤلاء : Arriānus الذي عاش في القرن الثاني للميلاد .

انظر : (Hans Lamer, Wb. d. Antike 2te Aufg., s. 50)

لمن يستطيع أن يعمل الفكر في هذه الأمور — على أنه ليس من المعقول أن يستمد النهر ماء من الثلوج. وأول الأدلة وأقواها (على ذلك)، هو أن الرياح التي تهب من هذه الأقاليم تأتي حارة، ثانياً: إن البلاد غير ممطرة، لا يسقط فيها البرد أبداً. مع أنه بعد — سقوط الثلج — لا بد من سقوط المطر في ظرف خمسة أيام. وعلى ذلك، إذا كان الثلج ينزل في هذه المناطق، فإن المطر يسقط بها. ثالثاً: إن الناس سود البشرة بتأثير حرارة الشمس. هذا إلى أن الحدآن والسنوتة تعيش طول العام في هذه الأصقاع ولا تهجرها. على حين أن الكراكي تهرب من شتاء «سكينيا» وترحل إلى هذه الجهات لتمضية فصل الشتاء. وبناء عليه، لو كانت الثلوج تسقط — ولو بقدر ضئيل جداً في هذه المنطقة التي يجري فيها النيل ويبدأ منها — لما نتج عن هذا شيء ذلك لأن الضرورة المنطقية تؤيد هذا.

٢٣ — أما من يعزو الفيضان إلى «نظرية المحيط» فإن كلامه غامض، يعوزه البرهان^(١). وأنا شخصياً لا أعرف أن نهر «الأقيانوس» موجود فعلاً^(٢). وأعتقد أن «هوميروس» أو أحد الشعراء الذين سبقوه، ابتكر هذا الإسم وأدخله في الشعر^(٣).

(١) ظاهر أن «هردوت» إنما يعني هنا «هكاته الملطي» وينجى عليه باللائمة كما فعل في الفصل الواحد والعشرين.

(٢) لقد عرض «هردوت» لقصة الأقيانوس ومسماها مسماً مشابهاً في الفصل الثامن من كتابه الرابع.

(٣) نلاحظ أن «هردوت» — عند ذكر الشعراء — لم يسم منهم غير «هوميروس» وعن هذا، انظر: (Ilias XIX, 245, XVIII, 607 ff.). ثم انظر بعد ذلك (Ukert, Geogr. d. Griechen & Roemer 1,2 S. 8 ff.).

٢٤ — فإذا كان من الواجب — لدحض الآراء السابقة — أن أدلى برأى بخصوص هذه الأمور الغامضة، فإننى سأشرح — كما يتراءى لى — لماذا يفيض النيل صيفاً : فى فصل الشتاء ، عندما تدفع الزوابع الشمس خارج مدارها المعتاد ، تذهب هذه إلى أجواز ليبيا العليا (١) . ذلك هو تعليل فى منتهى الإيجاز ، وقد قلت فيه كل شئ . ومن الطبيعى أن يكون ماء المنطقة — التى يقترب منها جداً هذا الإله (٢) ويخلق فوقها — شحيحاً للغاية ، وأن تجفّ بحارى الأنهار فى هذا الإقليم .

٢٥ — وهذا تعليل مبيّن بالتفصيل : إن تأثير الشمس أثناء عبورها سماء ليبيا العليا ، يكون على النحو الآتى : لما كان الجو فى هذه الجهات صافياً على مدار السنة ، وكان الإقليم حاراً ليست به رياح باردة ، فإن الشمس أثناء عبورها تقوم بنفس العمل الذى اعتادت القيام به خلال الصيف عندما تجرى وسط السماء ؛ أى أنها تجذب (٣) المياه إليها ، وتدفع بها بعد أن تجذبها

(١) يقصد بالعليا « الجنوبية » .

(٢) يعنى بهذا الإله « إله الشمس » أى الشمس نفسها .

(٣) يريدوا أن مرجع ذلك إلى أثر من نظرية اليونانيين القدامى من أصحاب المذهب الطبيعى قبل زمان « أرسطو » ، وآية ذلك أن الشمس وما حولها من الأجرام السماوية إنما تتناول شحنتها الغذائية من الأبخرة الصاعدة ،

انظر : (Cicero, De natura deorum II, 15) .

حيث جاء نقلاً عن الفيلسوف اليونانى Kleanthes ما يأتى :

Cum sol igneus sit oceanique alatur humoribus, ... necesse est aut ei similis sit igni, quem adhibemus ad usum atque victum, aut ei, qui corporibus animantium continetur.

« حيث الشمس نارية ، وحيث تتغذى من الأبخرة الصاعدة من المحيط ... فأما أنها تشبه النار العادية التى تستعمل فى الحياة اليومية ، أو تشبه حرارة =

إلى المناطق العليا^(١). وهناك تستحوذ عليها الرياح وتشتتها وتذيقها. ومن الطبيعي أن الرياح التي تهب من هذه البلاد - الرياح الجنوبية والجنوبية الغربية - تجلب معها أمطاراً أغزر بكثير مما تجلبه كافة الرياح. ومع ذلك يبدو أن الشمس لا تبعث كل سنة بكل ما جذبته من ماء النيل في هذه السنة؛ بل تبقى بعضه بجانبها. وعندما يعتدل الشتاء، تعود الشمس ثانية إلى وسط السماء. ومنذ ذلك الحين تجذب المياه من كل الأنهار على السواء. هنالك تفيض هذه الأنهار بمياه وفيرة لكثرة الأمطار التي تختلط بها؛ وذلك لنزول المطر بالبلاد وامتلاء الأرض بالجداول. أما في الصيف فتضرب مجاريها لعدم نزول المطر، ولا تمصص الشمس لمياهها. ولما كان النيل لا يتغذى من مياه الأمطار وفي نفس الوقت تمتص الشمس ماءه، فإنه لذلك - بطبيعة الحال - النهر الوحيد الذي يجري في هذا الفضل وقد انخفض مستواه كثيراً عما كان عليه في الصيف. وفي الصيف تجذب الشمس ماءه كما تجذب في الوقت عينه المياه كلها. ولكنه يخضع وحده لتأثيرها في الشتاء. فإني لذلك أعتقد أن الشمس سبب فيضان النهر.

٢٦ - والشمس في رأيي أيضاً هي السبب في أن الهواء هناك^(٢) جاف؛ لأنها تلفحه أثناء سيرها: لهذا فإن المناطق العليا من ليبيا بها صيف دائم.

== الجسد اللازمة للحياة. ==

ثم انظر: (Milton, Paradise Lost V. 423 — 5)

حيث جاء « إن الشمس التي يعمُّ برُّها الجميع ، إنما تنال جزاءها الحيوي من الجميع ».

(١) يقصد « بالعليا » الجنوبية.

(٢) يقصد في مصر حيث يجري النيل ويفيض على جانبيه فيغمر الأرض.

ولكن ، إذا تغيّرت مواقع الفصول ، وأخذت الرياح الجنوبية — والصيف — موقعها في أجواز السماء ، حيث تقع الآن الرياح الشمالية والشتاء ، ووقعت الرياح الشمالية حيث تقع الآن الرياح الجنوبية ، لو حدث ذلك إذن لسارت الشمس — وقد دفعها الشتاء والرياح الشمالية في وسط السماء — نحو المناطق العليا من أوروبا^(١) كما تسير الآن في المناطق العليا من ليبيا^(٢) . ويخيل إلى أنها — أثناء عبورها أوروبا كلها — كانت تؤثر على « الأستروس »^(٣) نفس الأثر الذي تحدثه في النيل .

٢٧ — أما بخصوص الرياح وعدم هبوبها على سطح النهر ، فرأى أنه ليس من الطبيعي مطلقاً أن تهبّ ريح ما من جهات شديدة الحرارة ، لأن الرياح تهبّ عادةً من جبهة باردة .

٢٨ — لتبقى هذه المسائل إذن كما هي ، وكما كانت منذ البداية . وفيما يتعلق بمنابع النيل^(٤) ، لم يفخر أحدٌ من المصريين أو الليبيين أو اليونانيين الذين تحدثوا إلى بأنه يعرف عنها شيئاً حاشا مسجّل الخزان المقدّسة لأثينا^(٥)

(١) يقصد « بالعليا » الشمالية .

(٢) يقصد « بالعليا » هنا الجنوبية .

(٣) الإستروس : نهر « الإيستر » ثم « الطونة » (Donau) أو « الدانوب »

فيما بعد .

(٤) انظر ما جاء في الحديث عن ذلك في الفصول من رقم ١٩ إلى رقم ٢١ .

(٥) أثينا : اسم المعبودة الإغريقية المعروفة أممي به الإغريق في زمان

« هردوت » — بل ربما قبل زمانه — معبودة المصريين « نيسة » . ولم يعدموا الوسيلة إلى خلق الأسباب التي دعّتهم إلى ذلك .

فعبودتهم « أثينا » وهي ابنة معبودهم « زيوس » من زوجته « ميتيس » =

بمدينة « سايس » في مصر (١) . وقد بدا لي أنه يمزح حينما ادعى أنه يعرف الحقيقة تمام المعرفة (٢) . وهذا ما قاله : يوجد بين مدينتي

= (MÉTIS) ، قد كان لها عندهم اسمان وطبيعتان : كانت لديهم باسمها « أمينا » « ربة الحكمة » ، وباسمها بللاس (PALLAS) « ربة الحرب » . وهى فى خيالهم قد خرجت من رأس أبيها « زيوس » بعد أن ابتلع أمها MÉTIS . ثم من ديمة دكناء انشقت عنها من خلال مماء مُمرعدة ؛ فلما صفت ، تجلّت المعبودة فى ذلك الهدوء الذى يعقبُ العاصفة . فإذا هى لديهم بعد ذلك ذات طبيعة مزدوجة ؛ فيها شدة السماء حين تنور فيغشاها الظلام ، وفيها صفوها حين تهدأ وترق .

صوّرها أصحابها فى لباس الحرب تحمل درعها ورمحها ، وخالوها تقودهم إلى ميادين القتال ، ثم تمنحهم من بعده نصراً وأمناً وسلاماً .

انظر : (Petiscus, Der Olymp. (Leipzig 1863, S. 702 ff)
ولم تكن المعبودة المصرية « نية » فى عقيدة أصحابها تختلف عن ذلك كثيراً ؛ جعلها أصحابها ربةً للفيض الأعظم الذى انبعثت منه الحياة الأولى ، ثم هى البقرة الحنون الأولى التى رمزوا بها إلى السماء ؛ فهى من هذه الناحية سماويةٌ عليا ، شأنها فى ذلك شأن « إيزيس » ؛ فيها نور السماء وحكمتها . ثم هى فى الأرض ربةُ الحرب ؛ تبدو كما صوّرها أصحابها فى هيئة الأنتى من بنى آدم مسلحةً بسهمين متقاطعين تارةً ، أو بسهمٍ ودرعٍ تارةً أخرى ، وخالوها تشقُّ الطريقَ أمام فرعون إلى الحرب ، ثم فى موكب النصر الذى يعقب الحرب .

انظر : (Erman, Relig. S. 33)

(١) « سايس » كان اسمها المصرى « ساي » ، وكانت حاضرة الإقليم الخامس من أقاليم الشمال ، وتُعرف اليوم باسم « صا الحجر » .

(٢) كلاهما لم يكن الراوى مازحاً كما ظنَّ « هردوت » ؛ فالرواية صحيحة فى عقيدة آل فرعون الذين كانت شلالاتُ أسوان لديهم منابع النهر النقايدية حتى بعد ما أدركوا المدى بينهم وبين منابعه . ونحن نلتبس العذر لهردوت الذى كان يفكر بعقله ؛ على حين كان المصريون يراعون عقيدتهم وتقاليدهم القديمة . =

« سويني »^(٥) في ولاية « طيبة » و « اليفانتينا » تلان ينتهيان بقلتين مدببتين ، إحداهما يسمى « كروفي » والآخر « موفي »^(٦) . ومن بين هذين

= انظر : (Kees, Aegypten (Muenchen) 1933. S. 211)
ولم يكن عجباً ألا يجد هردوت بين المصريين من يدلّه على منابع النيل ؛ فالنيل في خيال المصريين أو عقيدتهم الدينية قد كان يفيض من معينين : أحدهما دموع إيزيس على زوجها الشهيد . والثاني عرق ذلك الشهيد . والقصة بعد هذا كله تصوير لآمالهم في عودة النيل ؛ يصورونه في بعث ذلك الشهيد .

انظر : Palanque, Le Nil à l'époque Pharaonique (Paris) 1903 p. 13 ff.

Hans Bonnet, Reallexikon der aegyptischen Religionsgeschichte
(Berlin 1952) 528.

(١) يقصد « أسوان » .

(٢) « كروفي » و « موفي » : ورد اللفظ الأول في لوح المجاعة المعروف في « جزيرة سهيل » (سطر رقم ١٤) منسوباً إلى « جزيرة القيلة » ؛ وهناك يشير النص إلى وجود مكان بالنيل يحوى الماء الذى يُجدّد فيضه السنوى .

انظر : (Paul Barguet, La Stèle de la Famine à Sehel p. 22 ff)
ويشير الكاتب المذكور إلى اختلاف المؤرخين في تفسير معنى اللفظين وإن اتفقوا على وجودهما في خيال المصريين كما ذكر « ماسيرو » من قبل
انظر : (Maspero, Etudes d. Myth. et d' Arch. eg. III. p. 385—387)
ولفظ « كروفي » الذى أورده « هردوت » ينبغى أن يكون بناءً على ذلك تصحيفاً لللفظ القبطى (« ! » خروف ⲭⲣⲟⲩ) وأصله المصرى grf ومعناه « ردى » على حين أن لفظ « موفي » لم يختلف عن أصله القبطى « ⲙⲟⲩⲩ » وإن كان يختلف قليلاً عن الأصل المصرى القديم « nfr » بمعنى « طيب » .
ذلك هو رأى بعض العلماء ثبتته كما ورد على كل حال .

انظر : (Spiegelberg, Koptisches Handwoerterbuch, S. 44)

ثم (Crum, Coptic Dictionary p. 127) ، حيث التعليق على معنى اللفظين كما وردا في كتاب « هردوت » .

التلّين تنفجر منابع النيل وهي ذات عمق سحيق . وينساب نصف الماء نحو مصر في اتجاه الرياح الشمالية ، والنصف الآخر نحو الحبشة في اتجاه الرياح الجنوبية (١). وأضاف هذا المسجل أن « إسماتيك » ملك مصر أثبت بالتجربة أن المنابع لا غور لها ، إذ جاء بجبل مجدول يبلغ طوله عدة آلاف من الأبواع ، وأدلى به في هذا المكان فلم يصل إلى القرار . وإذا كان ما قاله المسجل قد حدث فعلا ، فقد بين كما فهمت أنه توجد بهذا المكان — وذلك بسبب انهيار الماء الشديد على الجبلين — دوّامات قوية وتيارات مضادة ، مما أدّى إلى أن المسبار — عند الأدلاء به — لم يستطع بلوغ القاع (٢) .

(١) لسنا نستبعد — بناءً على ما تقدم — أن يكون المصريون قد خالوا إحدى القلّتين « كروفي » ردئية لأنها تبتعث بمائها إلى الجنوب ، وخالوا ثانيتهما « موفي » طيبة خيرة لأنها تبتعث بمائها إلى مصر . والله أعلم بالحقيقة على كل حال .
(٢) ليس غريباً أن يهتم المصريون حكماً وشعباً بنيلهم ويروا فيه ريباً يُعبدُ ؛ فهو قد كان لديهم — وما يزال لدينا — مصدر الحياة ورسولها الأول ؛ صورته أسلافنا على آثارهم الخالدة كهيئة بشرية ؛ لا هو بالذكّر الخالص ، ولا هو بالأنثى الخالصة . له من مظاهر الذكّر لحيته ، وفيه من خصائص الأنثى ثديان ضخمان ، وبطن يشبه بطن الحامل من النساء . وفي ذلك رمزٌ إلى امتلائه بالحير . ولم يكن عجيباً أن يقدّسه المصريون في كل إقليم من أقاليم الوادي ، علماً بأن دار مقدسه الأولى وكعبته الأصبغة قد كانت في كهفٍ من صخور جزيرة « بيجه » خلف سد أسوان . ومرجع ذلك — أغلب الظن — إلى الوقت الذي خال فيه القوم أن الشلال الأول قد كان أقصى حدود واديهم الجنوبية ، وأن مهبط المُنزّل المطال الذي يملأ النهر عند جرفين صخريّين من صخور الجزيرة ؛ خالوا عندهما دوّامتين ينبع منهما النهر .

انظر : (Maspero, Mémoire sur quelques papyrus du Louvre)

== pp. 99,100)

٢٩ — لم أستطع أن أعرف شيئاً من أحد سواه ، ولكنني وصلت إلى هذه المعلومات بعد استقصاء بعيد المدى ، ذهبت حتى مدينة اليفانتينا ، واعتمدت على مشاهداتي الشخصية : فأما فيما بعد هذه المدينة فروايتي تعتمد على السماع : ابتداء من مدينة اليفانتينا ، يجد المسافر صعوداً في البلاد أنها آخذة في الارتفاع ، لذلك يتحتم — للتقدم هناك — ربط القارب من طرفيه كالثور ، فأما إذا ما انفلت زمامه حمله التيار الجارف وذهب به . والنيل في هذه المنطقة

reproduced by Brugsch in the (Dictionnaire géogr. = pp. 860,861) .

وبين الرسوم الفرعونية وما حرلها من متون ، ما يمثل صخوراً كُومَت بعضها فوق بعض ؛ تملو إحداها « رَحْمَةُ الصَّعِيد » ويعلو الأخرى « باز الشمال » ، ومن أسفلهما حِجَّةٌ تحيط بكهف النيل في هيئته التي وصفنا أول الحديث ، وبكل من يَدَيْهِ إبريق ينصب منه الماء .

فإذا ما كان الصيف وانساب الماء من ذلك المكان جاريّاً إلى الشمال فبلغ صخور السلسلة ، هب كهَّانُ الإقليم أو هبَّ فرعون نفسه أو أحدُ ولده إلى ذلك المكان ليضحى بشورٍ وبعض أوز ، وليلقى بتلك الضحية في النهر مصحوبةً بوقيقةٍ مختومة بآمالهم في أن يكون في فيض النهر ما يحقق الحير لمصر .

(Brugsch, Matériaux pour servir à la reconstruction : انظر du Calendrier des Anciens Egyptiens, p. 37) .

ولسنا نستبعد أخيراً — وبعد الذي ذكرنا — أن يكون لكل هذه التقاليد القديمة أثرٌ فيها حِكْمٌ عن قصة « عروس النيل » التي جاء ذكرها عند العرب في رواية المؤرخينهم « ابن عبد الحكم » الذي عاش في القرن الأول الهجري ، والذي لم يعرف عنه أنه زار مصر ، ثم فيما رُوِيَ عن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » من أنه بعث برسالة إلى النيل ، وأمر واليه على مصر « عمرو بن العاص » أن يلقى بها في مجراه حين تأخر فيضانه عن مواعده وإبائه .

—التي يتطلب عبورها أربعة أيام بالقارب—متعرج مثل نهر «الميانديروس»^(١) وطول المسافة التي يجب قطعها بهذه الطريقة ، اثنا عشر «إسخينوس»^(٢) ثم تصل بعد ذلك إلى سهل منبسط ، ينساب النيل فيه حول جزيرة تسمى « تاخومبسو »^(٣). ويسكن الأثيوبيون المنطقة التي تلي مدينة اليفانتينا مباشرة ، كما يقطنون نصف الجزيرة . ويقطن المصريون نصفها الآخر . وتجاور هذه الجزيرة بحيرة عظيمة يسكن حولها اثيوبيون رُحَّل . فإذا عبرتها فأنت تصل إلى مجرى النيل الذي يصب في هذه البحيرة ، وبعد ذلك تنزل إلى البر ، وتسير بجنداء النهر أربعين يوماً^(٤) ، إذ توجد في النيل صخور حادة وجنادل عديدة

(١) نهر « الميانديروس » أحد أنهار Phrygie يبدأ مجراه قبل Célaene ويصب في جنوبي Ephèse .

(٢) انظر : (الفصل رقم ٦ هامش رقم ١) .

(٣) تاخومبسو : مكان موقعه جنوبي أسوان . ولقد اختلف الكتاب والمؤرخون في تحديد الموقع وضبطه ؛ فبعضهم يجعله على الشاطئ الشرقي ، وبعضهم يجعله على الشاطئ الغربي ، وفريق يجعله جزيرة من جزر النيل ، وفريق يجعله قرية . على أن الجميع يتفقون على أن الموقع كان عند حدود مصر الجنوبية .

أما أن «تاخومبسو» كان يسكنها مصريون وأثيوبيون ، فذلك قول يطابق ما قاله «استرابون» عن «فيلة» *καὶ Αἰθιοπῶν τε καὶ Αἰγυπτίων* «فيلة» والظاهر من كلام « هردوت » أنه إنما يتحدث عن مدينة : πόλις وليس عن جزيرة : νῆσος . وليس يبعد أن يكون الرجل قد خلط بين « فيلة » و « تاخومبسو » .

انظر : (Sethe, Untersuchungen, II, Dodekaschoinos, s. 4 ff.)

(٤) كانت البعثات المصرية التي اعتادت ارتياد أقاليم النوبة تتركه ركوب اليم لأمرين : أولهما صعوبة الملاحة على متن النهر من وراء الشلال ، والثاني =

تتعذر بسببها الملاحة . وبعد اجتياز هذه المنطقة في الأيام الأربعين ، تأخذ من جديد سفينة أخرى وتبحر اثني عشر يوماً ، تصل من بعدها إلى مدينة عظيمة تسمى « مروى » (١) . ويقال إن هذه المدينة هي عاصمة الأحباش الآخرين ، وسكانها لا يعبدون من الآلهة إلا « زيوس » و « ديونيسوس » (٢) فقط .

== ما كانوا يَحْشَوْنَهُ من سطو العصابات التي كانت تضرب على شواطئ النهر . ومن أجل ذلك كانت قوافلهم في العصور المتأخرة ، ثم قوافل العرب من بعدهم ، تركب الدرب الصحراوي عن طريق الواحات الممتد إلى « الفاشر » في غرب السودان فتقطعه في أربعين يوماً .

انظر : (Show, Darb el - Arbaein — The forty days road Sudan Notes & Records 12, (1929) p. 23 ff.)

(١) « مروى » : مدينة قديمة معروفة . تقع على مقربة من الشلال الرابع . وكانت في الماضي قاعدة لعرش الأسرة النوبية التي حكمت النوبة وصعيد مصر ، وجعلت واليائها من المصريين اسمها « منتوحات » حاكما على إقليم « طيبة » . وقد نسي أهل « مروى » اللسان المصري ، واتخذوا لساناً إفريقيًا جديدًا . كما نسوا — فضلاً عن ذلك — أكثر العادات والتقاليد المصرية . وُسِّمَتْ لِنِسْمُ الجديدة في كتب العلماء باسم « اللغة المروية » . ومنذ ذلك الوقت انفصل تاريخ النوبة عن تاريخ مصر .

(٢) « زيوس » : عند هردوت وقبيلة من الإغريق علم على « آمون » المصري وقد ظل دهرًا صاحب المقام الأول بين المعبودات المصرية . ولما هاجرت طوائف من كهانه المؤمنين أيام آل « شيشنق » ؛ هاجرت كلها إلى الجنوب ، وأقامت هناك حكومة مقدسة تدين دين « آمون » وتقيم شعائره في كعبة له جعلوها عاصمة لحكمهم ، وعرفت في التاريخ باسم « نياته » وموقعها على سفح جبل برقل .

Griffith, JEA. III, p. § 255

انظر : (١)

= Sethe, Amun, 249

(٢)

وهم يعجبونهما تمجيداً عظيماً ، ويوجد عندهم وحى لزيوس ، وهم يشنون الحروب كلها أمرهم هذا الإله — عن طريق الوحي — ويتوجهون إلى حيث يأمرهم .
٣٠ — فإذا أبحرت من هذه المدينة فإنك ستصل إلى بلاد « الفارين » (١)

== وشيدوا فيها أكبر معابد « آمون » في بلاد النوبة ، ونشروا على جدرانها كافة المناظر التقليدية التي نراها في معابد مدينة « طيبة » ومن حولها نصوص مصرية أصيلة . فأما « دينوسيس » فالمقصود به « أزوريس » وكان أحب المعبودات عند المصريين ؛ بل كان مبدؤهم الشعبي الذي لم ينس ولم يسهل طوال عصور تاريخهم .
(١) الفسارثون : ليس يبدو غريباً أن يكون رجال هذه الحامية من الليبيين الله أعداء « ايسمانيك » ؛ وبخاصة بعد الذي كان من أمر اختيار حراسه ، وخاصة أوليائه من الإغريق . نعم ! ليس غريباً أن يكونوا كذلك ؛ فهم كانوا يكرهونه أشد الكره ، ويخشون خطره وشدته ، ويشعرون أنهم لن يستطيعوا مقاومته إذا ما استعان عليهم بالإغريق .

وكان الليبيون — كما نعلم — يعملون في الحرس الملكي منذ أيام الأسرة الواحدة والعشرين ، وهم قد استطاعوا — بعد لآي — أن يلبغوا العرش ، فأصبحت لهم أسرة بين الأسر التي حكمت مصر وعرفت عند « منيتون » بالأسرة الواحدة والعشرين . وإذا أحس « الليبيون » أيام « ايسمانيك » أنهم فقدوا كل ما كان لهم في مصر من سلطان ، آثروا الهجرة وبعثوا من أجل ذلك عند « هردوت » بالفارثين . ذلك تخمين وتخريج يستند إلى منطق الظروف ، اللهم إلا أن يكون لعقيدة المصريين . الذين كانوا أشد الناس إيماناً بوطنهم ، وبمراقبة أصلهم أثره في ذلك ؛ فهم وحدهم الناس وغيرهم برابرة أو من أشباه الناس ، انظر (Lepsius. D. III, 132) . وإلى قصة الحرب تشير إحدى أساطيرهم حيث جاء أن ربهم « رع » قد ظفر بأعدائه عند « إدفو » فتمكن بعضهم من الحرب ، وأصبحوا من « الفارين » ؛ فالذين اتجهوا إلى الجنوب استقرُّوا في بلاد « كوش » ، والذين اتجهوا إلى الشمال استقرُّوا في « آسية » ، والذين اتجهوا إلى الغرب استقرُّوا في « ليبيا » . انظر : (Naville, M. ythe. d'Horus 21,2)

فى الوقت الذى إستغرقه ذهابك من إلفانتينا حتى عاصمة الأثيوبيين . واسم هؤلاء الفارين « أسماخ »^(١) وهذه الكلمة تعنى فى اليونانية « الذين يقفون ناحية اليد اليسرى للملك » ، ويبلغ عددهم مئتين وأربعين ألف مصرى من المحاربين^(٢) . وقد لجأوا إلى الأثيوبيين لهذا السبب : فى عهد الملك « إسماتيك » وضعت إحدى الحاميات فى مدينة إلفانتينا تجاه الأثيوبيين ، وأخرى فى دافناى^(٣) السيلوزيونية تجاه العرب والسوريين ، وأخرى فى مارية تجاه ليبيا^(٤) . وتحتل الحاميات الفارسية حتى أيامنا هذه نفس الأماكن التى كانت تقيم فيها فى عهد الملك إسماتيك . ويتولى الفرس حماية إلفانتينا ودافناى .

ظل إذن هؤلاء المصريون يقومون بالحراسة فى إلفانتينا ثلاثة أعوام ، ولم يأت أحد ليعفيهم من هذا العمل . فتشاوروا وقرروا بالإجماع الثورة على إسماتيك ، والذهاب إلى إثيوبية . فلما علم الملك بذلك اقتفى أثرهم . وعندما

(١) أسماخ : يرى بعضهم أن هذه الكلمة مصرية ومعناها « الذين ينسون أو الذين يفرّون » كتبها هردوث كما سمعها ، وهو يرى أن معناها « اليسار » . انظر : (Waddell, Notes, p. 151) ، يبدو أن « ديودور » يرى هذا، الراى أيضاً (Diod. I, 67, 3) .

وفى الحلق أن كلمة « أسماخ » موجوده أصلها فى اللغة المصرية « Smbj (سمجى) ومعناها « اليد اليسرى » . انظر : (Wb. Bd. IV S. 140) .

(٢) انظر : (الفصل رقم ١٦٤) من هذا الكتاب حيث جاء ذكر الطبقات ومنهم طبقة المحاربين .

(٣) دافناى : انظر : (الفصل رقم ١٠٧) ، كان موقعها عند « سيلوزيوم » وعلى بعد قريب من فرع النيل الشرقى . وقد ورد ذكرها فى التوراة . انظر : (J. Ball, 8, 15, 17) .

(٤) انظر : الفصل الرابع عشر (هامش رقم ٧) .

لحق بهم حاول كثيراً اقناعهم بالألّا يهجرُوا آلهة آبائهم وأولادهم ونسائهم . ولكن يقال إن أحدهم أشار إلى عورته قائلاً : أينما وُجِدَتْ هذه ، فسيكون لهم أطفال ونساء^(١) . ولما وصلوا إلى إثيوبية ، قدّموا أنفسهم إلى ملك الإثيوبيين الذى كافأهم كما يلي : اختلف معه بعض الإثيوبيين فطلب إلى المصريين أن يطردوهم ويسكنوا أرضهم — ولما أقام المصريون بين الإثيوبيين ، أصبح هؤلاء أكثر تمدينًا ، لأنهم تطبعوا بالطباع المصرية .

٣١ — مجرى النيل معروف إذن إلى مدى رحلة أربعة أشهر برًا وبحرًا فضلًا عن الجزء الذى يقع من مجراه فى مصر ، فإذا قدّرنا المدّة ، وجدنا أن المسافر يقضى هذه الأشهر فى الذهاب من إلفانتينا إلى هؤلاء الفارين . والنيل يجرى من الغرب ومن مكان غروب الشمس . فأما ما وراء هذه المنطقة ، فلا يستطيع أحد أن يتكلم عنه فى يقين ، لأن هذه البلاد مقفّرة لشدة الحرارة .

٣٢ — ولكن هذا ما سمعت من « الكورنيائيين »^(٢) الذين قالوا إنهم ذهبوا إلى مهبط وحى آمون^(٣) ، وتحدّثوا إلى « إتيارخوس »^(٤) ملك

(١) شبيه بذلك ما حكاه Tacitus . انظر : (Tac. Hist. II, 13) .

وما حكاه Plutarch . انظر : (Plut. De Virtut. mul. II, S 246) .

وأخيراً (Lamer (H) Wb.d. Ant. s: 778.)

(٢) الكورنيائيون : هم سكان Cyrene (برقة) ، إحدى المدن التى بناها

الإغريق وجعلوها مركزاً وسوقاً لتجارهم ؛ بنوها أيام الفرو الآشورى فى مطلع الربع الأخير من القرن السابع قبل الميلاد (انظر : ص ٤٩) .

(٣) انظر الحديث عن ذلك فى الفصل الثانى والأربعين من هذا الكتاب .

(٤) Etearchus : يسميه هردوت « ملك الأمونيّين » ، ولسنا نستبعد أن يكون أهل الواحات — وقد كانت خاضعة لسلطان فرعون — قد انتهزوا فرصة ضعف المصريين بسبب ما أصابهم من محن كان آخرها يومئذ وقوعهم تحت نير الفرس ، فاستقلوا بواحاتهم وجعلوا عليهم سلطاناً منهم إن جاز أن يكون قول هردوت صحيحاً .

الأمونيين^(١)، وبعد الكلام في مسائل شتى ، شمل الحديث النيل وكيف أن أحداً لا يعرف منابعه . فروى « ايتيارخوس » إنه ، ذات مرة ، وفد إليه بعض رجال « النسامونيين » (وهم شعب ليبي يقطن حول خليج « سدره » في الأرض التي تقع شرقية على مسافة غير بعيدة)^(٢) . ولما جاء إليه « النسامونيون » وسألهم عما إذا كان في مقدورهم أن يحدّثوه بجديد عن صحارى ليبيا ، قالوا إنه كان عندهم شباب أرعن من أبناء السادة ، فكروا — حين بلغوا سن الرجولة فيما فكروا من مغامرات — أن يختاروا من بينهم بالاقتراع خمسة لمعاينة صحارى ليبيا . ولكي يروا إن كان في استطاعتهم أن يعرفوا ما لم يعرف الذين بلغوا من قبل أبعد الآماد . (لأن سواحل ليبيا التي تطل على البحر الشمالى^(٣) لبسداء من مصر حتى رأس

(١) الأمونيّون : هم سكان الواحة المعروفة اليوم باسم « واحة سيوة » ؛ حيث أقامت الجالية الإغريقية معبد آمون الشهير الذى زاره « إسكندر » عقب مجيئه إلى مصر . انظر : (Erman, Relig. S. 350) . ثم هم الذين جاء ذكرهم في الحديث عن « قبيز » عندما غزا مصر فوجّه على تلك الواحة جيشاً يضم خمسين ألفاً من عساكره ليحرقوا معبدها ، وليسحقوا سكانها .

وكان هذا الجيش قد خرج من « طيبة » فلم يكد يبلغ الواحة الخارجة ويفصل منها حتى هلك عن آخره بين « الخارجة » و « سيوة » . وليس من شك في أن قصة هلاك الجيش — إن صحت — قد رفعت صيت « آمون » وأذاعت شهرته في العالم أجمع وفي دنيا الإغريق بخاصة .

انظر : (Ahmad Fakhry, The Oasis of Siwa (Cairo 1950) S. 27 f)

(٢) النساميَّون : موطنهم في الغالب بالقرب من خليج « سدره » .

انظر : (Herodot, IV. Kap. 172, 173, 174, 175, 182)

(٣) البحر الشمالى : هو البحر الأبيض .

سولوس (١) — وهذه هي نهاية حدود ليبيا — تسكنها في جميع أجزائها شعوب كثيرة من الليبيين ما عدا الأماكن التي يملكها اليونانيون والفينيقيون (٢) ، وفيما عدا الأجزاء التي تقع على البحر ، والجهات الساحلية التي يسكنها البشر ، فإن ليبيا مرتع للوحوش ، ولكن فيما إلى المنطقة التي تأوى إليها الحيوانات الضارية ، لا توجد هناك غير صحراء رملية ، جرداء ، شديدة الجفاف . وتوجه إذن هؤلاء الشباب الذين أرسلهم رفاقهم — بعد أن زدوهم بالماء والمومن الكافية ، توجهوا أولاً إلى الجهات المأهولة — ولما اخترقوها ، وصلوا إلى المنطقة التي تسكنها الحيوانات المفترسة — وعندما بلغوا الصحراء (٣) — متخذين طريقهم نحو الغرب ، وبعدما قطعوا مسافة طويلة من الأراضي الرملية خلال عدة أيام — رأوا في النهاية أشجاراً نامية في سهل ، فاقتربوا منها وأخذوا يقطفون ، ما عليها من ثمر (٤) . فما لمسوها إلا وداهمهم

(١) رأس سولوس : أكبر الظن أن يكون المقصود بذلك المنطقة الصخرية من صحور ساحل إفريقية الغربى وهى التى عرفت فيما بعد باسم « Spartel » وإن كان بعضهم يظن أن المقصود بها الصخور المعروفة باسم « Cantin » .

(٢) أكبر الظن أن المقصود بذلك هم « القرطاجنيون » وحسب ، إذ المحتمل أن منازل اليونانيين كانت فى « برقه » ثم فيما يليها غرباً من المناطق الساحلية .

(٣) ذلك وصف فيما يبدو سليم ، لأنه يحدد الأقسام الطبيعية الثلاثة فى شمالى إفريقية : المناطق الساحلية المأهولة بالسكان ، والمناطق البرية المأهولة بالوحوش ، ثم مناطق الرمال الصفراء (أى الصحراء) .

(٤) أكبر الظن أن تكون القافلة قد بلغت فعلاً قلب إفريقية ؛ حيث يكثر ذلك النوع من الشجر المعروف باسم « شجر الزبد » وهو شجر ذو ثمر طرى .

رجال قصار لا يبلغون في الطول قامة الوَسَطِ من الرجال^(١)؛ وقبضوا عليهم وساقوهم أسرى . ولم يفهم النّسّامونيّون شيئاً من لغتهم ، ولا فهم الآسرون لغة النّسّامونيين . وإلّما قادوهم عبر مستنقعات واسعة جداً . فلما اخترقوها وصلوا إلى مدينة كُلٍّ من بها سود البشرة وفي حجم أسريهم^(٢) . وبجوار هذه المدينة ، ينساب نهر عظيم^(٣) ؛ تُرى فيه التماسيح ، ويجرى من الغرب متجهاً نحو الشمس المشرقة^(٤) .

(١) ذلك قول تُوَيَّيْدَه المشاهد التي رآها من زاروا تلك البقاع في العصور الحديثة . وإذا صحت الرواية ، فالغالب أن تكون القافلة قد بلغت بلاد « الكنفو » ؛ حيث كان يعيش أولئك القصار ، وهى تلك البقاع التي بلغها « ستانلى » عام ١٨٨٧ وشاهد في إحدى غاباتها أولئك الأقزام . وليس يبعد كذلك أن يكون الأقزام الذين جاء بهم الرّحالة المصريون أيام الدولة القديمة من نواحي « سنّار » على النيل الأزرق ، قد كانوا يُسْتَوْرَدون من غابات الكنفو .

(٢) قد يكون المقصود بتلك المدينة « تومبكتو » التي عُرفِتْ في العصر الحديث والتي تعد من أكبر مراكز التجارة في تلك الصحراء .

(٣) لا نستبعد أن يكون المقصود بذلك النهر العظيم هو نهر « النيجر » الذي يستمد ماءه من جبال الـ Senegambiens ، ثم ينحرف جنوباً فغرباً ، ثم يجري إلى أن يصب في خليج غينيا (Guinea) . على أن صلة نهر النيجر بنهر النيل قد كانت معروفة لدى سكان تلك البقاع ، كما كانت واسعة الانتشار إلى أن ظهر بطلانها بعد أن عرف الناس حقائق الأمور في القارة الإفريقية .

(٤) لا غرابة في هذا التخبُّط الذي نراه في قول « هردوت » ؛ فقلب إفريقيا قد كان مجهولاً في أيامه ، ومجرى النيل من قلبها لم يعرف إلا في العصر الحديث . وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى شمالي وغربي أوروبا في علم هردوت . وأتينا لنلتمس له العذر حين يقرن بين مجرى النيل في إفريقيا ، ومجرى « الطونة » في غرب أوروبا . وإن كان حديثه قد طال عن هذا الأخير ، إلا أن معلوماته التي استقاها عن سكنوا حول مصبه من الإغريق تعد ناقصة وضئيلة .

٣٣ — ولا كتنفى الآن بهذا القدر من رواية « إيتيارخوس الآموني » .
 إلا أنه روى أن « النسامونيين » — وفقاً لقاله « الكورنيائيون » —
 قد عادوا إلى بلادهم . وأن القوم الذين كانوا قد وصلوا إليهم ، كانوا جميعاً من
 السحرة . أما النهر الذي يجري بالقرب من المدينة فقد حسبه « إيتيارخوس »
 (نهر) النيل . والمنطق يؤيد ذلك ؛ إذ أن النيل ينبع من ليبيا ، ويقطعها في منتصفها .
 وهو — فيما يُخَيَّلُ إلى بالاستدلال من المعلوم على المجهول — يبدأ على بُعد
 يساوي بعد « الإستروس »^(١) . لأن « الإستروس » يبدأ عند « الككتيين »
 ومدينة « بوريني »^(٢) ، وينساب شاطئاً أوروبا في الوسط الككتيون وراء

== انظر : (Herodot, IV 48 ff) .

والنهر الذي يجري من الغرب إلى الشرق ، والذي قَدَّرَ « هردوت » أنه
 النيل ، هو نهر « النيجر » الذي وصلت إليه قافلة المغامرين التي مر ذكرها ،
 والتي قال إن حاكم الواحات قد حدثه عنها .

(١) انظر الفصل الثاني والثلاثين (هامش رقم ٤) من هذا الكتاب .

(٢) جعل « هردوت » أصل الإستروس « الطونة » ومنبعه في أرض « السكت »
 (Celtes) ومن الجائز أنه كان على بعد قريب من ذلك وعند مدينة البرانس
 (Pyréné) . أى في سلسلة الجبال المعروفة بهذا الاسم . ومعارف الرجل عن تلك
 البقاع غامضة ؛ وقد لا تقل في غموضها عما كان يعرف من تلك البقاع التي استوطنها
 « السكت » من الغابة السوداء ، وفي أعلاها من الشرق ينبع الجدولان اللذان
 يستمد منهما نهر الإستروس (الطونة = الدانوب) ماء ، ولسنا نستبعد آخر الأمر
 أن يكون « هردوت » قد خلط في معارفه وروايته بين نهري « الطونة » (الدانوب) و
 « الرون » ، ذلك لأن الثاني يصب في البحر الأبيض في مكان قريب من
 جبال البرانس .

« أعمدة هرقل »^(١) ، ويسكنون على حدود « الكينيسيين » . وهؤلاء ينزلون أقصى الغرب من كل سكان أوروبا . وينتهى (الإستروس) بعد — اختراقه أوروبا كلها — بأن يصب في البحر الأسود حيث تقع (إيستريا)^(٢) التي يعيش بها مستعمرون ملطيون .

٣٤ — ولما كان (الإستروس) ينساب في مناطق مأهولة ، فقد عرفه كثير من الناس^(٣) ، على حين لا يستطيع أحد أن يقول شيئاً عن منابع النيل ، لأن ليبيا التي ينساب فيها صحراء غير مسكونة . ولقد تكلمت عن مجراه بقدر ما استطاعت أن تصل إليه أبجاثى ، وهو يصب في مصر . وهذه تقع على وجه التقريب في مواجهة (كليكا الجبلية)^(٤) . والمسافة من هنا إلى (سينوب)

(١) يقصد بأعمدة هرقل مضيق جبل طارق . ونحن حين نفكر في الكلتيين الذين سكنوا من وراء تلك العمد ، فأنتا نقدر لمنزلهم تلك البقاع الواقعة في أقصى الغرب من « البرغال » . كما نُقدّر أن تكون منازل من أممهم « هردوت » « الكينيسيين » (Cynesié, Cynité) . انظر : (Herodot, IV, 49) . في أقصى الغرب من أقاليم إسبانيا ونعى « غاليسيا » . (٢) ISTERIA : عرفت تلك المدينة باسم « إستروبوليس » أيضاً ، وكان موقعها غير بعيد من مصب نهر الطونه (الدانوب) وعند المدينة التي عرفت حديثاً باسم « كنستزا » والتي تعرف في رومانيا إلى الآن باسمها الأصلي ISTERE . (٣) يقصد بالناس هنا الإغريق الذين كانوا يقيمون على شواطئ البحر الأسود وحول مصب نهر الطونه (الدانوب) ، ثم من سعى إليهم للبدل والتجارة من قومهم اليونانيين .

(٤) ذلك أمر يحتاج إلى تحقيق ، ولن يكون موقفنا منه بأقل من موقفنا مما قاله « هردوت » عن موقع « سينوب » الذي جعله تجاه مصب الطونه (الدانوب) . انظر : (Herodot, I, 76) ، ولن يكون ما خاله هردوت في شأن ذلك التحديد الجغرافي بأصدق من تصوّره عندما حاول جهده أن يخلق الشبه بين مجرى النهرين العظيمين في أفريقية وأوروبا : النيل والدانوب .

على البحر الأسود مسيرة خمسة أيام للرجل المُجد^(١) . وتقع « سينوب » تجاه نهر « إستروس » حيث يصب في البحر ، لذلك يلوح لى أن النيل يعبر ليبيا كلها ويشابه « الإستروس » . وإن في هذا الحديث عن النيل لكفاية .

٣٥ — والآن سأبدأ الكلام عن مصر في إسهاب ، لأنها — دون غيرها من بلاد العالم أجمع — تحوى عجائب أكثر ، وآثاراً تجل عن الوصف . ومن أجل ذلك ، سأطيل الحديث عنها ؛ نظراً لأن مناخ مصر منقطع النظير ، ولأن نهر النيل له طبيعة خاصة مغايرة لطبيعة باقى الأنهار ، ولذلك اختلف المصريون كل الاختلاف عن سائر الشعوب فى عاداتهم وسننهم^(٢) ؛ فالنساء عندهم يرتدن الأسواق^(٣) ، ويمارسن التجارة . أما الرجال فيبقون فى البيوت

(١) الغالب أن « هردوت » قد أخطأ فى تقدير المدى بين « كليسيا » وشاطئ البحر الأسود ؛ فهو أطول من ذلك حتى لو استقامت السبيل للراحل .
(٢) نلاحظ أن « هردوت » فى هذا الفصل وفى الفصول رقم ٣٦ و ٣٧ و ٩٤ من هذا الكتاب يتأدى فى التعميم ، وإن كانت المدة التى قضاها فى مصر لم تكن تسمح له أن يبلغ من الدقة فى أحكامه ما يُمكنه من تحقيق أحاديثه التى تضمنتها تلك الفصول . فأما أمر اختلاف عادات المصريين عن عادات الشعوب الأخرى وتقاليدها فقد كان معروفاً عند الكتاب الإغريق .

وحسبنا من ذلك ما يقال إن الإغريق قد رفضوا أن يتحدثوا مع المصريين بسبب اختلاف العادات والتقاليد .

(٣) الواقع أن صور الجوارى اللآتى يحملن على رؤوسهن ويرتدن الأسواق قد كثرت على بعض آثار المصريين ؛ وإن كنا لا نوافق « هردوت » على ما رأى من أن النساء وحدهن كن يفعلن ذلك . والغالب أن حب المبالغة فى الوصف هو الذى دفع « هردوت » إلى أن يرى هذا الرأى فى غير تحفظ .

وينسجون^(١) . وبينما ينسج الناس جميعاً^(٢) دافعين اللّحمة من أسفل إلى أعلى ، فإن المصريين يدفعونها من أعلى إلى أسفل . ويحمل الرجال الأثقال على رؤوسهم ، أما النساء فيحملنها على أكتافهن^(٣) . وهؤلاء يَبْلُغْنَ

(١) حقيقة إن الرسوم التي تركها الفراعنة مُصَوِّرةً نواحي حياتهم المختلفة تشير إلى أن صناعة النسيج قد كان يمارسها النساء أول الأمر ، وفي الأغلب الأعم . انظر : (Kees, K.g. S. 73) . ولكن الرجال مارسوها بعد ذلك أيضاً . ولسنا نجد في حكم العقل ما يمنع من أن يمارسها الرجال والنساء في وقت معاً . وإنما العجيب أن يراها « هردوت » قاصرةً على النساء دون الرجال . في الحق . لقد تكون المرأة أصبراً من الرجل على ممارسة تلك الصنعة ؛ لأنها صنعة تتطلب الصبر على الحبس ، والرجل يكره الحبس ويحب الانطلاق . بدليل ما جاء في تراث المصريين الأدبي ممّا يشير إلى بؤس من يمارس هذه الصنعة من الرجال . ذلك لأن الرجل لم يُخَلِّقْ لهذه الحرفة ، وكيف أن حال الرجل في منسجه أتس من حال امرأة ، وكيف أن نخذه — وهو عاكف على ممارسة تلك الحرفة — يلتصقان ببطنه ؛ بحيث لا يستطيع التنفس في سهولة ، وكيف أنه كان يرشو الحارس على باب المنسج بالخبز لِيُكَيِّسَ له سبيل الخروج لرؤية الضوء أحياناً . انظر : (Erman, Lit. J. Aeg. S. 103) .

(٢) والإغريق أولهم بطبيعة الحال .

(٣) لا ندري من أين جاء « هردوت » بهذه الصورة ؛ ذلك لأن أيسر النظر فيما ترك آل فرعون بين أيدينا من صور حياتهم اليومية ، تشهد بغير ذلك . ولا نذكر فيما رأينا من تلك الصور — وهي كثيرة تجل عن الحصر — ما يؤيد قوله ، وإن كنا نذكر — إنصافاً للحق — أننا وقفنا على صور دينية يحمل فيها الرجال على رؤوسهم ؛ ونعني أنهم كانوا يحملون الصور المقدسة في الأعياد الدينية على رؤوسهم .

انظر : Capart, Chronique d'Egypte N° 37. Jan. 1944
= Ch. Noblecourt' ibd. ثم

واقفات (١) ، أما الرجال (فيفعلون) وقد قعدوا القرفصاء . وهم يتغوَّطون في بيوتهم ، ويأكلون في الطرقات (٢) ؛ معتقدين أن الضرورات القبيحة يجب أن تؤتى في الخفاء . أما غيرها فتؤتى جهرة . والمرأة لا تصبح كاهنة لإله

(Ch. Noblecourt T.A.A p. 248)

== نم

(Murray, The Osireion at Abydos, London 1904 Pl. V. et P.4.) نم

وإذا جاز أن يكون هناك غير ما ذكرنا ، فقد يكون من النادرة بحيث لا يقاس عليه . إلا أن تكون حياة الناس قد تغيَّرت ؛ بحيث انقلبت فيها كثير من الأوضاع أيام « هردوت » . وإن كنا نرى ذلك بعيد الاحتمال على كل حال .

(١) تلك مسألة نرى من الخير ألاَّ نُعلِّق عليها ؛ ذلك لأن التعلُّيق عليها قد يوهم القراء أننا نضعها موضع الجذ ، ولو فعلنا لكنا إذاً من المازلين . فطبيعة المرأة لم تهيئها لذلك الوضع المضحك الذي يصوره « هردوت » . ولا يمكن أن نراها في مثل هذا الوضع إلاَّ أن تكون قد سكرت ؛ فمربتت ، ثم فقدت كل ما تملك من حياة المرأة . ثم إن امرأة كهذه لا يمكن أن توجد إلاَّ في مكان لا يزوره من كان وقوراً تقياً ورعاً مثل « هردوت » .

(٢) يعجب « هردوت » من أن المصريين كانوا يزيلون ضروراتهم مستورين داخل الدور ، على حين كانوا يأكلون طعامهم في الطرقات ؛ اعتقاداً منهم أن الضرورات عورات يجب أن تُستَر . أما غيرها فلا جناح عليهم في إتيانها جهاراً . وليس غريباً ولا عجيباً ما يراه « هردوت » ؛ وإنما العجب كل العجب في أن يرى « هردوت » ذلك من الغرائب في حياة المصريين . فإذا صح ما رآه فذهن جدِّ نخورين به ؛ لأن فيه من صور الحياة السليمة ومن الكرامة الإنسانية ما يدل على ذوق هذا الشعب . نعم ! إنه الذَّوق كل الذَّوق ؛ بل إنها صور تدلُّ المروءة الكاملة . فهردوت حين يعجب من ذلك لأنه لم يره عند غير المصريين ، إنما يرمى شعبه الإغريق — على الأقل — بفساد الذوق وانعدام المروءة .

أولآلهة (١) ، أما الرجال فمنهم الكهنة لجميع الآلهة والآلهات . وليس لازماً على البنين أن يعولوا آباءهم (٢) إذا لم يشأوا . ولكن يفرض هذا على البنات فرضاً حتى ولو لم يردن .

(١) لم تكن الكهانة محرمة على النساء كما يقول « هردوت » ؛ بل كان النساء منذ أيام الدولة الحديثة ، وربما قبل ذلك أيضاً ، في خدمة المعبودات ؛ وبخاصة « حتحور » و « نوة » . ولم يكن من العجيب أن تعمل المرأة المصرية في خدمة المعبودة « حتحور » رمز الأمومة والعطف والحب والحنان ، ففي أيام الدولة الحديثة ما يدل على أن النساء قد عملن في خدمة الأرباب . إلا أن عملهن في الكهانة لم يكن أصيلاً ؛ فهن كنّ يشاركن في الشعائر بالغناء والأنشاد وهنّ الصلاصل ، كما كنّ على الجملة من جوارى المعبودات ؛ فسما كان لفرعون من يخدمه في قصره من الجوارى ، كان للأرباب كذلك من يخدمهم في معابدها ، وكنّ في ذلك طبقات : فأولاهن تدعى « أعظم الحظيَّات » ؛ وكانت في الأغلب الأعم « زوجة عظيم الأحبار » . ومن فوق الجميع سيدة بيت فرعون ويسمونها « صاحبة الإله » ، أو القاتنة « المتعبدة » أو « الإلهية » . وكانت هذه في معبد « آمون » تقوم مقام زوجة الإلهية « موة » (= الأم) ؛ أم ولده « خنسو » .

وأول من عُرِفَتْ بتلك الصفة من بيت فرعون أيام الأسرة الثامنة عشرة هي « أحوسى نفرتارى » أم فرعون « أمينوفيس الأول » ؛ تلك التي قدّست بعد زماها في جبانة طيبة ، وأصبحت من حلماتها ورعاتها . وكذلك كانت الملكة المعروفة « حتشبسوة » من صواحب « آمون » . فلما بلغت العرش قامت ابنتها مكانها . فكلّام « هردوت » إذا لم يكن حقاً كله ، وإنما هو صحيح من حيث أن المرأة لم يكن لها نفس الدور الذي كان يضطلع به الرجل في الكهانة .

(٢) إن « هردوت » حين يذكر ذلك ، إنما يذكر القانون الذي أصدره « سولون » مشرّع الإغريق المعروف ، والذي نص على أن يعول الابن أبويه في حالة الشيخوخة والعجز .

٣٦ — وفي غير مصر يطلق كنية الآلهة شعورهم ، أما في مصر فيحلقونها (١) .
ويقضى العرف عند سائر الشعوب بأن يحلق أقارب المصاب رموسهم
أثناء الحداد (٢) . ولكن المصريين ، إذا نزلت بساحتهم محنة الموت ،

= وإذا كان « هردوت » — حين ذكر ذلك — قد ذكره على سبيل
الفخر بأمته فقد فاته أن المصريين لم يكونوا بحاجة إلى مثل هذا القانون ليعولوا
آباءهم وأمهاتهم وذويهم ؛ بل وغير أولئك وهؤلاء من العجزة والمساكين
والمعوزين . وليس على من يريد أن يعرف حقيقة ذلك إلا أن يقرأ سير الحكام
من أمراء الأقاليم ، ليزى برؤم بمن كانوا يرعون من الناس .
انظر : (في موكب الشمس ج ٢ ص ١٠ وما بعدها) .

(١) تلك حقيقة تؤيدها صور الكهنة التي نراها على آثار الفراعنة وبخاصة
في أيام الدولة الحديثة وأواخر أيام المصريين من آل فرعون . ولم يكن الباعث
على حلاقة الشعر شيئاً غير الحرص على النظافة التي تقتضيها العقيدة ، وتستلزمها
الشعائر الدينية ؛ فقد كانت النظافة أهم ما يشترط أن يتوافر في الكاهن . وليس
أدل على ذلك من أن أول مراتب الكهانة تشير إلى تلك الحقيقة ؛ فالكاهن يسمى
« الطاهر » أو « المَطْهَر » . والأصل في ذلك من فعل « طهر » . وفي الآداب
الدينية ما يحددنا بوجود تطهير الكاهن الجديد عند تنصيبه في « بحيرة الكرنك
المقدسة » . انظر : (Erman, Relig. S. 789) . هذا وقد كان الكهنة
من قوم « هردوت » ، كما كان أحبار اليهود يرسلون شعورهم .

انظر : (Leviticus XIX, 87. XX, 5) .

(٢) لكل شعب عاداته وتقاليده الخاصة ؛ فن الشعوب من يرى استحلال
الزينة في تطويل شعر الرأس وتصفيفه ، وإرسال شعر اللحية وتمشيطة ،
فلا غرابة في أن يتجرد هؤلاء من تلك الزينة حين يصيهم الحزن على موتاهم ،
فأما آل فرعون فقد كانت زينتهم في النظافة ، وكانت الحلاقة لديهم كما مر بنا
في (الفصل ٢٦ هامش ١) من مكملات الزينة ؛ فهم حين يحزنون يصرفهم
الحزن عن الزينة ، فيرسلون شعورهم ويطلقون لحاهم . وما زال ذلك دأب =

يطلقون شعر الرأس واللحية . وقد كانت لديهم ، حتى يومئذ مخلوقة .
ويسكن سائر الناس في عزلة عن الحيوانات ، أما المصريون فيسكنون مع
حيواناتهم^(١) ويعيش الآخرون من الناس على القمح والشعير ، ولكنه عارٌ
عظيمٌ على من يعيش عليهما من المصريين . إذ هم يصنعون خُبزهم من الذرة
(ألورا)^(٢) ، وهم يعجنون العجين بأقدامهم ، فأما الطين فبالأيدى وبها أيضاً

== خلفائهم من سكان هذا الوادى حتى اليوم وبخاصة أهل القرى في شمال مصر
وفي صعيدها وأقاليمها الوسطى ؛ فالرجال من أهل الميِّت يهملون زينتهم
فلا يذهبون إلى (المَزِين) ليحلقوا لحاهم وإنما يتركون شعور لحاهم ورءوسهم
حتى تنتهى أيام الحداد . وقد كانت إلى عهد قريب تبلغ « أربعين يوماً » ، بعد
أن كانت قبل ذلك تطول فتبلغ السبعين . وإنا لنعرف كذلك أن المرأة المصرية
قد كانت تتجرَّد من زينتها الطبيعية إذا مات زوجها ؛ فتحلق شعر رأسها
ولا ترسله إلا بعد مرور عام على وفاته .

انظر : (Moeller, Berichte aus d. kgl. Kunstsammlung
Berlin, 33, 199.)

ولا نستبعد آخر الأمر أن تلك العادة وما إليها من مظاهر الحزن في مصر
الحديثة بقيَّةٌ من تراث الماضي ؛ يتوارثها الناس جيلاً بعد جيل . وقد يكون
الأصل في ذلك كله هو الحزن على إمام شهداء السلف « أزوريس » .

(١) يقصد الأليف من الحيوان . ولستنا نستغرب من المصريين أن يعنوا
بالحيوان أكثر مما يُستغنى به غيرهم من شعوب الأرض ؛ فصر قد كانت - وما زالت -
تعتمد في بناء حياتها على الزراعة ، ولن يعيب المصريين أن يعنوا بحيوان الزراعة
ويرعوه على النحو الذى رآه « هردوت » واستغربه منهم .

(٢) نظن أن « هردوت » قد أخطأ التوفيق فيما فهم ؛ ذلك لأن المصريين
قد عرفوا من الحبوب الشعير والقمح والذرة . فأما الشعير فقد كانوا يصنعون
== منه الجملة .

يرفعون الروث (١). وأعضاء التناسل يتركها عامة الناس ، على طبيعتها ، أما المصريون ومن أخذ عنهم فيمارسون الختان (٢). ولكل رجل ثوبان وللمرأة

= وليس من شك مطلقاً في أنهم كانوا يأكلون من خبز القمح والذرة على السواء . وإذا صدّقنا رواية « هردوت » ؛ فإذا كان يفعل المصريون إذاً بالقمح ؛ وقد كان لديهم أغلى ما تنتج الأرض من غلات ؛ وحسبنا أنهم أسموه « الذهب » ، انظر : (Wb. II, s. 24). فأمّا الحب الذي ذكره « هردوت » وزعم أن المصريين كانوا يعيشون على خبزه ، والذي أسماه *ὄρυζα* ، والذي يسميه بعض علماء النبات *Triticum Spelta* ، كما يسميه البعض الآخر *Sorgho* (الذرة) ، قد كان غذاء الطبقات الفقيرة من الفلاحين ، وما زال كذلك حتى يومنا هذا . على أن ذلك لا يمنع الفلاحين اليوم من أن يأكلوا من خبز القمح إذا هم وجدوه . (١) لا نريد أن نكذب « هردوت » فيما ذكر من أن المصريين كانوا يعجنون العجين بأقدامهم ، وإن كنا لا نكاد نتصور ذلك إلا في المخابز العامة . أما فيما عداها فلدينا من آثار المصريين وتراث حضارتهم ما يصور عكس ما رأى « هردوت » .

فأما العمل في الطين ، فنظن أنه كان يجري طبقاً للظروف ؛ فبالأقدام إن كان كثيراً ، وبالأيدي إن كان قليلاً . وما زلنا نرى ذلك في القرى حتى يومنا هذا . فأما العمل في روث البهائم بالأيدي فما زال يجري في القرى حتى اليوم . ولن يفوتنا بعد ذلك أن نذكر أن الروث — كان وما زال — من مواد الوقود التي تستعمل في القرى حتى الآن .

(٢) عرف المصريون الختان منذ أقدم عصورهم التاريخية ، وإن آثارهم — منذ أيام الدولة القديمة — لتثبت ذلك إنباتاً يكاد يبرأ من كل شك .

انظر : (Capart, Rue de Tombeaux p. 66.) .

ثم (Klebs, Reliefs. AR. s. 27) .

وأخيراً (Borchardt, Statuen I, No 23) .

هذا . ولدينا من الشواهد والأدلة ما يثبت أن تلك العملية ظلت تمارس =

ثوب واحد^(١). ويعقد سائر الناس حلقات الشراع وجبالها في الخارج. وكتابة الحروف والاتجاه في العدو يجري بها اليونان من اليسار إلى اليمين أما المصريون فمن اليمين إلى اليسار وهم إذ يفعلون ذلك يقولون إنهم (يمينيون)^(٢) وإن اليونانيين (يساريون). وهم يستخدمون نوعين من الكتابة، إحداهما

= حتى أواخر أيام الفرعنة (انظر: Otto, Priester und Tempel, s. 213 ff.) .
وأما الحكمة من الختان عند المصريين فقد كانت حرصاً على النظافة والطهارة ورعاية صحة البدن، وإلى ذلك يشير « هردوت » في الفصل السابع والثلاثين من كتابه الثاني، كما يشير إلى سببهم في ممارسة الختان في الفصل الرابع بعد المائة من هذا الكتاب أيضاً. والغالب أنها قد كانت كذلك عند اليهود، ثم هي كذلك عند المسلمين أيضاً.

(١) أما أن الرجل من آل فرعون كان يملك توبين على حين كانت المرأة لا تملك غير ثوب واحد، فتلك مسألة فيها نظر. ولا ندرى كيف نستطيع أن نؤيد « هردوت » فيما روى. وكما كنا نود أن نلتمس له بين تراث المصريين ما يؤيد هذا روايته، إذ أن مركز المرأة في مصر الفرعونية وبخاصة قد كان مرموقاً، بحيث نالت حقها كاملاً غير منقوص.

انظر: (في موكب الشمس ج ٢ ص ٥٨ وما بعدها).

كما كانت المرأة من نساء الفلاحين أو الجارية من الخدم في بيوت الموسرين تستطيع أن تحمل من الثياب ما يشبه في تطريزه ووشيه ما يحمل السيدات من نساء الأغنياء. انظر: (Kees, K. g. ss. 32, 68).

(٢) كانت القاعدة أن تجرى أيدي المصريين بالكتابة والنقش من اليمين إلى اليسار، شأنهم في ذلك شأن الشعوب السامية. فاليمين عندهم أفضل من اليسار. وإذا حدث أن جرت أيديهم على عكس ذلك وبخاصة في الميروغليفية (النقش المقدس) فقد كان ذلك لضرورة فنية يقتضيها اتجاه الصور والرسوم التي يكتبون من حولها. وقد يكتبون من أعلى إلى أسفل أيضاً.

تُسَمَّى (المقدسة) والأخرى (العامية) (١) .

٣٧ — وهم يزيدون كثيراً عن سائر الناس في التقوى . وهذه هي القوانين التي يتبعونها ، يشربون في أقداح برنزية^(٢) يُنظفونها كل يوم وكلهم دون استثناء يفعلون ذلك . ويلبسون ثياباً من الكتان ، يهتمون جداً أن تكون دائماً حديثة الغسيل . وهم يمارسون الختان حباً في النظافة ، لأنهم يفضلون النظافة على حسن المنظر^(٣) . وكل يومين يخلق الكهنة أجسامهم بأكملها حتى لا يتوالد بها القمل أو غيره من الحشرات أثناء قيامهم بخدمة

(١) تلك حقيقة معروفة ؛ فلقد كان للمصريين لغتان : إحداها الفصحى ؛ ويعرفها الخاصة من صفوة الصفوة ، وهي التي أمماها الإغريق الهيروغليفية (النقش المقدس) يكتبونها على الحجر نقشاً ورسمًا . ثم يكتبونها في القراطيس وغيرها بالقلم السريع ؛ ويسمى العلماء في هذه الحالة (الميراطيقية) . ولغة أخرى يعرفها العامة ويكتب بها من يعرف الكتابة منهم . وهي التي أمماها الإغريق الديموطيقية (أى الشعبية) . وتدل شواهد الأمور على أن الوثائق المكتوبة بهذه الأخيرة قد بدأت تظهر بوضوح حوالى ٦٥٠ ق . م . ثم بدأ استعمال التحرير بها يزول من آثار المصريين خلال القرن الرابع للميلاد ؛ أى بعد استقرار الدين المسيحي في أرض مصر . وبعد أن كتبت لغة المصريين بحروف يونانية .

(٢) إن المصريين حتى اليوم يشربون من أقداح البرنز أو الصفيح ويسمونها (الأكواز) ، ويعنون بتنظيفها ، ولا عجب أن كان أسلافهم يشربون من أقداح البرنز . وإن كنا نستبعد أنهم لم يستعملوا أقداحاً أخرى .

(٣) انظر تفصيل الحديث عن الختان والحكمة في ممارسته في الفصل السابق (٣٦) هامش رقم (٦) .

الآلهة ، ويلبث الكهنة ثياباً من الكتان فقط ، وأجذيةً من البردى (١) .
وغير ذلك من الملابس أو الأحذية محظور عليهم لبسها إلا قليلاً وهم يغتسلون
مرتين كل نهار بالماء البارد ، ومرتين كل ليل . وهم يرعون من الطقوس
الدينية الآلاف المؤلفة إذا صح لنا هذا التعبير . وهم يتمتعون أيضاً بامتيازات
ليست بالقليلة ... فهم لا يستهلكون ولا ينفقون شيئاً من ثروتهم الخاصة (٢) ،
بل يُصنَعُ لهم خبزٌ مقدس ، ويصيب كل واحد منهم يومياً كمية كبيرة من
لحم البقر والأوز (٣) ، وتقدّم لهم خمر مصنوعة من العنب (٤) . وأكل السمك

(١) لقد كان أجود اللباس لدى المصريين إنما يصنع من الكتان ؛ فلا عجب
أن تكون ثياب الكهان من ذلك النسيج الأبيض الناصع البياض . فهو لشدة
بياضه سريع التأثير ؛ لا يكاد أثر الوسخ يبدو فيه حتى يبادر حامله إلى تنظيفه .
ولا غرابة كذلك في أن ينتعل الكهان تلك النعال الخفاف المجدولة من فتائل
البردى حتى يسهل عليهم تنظيفها . انظر : (Plutarch, Isis & Osiris 4) .

(٢) ذلك صحيح ، فلقد كان لكل معبد من معابد الدولة وبخاصة الكبرى
منها أوقافه من الأرض ، وما تنتج من غلة وثمر ، وما يرعى فيها من حيوان
ويعيش عليها من طير . وكان الكهان وكافة من يخدمون في المعابد من حولهم إنما
ينالون أرزاقهم من أوقاف تلك المعابد وحبوسها .

(٣) كان المصريون يعنون بتربية الطير ، وبخاصة الأوز . وتشير آثارهم بما
عليها من رسوم إلى كثرة عنايتهم به وإقبالهم على لحمه ، ينالون منه ما استطاعوا .

(٤) عرف المصريون زراعة العنب منذ أبعد عصورهم . انظر : (الفصل رقم
٧٧ من هذا الكتاب) . وآثارهم تطالعنا بصور من السكرورم ؛ يغشاها الزراع
إذا أُنِيع ثمرها وطاب جذعها ؛ فيجمعون ويعصرون ألواناً من الأنبذة . ولا عجب
إذاً في أن ينال الكهان حاجتهم من تلك الأنبذة . ولقد تحدث « بلوتارخ » عن
مقدار ما كان يتناول الكهان والملوك من الأنبذة .

انظر : (Plutarch, Isis & Osiris, Cap. 6) .

غير مباح لهم^(١). ولا يبذر المصريون الفول في بلادهم مطلقاً ، ولا ينذون

(١) كثرت الآراء فتعددت واختلفت حول موضوع السمك وتقديسه في مصر الفرعونية . والشئ الذى لا شك فيه هو أن السمك النبلى قد كان وما يزال من عناصر الغذاء طرياً ومجففاً ومملوحاً . وإلى تلك الحقيقة يشير « هردوت » نفسه عند حديثه عن العصر الفارسى في الفصلين (السابع والسبعين ، والتاسع والأربعين بعد المائة) وبخاصة في أقاليم الدلتا وإقليم الفيوم . هذا ، وتشير الوثائق التاريخية الخاصة بأنشطة العمال من الغذاء إلى مقدار ما كان يصرف لكل منهم من السمك . انظر : (Kees, K. G. s. 60. 6) . والعجيب مع ذلك أن ينظر المصريون إلى صيد السمك على أنه من الحرف الوضيعة التى تشير إلى عدم النظافة ، إلا أن يكون رياضة يمارسها الهواة من المقتدرين وأهل اليسار .

انظر : (Schaefer, Von Aeg. Kunst, s. 181, Abb. 154) .

وفي أيام الدولة القديمة من الشواهد ما يدل على النفور من السمك أو بهضه على الأقل واعتباره نجساً . انظر : (Sethe, Urk. I, 173, 202) .

وأعجب من هذا كله — على الرغم من تلك الحقيقة — أن المصريين لم يمتنعوا من تقديم السمك على موائد القربان لأربابهم وموتاهم ، وإن لم يكن ذلك فى سائر الأقاليم . انظر : (Kees, K. G. s. 64) . ثم قدس السمك — وبخاصة أيام الرعامسة — فى كثير من أقاليم مصر ، مثل « إسنا » و « أيسدوس » فى صعيدها ثم « البهنسا » فى أقاليمها الوسطى .

انظر : (Bruyère, Bullet. inst. fr. 28, p. 4) .

وكذلك عُدَّ السمك من رموز الحياة ، وأصبح شعاراً لأزوريس .

انظر : (Bonnet, Bilderatlas Abb. 137) .

فإذا صدق قول « هردوت » فيما روى عن تحريم السمك على الكهان ، فأكبر الظن أن يكون مبعث ذلك وموضوع الخلاف حول تقديس السمك ونجاسته ، هو تلك الأسطورة الشهيرة (أسطورة إيزيس وأزوريس) التى أشارت إلى أن ممكناً بعينها من أنواع السمك النهري قد ابتلعت عضو التذكير من أشلاء أزوريس بعد مصرعه . انظر : (Plut. Isis & Osiris' 18) .

ما قد ينبت منه فجاً أو مطبوخاً . أما الكهنة فلا يطبقون حتى رؤيته ، ويعتقدون أنه بقل نجس^(١) وليس لكل إله من الآلهة كاهن واحد بل أكثر واحدهم هو كبير الكهنة وعندما يموت منهم كاهن يخلفه ابنه^(٢) .

٣٨ — ويعتقدون أن الثيران مقدسة لأپافوس^(٣) لذا فهم يفحصونها

(١) أكبر الظن أن يكون في قول « هردوت » شيء من المبالغة . وقد يكون الصواب فيما رواه « ديودور الصقلي » . انظر : (Diod. I. 89, 4.) . من أن أكل الفول (Faba Vulgaris) قد كان محرماً على بعض المصريين . فالقول قد وجدت حبوبه في بعض قبور المصريين .

انظر : (Legrand, Hérodote T. II P. 92 Note 2) .
ثم (Schweinfurth, Pflanzen s. 362 f.) .

ومعنى ذلك أن زراعته لم تكن محرمة كما يزعم « هردوت » . ونحن على استعداد لتصديق روايته إن هو اقتصر تحريم أكله على الكهان مثلاً . إذ قد يكون السبب في ذلك أن الفول من الأغذية عسرة الهضم ، وأنه يُفسد المعدة بما يُثير فيها من غازات قد يتسبب عنها خروج رياح ثنة .

(٢) ذلك أمر معقول ؛ فقد كانت الكهانة تتوارث وبخاصة في المعابد الإقليمية الكبرى كتلك التي ذكرها « هردوت » في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٣) Epaphus : الاسم الذي أطلقه « الهلينيون » على الفحل المقدس « آپيس » . انظر : هردوت الكتاب الثانى فصل ١٥٣ ثم فصل ٢٧ من الكتاب الثالث . وظاهر أنه تصحيف للاسم المصرى الأصيل . وتقديس البقر في مصر الفرعونية معروف منذ أقدم العصور ، والشواهد على ذلك معروفة منذ فجر التاريخ .

انظر : Brunton, The Badarian Civilisation p. 38. pl. 70,6 (١)

(٢) Petrie, The Labyrinth, Gizeh, Mazgounah, pl. 6,7.

= (٣) Petrie, Prehistoric Egypt, p. 11.

بهذه الكيفية ، إذا رأى الكاهن شجرة واحدة سوداء في جسد الثور عده

= والشيء الذى نحب أن نُنبِّه إليه هو أن التقديس ليس معناه العبادة ، وأن تقديس البقر في مصر الفرعونية ليس بالشيء الغريب ، إذا ما نحن فكّرنا في مصر وحياة شعبها منذ نشأته في هذا الوادى ؛ فصر قد كانت حياتها — وما زالت — تعتمد على الزراعة ، ولم يدخل التصنيع في حياة المصريين ليكون عنصراً من عناصر مقوماتها إلا بين يدي ثورتنا الشعبية الأخيرة (ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢) . والحضارة التى نشأت وتطوّرت بين يدي هذا الشعب البناء وعلى ضفاف النهر الكريم قد حوّلت مصر من صحراء مجذبة جرداء إلى أنضج جنات الأرض وأكرمها وأندأها ، كانت حضارة زراعية قبل كل شيء ولن يكون عجبا بعد ذلك أن نرى أسلافنا من أشد شعوب الأرض حباً للأرض ، وتعلقاً بما يرون فيها من خلق . وكانوا يعرفون قيمة النهر ؛ يقدسونه ، ويفنون له ، بل ويقدسون من أجله كل مُخصَّب من الحيوان والطير ؛ فيربطون بينه وبين النهر الذى كان لديهم فَحْل هذه الأرض ؛ سمى إليها هائماً من قلب إفريقيا ليغرس بها ، فلما تغشاها أحلت حملاً ثقيلاً ، ثم أخذت تخرج من الرزق ما لم يتوافر يومئذ لشعب من شعوب الأرض . وليس أدل على أن الباعث على التقديس قد كان الحصب ، من الربط بين النيل وبين كل مخصَّب من الحيوان والطير ، وفي مقدمة كل أولئك فحل البقر . فالمصريون قد كانوا يمثلون فيض النهر الأكبر في هيئة آدمى له رأس الفحل (انظر : Chassinat, Le Mammisi d' Edfou. p.X2) (pl. XV II,) كما أمحوا فيضان النهر في العصور المتأخرة « عطاء الفحل » (Wl. I, S. 150) . ثم هم يسمون الفحل — نظراً لما عاينوا فيه من الحصب الجنسى — « خالق نفسه » .

انظر : (Gauthier, Le fêtes du Dieu Min, p. 9) .

ومن مظاهر عقيدة القوم في طبيعة هذا الحيوان والتباس الخير بين يديه أنهم كانوا يطوفون به حول حاصمة البلاد « ممفيس » قبيل موسم الفيضان ، (Kees, Apotheosis by Drowning, Studies presented to Griffith p. 405) وأن يطوفوا به مزينا في عيد الحصاد ؛ يعبرون بذلك عن شكرهم =

نجساً ويقوم بفحص الثور كاهن^(١) معيّن لهذا العمل ؛ يفحص الحيوان واقفاً وراقداً ، ثم يسحب لسانه ليرى إذا ما كان نقياً من علامات خاصة سأتحدث عنها في فصل آخر^(٢). وينظر كذلك في شعر الذيل (ليرى) أن نَبْتَه طبيعي . فإذا كان الثور طاهراً ، من كل الوجوه ، يضع عليه علامة (وذلك) بأن يلف حول قرنيه قطعة من البردى وبعد أن يلصقها بصلصال لزج يضع عليها خاتمه^(٣) ، وبعد ذلك يسوقون الحيوان . أما من يُضَحَّى بثور غير موسوم بهذه الكيفية فالعقوبة على ذلك الموت . وبتلك الطريقة إذن يفحص الحيوان .

= وفرحتهم بما أفاء عليهم النهر من رزق يُجريه الحِصْب بين يديه ،
(Gauthier, Les fêtes du Dieu Min, p. 176) .
ولا يفوتنا بعد كل ذلك أن نذكر أن فرعون قد كان يُوصف بأنه « الفحل القوى » من البقر الذي « يحمي الوادي » .

Gauthier, Livre des Rois II p. 200

انظر :

Sethe, Amun & die acht Urgoetter v. Hermopolis S. 9. ثم
على أن وصف الملوك والأبطال بالفحولة وتشبيههم بالفحول من طوائف
الحيوان لم يكن قاصراً على آل فرعون وحسب ، بل كان أمر ذلك معروفاً
لدى شعوب أخرى ؛ فالعرب كانوا يقولون « فلان كبش قومه » أى عزيزهم
وسيدهم ، وهم قد أمموا « مروان بن محمد » آخر خلفاء بنى أمية « مروان الحمار »
لصبره على مرارة الحرب واحتمال شدة القتال . والفرنسيون قد أسموا نابليون
الأول « النسمر » كما سُمِّيَ الغازي أتاتورك « الذئب الأشهب » .

(١) كانت طبقة هذا الكاهن كما سماها اليونان تدعى *μοσχοσφραγισταί*
انظر : (Kees, G.G. s. 136) .

(٢) لا نظن أنه يقصد فصلاً من فصول هذا الكتاب كالفصل ٦٤ وما بعده
إلى الفصل ٦٧ ثم الفصل ١٥٣ وحسب ، وإنما يقصد الفصل الثامن والعشرين من
كتابه الثالث ، حيث يتحدث بإسهاب عن الفحل « أيس » .

(٣) انظر ما ذكره بلوتارخ عن ذلك (Plut. Ibid, 31, p. 363) أيضاً .

٣٩ — وهذه طريقتهم في تقديم الضحية ، يذهبون بالحيوان الموسوم إلى المذبح حيث يضجون ، ثم يوقدون نارا وبعد ذلك يسكبون خمرا على المذبح (١) فوق الضحية ، ثم ينحرونها مبتهلين إلى الإله . وبعد ذبحها يقطعون رأسها ويسلخون جسمها ثم يغطون على الرأس (٢) وافر اللعنات . وإذا كانت لهم سوق ويقيم عندهم تجار يونانيون ، فإنهم يحملون الرأس إلى هناك ويبيعونها . أما الذين لا يوجد بينهم يونانيون فإنهم يلقون بها في النهر . أما عن اللعنات التي يتلوها على رؤوس الضحايا فهذا مدلولها ، « إن كان هناك خطب سيحل بالمضحين أنفسهم أو بمصر كلها ، فليُنزل على هذا الرأس » . وجميع المصريين يراعون هذه الشعائر فيما يتعلق برؤوس الحيوانات المُضَحَّى بها ورشها بالنبيذ ويتبعونها عند تقديم كافة الضحايا . ووفقا لهذه السنة لا يذوق أحد من المصريين مطلقاً رأس أى كائن حي (٣) .

(١) يختلف النقاد في ترجمة حرف الجر (Epi) في هذه العبارة ؛ فبعضهم يرى أن معناه « فوق » المذبح ، وبعضهم يفضل ترجمته « بالقرب من » المذبح . ولكن « فوق » و « على » المذبح أقرب إلى الصواب ؛ لأن « هردوت » يفكر فيما يجري في بلاد اليونان الذين كانوا يضجون على المذابح ويستخدمونها بطريقة لم تكن مألوفة عند المصريين .

(٢) معنى ذلك أن الضحية كانت كفتارة . انظر : (Erman, Relig. S. 33).

(٣) لا نستبعد أن يكون ذلك صحيحاً ، وإن كنا نرجح ألا تكون هذه العادة مصرية أصيلة أو على الأقل متبعة بالنسبة لرؤوس كافة الذبائح ، ذلك لأن موائد قربان لم تخل من رؤوس الذبائح من البقر والطيور . فإذا لم تكن الرؤوس رموزاً للحيوان فعنى ذلك أنها كانت تؤكل .

انظر : (Erman, Relig. S. 336 f.) .

٤٠ — أما عن إخراج أحشاء الذبيحة وحرقتها فيختلف عندهم باختلاف المعابد . وسأبدأ إذن بالكلام عما يحدث لدى الآلهة التي يعدونها العظمى^(١) وقيمون من أجلها أعظم الأعياد : عندما يسلخون الثور وينتهون من صلاتهم ، يخرجون المعدة بينما يتركون الحوايا والدهن داخل الجسم ، ثم يقطعون الأرجل ونهاية العجز والأكتاف والرقبة . وبعد ذلك يملأون بقية جسم الثور خبزاً طيباً « نقياً » وعسلاً وزبيباً وتيناً وبخوراً ومراً وغيرها من الطيب . فإذا ما ملأوا الجوف بذلك ، فإنهم يسكبون عليه زيتاً وفيرا ثم يحرقونه . وهم يصومون قبل تقديم الضحية . وأثناء احتراق الضحايا يلطمون كلهم . وعندما ينتهون من اللطم^(٢) ، يوضع أمامهم طعام مما تبقى من الذبائح .

٤١ — ويضحي المصريون كلهم بالثيران والعجول الطاهرة ولا يباح لهم أن ينحروا الأبقار فهي مقدسة لإيزيس^(٣) ، وتمثال إيزيس في الواقع على شكل

(١) انظر : (Erman, Relig. SS. 176, 337)

(٢) انظر : (١) Hopfner, Tierkult, S. 70 f

(٢) Diod. I. 11

(٣) Herodot, II, 41

(٣) تلك حقيقة لا ريب فيها ؛ إذ لم يكن المصريون يأكلون لحم الإناث من البقر لأنها كانت لديهم من الحيوانات المقدسة وذلك تكريماً لمعبودتهم (إيزيس حتحور) :

ثم (Kees G. G. S. 77) . ثم (Hopfner, Tierkult S. 76 f) .

وما نذكر في مناظر النحر التي صورها المصريون على آثارهم ما يشير إلى ذبح الإناث من البقر غير منظر واحد من أيام الدولة القديمة .

انظر : (Wreszinski, Atlas II. Taf. 86 A.) .

امرأة وله قرنان كما يصور اليونانيون « إيو » (١). والمصريون جميعاً — بغير استثناء — يخصّون الأبقار من بين الماشية كلها بأكبر تعظيم، ولهذا السبب لا يقبل مصري أو مصرية يونانياً على الشفاه، ولا يستعمل سكان يوناني أو سفافيد أو قِدرَه، ولا يذوق لحم ثورٍ طاهر إذا قطع بسكين يونانية (٢). ويدفنون الثيران والأبقار عند موتها بهذه الكيفية؛ يلقون بالإناث (٣)

(١) إيو (Jo) : ابنة « إناخوس » (INAKHOS) أول ملوك « أرجوس » وقد قيل إن « زيوس » هام بها حتى أصبحت أقرب النساء إلى قلبه فخذت عليها زوجته « هيرا ». وقد خلد الشعراء ورجال الفنون أسطورة هذه العذراء الفاتنة . وقالوا إن « زيوس » عندما خشي عليها من بطش علفتها « هيرا » . جعلها في صورة بقرة . ولقد ذاعت قصص هيامها في ربوع الأرض وتأثر الإغريق بذلك فخالوا في صورة العذراء « المنجولة » ذلك المصباح المنير الجوّال من نجوم السماء وهو « القمر » .

وكان الإغريق يصوّرونها في هيئة الأنتى من بى آدم ، ويزينون هامتها بقرنى بقرة ، وتلك صورة « إيزيس » (حتحور) عند آل فرعون .

(٢) شبيه بذلك ما يُحكى عن « يوسف » بن « يعقوب » (إسرائيل) عندما أُولم لأخوته في مصر ففرق بينهم وبين المصريين؛ بحيث جعل لكل من الفريقين طعاماً . ذلك لأن المصريين كانوا يعتبرون العبرانيين نجساً . انظر : (سفر التكوين إصحاح ٤٣ و ٤٤) .

(٣) ذلك قول فيه شك كبير . وأكبر الظن أن يكون مصدره الخيال وسوء الفهم . ومرجع ذلك إلى ما كان معروفاً من عقائد المصريين وشعائريهم التي كانت تقتضيهم إغراق « خل أيبس » عندما تدركه الشيخوخة .

انظر : (١) Hopfner, Tierkult, S. 85 f.

A. Moret, La mise à mort rit. d. dieu en Eg. (٢)

(Paris 1927)

= Chassinat, Rec. Trav. 4. XXXVIII, p 33 seq. (٣)

فى النهر ، أما الذكور فيدفنها سكان كل مدينة فى ضواحي مدينتهم . بينما يبقى أحد قرينها أو كلاهما بارزين ؛ علامة على مكان الدفن . وعندما تتحللُ الجثة ، ويحلُّ الميعاد المحدد ، يأتى إلى كل مدينة قارب من الجزيرة المسماة « بروسوبيتيس »^(١) ، وتقع هذه فى الدلتا ، ومحيطها تسعة « إسخينوس » وبهذه الجزيرة مدن أخرى كثيرة ؛ أما المدينة التى تأتى منها القوارب للحمل عظام البقر فتسمى « أتابيخيس »^(٢) . وفيها معبد مقدس لأفروديت . ويخرج الناس فى هذه المدينة جماعات ، وتتوجه كل جماعة منهم إلى إحدى المدن ، يدفنون سائر الأنعام عند موتها بنفس الطريقة التى يتبعونها فى دفن الأبقار . وهكذا سُنَّتْ عندهم القوانين بشأن الحيوانات الأخرى ، فلا يذبحونها أيضا .

Otto, Stierkulte. s. 13 f.

(٤)

على أننا لا نريد أن نكذب « هردوت » فى النهاية ، إذ ربما تكون هذه العادة قد كانت معروفة فى المكان الذى يقول إن ذلك قد كان يقع فيه .
انظر : (ما جاء عن تقديس الفرقى . فصل ٩٠ هامش رقم ٣) .
(١) كان موقع تلك الجزيرة فى الغالب بين فرعى النيل : (الكانوبى والسمنودى) من غرب الدلتا ، وهى ضمن مجموعة من المدن كان ينزلها المحاربون .
انظر : (الفصل الخامس والستين بعد المائة من هذا الكتاب) .
والغالب أن النزلاء من الإغريق الذين وفدوا إلى مصر عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد قد استوطنوا هذه الجزيرة .

انظر : (Thucyd. 1. 109. 4) .

(٢) ATARBECHIS : حاول بعضهم أن يجعلها مدينة « أفروديت »
أى مدينة « حتحور » . انظر : (Strabon, 17. 1) .
وإن كنا لا نستبعد ما يراه البعض الآخر من أن يكون معناها « معبد حورس الصقر » (حت — حر — ييك) .

٤٢ — ويمتنع الذين يملكون معبداً لزيوس الطيبي^(١) ، وكل الذين في ولاية طيبة ، كلهم يمتنعون عن تضحية الأغنام ويضحون بالمعز^(٢). (لأن المصريين لا يعبدون على حد سواء نفس الآلهة ما عدا « إيزيس » و « أزوريس » وهذا الأخير — على حد قولهم — هو « ديونيسيوس »^(٣) . إذ كلهم بغير استثناء يعبدون هذين الإلهين) . فأما الذين لديهم معبدٌ لمنديس ، ثم أهل مقاطعة منديس فلا يضحون بالمعز بل بالضأن^(٤). ويقول أهل طيبة وأمثالهم من يضحون بالأغنام أن هذه السنة فرضت عليهم لهذا السبب : أراد « هيراكليس » أن يرى

(١) « زيوس الطيبي » : هو معبود المصريين الكبير « آمون » في طيبة .
 (٢) الواقع أن المعز لم يكن له بين حيوان مصر المقدس قيمة ، وإنما كان المصريون يجعلونه عند الضرورة الملحة بديلاً من الضأن . وكانت التضحية به كرهاً له وزهداً فيه ؛ إذ كان في عقيدتهم من قبيل « ست » ورهطه .
 انظر : (Kees, K. G. s. 247 250) .

(٣) ذكرنا غير مرة كيف كان الإغريق يساوون بين معبوداتهم ومعبودات المصريين ، ثم كيف كانوا يسمون هذه الأخيرة بأسماء نظائرها عندهم . ومن ذلك أنهم أسموا المعبود المصرى « أزوريس » « ديونيسيوس » ؛ كما أسموا صاحبه « إيزيس » « ديمتر » . انظر : (Erman, Relig. d. Aeg. S. 333) .
 وصحيح ما يرويه « هردوت » من أن سائر المصريين كانوا يجمعون على تقديس هذين المعبودين .

(٤) لم يكن المعز — كما قدمنا — من مقدسات المصريين . فهم كانوا يقدسون الكباش دون الثيوس ؛ يقدسونها منذ أقدم عصور التاريخ لأنها جاءتهم وافدة مع النيل من قلب إفريقيا ، فربطوا بينها وبين النيل — وهو لديهم مصدر الحصب والحياة — . انظر : (الحديث عن ذلك في الفصل الثامن والثلاثين هامش رقم ١ من هذا الكتاب) .

«زيوس» بأى حال من الأحوال، ولكن هذا لم يرغب فى أن يراه هيرا كليس .
وفى نهاية الأمر، لما استمر الأخير فى إلحاحه، فكر «زيوس» فيما يلى ... سلخ
كبشاً، وبعد أن قطع رأسه وضعها على وجهه، ثم لبس الفرو وأظهر نفسه لهيرا كليس
بهذه الكيفية . لذلك يصنع المصريون تمثال «زيوس» وله وجه كبش (١).

= خال المصريون الكبش حارساً على منابع النيل التقليدية عند شلاله الأول
جنوبى أسوان، وزادوا على ذلك نخالوه بارئاً للبشر يصورهم من صلصال كالفضار .
وذلك تصويرٌ يذكرنا بما جاء فى كتب السماء كالتوراة والقرآن .

انظر : (Badawi, (Ahmad). Der Gott Chnum, S. 52 f.) .
وكان الكبش كذلك لدى المصريين من حيوان «آمون» المقدس، فهم
صوروا هذا المعبود فى هيئة بشر له رأس كبش .

انظر : (Sethe, Amun & die acht Urgoetter, S. 31 ff.) .
هذا، وأكبر الظن أن الحيوان المقدس فى «منديس» (ومكانها اليوم
«أشمون طناح») كان أول الأمر كبشاً، وأن كان الإغريق قد جعلوه تيساً
• τράγος

انظر : (١) Kees, Artikel Mendes in Pauly — Wiss. R. E.

Hopfner, Tierkult S. 89.

(٢)

فإذا صح ما رواه «هردوت»، فإن أهل «منديس» لم يستبدلوا بالضأن
المعز إلا فى عصورهم المتأخرة . على أن ذلك لم يقع عند المنديسيين وحدهم،
بل وقع كذلك فى جبانة «طيبة»؛ حيث جاء ذكر المعز بوصفه الروح المقدس
لآمون . انظر : (Hans Bonnet, Bilderatlas 49) .

(١) مثل هذه الروايات لم تكن معروفة عن شعائر المصريين قبل
أيام «هردوت» . ومن قبل قدمنا الحديث عما طرأ على حياة المصريين
من تغير ربما كان مبعثه تنابع المحن الجبارة التى نزلت بديارهم .
انظر : الحديث عن ذلك فى الكتاب الذى أخرجه Erman عن ديانة المصريين
(Erman, Relig. S. 331 f.) .

وقد نقل الآمونيون^(١). ذلك عن المصريين . والآمونيون هاجروا من مصر والحبشة . ويتكلمون لغة وسطا بين لغتي الشعبين . ويبدو لي أن نفس الاسم الذي اتخذه الآمونيون علماً عليهم مشتق من ذلك ، لأن «زيوس» عند المصريين اسمه «آمون»^(٢) . ولذلك لا يضحي أهل طيبة بالكباش ولكنهم يقدمونها . ومع ذلك ففي يوم من أيام السنة ؛ يوم الاحتفال بعيد «زيوس» ، يذبحون كبشاً واحداً ويسلخونه ويغطون بجلده تمثال زيوس، ثم يحضرون بعدئذ بالقرب منه تمثالا آخر لهيراكليس. وبعد أن يفعلوا ذلك، يلطم كل من يحيطون بالمعبد حزناً

(١) «الآمونيون» : هم سكان «واحة سيوة» المعروفة وفيها معبد آمون الشهير الذي زاره «إسكندر المقدوني» زورته التاريخية ليستوحى «آمون» الذي رضى عنه وأرضاه حين جعله ابناً له وألبسه تاجه . انظر : (الفصل رقم ٣٢ هامش رقم ٢). وهناك ما يشير إلى وجود مستعمرة كوشية أقامها الآمونيون، وقد يشير من ناحية أخرى إلى أن «وحى سيوة» ربما يرجع إلى أصل كوشى ؛ وربما يؤكد ذلك أن «طهارة» قد احتل هذه الواحة .

انظر : Steindorff, Durch die Lybische Wüste zur Amon- (oasis S. 69-70) .

(٢) آمون : رب إقليم طيبة منذ أيام الدولة الوسطى ، ورب الديار المصرية طراً بعد ذلك ؛ بل رب الإمبراطورية المصرية أيام الدولة الحديثة . واسمه مشتق - أكبر الظن - من فعل «أمن» بمعنى «بطن» و«خفي» و«استسمر» ؛ فهو «الباطن» لأنه يمثل الهواء (الآثير) الذي لا يرى ، ونظيره عند العبرانيين «يهوفا» (يهوى) أى الهواء . وليس يبعد أن يكون لنشأة «موسى» الذي ولد في مصر وتربى في قصورها وليداً ، وتثقف في معابدها صبيهاً وإفاًماً أثره في ذلك . انظر : (« في موكب الشمس » ج ٢ ص ١٠٧ وما بعدها) . ثم (Sethe, Amun § 256 ff.) .

على الكباش ثم يدفونه في قبر مقدس (١) .

٤٣ — ولقد سمعت هذه الرواية عن « هيراكليس » ، ونحوها أنه أحد الآلهة الإثني عشر (٢) . أما عن « هيراكليس » الثاني الذي يعرفه

(١) ليس يبعد أن يكون المصريون قد عدّوا هذه الضحية كفارةً يُقدّمونها بين يدي « آمون » على أنه رب الشمس (رمز الشمس) ، وقد كان في عقيدتهم فعلاً يمثل الشمس . انظر : (Sethe, Amun §. 243 ff.) . وكانوا يفعلون ذلك في فصل الربيع عندما تكون الشمس في برج الحمل . والله أعلم بالحقائق على كل حال .

(٢) انظر : (Diodor, I 24,1, Ἡρακλέα τὸ γένος)

Αἰγύπτιον ὄντα

« إذ أن هرقل مصرى الأصل » . ومثل ذلك ورد عند Cicero .

انظر : (Cicero, De Natura deorum III, 16) . وعند Arianus .

انظر : (Arianus II, 16) . وأخيراً Hopfner

انظر : (Hopfner, Fontes Historiae religionis Aegyptiacae)

(p. 87, 103 - 104, 296, 308) .

وتلك مسألة تقتضيها الوقوف طويلاً عند النظر فيما يقول « هرودوت » بشأن تلك الطوائف من المعبودات المصرية . فالطائفة الأولى عنده من ثمانية ، وعنهما — كما سنرى في آخر هذا الفصل وفي الفصل ٤٦ — نشأت طائفة ثمانية . ومن هذه الثانية نشأت الثالثة كما سنرى في الفصل ١٤٥ . وهرودوت يعد من معبودات الطائفة الأولى : Leto (Latona) .

انظر : (الفصل السادس والخمسين بعد المائة من هذا الكتاب) ونظيرتها عند المصريين تُدعى « حتحور » ، ثم يجعل من هذه الطائفة Pan أيضاً .

انظر : (الفصلين الخامس والأربعين والسادس والأربعين بعد المئة) ونظيره

عند المصريين يدعى « مين » .

اليونانيون فلم أستطع أن أسمع عنه شيئاً من أى مكان فى مصر . والأدلة كثيرة التى يمكن أن أسوقها على أن المصريين لم ينقلوا اسم (١) « هيراكليس » عن اليونانيين ، ولكن بالأحرى أخذ هؤلاء عنهم . ومن اليونانيين من يقولون بأن « هيراكليس » هو ابن « أمفيريون » . ومن بين هذه الأدلة أقدم ما يأتى : لقد كان والدا هيراكليس — « أمفيريون » و « ألكينا » (٢) — كلاهما ، من سلالة مصرية الأصل . وعلاوة على ذلك فالمصريون يؤكدون أنهم

وَيَعُدُّ من الطائفة الثانية « هرقل » . انظر : (فصل ١٤٦) . ويقابله عند المصريين « حرى شاف » معبود « إهناسية » .
ويعدُّ من الثالثة « ديونيسيوس » . انظر : (فصل ٤٢ ، ١٤٥ من هذا الكتاب) . ونظيره عند المصريين « أزوريس » .

فأما ما بقى من طوائف تلك الأرباب الثلاث فلم يذكرها « هردوت » ؛ كما أنه لم يذكر ما يناظرها من أسماء الأرباب المصرية التى أوردنا ذكرها فيما تقدّم . ولو حاولنا أن نبحث أمر ذلك فى ضوء ما حقق المؤرخون المحدثون من واقع ما ترك المصريون من تراث ، إذا لتفرقت بنا السبل ، ولضاعت الحقائق فى سبيل من الفوضى ، ولكان حالنا أشبه شئ بمحال من يحاول عدّ نجوم السماء وإيجاد الصلات بين بعضها وبعض ، ولكان علينا أن نفكر فى أرباب « أولمب » الإغنى عشر ؛ ثم فى حيوانات الدوائر الفلسفية التى رمز بها المصريون إلى أقسام الكون . انظر : (الفصل الرابع من هذا الكتاب) .

(١) هذه ترجمة حرفية لكلمة (OUNOMA) ، ولكنها تعنى فى الحقيقة اسم الإله وخصائصه ، ولو أردنا ترجمتها بدقة لاضطررنا إذا إلى استخدام جملة بأكملها لنقول : إن المصريين لم ينقلوا اسم « هرقل » وأوصافه وخصائصه .

(٢) انظر الحديث المفصّل عن أبوى « هرقل » وما جاء فى الأسطورة الخاصة بذلك من اختلاف فى الرواية (Theocrite, chap. J. La Naissance d'Héraklès) .

لا يعرفون اسمي «بوسيدون» و «الديوسكوري» (١). وأنهم لا يعدّونهما آلهة بين الآلهة الأخرى. فإذا قدّر أن المصريين كانوا قد أخذوا عن اليونانيين اسم أي إله، فقد كان من باب أولى أن يذكروا هؤلاء أولاً وقبل كل شيء إذ كان المصريون بالفعل — حتى في ذلك العصر — يمارسون الملاحظة. كما كان بعض اليونانيين ملّاحين فيما أعتقد أيضاً، وكما يحملني الفكر على ذلك. إذن — والحالة هذه — كان الأولى بالمصريين أن يعرفوا اسمي هذين الآلهين لا اسم «هيراكليس». كلاً.. إن هيراكليس إله قديم جداً عند المصريين. ووفقاً لما يقولون هم أنفسهم، إذ أنهم يعدّون «هيراكليس» واحداً من الآلهة الإثني عشر التي انحدرت من الآلهة الثمانية (٢) منذ سبعة عشر ألف عام قبل أن يتولى

(١) انظر ما جاء عن ذلك في الفصل (رقم ٥٠).

(٢) في الغالب أن «هردوت» قد جمع بقصة الأرباب الثمانية، ولكنه لم يفهم مما سمع كثيراً، بل ربما فهم شيئاً وغابت عنه أشياء. فالقصة مرجعها إلى فلسفة كهّان الأثينيين (هرموپوليس) وتصورهم نظرية نشأة الكون؛ تصوره قائماً من عناصر أربعة: «نون» (الماء الأزلي) «حاح» (القضاء اللّائهاي) «كالك» (الظلام المُسطبق). وأخيراً «آمون» (المواء) وكان لديهم بمثابة الروح، حل في هذه العناصر الثلاثة فأوجد فيها الحياة. ولما كان المصريون لا يتصورون قيام الكائنات ولا وجود الحياة بغير اتصال زوجين من ذكر وأنثى، فقد جعلوا لكل من تلك العناصر الأربعة صاحبة؛ فللنون زوجة تدعى «نونه» وللحاح «حاحة»، ولكالك «كالك»، ولآمون «آمونة».

ثم كان من نتائج حلول الروح في تلك العناصر أن طفت الأرض على وجه الماء، وأضاءت الشمس، وانبعث صوت الحياة الأولى؛ فكانت الكلمة. ولسنا ندري — لماذا كلما مرت بالخطر تلك القصة تذكرنا بقول الله تعالى في سورة (الحاقة) «وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ». يضاف إلى كل ما تقدم من أن خيال المصريين في الكون ونشأته يذكرنا بما جاء في مطلع سفر التكوين.

« أمازييس » الحكم (١).

٤٤ — ولما كنت أرغب في معرفة معلومات أوضح (٢) بشأن هذه الموضوعات على قدر المستطاع ، أبحرت لذلك إلى « صور » في « فينيقيا » ؛ ذلك لأنني سمعت بوجود معبد مقدس لهيرا كلّيس (٣) هناك . ولاحظت أن هذا المعبد قد زينتته نصبٌ كثيرة ؛ ومن بينها عمودان ، أحدهما من الذهب المصقول ، والآخر من حجر الزمرد (٤) الذي يلمع في الليل بشكل غير مألوف . وأثناء حديثي مع كهنة الإله (٥) ؛ سألتهم منذ متى أقيم المعبد عندهم . فوجدت أنهم

(١) المعروف أن « أمازييس » بلغ العرش في عام ٥٢٠ ق . م . ثم ودّع الدنيا بعد أربعة وأربعين عاما . أي في عام ٥٢٥ ق . م . (انظر هردوت : الفصل الأول من الكتاب الثالث) فالحسبة إذأ عند هردوت تقريبيّة .

(٢) واضح أن « هردوت » يحب دائماً أن يؤكّد حرصه على صحّة معلوماته ، وأنه من أجل ذلك لا يدّخر وسعاً في التنقل مهما كلفه ذلك من جهد .

(٣) لن يكون « هرقل » هذا في فينيقية غير واحد من اثنين : إما إله الشمس عند الفينيقيين وهو « بعل » أو « ملسكارت » (= ملك المدينة) .

(٤) ورد ذكر هذا العمود من الزمرد عند Theophrastes وعند Plinius غير أنه ليس من السهل أن تصوّر زمردة في تلك الضخامة . ومن الجائز أن يكون الأمر قد أشكل على « هردوت » أو غلبت عليه المبالغة ، وجائز أيضا أن يكون العمود من اللازورد . أو أن يكون مطلياً بطلاء يشبه لون الزمرد .

(٥) ذلك رأى يؤيِّده فريق من المؤرخين ويخالف عنه آخرون ؛ يرون أن نشأة المدينة لا يمكن أن يتجاوز تاريخها أواخر القرن السادس عشر ق . م .

انظر : (MOVERS, Die Phoenicier II, 1. S. 134 ff - 167 ff.) .

لا يَتَّفِقُونَ أَيضاً مع اليونانيين ؛ إذ قالوا إن هذا المعبد قد بنى فى نفس الوقت الذى أُسِّسَتْ فيه « صور » ، وأنه قد مر على سكناهم بالمدينة ألفان وثلثمائة عام . ولقد رأيت فى « صور » معبداً لهيراكليس يسمى « الثاسوسى » ، وذهبت بالفعل إلى « ثاسوس » (١) حيث وجدت معبداً لهيراكليس ، بناه الفينيقيون الذين اُتَّسُوا « ثاسوس » أثناء تجوالهم للبحث عن أوروبا ، كان ذلك قبل خمسة أجيال من ميلاد « هيراكليس » بن « أمفيتريون » فى بلاد اليونان (٢) .

هذه البحوث تُبَيِّنُ إذن فى وضوح أن « هيراكليس » إله قديم . وأظن أن تصرف اليونانيين كان فى غاية الصواب أولئك الذين شيدوا عندهم معبدين لهيراكليس (٣) ؛ يضحون لأحدهما ويسمونه « هيراكليس الأولى » بصفته أبدياً ويضحون للثانى باعتباره بطلاً .

(١) Thasos : جزيرة فى الشمال من بحر « إيجه » . انظر : (« هردوت » الفصل السابع والأربعين من كتابه السادس) . كان فيها للفينيقيين محلة منذ عام ١٤٠٠ ق . م . وكان فيها معبد لهرقل ، كُشِفَ عن بعض أبقاضه فى العصر الحديث ، كما كُشِفَ فيها عن قطعٍ من العملة تحمل صورة هذا المعبود .

(٢) إذا كان المتواتر أن مولد « هرقل » الإغريقى لأمفيتريون من أمه السمين يرجع إلى عام ١٢٨٤ . ق . م . فأكبر الظن أن بناء معبده بجزيرة « ثاسوس » يقع تاريخه فى حساب « هردوت » حوالى ٥٥٠ . ق . م .

(٣) يرى بعض الكتاب المتأخرين عن عصر هردوت ومنهم « ديودور » . أنه كان هناك ثلاثة معابد ، كما يرون أنه كان هناك أكثر من « هرقل » . ومهما يكن من أمر فإن بلاد الإغريق لم يكن فيها لهرقل غير معبدين .

انظر : (Rawlinson, Herodotus Vol II. P. 71) .

٤٥ — ويحكى اليونانيون روايات عديدة — دون تدقيق — ؛ منها تلك الرواية السخيفة (١) التي يروونها عن «هيراكليس» . إذ يُحكى أنه لما جاء هيراكليس إلى مصر ، وضع المصريون الأكليل على رأسه وأخذوه في موكب ليضحوا به لزيوس ؛ فلزم الصمت برهة . وما أن بدأوا بأقامة الشعائر للتَّضحية أمام المذبح حتى لجأ «هيراكليس» إلى العنف وقتلهم عن بكرة أبيهم . ويلوح لى من هذه الرواية أن اليونانيين يظهرون جهلاً مطبقاً بطباع المصريين وعاداتهم . إذ كيف ينبغي أن يضحى ببنى آدم (٢) قوم لا يضحون من الحيوان بغير الخنازير والثيران والعجول إن كانت طاهرة ، ثم بالأوز ١١ . ثم كيف يستطيع هيراكليس قتل هذه الآلاف المؤلفة بمفرده وهو ما يزال بعد — حد قولهم — بشراً من الناس ١١ . ألا ليت الآلهة بعد الكثير مما رويناه عن هذه الأمور تتقبل ذلك بقبول حسن (٣) .

(١) الإشارة هنا إلى قصة تُنسب إلى ملك أسطوري من ملوك مصر يسمى «بوزيريس» ، يقال إنه كان يذبح كل الأجانب ، وظل يفعل ذلك حتى جاء «هيراكليس» (هرقل) إلى مصر فقتله .
انظر : (Wiedemann, Herodotos Zweites Buch S. 213) .
(٢) ورد في بعض الروايات أنه كان يُضحى بالأسرى في أيام الأسرتين ١٨ و ١٩ (١٥٨٠ — ١٢٠٠ ق . م) .

انظر : (Frazer, Golden Bough, II, pp. 254) . ولانظن أن ذلك كان صحيحاً على أى حال .

(٣) ذلك عهدٌ أخذهُ «هردوت» على نفسه كما مر بنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب ، حين قال إنه لن يتحدث عن المقدسات والشعائر إلا بمقدار ، ولسوف نلتقى في الفصول التالية مثل هذا ؛ إذ يقول إنه حين يتحدث عن ذلك لن يعدو ما سمعه من الكهان وأهل المعرفة .

٤٦ — وهذه هي الأسباب التي من أجلها لا يضحى المصريون (١) — الذين سبق ذكرهم — بالعناز والتيوس : إن أهل « منديس » يعدّون « بان » بين الآلهة الثمانية (٢) ، ويزعمون أن هذه الآلهة قد وُجِدَتْ قبل الآلهة الإثني عشر . والرسمون والمثالون يصوّرون ، ويحفرون صورة « بان » كما يفعل اليونانيون ، بوجه عنز ورجلي تيس . دون أن يعتقدوا أنه على هذه الصورة ولكن لأنهم يرون تصويره على شاكلة الآلهة الأخرى ، ولست أرى ما يمنع من ذكر السبب الذي من أجله يصورون « بان » على هذا النحو (٣) . إن أهل « منديس » يقدسون كل المعز ، ويفضلون الذكور منها على الإناث ؛ ويختص الرعاية واحداً منها بالتمعظيم وهو الذي إذا ما نفق عمّ الحزن كافة ولاية « منديس » . وفي مصر يسمى التيس والإله كلاهما « بان » و « منديس » .

(١) يقصد بالمصريين هنا أهل « منديس » بطبيعة الحال .
انظر : (الفصل الثاني والأربعين من هذا الكتاب) .
(٢) انظر : (ما جاء في الفصل الثالث والأربعين من هذا الكتاب) .
وفي اعتقادنا أن ما أسماء هردوت (PAN) في ذلك الفصل — وأورده ضمن الطائفة الأولى (طائفة الأرباب الثمانية) . انظر : (فصل ٤٣ هامش رقم ١) — لا يمكن أن يكون عند المصريين غير معبودهم « مين » ، رمز الحصب في الطبيعة .
انظر : (Erman, Relig. S. 333) . إلا أن الإغريق قد اختلط عليهم الأمر ؛ فجعلوه « تيس منديس » تارة و « كبش إهناسية » تارة ثانية ، ثم « خنوم » تارة ثالثة .

(٣) لم يكن مألوفاً لدى المصريين أن يُصوِّروا مقدّساتهم من الحيوان على هذا النحو الذي تخيَّله « هردوت » ؛ فهم قد صوّروها أول الأمر حيوانات كاملة ، ثم خلقوها من الحجر وغيره كهيئة البشر برؤوس الحيوان ، ثم أخرجوها آخر الأمر في صورة بشرية خالصة . وما نعرف أن « مين » قد عُرفَ مطلقاً عند المصريين في تلك الصورة التي تخيلها « هردوت » .

وفي وقتي حدث بولاية « منديس » هذا العجب العجائب ؛ اجتمع تيس^١ بامرأة في العلانية (١). وعلم الناس بذلك جميعاً.

٤٧ — والمصريون يعتبرون الخنزير نجساً (٢) ؛ لذلك إذا مَسَّ مصري^٢

(١) اجتماع التيس بالأنثى من بنى آدم يبدو شيئاً بشعاً ومضحكاً في آن معا . وإن كان وطء الذكر من بنى آدم مختلف الإثبات من طوائف الحيوان أمراً معروفاً وبخاصة في القرى . ولست أعتقد أن أمر ذلك قاصر على المصريين وحسب ؛ بل هو عام فيما يبدو . على أن العكس ليس يبدو مستحيلاً في مجال الرغبة الجنسية وتصويرها لدى المرأة . فقد عُثِرَ بين تراث المصريين على رسوم تصور ذلك . انظر : *Michaelidis, Un moule en plâtre illustrant un passage d' Hérodote. Bulletin de l'Inst. fr. d' Arch. Or. L, LXIII.* (٢) نجاسة الخنزير : ذلك شيء لم يَقُلْهُ « هردوت » وحده . وإنما أكدته

سائر الذين كتبوا عن مصر والشرق . والواقع أن سائر شعوب الشرق الأدنى قد حرمت لحم الخنزير . وليس من شك في أن التحريم قد كان لأسباب تتصل بصحة هذا الحيوان والحرص على صحة من يأكلون لحمه . وإذا كان التحريم قد بُنى في شرائع الشرقيين كاليهود ، والمسلمين مثلاً على أساس النجاسة ؛ فقد كان ذلك لأن الشرائع لا تحرّم إلا بسبب النجاسة . وليس من شأنها أن تذكر في إجمال أو تفصيل ما يمكن أن يلحق بصحة البشر من أذى . والواقع أن الشرق الأدنى وأكثر أقاليم مصر لم يكن فيها من المراعى الغنية ما يمكن أن تصح معه أبدان الخنازير بحيث تخلو من العامل التي تنتقل إلى من يأكل لحومها . ولو توافرت المراعى إذاً لتغير الحال ولم يعتبر الحيوان نجساً ؛ فليحتم الخنزير قد أكل في مصر ، كما أن الخنزير قد عُرِفَ في مصر منذ فجر تاريخها ؛ وبخاصة في الدلتا حيث توافرت المراعى الغنية السخية . وكان الناس ينالون من لحمها كثيراً كما كشفت عن ذلك أعمال التنقيب في منطقة « مرمدة بنى سلامة » .

انظر: (١) Menghin, bei Junker, Vorberichte, Merimde Beni

Salame 1933. (Wien. Anz.) (1933) s. 88.

Junker, Merimde Beni Salame, Wien. Anz. 1929 (٢)

خنزيراً أثناء مروره به ، ذهب في الحال وألقى بنفسه في النهر دون أن يخلع
ملابسه . كما أن رعاة الخنازير — ولو أنهم مصريون بمولدهم — لا يدخلون
— دون سائر المصريين — أى معبد من جميع معابد مصر . ولا يرضى مخلوق
أن يزوّج أحد هؤلاء الرعاة من ابنته ، ولا أن يتزوَّج منهم . ولكنهم

= ولم تنوافر للخنزير مثل هذه المراعى في صعيد الوادى ولا في أقاليمه الوسطى
فبرئت منه دهرأ ؛ لانكاد نجد له من ذكر في آداب المصريين ، ولانكاد نعث له
على أثر في مناظر الزرع والفلاحة إلا قليلا ؛ بل لانكاد — حتى عصر الدولة
الحديثة — نجد له من ذكر أو رسم في قبور المصريين وآثارهم إلا قليلا .
والمصريون قد تجنبوا ذكره في تراجمهم التى سجلوها على صفحات قبورهم
أو على آثارهم الأخرى ؛ لانكاد نذكر من ذلك غير مثل واحد ورد في سيرة أحد
الرعاة من أيام الدولة الوسطى (Sethe, Lesestuecke, MR. s. 79) . هذا وإن
كان ذكر الخنازير ورعاتها قد كثر وروده منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة
(Klebs, Reliefs MR. s. 86) . وليس يبعد أن يكون المصريون قد فطنوا
— على مر السنين في تاريخهم الطويل — إلى ما في لحم هذا الحيوان من أذى
على صحة آكله ؛ فهم قد كانوا يختبرون دماء الذبائح عقب نحرها فيقرررون
سلامتها ، أو عدم سلامتها .

انظر : (١) Erman, Reden, Rufen, & Lieder, Berl. Akad. 1918

Montet, Bull. Inst. fr. or. 7 p. 41 f. (٢)

نرى هل امتنع المصريون جميعاً عن أكل لحم الخنزير ؟ نكاد نشك ؛ ذلك
لأن التحريم لم يكن في أى مكان ولا في أى زمان من الروادع مهما تكن
أسبابه وأياً كانت النتائج المترتبة على مخالفته .

ولسنا نستبعد أخيراً أن يكون بعض الفقراء من العمال قد كانوا يأكلون لحم
الخنزير إن هم وجدوه .

انظر : (Keimer, Bull. inst. eg. 19 (1936—37)) .

يتزاجون فيما بينهم^(١). والمصريون لا يضحون بالخنازير لسائر الآلهة حاشا «سيليني» و«ديونيسيس» وحدهما، ينحرونها ضحيةً لهما في الوقت الذي يكون فيه القمر بدرًا^(٢). وبعد نحرها يأكلون من لحمها. أما لماذا ينفرون مُشمزّين من الخنازير في بقية الأعياد ويذبحونها في هذا العيد؛ فلذلك قصة يردّها

(١) لقد مر بنا (في الفصل السادس والثلاثين من هذا الكتاب) كيف كان حرص المصريين شديداً على نظافة الكهّان الذين يخدمون في المعابد؛ فلن يبدو غريباً بعد ذلك أن يُحترّم غيرهم من دخولها إذا لم تتوافر لهم نظافة المظهر على الأقل؛ بل لن يبدو غريباً أن ينفر الناس من تلك الطبقة من الرعاة، وهم رعاة الخنازير النجس فلا يتصلون بهم بصهر أو نسب.

(٢) جاء في تقويم الأعياد من أيام الدولة القديمة أن المصريين كانوا ينحرون من الضحايا عنزا أو خنزيراً؛ وذلك في الاحتفال بعيد «سُكريس» الذي كان يقام في الرابع والعشرين من شهر «كيك». وهو اليوم الذي يزعمون أن «سُكريس أزوريس» قد دُفن فيه.

انظر: (H. K. Nelson, Medinet Habu III, Pl. 188). ولم يُخطئ «هردوت» حين ذكر أن الضحية كانت تُقدّم والقمر بدرًا؛ فلقد جاء في تقويم الأعياد بمعبد «إدفو» أن الضحية كانت تحرق في اليوم الخامس عشر من شهر بشنس.

انظر: (Brugsch, Drei Festkalender No. I. Z. 17). ولم يُخطئ «هردوت» كذلك حين ذكر أن بعض أجزاء الضحية كانت تحرق وإن كان الغالب أن الضحية كانت تحرق كلها؛ ذلك لأن الخنزير كان معدوداً من قبيل معبودهم البغيض «ست» (= تيفون) ورهطه الذين صرعوا معه أخاه «أزوريس» (= ديونيسيس).

وليس بمستغرب بعد ذلك أن نعلم أن الخنازير كانت ترعى في الأراضى الموقوفة على معبد «أزوريس» في «أيدوس» أيام الدولة الحديثة، ليضحي بها في أعياده. انظر: (Kees, K. G. S. 20 f.).

المصريون ولكنى أرى — رغم علمى بها (١) — أن سردها غير مناسب . وهكذا تكون تضحية الخنازير لسيليني : عند نحر الضحية توضع نهاية الذيل والطحال والغشاء المهبل مع بعضها ، ثم تلف معاً بكل ما يوجد حول بطن الحيوان من دهن ، ثم تحرق قرباناً . ويؤكل باقى اللحم فى ليلة البدر الذى تُقدّم فيه الضحية ، ولا يذاق مطلقاً فى سائر الأيام . والفقراء منهم — لضالة موردتهم — يشكّلون من العجين خنازير ويخبزونها ثم يقدمونها قرباناً (٢) .

٤٨ — وفى ليلة العيد (٣) ينحر كل فرد أمام بابه ، خصوصاً لديونيسيس ، ثم يتركه إلى نفس الراعى الذى باعه إياه . ويكاد يكون احتفال المصريين بعيد « ديونيسيس » أن يشبه من جميع الوجوه إحتفال اليونانيين به فيما عدا الرقص (٤) . وقد ابتكروا بدلاً من المذاكير تماثيل ، طول التمثال منها ذراع ، يمكن تحريكها بواسطة خيط ، تطوف بها النساء فى القرى ، وعضو التذكير بها متحرك

(١) انظر : (الفصل الخامس والأربعين من هذا الكتاب) .

(٢) بين آثار الفراعنة التى عثرت بها فى قبور موتاهم ما يؤيد ذلك ؛ حيث وجدت بعض التماثيل الصغيرة لهذا الحيوان مصنوعة من الدقيق ، والغالب أنها من القرابين التى زوّد الناس بها موتاهم .

(٣) لا بد أن هردوت قد ذكر هنا عيد الأپانوريا (Apaturia) الذى كان يحتفل به « الآينيون » مدة ثلاثة أيام ؛ يُسمّى أولها « دورپيا » (Dorpia) ، وكان يقام هذا العيد احتفالاً بالمعبودة « أفروديت » حيث يُعترف أثناءه بشباب القبيلة كأفراد رسميين فيها .

(٤) كان يُضحى بالخنازير غالباً فى عيد « ديونيسيس » عند اليونان ، ويكاد عيده يماثل عيد نظيره « أزوريس » فى مصر فيما عدا الرقص والغناء ؛ فقد كانا من مظاهر عيد اليونانيين . وقد كان الخنزير كذلك من أضحيات الرومان ؛ يقدمونه على المذابح مع الضأن والبقر ، تشير إلى ذلك لفظة Suovetaurilia .

لا يقل كثيراً في طوله عن باقي الجسم ، ويتقدم الموكب الزمار ، تتبعه النساء اللاتي تتغنى بديونيسيس . أما عن السبب الذي من أجله كان عضو التذكير كبير الحجم ، وكان يتحرك دون سائر أجزاء الجسم ، فلذلك قصة مقدسة يروونها (١).

(١) ينبغي — لنفهم ذلك — أن نذكر في هذه المناسبة الأسطورة الخالدة (أسطورة إيزيس وأوزيريس)؛ تلك التي جاءت فصولها عبر عصور التاريخ الفرعوني متفرقة ، ونذكرها كما وضعت كاملة على يد « بلوتارخ » ؛ حيث جاء في الفصل الثامن عشر من فصولها تقطيع جسد الشهيد « أوزيريس » ، وبعثرة أشلائه بين أقاليم الوادي ؛ حاشا عضو التذكير الذي ألقى به في اليم فابتلعه إحدى أممائه . وظاهر من ذلك أن القتلى قد كان يخشى ما توقعه من أن أرملة الشهيد سوف تجوس من أجله خلال الديار لتجمع أشلاءه ؛ فعمد إلى فعلته تلك خشية أن يبعث الشهيد إلى الحياة فيلد من يرث عرشه ويطالب به .

إذا ذكرنا ذلك كله ، وذكرنا أن « أوزيريس » (ديونيسيس) قد كان في عقيدة أصحابه رمزاً الخصب والخير ؛ يأتیان بين يدي النهر عند فيضانه في كل عام ، وذكرنا أن المصريين قد ربطوا بين بعث « أوزيريس » ووفاء النهر . نقول إذا ذكرنا ذلك كله ، استطعنا أن نفسر ما رواه « هردوت » عن قصة الاحتفال بهذا العيد على الصورة التي رآها . وقد تكون المبالغة في تطويل عضو التذكير وانتشاره مقصودة ؛ ذلك لأن طول العضو في عقيدة المصريين أو في وهمهم قد كان دليلاً على كثرة الإنجاب ؛ يشير إلى ذلك ما جاء في كتاب الأحلام وتأويلها عندهم . ولا نريد آخر الأمر أن نخص المصريين وحدهم بمثل هذا الوهم ؛ ذلك لأن الأمر قد يعدوهم إلى شعوب أخرى . ولنا لنذكر على سبيل المثال قول الشاعر العربي (السراذق السدوسي) الذي يعير أعداءه بقلة عددهم فيقول :

ولو شاء ربّي كان « أيزر » أيبكم طويلاً كأيّر الحارث بن سدوس

فأما ما جاء في آخر الوصف من تحريك العضو المذكور من التمثال دون سائر الأعضاء ، فقد يكون المقصود منه الرمز إلى بعث « أوزيريس » والمثور على العضو ، ثم إلى عودة الحياة بين يدي النهر حين يفيض . والله أعلم بالمراد على كل حال .

٤٩ — ويخيل إلى أن «ميلامبوس»^(١) بن «أموثيون» لم يكن يجهل هذا الاحتفال بل كان به عليماً . لأن «ميلامبوس» في الواقع كان أول من أدخل في بلاد اليونان اسم «ديونيسيس» والاحتفال بعيدة وموكب الذكر . إلا أنه لم يفهم بدقة كل ما يتعلق بالفكرة التي جاءهم بها . ولكن الحكماء^(٢) الذين تلوه هم الذين شرحوها بالتفصيل . أما عن موكب الذكر الذي يقام لديونيسيس ، فيلامبوس هو أول من أدخله ، ومنه تعلم اليونانيون ما يعملون . وأنا أقرر الآن أن «ميلامبوس» ذلك الرجل الحكيم ، الذي أوجد فن العرافة ، قد تعلم من المصريين أشياء عديدة مختلفة ، نقل منها إلى بلاد اليونان — بعد تعديل طفيف — ما يختص بديونيسيس . وأنا لا أومن مطلقاً بأن الاتفاق بين شعائر «ديونيسيس» في مصر وفي بلاد اليونان وليد الصدفة . وإلا لانسجمت هذه الشعائر مع طباع اليونانيين وما كان دخولها عندهم حديث العهد^(٣) . ولن أقول أبداً إن المصريين نقلوا هذه الشعائر عن اليونانيين ؛ لا هي

(١) MELAMPUS بمعنى «أسود القدمين» . ورد ذكره في أساطير اليونان بصفته من كبار السحرة المتنبيين ، وقد خلد الشاعر Hesiod في مقطوعة طويلة أمماها MELAMPODIE . وكما قيل إنه أدخل عبادة «أزوريس» (ديونيسيس) ، وأدخل معها تقديس عضو التذكير في بلاد اليونان . وقيل كذلك إنه أدخل عبادة «ديونيسيس زاجوريوس» رب العالم السفلى ، — وكان نظيره في مصر — «أزوريس» سلطان العالم الآخر .

(٢) أولئك هم المعروفون باسم «الأرفيين» . انظر : (فصل ٨١ و ١٢٣ من هذا الكتاب) وهم من أسماهم σοφισταί ، أي الذين خلفوا . MELAMPUS .

(٣) انظر ما كتبت حديثاً عن (ديونيسيس) وشعائر عبادته فيما كتبه Farnell . انظر : (Farnell, Cults of the greek states V, 78 - 92) .

ولا غيرها من العادات. ولكن من المحتمل جداً — كما يخیل إلى — أن «میلامپوس» تعلم هذه الشعائر من «کادموس» الصورى، ومن أولئك الذين هاجروا معه إلى البلاد التى تسمى حالياً «بیؤسیا» .

۵۰ — لقد جاءت أسماء الآلهة كلها تقريباً من مصر إلى بلاد اليونان . أما أنها قد جاءت كلها من الأجانب فهذا أمر وصلت إلى معرفته أثناء بحثى . وأظن أنها جاءت من مصر على الأخص (١) ؛ لأن أسماء الآلهة فيما عدا اسمى «پوسیدون» (٢) و «الدیوسکورى» (٣) ، كما سبق أن

(١) أما أن أسماء الآلهة جاءت إلى بلاد اليونان من الخارج كما ذكر «هردوت» زاعماً أن ذلك قد وصل إلى علمه ، فشىء لا نحب أن تناقشه أو نعارض فيه «هردوت» . وأما أنها جاءت جميعها من مصر ، فأمر لا نستطيع تصديقه إلا أن يكون الإغريق الذين سبقوه إلى مصر قد كانوا يسمون على معبوداتها بأسماء نظائرها فى بلادهم كما تسمى «أزوريس» مثلاً «دیونیسیس» و «إیزیس» «دیمتر» و «حورس» «أبوللون» و «ست» «تيفون» و «نية» «أینا» و «مین» «بان» و «آمون» «زیوس» و «بسته» «أرتمیس» و «توت» «هزمس» و «بتاح» «هيفایستوس» وهلم جراً . . . فلما جاء «هردوت» إلى مصر ، وسمع بتلك الأسماء ، توهم أنها مصرية ، وأنها انتقلت من مصر إلى بلاده على أنها تستبعد ذلك على كل حال .

(٢) پوسیدون (Poseidon) : ويسميه الرومان «نپتون» (Neptun) .

ابن (Kronos) أما أن أخاه «زیوس» على العارفة ، فكان من نصيبه البحر وصار سلطاناً عليه .

(٣) الدیوسکورى (Dioskuren) : هما «کاستر» (Kastor) و «پولیدیکس» (Polydeukes) من أبناء «زیوس» وزوجته «لیدا» (Leda) . وكان لهما أختان : هما «هیلينا» (Helena) و «کلیمنسترا» (Klytaemnestra) زوجة «أجنون» (Agamemnon) .

قلت (١) ، وأسماء « هيرا » (٢) و « هيسْتيا » (٣) و « ثيميس » (٤) و « خاريْتيس » (٥) و « نيريديس » (٦) ، وجدت دائماً منذ القدم في مصر . وأنا أردّد هنا ما يقوله المصريون أنفسهم (٧) ، ويبدو لي أن « الپيلاسجيين » (٨) هم الذين أعطوا الأسماء لهذه الآلهة التي يعلن المصريون عدم معرفتهم بها

(١) انظر : (الفصل الثالث والأربعين من هذا الكتاب) .

(٢) هيرا (Hera) إحدى بنات (Kronos) من زوجته (Rhea) ، وإحدى أخوات « زيوس » وزوجّه في آن معاً ؛ كانا يمثلان معاً قوة الذكورة والأنوثة .

(٣) هيسْتيا (Hestia) : أخت « ديميتر » (Demeter) وكلاهما من بنات (Kronos) وزوجته (Rhea) .

(٤) ثيميس (Themis) : ابنة (Uranos) من زوجته (Gaea) وكانت رمز العدل المقدّس .

(٥) خاريْتيس (Chariten) (Gratia) ربّات الجمال والجاذبية عند الإغريق .

(٦) نيريديس (Nereiden) : من ربّات البحر وعرائسه وكنّ خمساً .

(٧) ليس من حقنا أن نكذب « هردوت » فيما زعم ، فالمصريون الذين أسموه تلك الأسماء قد كانوا يعرفون أنه إغريقي ، وأن تلك الأسماء إغريقية . وقد كان فريق منهم يومئذ يعرفون اللسان الإغريقي .

(٨) الپيلاسجيّون (Πελασγοί) في رأي الكتاب الإغريق هم أقدم من سكن أرض « هيلاس » قبل أن يغزوها « الهلينيّون » (أبناء هيلاس) . ويقول « هوميروس » إنهم كانوا يسكنون كافة المناطق من شمالي « بحر إيجه » قبل عصر البرنز .

انظر : (Crusius, Beitrage zur gr. Mythologie (Leipzig 1886))

إلا « بوسيدون »^(١)، فقد عرفه اليونانيون من الليبيين لأن اسم « بوسيدون » لم يكن موجوداً منذ البداية عند أى شعب غير الليبيين الذين يعظمون هذا الإله دائماً أبداً . ولا يعتقد المصريون مطلقاً في عبادة الأبطال^(٢) .

٥١ — لقد أخذ اليونانيون إذن عن المصريين هذه العادات وغيرها مما سأحدث عنه ، ولكنهم لم يتعلموا من المصريين عمل تماثيل « هرمس »^(٣)

(١) ليس يبدو غريباً أن يكون المصريون قد عرفوا اسم Poseidon عن طريق الليبيين ، فقد كانت للإغريق على سواحل ليبيا ثغور وأسواق للتجارة . هذا وقد أشار « هردوت » في الفصلين رقم ١٨٠ ، ١٨٨ . من كتابه الرابع إلى صلة Poseidon بليبيا .

(٢) هكذا زعم « هردوت » وهكذا أيده بعض المحدثين من الكتاب . انظر : (Wadell, Herodotus, p. 175) .
في الحق أن تمجيد الأبطال والشهداء ، والإيمان بقدرتهم لم يُعرف عند آل فرعون كما عُرف عند الإغريق . ولكن هل لنا أن ننسى تقدير الهطاء ، وتقديس بعضهم من أمثال « منا » و « سنوسرة الثالث » و « أمينوفيس الأول » الذى يسمى باسمه شهر « برمات » ومن قبله أمه « أحوسى نفر تارى » ؟
ثم لم نَحْرَمْ على أنفسنا آخر الأمر الفرض أن « أزوريس » و « إيزيس » ومن إليهما ، قد كانوا من أبطال البشر .

(٣) يتحدث « هردوت » هنا فيما يبدو عن تماثيل رآها في ميادين « أثينا » . وهى تماثيل نصفية لهرمس تتميز بأعضاء التذكير المنتشرة ، وهى مأخوذة عن خرافة ساموثراقية ، يُسمّى بطلها « كدميلوس » ، ولم يكن غير صورة معبرة عن عقيدة أصحابها فى تمثيل القوة الخلاقة فى الطبيعة ، ونعنى ما يظهر فيها من النمو والانتشار فى عالم الحيوان وفى عالم النبات . ذلك هو « هرمس » أو MERCURIUS ithyphallicus . وتلك صورة لا تختلف فى كثير عن تلك الصورة التى تخيلها المصريون فى معبودهم « ممين » . فأما قوله إن اليونانيين لم يتعلموا مثل ذلك من المصريين ، فقول مردود عليه . ويكفى أن نذكر بما رواه فى الفصل الثامن والأربعين من هذا الكتاب .

ذات الذكر المنتصب ؛ بل تعلمها أهل « أثينا » من « الپيلاسجيين » قبل سائر اليونانيين ، ثم أخذها هؤلاء عن الآثينيين ؛ إذ كان أهل « أثينا » يُعدّون بالفعل من اليونانيين^(١) وقما شاركهم « الپيلاسجيون » في سكنى أرضهم . ومنذ ذلك بدأ اعتبار « الپيلاسجيين » أنفسهم من اليونانيين . وأى فرد ممن دخلوا في طقوس « الكبيرو » السرية التى يحییها « الساموثرقيون »^(٢) ، والتى أخذوها عن « الپيلاسجيين » ، يعرف معنى ما أقول . لأن هؤلاء « الپيلاسجيين » الذين أصبحوا يسكنون مع الآثينيين ؛ كانوا يقطنون من قبل « ساموثراقيا » وعندهم أخذ « الساموثرقيون » طقوسهم السرية . وعلى ذلك كان الآثينيون أسبق اليونانيين إلى صنع تماثيل « هرمس » ذات الذكر المنتصب ، وقد تعلموا هذا من « الپيلاسجيين » . ویروى « الپيلاسجيون » فى هذا الشأن قصة مقدسة ؛ ويظهر معناها بوضوح من طقوس

(١) انظر مارواه « هردوت » فى الفصل السادس والخمسين من كتابه الأول .

(٢) SAMOTHRACE : « الساموثرقيون » هم سكان جزيرة صغيرة تقع على ساحل تركية ، وكان لهم فيها معبد معروف ما زالت بعض أطلاله بادية . وظلت شعائرهم تقام فيه حتى أيام الرومان . ومن مقدسات هذه الجزيرة تلك القوى الكبرى التى كانوا يطلقون عليها - عامة - اسم « الكبيرو » فى اللغات السامية بمعنى « الأشداء » . فأما عددها فقد كان أكبر الظن ثمانية . وليس يبعد أنها بعددها هذا قد كانت فى رأس « هردوت » عندما تحدث عن الأرباب الثمانية التى جعلها الطائفة الأولى فى معبودات المصريين .

انظر : (الفصليين الثالث والأربعين والسادس والأربعين من هذا الكتاب) : وقد ظهر من بين « الكبيرو » فى المعبد المشار إليه HERMES CASMILUS أو HERMES CADMILUS . فى الحبل الأول .

انظر : (Dict. des Ant. s. v. Cabieres) .

« ساموثراقيا » السرية (١) .

٥٢ — لقد عرفت مما سمعت في « دودونا » أن « الپيلاسچيين » كانوا فيما مضى يقدمون تضحياتهم مصحوبة بدعاء الآلهة دون أن يسموا واحدا منها بأى اسم أو صفة ؛ ذلك لأنهم لم يكونوا قد سمعوا بأسمائها . ولقد سمّوها آلهة (٢) باعتبار أنها هي التي قد رتبت كل ما في الكون ، وأن بيدها مصير كل شيء . وبعد مرور زمن طويل عرفوا أسماء الآلهة كلها لما جاءتهم من مصر حاشا اسم « ديونيسيس » فقد عرفوه بعد ذلك بكثير . وبعد زمن لجأوا

(١) إذا لم يكن سكوت « هردوت » عن ذلك مصدره الجهل فهو نوع من مظاهر الحرج والتقوى يديه « هردوت » غير مرة في هذا الكتاب .
انظر : (الفصول ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٨) .

والعجيب أن « هردوت » على الرغم من ذلك الشقى لا يتحرج ولا يتورع حين يقول مثلا في الفصل الخامس والثلاثين : « إن نساء مصر يلبن واقفات » ، ولا حين يزعم في الفصل السادس والأربعين : « إن تيساً قد اجتمع بامرأة في العلانية » . ولسنا نشك في أن توضيح ما يسميه « هردوت » هنا « الطقوس السرية » لا يسببُ حرجا . فالأمر أمر خرافة خال فيها أصحابها مظاهر البعث أو الإحياء الذي تطالمهم به الطبيعة في ربيع المسام نتيجة لاجتماع « هرمس » بـ « پرسيفون » .

(٢) إن الپيلاسچيين الذين يُظَنُّ أنهم نقلوا عبارة « الكبيرو » إلى SAMOTHRACE من الشرق ، لم يكونوا فيما يبدو على حظ يرضى من التحضر . وكانوا في الأغلب الأعم أقدم سكان الوطن الإغريقي ؛ وليس أدل على تأخرهم من أنهم لم يستطيعوا تسمية ما عبدوا من مظاهر الطبيعة في الأرض والسماء . وإنما اكتفوا بتسمية تلك الطائفة « بالمتظمين » .

انظر : (مادة Θεός) . في (Legrand, Introduction sur Herodote ,
p. 155 — 157) .

إلى وحى « دودونا » يستفتونه فى الأسماء لأن هذا الوحى يعد أقدم وحى فى بلاد اليونان ، وكان وقتئذ الوحى الوحيد^(١) . فلما استفتى « الپيلاسجيين » وحى « دودونا » فيما إذا كان يجوز لهم أخذ الأسماء التى جاءتهم من الأجانب ، أجابهم الوحى بقبولها . ومنذ ذلك الحين بدءوا يستعملون الأسماء أثناء التضحية وبعدئذ أخذها اليونانيون عن « الپيلاسجيين » .

٥٣ — ولم يعرف اليونانيون أصل واحد من الآلهة ، ولا تاريخ وجودها القديم جميعاً ، ولا ماهى أشكالها ؛ لم يعرفوا ذلك إلا بالأسس أو بالأسس القريب كما يقولون^(٢) . وأنا أعتقد أن « هيسودوس » و « هوميروس » عاشا قبل عصرى بأربعمائة سنة لا أكثر^(٣) . وهما اللذان دَوَّنا لليونانيين أنساب الآلهة

(١) أشار « هوميروس » و « هيسودوس » إلى قدم « دودونا » ، وجعلها الأخير وطناً للپيلاسجيين . انظر : (Ilias, XV1, 233 ff) . والغالب أن يكون مكانها « كاستريزا » بالباينة على مقربة من « يانينا » التى كانت مقر الحاكم التركى المعروف « على باشا » فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

(٢) يقرر « هردوت » فى هذه الفقرة أن « هوميروس » و « هيسودوس » عاشا معاً فى وقت واحد ولعله كان يؤمن بهذا رأى . ولكن البحوث الحديثة أثبتت أن « هوميروس » عاش فى أواخر القرن التاسع (٩٨٣٠) بينما ذاع صيته « هيسودوس » فى منتصف القرن الثامن أى حوالى ٧٥٠ ق . م .

(٣) إن Thucydides الذى تجنب تحديد الوقت الذى عاش فيه « هوميروس » قد جعله بعد حرب طرواده (عام ١١٨٣) بوقت طويل . فإذا زعم « هردوت » أن « هوميروس » و « هيسودوس » قد عاشا قبل عصره بأربعة قرون ، فعنى ذلك أنهما عاشا فى نهاية القرن التاسع ق . م . وهو تحديد لا يبعد عما يراه أهل الدقة من الباحثين الذين جعلوا أيام « هوميروس » حول مطلع القرن العاشر قبل مولد المسيح .

وسماها بألقابها ، وتكلما عن مرتبة الشرف التي لكل منها ، واختصاصاتها
وفصلاً أشكالها . أما الشعراء الذين يقال إنهم وُجدوا قبل « هوميروس »
و « هيسودوس » فقد وجدوا بعدها (١) فيما أعتقد . والشرط الأول مما سبق
يُنسب إلى ما تقوله كاهنات وحى « دودونا » . أما ما يأتى بعد ذلك بخصوص
هوميروس وهيسودوس فهذا من قولى أنا (٢) .

٥٤ — وهذا ما يقوله المصريون بشأن الهاتين اللذين يوجد أحدهما عند
اليونانيين والآخر فى ليبيا (٣) . قال كهنة « زيوس الطيبى » إن الفينيقيين قد
خطفوا امرأتين مقدستين من طيبة ، وإنهم عرفوا أن إحداها قد بيعت
فى ليبيا والآخرى فى اليونان . وإن هاتين المرأتين هما اللتان قد أنشأتا الوحيين
أول الأمر عند الشعبين المذكورين . ولما سألتهم من أين لهم هذه المعلومات
الدقيقة التى يسردونها ، أجابوا على ذلك بأنهم قاموا ببحث واسع النطاق للعثور
على هاتين المرأتين ، إلا أنهم — رغم هذا — لم يستطيعوا أن يجدوها ،
ولكنهم أخيراً عرفوا بخصوصهما ما قلوه لى .

٥٥ — هذا إذن ما سمعته من الكهنة فى طيبة ، وفيما يلى مارواه عرافات (٤)

(١) أكبر الظن أن الشعراء الذين عناهم « هردوت » هنا هم الذين كانت
شهرتهم واسعة أثيرة فى دنيا الإغريق فى أيامه من أمثال : Musaeus, Orpheus
ثم Linus .

(٢) نلاحظ هنا حرص « هردوت » على أن يفرق دائماً بين ما سمعه من
رواته وما يراه هو . كما نلاحظ حديثه وعنفه فى نقد من يرى أنهم أخطأوا .

(٣) يقصد بطبيعة الحال وحى « دودونا » ووحى « آمون » .

انظر : (Cook, Zeus I, p. 264) .

(٤) يقول « سترابون » إن الكاهنات والعرافات لم يلحقن بمعبد « دودونا »
إلى ما بعد ذلك التاريخ .

« دودونا » . طارت حمامتان سوداوان من « طيبة » التي في مصر (١) ؛ ذهبت إحداها إلى ليبيا وجاءت الثانية إليهم . وعندما حطت هذه فوق شجرة سنديان (٢) ، أعلنت في صوت آدمي (٣) أنه يجب إنشاء هاتف لزيوس هناك . وأدرك القوم أن هذا نبأ جاءهم من إله . وتصديقا له أقاموا الهاتف . أما الحمامة التي توجهت إلى ليبيا فتقول العرافات إنها أمرت الليبيين بإقامة وحي « آمون » ؛ وهو أيضاً خاص بزيوس . هذا ما قصه على كهنات « دودونا » . وكبراهن تسمى « برومينيا » (٤) والثانية « تياريتي » (٥) وأصغرهن « نيكاندري » (٦) ووافق على روايتهن سائر الدودونيين الملحقين بالمعبد (٧) .

(١) ترى أيكون قد اختلط عليه الأمر . حين كان يستمع إلى رواية المصريين عن النواحتين (يزيس ونفتيس) وقد كان المصريون يصورانها في صورة حدأتين؟ انظر : (الفصل رقم ٨٥ وتعلقنا على ذلك) .

(٢) *Quercus esculus* φηγός (شجرة من البلوط المثمر يزعم كتّاب الإغريق أنها أقدم الشجر طرّاً ، وأن الناس عرفوها وعاشوا على ثمرها قبل أن يعرفوا الزرع والفلاحة . وقد جعلت هذه الشجرة من مقدسات معبودهم « زيوس » . وبين اهتزاز غصونها وأصوات الطير من فوقها يُوحى إلى الكهان بإرادة الآله في مستقبل أيامهم . انظر : (Paus. T. 17. 5) .

(٣) *Πελαϊάδες* : كانت الحمامة من مقدسات « دودونا » ، وكانت دائماً إلى جوار « زيوس » . وقد كان كهاناتها يُعرفن من أجل ذلك بالحائم . وكن من العذارى ؛ ينقلن الوحي (إرادة لآلهة إلى الناس) كما كانت تفعل *Pythia* في « دلفي » .

(٤) *Promonia* : « المبصرة » « الواعية » « المدبرة » .

(٥) *Timarete* : « ذات الفضيلة » .

(٦) *Nikandra* : « قاهرة الرجال » .

(٧) انظر : (Homer, Ilias XIV, 235) .

٥٦ — وهذا ما أدلى به أنا في هذا الصدد ؛ إذا حدث حقيقة أن الفينيقيين قد اختطفوا هاتين المرأتين المقدستين ، وباعوا إحداهما في ليبيا والثانية في بلاد اليونان ؛ فيلوح لى أن هذه (الأخيرة) قد بيعت إلى «اليسبروتيين» الذين يقطنون حالياً بلاد اليونان . وكانت هى بعينها تسمى من قبل بلاد «بيلاسجيا» . وفيما كانت تعيش في هذا البلد عيشة العبيد ، أنشأت تحت شجرة سنديان تنمو هناك معبداً لزيوس ، فقد كان من الطبيعى — بعد أن خدمت في معبد لزيوس بطيبة (١) — أنها تذكره أينما حلت . وبعد أن تعلمت اللغة اليونانية أقامت هاتفاً ، وهى التى قالت إن الفينيقيين الذين باعوها هم أنفسهم الذين قد باعوا أختها أيضاً في ليبيا (٢) .

٥٧ — ويخيل إلى أن «الدودونيين» قد سموا المرأتين «حامتين» ؛ لأنهما كانتا أجنبيّتين (٣) ، ولأن لغتهما كما بدا للدودونيين كانت تشبه أصوات الطيور . وإذا ما قالوا إن الحمامة بعد وقت نطقت بصوت آدمى فذلك بعد ما كلمتهم المرأة بما يفهمون ، ولكنها طالما كانت تنطق بلغة أعجمية ؛ فقد بدت لهم وكأنها تزقزق مثل العصفور (٤) . إذ كيف يتسنى للحمامة أن تتكلم

(١) أكبر الظن أن «هردوت» هنا يُذكر كَرَّ بالنساء اللاتى كن يخدمن في المعابد المصرية وقد مر ذكرهن في الفصل الخامس والثلاثين من هذا الكتاب .
(٢) يبدو أن نسبة الاختطاف والبيع إلى الفينيقيين بالذات ، مرجعها إلى أن الفينيقيين قد كانوا أئمة تجار الدنيا عامة ، وأشهرهم في حوض البحر الأبيض بخاصة .
(٣) انظر ما قدمنا عن ذلك من حديث في الفصل الخامس والخمسين (هامش رقم ٢) .

(٤) كان من عادة الإغريق حين يسمعون لساناً غريباً لا يفهمونه أن ينعته بلسان الطير من صغار العصافير . انظر : (Eschyle, Agamemnon 1050) .

بصوت آدمى ؟ وعندما يَدْعُونَ أن الحمامة كانت سوداء ، فهم يشيرون بذلك إلى أن المرأة كانت مصرية (١) . إن علم العرافة في « طيبة » المصرية يشبه ذلك الذى فى « دودونا » . كما أن العرافة عن طريق فحص الضحايا جاءت من مصر أيضاً .

٥٨ — ولقد سبق المصريون الشعوب إلى إقامة الأعياد العامة والمواكب العظيمة (٢) ، وعنهم تعلمها اليونانيون . ودليل على ذلك أنها تقام عند المصريين منذ زمن بعيد ، بينما لم يحتفل بها اليونانيون إلا منذ وقت قريب .

٥٩ — والمصريون لا يحتفلون مرة واحدة فى السنة بعيد شعبي عام ، ولكن أعيادهم العامة كثيرة . أهمها ذلك الذى يتحسسون جداً لأقامته فى مدينة « بوباسطيس » (٣) لأرتيميس . ويليه عيد الإلهة « إيزيس » الذى يُحتفلُ به فى مدينة « بوزيريس » (٤) ، حيث يوجد بها أكبر معبد لهذه

(١) اللون الأسود ليس مرجحه — إذا صح تخميننا فى الفصل الخامس والخمسين (هامش رقم ٢) — إلى أن الحمامة أو المرأة كانت مصرية وحسب ؛ بل لأنها كانت تُصور لدى المصريين فى صورة حدأة .

(٢) قد يكون ذلك صحيحاً ؛ يدل عليه كثرة ما خلف المصريون على جدران معابدهم من مناظر تلك الأعياد . وحسبنا مناظر عيد « آمون » التى ما زالت باقية على جدران مبد الأقصر ؛ حيث كان ذلك المعبود ينقل إليه فى موكبه الرسمى أيام عيد زواجه الذى جعله أصحابه فى شهر « بابه » فسمى الشهر من أجل ذلك باسم المبد . انظر : (Sethe, Amun. S. 11) .

(٣) انظر الفصل (رقم ٦٠) من هذا الكتاب .

(٤) انظر الفصل (رقم ٦١) من هذا الكتاب .

الإلهة . وتقع هذه المدينة وسط الدلتا (١) . و « إيزيس » هي « ديميتير » (٢) في اللغة اليونانية . وثالث هذه الأعياد يقام في مدينة سايس لأثينا (٣) ، والرابع في مدينة « هيليوپوليس » (٤) لهليوس ، والخامس في مدينة « بوطون » (٥) لليتو ، والسادس في مدينة « پاپريميس » (٦) لأريس .

٦٠ — وفي طريقهم إلى « بوباسطيس » (٧) ، يسلكون هذا المسلك : يبحر الرجال والنساء معاً ويحمل كل قارب عدداً كبيراً من الجنسين . ويُطَبِّل

(١) « بوزيرس » مدينة قديمة في وسط الدلتا موقعها جنوبى « سمنود » . وتسمى الآن « أبو صيربنا » .

انظر : (J. Ball, Egypt in the Class. Geogr. p. 17) .

(٢) انظر الفصل السادس والخمسين بعد المئة من هذا الكتاب .

(٣) انظر الفصل الثانى والستين من هذا الكتاب .

(٤) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب (هامش رقم ٢) .

(٥) بوطون : مدينة قديمة بالقرب من « إبطو » وتعرف الآن باسم « كوم

الفراعين » أو « تل الفراعين » . انظر : (J. Ball, ibd. p. 17) .

(٦) پاپريميس Paprêmis : كانت أكبر الظن جزءاً من « تل الفرما » .

انظر : (J. Ball, ibd. p. 18) . ويرى Kees (Kees, G. G. s. 12)

أنها على مقربة من (سايس) .

(٧) بوسطيس : مدينة من المدائن الشهيرة في مصر الفرعونية ، وكان موقعها

إلى الشرق من الفرع الپيلوزى ، ويعرف مكانها اليوم باسم « تل بسطة » عند الزقازيق . جاء ذكرها في معجم البلدان لياقوت فقل إن « بسطة » كورة بأسفل الأرض بمصر ويقال « بُسْطَة » بضم الباء : كذلك ورد ذكرها في قوانين الدواوين لابن ممتى على أنها من أعمال الشرقية . فأما اسمها المصرى فركب من لفظين ؛ بر (بيت) + بسته وهى الهرة المقدسة عند المصريين .

بعض النسوة على الطبول التي بأيديهن ، وبعض الرجال يزمرن طول الطريق . أما باقى النساء والرجال فيغنون ويصفقون^(١) . فإذا ما بلغوا — أثناء إبحارهم — مدينة من المدن جنحوا بزورقهم إلى الشاطئ وقاموا بما يأتى : بينما يستمر بعض النسوة فى القيام بما وصفت ، تعلو أصوات بعضهن هاتفات ، ساخرات بنساء هذه المدينة . وبعضهن يرقصن ، كما يقف بعضهن رافعات ثيابهن . و«الناس» يفعلون مثل ذلك عند كل مدينة على شاطئ النهر . وعند وصولهم إلى «بواسطيس» ، يحتفلون بالعيد ويقدمون أضحيات عظيمة ، ويستهلكون من النبيذ فى هذا العيد أكثر مما يستهلكون فى بقية العام كله^(٢) . ويبلغ عدد المجتمعين فى هذه المناسبة

(١) كان التصفيق والطلل والزمر من الأمور المألوفة فى أعياد الفراعنة ، وقد مررنا بالكلام عن أعيادهم فى الفصل الثامن والخمسين .

(٢) لسنا نعتقد أن « هردوت » مبالغ فى روايته ؛ فحياة هذا الشعب على زمان الفراعنة لم يكن فيها كثير من الضيق والشح ، وإنما كانت حياة موفورة الرزق مليئة بالخير ؛ فوجبة الفرد البسيطة كانت من الخبز ، وشرابه فيها الجمعة ، تكاد تشبه الوجبة الألمانية الشعبية . وأما الوجبة الكاملة الغنية فكان الطعام فيها من لحم البقر والطيور ، كما كان الشراب فيها نبيذاً . وكان نصيب العامل الفقير الكادح من الرزق فى اليوم ثلاثة أرغفة وإبريقين من الجمعة ، وقد يزداد عدد الأرغفة فتكون أربعة أحياناً . انظر : (Erman, Lit. S. 105) .

وفى صور الحياة اليومية — كما سجلها القوم بالرسم والحكاية — ما يدل على أنهم عاشوا عيشة راضية ؛ فهم قد أكلوا كثيراً وشربوا كثيراً ، وكان زادهم من الطعام والشراب حلواً طيباً . وأيسر النظر فى صور مواعيد القربان أو ما يصاحبها من قوائم الطعام والشراب ، وما فيها من ألوان الخبز والفطائر ولحم البقر والطيور ومن أنواع الشراب من الجمعة والأنبذة ، ليدل فى وضوح على أن أسلافنا فى هذا الوطن المصرى قد أحبوا الحياة واستمتعوا فيها بالطيبات من الرزق ، ولم يطعموا من وراء دنياهم فى أخرى تختلف عن أختها فى شىء ؛ إذ كانت =

وفقا لقول أهل البلاد ، سبعة ألف من الرجال والنساء عدا الصبية .

== الأخرى في تصوّرهم استنفا دائما لديّهم .

وبعد ، فإن في آدابهم — فوق ما ذكرنا من صور الحياة — ما يدل على أنهم قد كانوا يستعشون أنفسهم على الاستمتاع بدنيّهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ؛ فهذا حكماء الدولة القديمة يُغري الرجل بالزواج من المرأة البسطة الممثلة المرحّة ، ويوصيه بأن يكرمها بكل طيب من الطعام .

انظر : (Pap. Prisse 15, 6 — 7) .

وذلك آخر ، يئذل النصيح لغيره فيقول : « أنفق كل ما تملك فِرْحاً ، وإياك أن تُمسك ، فإن من الخير للمرء أن يستمتع برزقه » .

انظر : (Erman, Lit. S. 144) ثم (Gardiner, Admon. 8, 6 — 7)

وثالث من زمان الأسرة الحادية عشرة يوصى بأن يُكْتَسَبَ على شاهد قبره : « لقد كنت امرأة استمتع بكل يومه ، ولم أضيع من يومى ساعة استمتع » .

انظر : (Polotsky, Zu den Inschr. der 11. Dyn. S. 32) .

وفي كل أولئك ما يظهرنا على نظرة القوم إلى الحياة ؛ يستوى في ذلك غنيهم وفقيرهم . فما أكثر ما تعددت أعيادهم ، وما أكثر ما استمتعوا فيها بالطعام والشراب ؛ بل لقد كانت لهم أعياد خاصة يستمتعون فيها بالشراب وحسب . وفيما ادّخر الزمن من تراثهم الأدبي — من أغاني الحب والغزل من زمان الدولة الحديثة — ما يشير إلى كثرة الولائم في الأعياد وبخاصة ولائم الشراب منها .

انظر : (Erman, Lit. S. 313) .

والمصريون لم يتخرجوا من التحدّث عن ذكرى أيام استمتاعهم بالحياة ، وأعيادهم اللاهية الطاعمة الشاربة ، وما أصابهم في كل أولئك من نشوة وسكر .

انظر : (١) Wreszinski, Atlas I, Taf. 293

(٢) Erman, Aegypten, S. 288, Abb. 728

وجاء في الخبر عن أحاديث النصر الذي أحرزه المصريون على يد بطلمى المظفر « تحتمس الثالث » أن جلّالته كان يقضى أيامه بعد النصر نشوان متطّيباً ==

٦١ — ذلك ما يفعلون في هذا العيد . ولقد وصفت فيما سبق (١) كيف يحتفلون بعيد « إيزيس » في مدينة « بوزيريس » . بعد تقديم الضحية يلطم الجميع ، نسوة ورجالاً ، وهم آلاف مؤلفة من البشر . وليس من الورع أن أقول على من يلطمون (٢) . وكل « السكاريين » الذين يسكنون

= كما لو كان يُعيد في مصر . وليس غريباً بعد هذا كله أن يراهم « هردوت » يشربون في أعيادهم على نحو ما وصف .

على أن كل ذلك لم يُنسِ المصريين واجباتهم نحو وطنهم ، ونحو أنفسهم . ولم يُنسِهم كرامتهم الإنسانية ، ولم يُنسِهم احترام القسم الخلقية والروحية . وفي آدابهم ونصائح الحكماء منهم حُضْمٌ على الاعتدال في استمراء لذات الحياة ولهوها ، ونَهْيٌ عن الإسراف على أنفسهم في الحياة الدنيا . وفيها تحذير من فقدان الوعي خشية عقدة اللسان ، أو فقدان توازن البدن الذي يؤدي حتماً إلى وقوع الضرر والأذى بأبدانهم فضلاً عن إهدار الكرامة .

انظر : (Erman, Lit. S. 296) .

تلك كانت نصائح الحكماء والسيوخ. ولكن لطبيعة البشر أثرها في السلوك على كل حال، ففهم العاقل الرشيد، ومنهم الطائش المنحرف. وليس على الحكماء والناصحين من ضير حين تذهب نصائحهم سدى لزاء فورة الشباب، فما أكثر ما ينسى الشباب — والكهول أحياناً — ما مر بهم من عظات الأيام، وما أكثر ما تضعف النفس البشرية أمام الإغراء، وما أكثر ما يعجز الشباب عن أن يكبحوا جماهم حين يلتمسون شيئاً من لذات الحياة؛ «فما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» .

(١) انظر الفصل الأربعين من هذا الكتاب (هامش رقم ٢) .

(٢) إنه يقصد « أزوريس » من غير شك؛ يلطم المحتفلون الحدود في ذكرى مصرعه على يد أخيه الغادر « ست » ، ويرمزون بذلك إلى دخول الشتاء . كما فرحوا ببعثه في استقبال ربيع الحياة بين يدي فيضان النهر على نحو ما رأينا في الحديث عن « عيد بوبسطة » .

مصر (١) يبالغون أيضاً في عمل ذلك لدرجة أنهم يقطعون جباههم بالمشارط ، ومن ذلك يتضح أنهم أجانب غير مصريين .

٦٢ — وعندما يجتمع المصريون في « سايس » (٢) ، يشعلون جميعاً ليلة التضحية ، مصابيح عديدة في الهواء على شكل دائرة حول منازلهم . وهذه المصابيح عبارة عن أوان مسطحة مملوءة بالملح والزيت . ويطفئون على سطحها فتيل يشعل طول الليل . ولذا يسمى العيد « عيد المصابيح » (٣) . والذين لا يذهبون إلى هذا الاحتفال من المصريين يتربعون ليلة التضحية ، ويشعلون بدورهم جميعاً المصابيح . وهكذا فالمصابيح لا تشعل في « سايس » وحدها بل في مصر كلها . أما عن السبب الذي من أجله تُعظم هذه الليلة ، وتُضأ ، فلذلك قصة مقدسة يروونها .

٦٣ — وإلى « هيليوپوليس » (٤) و « بوطو » (٥) يذهبون لتقديم الضحايا

-
- (١) كان « الكارثيون » يسكنون مصر منذ أيام « ايسماتيك » .
 (٢) سايس : تعرف اليوم باسم « صا الحجر » . وكانت من أشهر مدائن الدلتا ، وكان موقعها في شرقي « فرع كاتوپ » وعلى بعد قريب منه . انظر : (J. Ball, ibd. p. 18) .
 وقد تردّد ذكرها في هذا الكتاب . انظر : (الفصول : ٢٨ ، ٥٩ ، ١٣٠ ، ١٥٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦) .
 (٣) ليس يبعد أن يكون السبب في إشعال المصابيح هو شدة الظلام في ليالي الشتاء الطويلة .
 (٤) انظر الحديث عن « هيليوپوليس » في الفصل الثالث (هامش رقم ٢) من هذا الكتاب .

(٥) بوتو : مدينة من أشهر مدائن مصر الفرعونية ؛ مكانها اليوم « تل الفراعين » ، وكان يحتفل فيها بعيد « حتحور » (= ليتو) . انظر : (الفصل الخامس والخمسين ، ثم الفصل التاسع والخمسين من هذا الكتاب) .

وحَسَب . فَأَمَّا فِي « بَابِرِيمِس » (١) فَيَقْرَبُونَ الْأَضْحِيَّاتِ وَيُؤَدُّنَ الشَّعَائِرَ كَمَا فِي سَائِرِ الْجِهَاتِ . وَعِنْدَ مِيلِ الشَّمْسِ إِلَى الْغُرُوبِ تَنْصَرِفُ قَلَّةٌ مِنَ الْكَهْنَةِ إِلَى الْإِهْتِمَامِ بِتَمَثُّالِ الْإِلَهِ وَتَقِفُ أَكْثَرِيَّتُهُمْ مَزُودِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ خَشَبٍ . بَيْنَمَا يَحْتَشِدُ عِنْدَ مَدْخَلِ الْمَعْبَدِ وَفِي مُوَاجَهَتِهِمْ جَمْعٌ آخَرٌ مِنَ الرِّجَالِ يَرَبُّو عُنْدَهُمْ عَلَى الْأَلْفِ ، يُوَفُّونَ بِالنُّدُورِ وَبِأَيْدِيهِمْ عَصَى أَيْضًا . أَمَّا تَمَثُّالُ الْإِلَهِ — وَقَدْ وَضِعَ فِي مَقْصُورَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الْخَشَبِ الْمَنْهَبِ (٢) — فَيَنْقَلُ لَيْلَةَ الْعِيدِ إِلَى بِنَاءٍ آخَرَ مُقَدَّسٍ . وَتَجْرُ الْفَتَّةُ الْقَلِيلَةُ الَّتِي كَانَتْ تُرَكِّتُ حَوْلَ التَّمَثُّالِ مُحْفَةً ذَاتَ أَرْبَعِ عَجَلَاتٍ ، تَحْمِلُ الْمَقْصُورَةَ وَالتَّمَثُّالَ الَّذِي بَدَاخِلَهَا . وَبَيْنَمَا يَنْعَمُ مِنَ الدُّخُولِ الْكَهْنَةُ الَّذِينَ يَقْفُونَ عِنْدَ الْمَدْخَلِ ، يَتَقَدَّمُ الَّذِينَ يُوَفُّونَ بِالنُّدُورِ لِنَجْدَةِ الْإِلَهِ وَيَضْرِبُونَهُمْ . فَيُدَافِعُ هَؤُلَاءِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ . وَعِنْدَئِذٍ تَنْشَبُ بَيْنَهُمْ مَعْرَكَةٌ حَامِيَةٌ بِالْعَصَى ؛ فَتَشْجُرُ رُءُوسُ بَلٍ وَيَمُوتُ كَثِيرُونَ — كَمَا يَخْتَلِلُ إِلَى — بِسَبَبِ جِرَاحِهِمْ . وَلَوْ أَنَّ الْمَصْرِيِّينَ أَكَّدُوا لِي أَنَّهُ لَا يَمُوتُ مِنْهُمْ أَحَدٌ . وَيَقُولُ أَهْلُ الْبِلَادِ إِنَّ نَشْأَةَ هَذَا الْعِيدِ تَرْجِعُ إِلَى تِلْكَ الْحَادِثَةِ : كَانَتْ أُمُّ « آرِيس » تَسْكُنُ هَذَا الْمَعْبَدَ ، وَكَانَ « آرِيس » قَدْ رَبَّيَ بَعِيدًا عَنْهَا ، فَلَمَّا بَلَغَ سِنَ الرِّجُولَةِ ، جَاءَ لِيَتَحَدَّثَ إِلَيْهَا . وَلَكِنْ أَتْبَاعُهَا لَمْ يَسْمَحُوا لَهُ بِالدُّخُولِ وَرَدُّوهُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا قَدْ رَأَوْهُ مِنْ قَبْلِ . فَرَجَعَ « آرِيس » وَجَاءَ مِنْ مَدِينَةٍ أُخْرَى بِحَشْدٍ كَبِيرٍ مِنَ الرِّجَالِ فَأَخَذَ الْأَتْبَاعَ بِالْعَنْفِ وَدَخَلَ عَلَى أُمِّهِ . وَمِنْ هُنَا جَرَتِ الْعَادَةُ بِأَنْ تَنْشَبَ

(١) بَابِرِيمِس : مَرَّ ذَكَرَهَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي وَالْخَمْسِينَ (هَامِش رَقْم ٨) وَمَا نَذَرَ أَنَّهَا وَرَدَتْ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ غَيْرِ هَرْدُوت . وَيَرَى KEES أَنَّهَا كَانَتْ بِالْقُرْبِ مِنْ « سَايس » انْظُرْ : (Kees G. G. S. 2) (٢) عَرَفَ الْمَصْرِيُّونَ تِلْكَ النُّوَاوِيسَ الصَّغِيرَةَ ؛ وَكَانُوا يَحْمِلُونَ فِيهَا تَمَاثِيلَ الْمَعْبُودَاتِ لِيُطَوَّفُوا بِهَا فِي الْمَعَابِدِ أَيَّامَ الْأَعْيَادِ .

هذه المعركة في عيد « آريس » (١) .

٦٤ — والمصريون أيضاً هم أول من راعى السنة التي تحرّم بجامعة النساء في المعابد ، كما تحرّم دخولها بعد الجماع دون اغتسال (٢) . وسائر الشعوب تقريبا — فيما عدا المصريين واليونانيين — يجامعون النساء في المعابد ، ويدخلونها بعد الجماع دون اغتسال ، إذ يعتقدون أن شأن الإنسان في ذلك شأن سائر الحيوان . وأضافوا أنهم يرون جميع الحيوانات والطيور على كافة أشكالها تتعاشر في معابد الآلهة وحرماها . فإذا كان ذلك العمل لا يرضى الإله فلماذا إذن تفعله الحيوانات . هذا ما يروونه ليبرّروا به أعمالاً هي في نظري غير مُرضية .

(١) يخيل إلينا أن تلك الصور المختلفة من العادات والتقاليد . مرجعها جميعا إلى أسطورة الشهيد « أزوريس » وما صوّرت من حوادث مصرعه على يد أخيه « ست » ، ومولد « حورس » الذي تركته أمه رضيعا بين أحراج الدلتا . ومطالبة هذا اليتيم بعرش أبيه القتل . وكيد عمه له ولأمه « إيزيس » . والنضال الذي جرى بين الخصمين حين اختصما إلى القضاء الإلهي في هليوبوليس وغيرها . ثم حين جرت بين الخصمين الحروب والوقائع التي رددتها الأساطير .

(٢) إن يبدو غريبا أن يُحرّم المصريون على أنفسهم دخول دور العبادة بعد الجماع دون اغتسال . ولسنا نستبعد مطلقاً أن يكونوا قد سبقوا غيرهم من الشعوب في الأخذ بهذه السنة إن لم يكونوا أول من أخذ بها .

انظر : (في موكب الشمس ج ١ ، ص ٢١٥) .

ونحب بهذه المناسبة أن نذكر أن الإسلام قد حرّم على أصحابه مباشرة النساء في المساجد . انظر : (سورة البقرة : آية ١٨٦) وفي ذلك ما يشير إلى أنهم ربما كانوا يفعلون ذلك قبل التحريم .

٦٥ — ويهتم المصريون كل الاهتمام بالقيام بسائر الشعائر المقدسة وعلى الأخص ما يتعلق بالموضوع التالي : مع أن مصر تقع على حدود ليبيا (١) ، إلا أنها ليست مرتعاً للحيوانات المفترسة (٢) . لكن المصريين يقدسون كل

(١) حقيقة إن مصر التي رآها « هردوت » ؛ بل مصر كما عرفتها الدنيا قبل أن يعرفها « هردوت » بزمان طويل ، كانت قد برئت من كواسر الوحش وجوارح الطير بحيث لم يبق فيها من ذلك غير قليل . انظر : (في موكب الشمس ج ١ ص ٥٠) . وإنا لا نستطيع أن نرد الشك عن أنفسنا حين ننظر فيما يزعم « هردوت » حين يتحدث عن امتلاء صحراء ليبيا بالوحوش .
انظر : (الفصل الواحد والتسعين بعد المائة من كتابه الرابع) ؛ فيذكر فيها الأسود مثلاً ، وإن كان قد غلب وجودها في الصحراء العربية .

انظر : (Aegypten als Feld fuer Anthropologische Forschung)
Uebers. v. Roeder (Newberry (Der Alte Orient 27)) .

أو الفيلة التي لم يرها المصريون - غالباً - إلا في عصورهم البعيدة ، ولم يمارسوا صيدها إلا أيام حروبهم في آسية وعند أطراف الفرات . انظر : (Sethe, Urk. IV,) S. 893 . أو الدببة التي لم يرها المصريون إلا في أحراج سورية ولبنان . انظر : (Borchardt, D. Grabdenkmal d. K. Sahuré Bd. II. Taf III Bd. I, SS. 16, 78 179)

أو «الحمار ذا القرن» ، وما نعرف ولا نقدر أن المصريين أو غيرهم قد عرفوا هذا اللون من الحيوان ، إلا أن يكون « هردوت » قد قصد به « وحيد القرن » وذلك حيوان لم تعرفه صحراء مصر لا في الشرق ولا في الغرب ، وإنما عرفه المصريون وتَصَيَّدوه في غابات إفريقية ، ولسنا نذكر أننا رأينا من رسومه غير ما وُجِدَ في أيام فرعون «تحتمس الثالث» على جدار في معبد له في «إرمنت» . انظر : (Helk, Urk. d. 18. Dyn. Heft 17. 1248) .

(٢) ذلك قول صحيح تؤيده آثار الفراعنة ، ولم ينفرد « هردوت » بذكره ؛ بل ذكره غيره من الكتاب . انظر : (Newberry, Aegypten als Feld fuer Anthropologische Forschung uebers. v. Roeder D. Alte Orient 27) .

الحيوانات التي توجد في بلادهم — مستأنسة كانت أم غير مستأنسة (١) — وإذا أردت أن أتكلّم عن الأسباب التي قدّست من أجلها الحيوانات ، لاستطردت في حديثي إلى الشئون الدينية التي أتخاشى بوجه خاص الخوض فيها بالتفصيل . أما ما ذكرته بصورة سطحية عن هذه الأمور ، فقد اضطرت إلى ذكره في سياق الحديث (٢) . وهذه هي السنة المتبعة فيما يتعلق بالحيوانات .

يُعَيّنُ من المصريين — رجالاً ونساءً — من يسهرّون على تربية كل نوع منها على حدة ، ويتوارثون هذه الوظيفة ، الابن عن أبيه (٣) . ويوفى سكان المدن ، كل على حدة ، بنذورهم إلى الحيوانات بهذه الطريقة : عندما يقدّمون النذور إلى الإله الذي يُقدّس له الحيوان ، يخلقون رؤوس أبناءهم — الرأس كله أو نصفه أو ثلثه — ويقدّرون الشعر بزنته فضة (٤) ، ويُعطى هذا القدر من الفضة — مهما يكن وزنه — للحارسة التي ترعى الحيوان . وفي مقابل

(١) شبيه بذلك ما ذكره في الفصل الثالث من هذا الكتاب حين قال : إن الناس يعرفون عن الآلهة قدراً واحداً .

(٢) شبيه بذلك ما رَواه في الفصل الثالث انظر : (هامش رقم ٥) من هذا الكتاب .

(٣) مثل ذلك ما حكاه عن الكهان في الفصل السابع والثلاثين من هذا الكتاب .

(٤) لا يبدو ذلك غريباً بين ما نعرف من صور عقائد المصريين وتقاليدهم ، وإن كنا نعتقد أنهم لم ينفردوا بذلك بين شعوب الأرض ، فلقد فعل غيرهم مثل ما فعلوا . ومن ذلك ما روى عن رسول الله « محمد بن عبد الله » صلوات الله وسلامه عليه ، أنه تصدّق بوزن شعر ابنه « إبراهيم » ذهباً . وشبيه بذلك ما يفعله المصريون من أهل القرى حين يخلقون شعور أطفالهم عند ضريح ولى الله السيد (أحمد البدوي) في طنطا .

هذا تقطع الحارسة قطعة من السمك وتقدمها طعاماً للحيوانات (١) . تلك هي الطريقة التي خصصت لتربية هذه الحيوانات ، وإذا قتل امرؤٌ إحداها عمداً ، كان جزاؤه الموت (٢) . أما إذا قتله بغير قصد ، فيدفع الغرامة التي يقرها الكهنة . فأما عقوبة الموت فلا مفرّ منها لمن يقتل « أبا منجل » أو باشقاً سواء ارتكب القتل عمداً أو دون عمد .

٦٦ — والحيوانات الأليفة عندهم كثيرة . وكان يمكن أن تكون أزيد من ذلك بكثير لو لم تلم هذه المصائب بالقطط (٣) : فعندما تلد الإناث من

(١) لا نعتقد أن سائر الحيوانات كانت تأكل السمك . إلا أن يكون تمساحاً ، أو سبباً ، أو طيراً من طيور الماء .

(٢) يروى « ديودور الصقلي » (٩ ، ٨ ، ٣ ، ١) أن هذه العقوبة قد وقعت على أحد الرومان على الرغم من تدخل الملك المقدوني « بطليموس الزمار » أملاً في تخفيفها . انظر : (شيشرون : الرسائل ٧ ، ٥) .

(٣) كانت القطط — وما زالت — من أحب الحيوانات الأليفة إلى الناس ؛ تختصها ربةُ الدار بكثير من الحب والراية والتدليل ؛ ذلك لأنها تخشى على نفسها وأهلها عامة ، ثم على صغارها بخاصة أذى الزواحف والحشرات . وتعرف أن القطط من ألد أعداء الزواحف والحشرات . وربة الدار تخشى أيضاً على ما في دارها من زائر وأثاث من عبث الفيران وعدوانها . وتعرف أن القطط من ألد أعداء الفيران . فلا غرابة إذن في أن يقدس المصريون القطط ، ويحسّطوها بعد الموت ، ويصنعوا لها التماثيل . وقد عُثِرَ على قبور القطط في بعض الجبانات المصرية بصقاره وبنى حسن . انظر : (Kees, G.G S. 82) . ولم تنل القطط من الشهرة والحظوة ما نالت — بين ما قدس المصريون من طوائف الحيوان — إلا في أيام الملوك الذين اتخذوا من كعبتها « بوسطة » حاصمةً لملكهم . ثم خلط الناس في عقائدهم بعدئذ بين القطط وبين نظائرها وأشباهاها من الحيوانات ؛ ومن أمثلة ذلك أن تصبح المرأة لديهم الصورة الضاحكة لشبيبتها العباسية الفتاة « زخه » التي كانت من اللبابة . انظر :

(Hopfner, Tierkult, S. 35 f.)

القطط ، لا ترغب بعدئذ في معايشة الذكور ، فاذا ما حاولت هذه الاجتماع بها فإنها لا تستطيع . ولهذا السبب : فكرت الذكور في الحيلة الآتية : تخطف الصغار من أمهاتها ، أو تسرقها ثم تقتلها ، ولكنها لا تأكلها . وبعد أن تحرم الإناث من صغارها ترغب في غيرها . وعلى ذلك تسعى نحو الذكور لأن هذا الحيوان كثير الحب لصغاره^(١) . وعندما يشب حريق ، يستولى على القطط

= ولن ننسى من ذلك كيف تخيل المصريون معبودهم الأكبر « رع » في هيئة قط يصرع الحية « أبوفيس » التي خالوا أنها تتصدى لموكبه أصيل كل يوم وهو يعبر محيط السماء من شرق الدنيا إلى غربها . انظر : (Naville, Totenbuch I, Taf. 30) .

ولم يقف القوم في تصورهم وخيالهم عند حد ما ذكرناه ؛ بل تخيلوا أن السماء محوطة برعاية القط ليطمئنون أنفسهم على سلامة الشمس في سيرها . انظر : (Lacau, Textes. Relig. 30.) .

ولن تنسك عليهم بعد ذلك أنهم صوروا إله الشمس برأس قط . انظر : (Lanzoni, Dizionario di Mitol, Taf. 16) .

ثم لا تنسك عليهم بعد كل ذلك أن يكثرزوا من صور ما تخيلوا من الأرواح في العالم الآخر، وأن يجمعوا لها رؤوس القطط ، ثم ينشروا تلك الصور على صفحات قبور الملوك أيام الدولة الحديثة ؛ معتقدين أن تلك الأرواح تقيم شر ما يعترض سبيلهم في هذا العالم من حيات . انظر : (Blackman, JEA. 5. p. 34) .
(١) قد لا يكون مستحيلا أن يقتل القط صغاره ليغري وليفته بالسعى إليه طلباً للومب وإرضاء لشهوته ، وإن كان المتواتر في قصص الشعب وشعر الشعراء أن الأنثى هي التي تأكل صغارها إشفافاً عليها من الأذى وخوفاً عليها من العدوان . ويحضرني في هذه المناسبة قول « شوقي » حين شبه الشمس بالهرة في نونيته المشهورة حيث قال :

فيا لك هرة أكلت بنينا وما ولدوا وتنتظر الجنينا
ويظن كذلك أن الهرة إنما تأكل بعض صغارها خطأ عند الوضع، كما تأكل ما كان يموت منها .

أمر عجيب ؛ بينما يقف المصريون على مسافات متقاربة ؛ يراقبون القطط غير مهتمين بإطفاء النار المشتعلة ؛ تتسلل القطط من بينهم أو تقفز فوق رؤوسهم ثم تنب إلى النار . وتنزل هذه الحوادث بالمصريين حزناً شديداً . وعندما تموت قطّة موتاً طبيعياً في مُنزلٍ من المنازل ، يخلق كل سكان المنزل حواجبهم فقط . أما إذا مات لهم كلب فيخلقون شعر البدن كله والرأس أيضاً^(١) .

٦٧ — وبعد موتها تنقل القطط إلى مدافن مقدسة في مدينة « بوباسطيس »^(٢) ، حيث تدفن بعد تحنيطها^(٣) . أما الكلاب ، فيدفنها أهل كل مدينة في مقابر مقدسة . ويدفن النمس^(٤) بنفس الطريقة التي تدفن

(١) ذلك لون من ألوان التعبير عن الحزن ، وإن كان يختلف عما جاء في الفصل السادس والثلاثين من هذا الكتاب . وليس غريباً أن يحزن الناس عندما تنفق الحيوانات ؛ بل هم يفعلون ذلك في كل زمان ومكان ، وإن كانوا لا يُعَبِّرون عن حزنهم بمثل ما يَصِفُ « هردوت » ، وإنما يفعلون غير ذلك ؛ فبعض المُعَسَّرِينَ بدواهم في العصر الحديث كانوا يدفنون أغلاها لديهم وأعزها عندهم وبخاصة الحيل عند مدخل الدار (= تحت عتبة) .

(٢) انظر الفصل (رقم ٦٠) .

(٣) انظر الفصل السادس والستين من هذا الكتاب .

(٤) النمس : فهم المصريون القدماء — كما يفهم خلفاؤهم اليوم — طبيعة هذا الحيوان ؛ فعرفوا شدة عدايته للشعبان ، وجعلوه من أجل ذلك من حيواناتهم المقدسة ، ورمزوا به إلى الشمس (= آتون) تتقمص روحه وبدنه حين تعرض لها الحية « أبوفيس » فتتصدى لموكبها أصيل كل نهار .

انظر : (١) Sethe, Z.Ae. S. S. 63, 50

(٢) Darees, An. d. S. XVIII, p. 116

والريفيون — وأنا منهم — يعرفون من طبيعة هذا الحيوان بعض ما عرف أسلافهم ، وأزيد على ذلك أننى رأيت بعينى نمسين يقاثلان حية ضخمة فيصرخانها .

بها الكلاب ، أما الجرذان الطويلة والبواشق ؛ فننقل إلى مدينة « بوطو » (١) ، وينقل « أبو منجل » إلى « هرموبوليس » (٢) . أما الديبة . وهي نادرة الوجود (٣) والذئب (وهي) لا تزيد كثيراً في حجمها على الثعالب (٤) ، فتدفن حيث تموت .

(١) انظر الفصلين رقم ٦٣ ، ١٥٥ من هذا الكتاب .

(٢) « هرموبوليس » (= مدينة هرمس) : اسم أطلقه الإغريق على الإقليم الخامس عشر من أقاليم الصعيد ، ثم على عاصمته في وقتٍ معاً . وتُعرف المدينة اليوم — كما عُرِفَتْ قديماً — باسمها المصري القديم « أشمونين » . موقعها على مسيرة ١٨٠ ميلاً إلى الجنوب من القاهرة .

وقد وُجِدَ في جياتها المعروفة اليوم باسم « تونة الجبل » كثيرٌ من مدافن هذا الطير ومواميه وتماثيله . وكان الطير ، كما سنرى في الفصل السادس والسبعين رمزاً لمعبود المصريين المعروف « توت » . انظر : Gabra (Sami)

(1) Rapport sur les fouilles d' Hermopolis ouest
(Touna el — Gebel) 144

(2) Exploring the Galleries of Hermopolis the sacred city of
Thoth, Illust. London News 13. (1939)

(٣) تلك مسألة فيها نظر ؛ فالدب ليس حيواناً مصرياً ، وإنما عرفه المصريون في غير واديهم . انظر : (الفصل رقم ٦٥ هامش رقم ١) . هذا ، ولم يرد ذكره في تراث الكُتَّابِ الأقدمين حاشاً عند أحدهم وهو « Prosper Alpinus » . ولا نذكر أن المصريين قد قدَّسوا هذا الحيوان ، ولا نعرف أنهم خَطَّطوه بعد موته ، أو جعلوا له قبوراً كغيره من حيواناتهم المقدسة .

(٤) ليس المقصود هنا الذئب كما نعرفها ، وإنما الغالب أن تكون « بنات آوى » التي خلط الإغريق بينها وبين الذئب . ومن آثار هذا الخلط أنهم سموها مدينة « سيوط » « ليسكوبوليس » أي « مدينة الذئب » . ولم يكن حيوانها ذئباً ، وإنما كان من بنات آوى ، وقد عُثِرَ في الجبانات المصرية بكثير من مدافن هذا الحيوان ومواميه وتماثيله .

٦٨ — وهذه هي طبيعة التماسيح (١) : لا تأكل التماسيح شيئاً ما أثناء أشهر الشتاء الأربعة . والتمساح من ذوات الأربع ؛ يعيش على الأرض وفي الماء على حد سواء ؛ يضع بيضه ويقسه على الشاطئ . ويمضي أكثر النهار على الأرض الجافة ، ولكنه يقضى الليل كله في النهر ؛ لأن ماءه يكون حينئذ أسخن من الهواء والندى . وهو دون سائر الكائنات التي نعرفها ينمو من أصغر حجم إلى أكبره . فالبيض الذي يضعه لا يزيد فعلاً في حجمه على بيض الأوز . وحجم الصغير عند خروجه من البيضة يتناسب مع حجم هذه (٢) . ولكنه يأخذ في النمو حتى يبلغ سبعة عشر ذراعاً أو أكثر (٣) . وله عينا خنزير وأسنان كبيرة ، وأنياب تتناسب مع حجم جسمه . وهو الحيوان الوحيد الذي ليس له لسان . ولا يحرك أيضاً فكّه الأسفل . وهو كذلك — وحده دون سائر الحيوانات — يطبق فكّه الأعلى على الأسفل (٤) . وله مخالب قوية ، وجلد مغطى بالفلوس ؛ غليظ على الظهر ، لا ينفذ خلاله شيء . ومع أن التمساح

(١) إن الوصف الذي أورده « هردوت » في هذا الفصل وفي الفصول التي تليه ، لا ينصب على التمساح من حيث تقديس المصريين له وحسب ، ولكن من حيث طبيعته وصفاته كحيوان لا تعرفه بلاد الإغريق . والواقع أن « هردوت » قد وصفه وصفاً لا يخلو من الدقة والبراعة .

(٢) يقصد أن التماسيح تضع بيضاً يراه صغيراً بالنسبة إلى أحجامها . ومن أجل ذلك يخرج الحيوان صغيراً من البيضة الصغيرة ، ثم يأخذ في النمو إلى أن يبلغ المدى الذي قد رت له الطبيعة من حجم .

(٣) أى نحو خمسة وعشرين قدماً . وذلك في الواقع هو متوسط ما يبلغ التمساح — في الأغلب الأعم — من طول .

(٤) الواقع أن للتمساح لساناً ، موضعه في الفك الأسفل الذي لا يتحرك . ومن أجل ذلك لم يستطع « هردوت » رؤيته .

أعشى في الماء ، إلا أن بصره حاد جداً في الهواء (١) . وبسبب بقاءه في الماء
يمتلىء فيه كله من الداخل بالعلق (٢) ، وتفر منه الحيوانات والطيور الأخرى
إلا « الزقزاق » ؛ فهو على وئام معه لأنه نافع له (٣) . إذ عندما يخرج التمساح
من الماء إلى الأرض ، يفغر فاه (ومن عادته أن يفعل ذلك غالباً في مهب الرياح
الغربية) هنالك يدخل « الزقزاق » في فمه ويلتقط العلق ؛ فيبتهمج التمساح من
حسن صنيع الزقزاق ولا يؤذيه .

٦٩ — ويقدّس بعض المصريين التماسيح ، أما البعض الآخر فلا
يقدرسونها ؛ بل يرونها أعداء (٤) . والمصريون الذين يقطنون حول طيبة

(١) أما أن التمساح يعشى في الماء ؛ فقد يكون ذلك أثراً من آمال المصريين
في اتقاء شره . ولم يكذب « هردوت » يسمع منهم ذلك حتى اعتقد أنه حقيقة ؛
إذ الواقع أن المصريين — وبخاصة رواد الماء كالرعاة ورجال الملاحة —
كانوا يخشون على أنفسهم وعلى أنعامهم شر هذا الحيوان ؛ فيلجأون إلى
التخلص من ذلك بالتعاوند والرقى .

انظر : (Budge, Facsimiles of Egyptian Hieratic Papyri in the Brit. Mus. pl. 20 & P. 23. 34 (London 1910))

(٢) يقصد بالعلق نوعاً من حشرات الماء الصغيرة تتدافع إلى فم الحيوان
كلّما تشاء .

(٣) تلك حقيقة واقعة ؛ إذ أن الوحيد في عالم الحيوان والطيور ، بل وفي سائر
الكائنات ، الذي كان يستطيع الاقتراب من التمساح ، قد كان طيراً يُعرف عندنا
اليوم باسم « الزقزاق » ؛ لا يكاد يجرد التمساح على الشاطئ حتى يندفع إليه ،
ولا يكاد التمساح يستقبله حتى يرفع فكه الأعلى ، وهنالك يدخل « الزقزاق »
رأسه في فم التمساح ويلتقط ما في فكه من ذلك العلق ، ويرتاح التمساح
لذلك فتسيل دموعه . ومن أجل ذلك يُسمّى الناس الدموع التي لا يجريها
الحزن والألم « دموع التماسيح » .

(٤) التمساح : أسماء المصريون حيوانا « إمساح » . وليس يبعد أن تكون =

وبحيرة « مويريس » يعدونها مقدسة جداً . ويربّي سكان كل إقليم من هذين الإقليمين تمساحاً واحداً من بين التماسيح كلها ، يُدرب ويُستأنس ثم توضع في أذنيه أقراط من الحجر المذاب والذهب ، وحول قائمته

= قد سبقت الإسم أداة التعريف المصرية للمفردة المؤنثة « ت » فصار الإسم « تمساحاً » . فأما اسمه كحيوان مقدس فكان « sbk سبك » ، وصحّفه الإغريق فصار « سوخوس » . وليس عجيباً أن تبدو فكرة تقديس هذا الحيوان لدى الفراعنة غامضة عند المؤرخين لكثرة ما ورد له في آدابهم من صفات منها : الجشع ، الشر ، الوقح ، الثائر ، الفئساك . كل ذلك برغم ما يدكرون من صفاته الطيبة ؛ حين يجعلونه « رباً للنيل » ويضيفون إلى ذلك أنه هو « الذي يجوب البحيرات » ، ثم هو عندهم « ذو النظر الحديد » الذي يجوب الشواطئ . كما أن رياض الأرض من مصائده ، وهو الذي يعيش على أكبر سُكّانِ الماء ؛ فيخشاه أكبر سكان الماء . بل هم آخر الأمر قد خالوا فرعون المتوفى في صورة تمساح أو لم يكن عجيباً أن يرهبه سكان الوادى وبخاصة رُؤّاد الماء من البحارة والروّاة ؛ ويلبغ بهم الرعب أن يتحاشوا ذكر اسمه ويدعون عليه بالعمى ، ثم يدعون على اللصوص من نباشى القبور بأن يتعقبهم التمساح في اليم ، وتنتعق بهم الحيات في البر . وليس من شك في أن طبيعة النهر ومجرّاه ، ثم تجارب رُؤّاد النهر وركّابه هي التي أوحّت إلى المصريين تقديس هذا الحيوان ؛ وحسبنا من كل ذلك الجزر المنتشرة في مجراه ، وسرعة التيار في بعض مناطقه ، والشواطئ الصخرية التي تعوق الملاحة بحيث تبدو خطرة على الملاحين ؛ ومنها منطقة « جبل السلسلة » و « شواطئ كوم أمبو » والجزر المنتشرة عند « منطقة الجبلين » وثنية النهر عند « دندره » ، وجبل « الطارف » ، وجبل « أبى فوده » عند أسيوط ؛ وومظاهر تقديس التمساح بادية عند « المعابدة » ، و « طهطا » ، و « السرارية » ، و « الشيخ حسن » ، و « الحيه » ، ثم « الفيوم » . وكذلك في منطقة غرب « الدلتا » .

الأمميتين أساور (١). ويقدمون له طعاما خاصا وأضحيان. ويعاملونه طول حياته أحسن معاملة. وعند موته يُحنطونه ويدفونه في مقابر مقدسة (٢). أما الذين يعيشون حول مدينة «إلفانتينا» (٣)، فلا يعتبرونها مقدسة؛ بل يأكلونها (٤). والمصريون لا يسمونها تماسيحا؛ بل «خامبسي» (٥) والأيونيون هم الذين سموها تماسيحا [عظاء] بمقارنة أشكالها بأشكال العظاء التي توجد عندهم في الحوائط ذات الأحجار الجافة (٦).

٧٠ — ولصيدها طرق متباينة؛ أكتب منها هذه لأنها تبدو لي أجدرها بالذكر. يضع الصياد حول الشص عجيزة خنزير، ثم يلتقي بالشص في وسط النهر، بينما يبقى واقفا هو نفسه على الشاطئ ومعه خنزير صغير حتى يضربه، وعندما

(١) تزيين التماسيح: إن في الصور التي وُجِدَتْ على آثار المصريين ما يؤكد ذلك.

انظر: (Knauers Lexikon der Aegypt. Kultur, S. 137).

(٢) يدل على ذلك ويؤكد صحته كثرة ما وُجِدَ في الجبانات من بقايا مواشي التماسيح.

(٣) انظر ما جاء عن تلك المدينة في الفصل (١٧) من هذا الكتاب.

(٤) لا نظن أن المصريين كانوا يأكلون التماسيح، ولا نعرف كيف يأكل الناس التماسيح، ولم يرد في أخبارهم ما يشير من قريب أو بعيد إلى أكل التماسيح، وأكبر الظن أن يكون ذلك من باب الخاط و سوء الفهم. اللهم إلا أن يكون هردوت قد رأى بعضهم يأكلون العظاء، كما كان العرب مثلا يأكلون الضب؛ هذا، وقد سمعت من سكان النوبة أنهم يأكلون الورن، وأن بعضهم يأكلون لحم التماسيح، وأزيد على ذلك أن أحد الأحياء من زملائنا علماء الدراسات المصرية القديمة من البريطانيين قد أكل لحم التماسيح في بلاد النوبة.

(٥) خمبسي ليس من السهل مطلقاً تحديد أصل هذه الكلمة.

وليس من السهل كذلك إرجاعها إلى أصل مصري كما حاول البعض.

(انظر: J. Černy, An. d. S. 42, p. 346 — 8)

(٦) كان ذلك منذ بدأ الإغريق يقدون على مصر للبدل والتجارة، ومنذ أن اتخذ «إسماتيك» من بينهم جنوداً مرتزقين. انظر: (ص ٦).

يسمع التماسح صياح (الخنزير) يندفع نحوه ، فيجد عجيزة الخنزير ويبلعها .
وعندئذ يُجرُّ إلى الشاطئ . وبمجرد أن يتم إخراجها من الماء ، يبدأ الصيد أولاً
وقبل كل شيء بتلطيف عينيهِ بالطين . فإذا نجح في عمل ذلك ؛ تمكن من تذليل
ما تبقى (من عقبات) في يسر تام . فإن لم ينجح ، فإنه لا ينال (بُغيته) دون مشقة .
٧١ — وأفراس النهر مقدسة في ولاية « پاريميس » (١) . ولكنها
ليست مقدسة لدى سائر المصريين . وهذه طبيعة شكلها : إنها من ذوات
الأربع ، لها مخالب مشقوقة كأظلاف البقر ، مفرطحة الأنف ، ولها معرفة
حصان . ولها أنياب بارزة ، ولها ذيل الحصان وصهيله . وهي في حجم أكبر
ثور ، جلدها غليظ جداً حتى إن قنا الرماح تصنع منه بعد تجفيفه (٢) .
٧٢ — وتوجد في النهر كذلك كلاب الماء وهي مقدسة . ومن بين
الأسماك ما يعد مقدساً كذلك . ما يسمى منها الشبوط والثعبان . ويقال إنها
مقدَّسان للنيل ، ومن الطير الأوز الثعلبي (٣) .

(١) انظر الحديث عن تلك المدينة في الفصل (رقم ٦٣) . هذا وقد فات
هردوت أنها كانت مقدسة في إقليم طيبة أيضاً .
انظر : (Roeder, Art. Thuëris in Roschers Lex. d. Mythol.)
(٢) فرس النهر : حيوان نهريٌّ من أكلة النباتات ، لا خوف منه على حياة
الإنسان ، وإنما خطره محقق على الزرع ؛ يطؤه بأقدامه فيفسده . أكثر المصريون
صَيْدَه وكانوا يستعيضون بعظامه عن سنِّ الفيل ، وراحت سوق التجارة في تلك
العظام خلال العصور المتأخرة .

انظر : (Knauers Lex. d. Aeg. Kultur, S. 184) .

(٣) انظر : لفظ $\chi\eta\nu\alpha\lambda\omega\pi\eta\eta$ (كينالوپيكس) الذي يترجمه الألمان إلى
Fuchsgans أي «الإوزة الثعلبية» ، نظراً لما رأوا من تشابه بين لونها ولون الثعلب .
وهو صُربٌ من الإوز المائي كان موجوداً في وادي النيل ؛ أسماه المصريون Smn
وفي القبطية CMOYN واسمه العلمي *Chenalopex Aegyptiaca* .
انظر : (Kuentz, L'oie du Nil (Archives du Museum d'histoire
naturelle de Lyon XIV 1926))

٧٣ — وهناك طائر آخر مقدس يسمى «الفونكس» (١). لم أره إلا مصوراً. إذ أنه يزور البلاد فيما ندر؛ يزورها كل خمسمائة عام على حد قول أهل «هيليوبوليس». وذلك عندما يموت أبوه. وإذا كان يشبه رسمه فهكذا يكون حجمه وشكله: بعض ريش جناحيه ذهبي وبعضه أحمر. وهو

(١) Phoenix: جرت العادة أن نسميه بالعربية «العنقاء» فأما اسمه المصري الأصيل فقد كان «بنو» (Bnu). وأكبر الظن أن يكون اشتقاقه من الفعل المصري «وبن» (wbn) بمعنى «أشرق» «برق»، «لَمَعَ». ويكون معنى الاسم بناء على ذلك «البراق» أو «اللماع». انظر: (Sethe, Z. Ae. S. 45 S. 48). من هنا جاءت قصة الصلة بين اسم الطائر وبين الحجر الهرمي «بن بن» (bn bn) الذي رمز به المصريون إلى التل العتيق الذي برز من «النون» (= الماء الأزلي). أى إلى الأرض التي طفت على وجه الماء، فإذا هذا الطائر يتلأأ من فوقها فيملاً نوره السكون، ويخرج صوته فيكون بذلك أول صوت دَوَّى في الوجود ثم تكون «الكلمة». انظر: (Wiedemann, Z. Ae. S. 16, S. 89 f). ثم (Kees, G. G. S. 52 f. & 217 f).

ويستمر المصريون في الربط بين هذا الطائر وبين الحجر المدبب الذي ذكرنا، ثم يبنونه وبين العمود الذين يسمونه «إيونو» ويجعلون من كل أولئك رمزا لظهور إله الكون العتيق «آتوم» انظر: (Sethe, Pyr. Text. 1952). ثم (Erman, Relig. SS. 28, 333). ثم (Kees, G. G. S. 217 ff.) وأخيراً يعرف المصريون المسلات، ويتخذون منها رمزاً للشمس؛ فيدبسون قممها على النحو الذي عرفنا في الحجر الهرمي الذي أسموه «بن بن». ثم يكسونها بصفائح من مخلوط الذهب والفضة؛ حتى إذا ما أشرقت الشمس وأصابت أشعتها قمة المسلة انعكس منها الضوء فأثار ما حولها من وجود. ونستطيع أن نتصور كيف كان كهان هيليوبوليس ينتظرون عودة ذلك الطائر في شوق ولهفة، كما كان كهان ممفيس ينتظرون ظهور الفحل «آيس».

انظر: (Ranke, Z. Ae. S. 78).

قريب الشبه جداً من النسر في هيئته وحجمه^(١). ويروون أنه يُدبر في مهارة هذا الأمر. ولكنني لا أصدق ما يقولون. يرون أن هذا الطائر يغادر بلاد العرب حاملاً أباه إلى معبد الشمس ليدفنه بهذا المعبد، وذلك بعد أن يغطيه بطبقة من المر. ولكي ينقله يقوم بما يلي: يصنع أولاً من المر بيضةً بالقدر (الحجم) الذي يستطيع حمله، ثم يحاول حملها، فإذا انتهى من محاولته يُفرغ البيضة ويضع أباه فيها. وبعدئذ يُلطّخ بالمر ثمانية المكان الذي جوفه من البيضة وأدخل أباه منه، على أن يبقى ثقل البيضة واحداً (قبل تفرغها وبعد وضع أبيه فيها). وبعد أن يغطي أباه هكذا، ينقله إلى معبد الشمس بمصر؛ ذلك ما يفعله ذلك الطائر حسب قولهم. ٧٤ — وتوجد حول طيبة حيات مقدسة لا تؤذى الإنسان مطلقاً. صغيرة الحجم. لها قرنان ينبتان بأعلى الرأس، تدفن عند موتها في معبد «زيوس» لأنها — على حد قولهم — مقدسة لهذا الإله^(٢).

(١) إن هذا الوصف الذي أورده «هردوت» مأخوذ غالباً عن سلفه «هيكاتيه». انظر: (Waddell, Herodotus, p. 100).

(٢) لا يملك تاريخ العقائد في مصر الفرعونية ما يشير إلى تقديس تلك الحية في العصور المتأخرة وإن بات من المرجح أنها قُديست في العصور البعيدة. ولا أدل على ذلك من أنها اتُّخِذَتْ علماً وشارة ورمزاً للإقليم الثاني عشر من أقاليم الصعيد؛ وهو الإقليم المعروف بإقليم «جبل الحية». فإذا صح ما قاله «هردوت»، فلن نستبعد مطلقاً أن يكون تقديسها قد بُعث بعد ذلك، وكان قائماً في زمانه. وإنما الشيء الذي غاب عن «هردوت» هو أن ذلك النوع يُعَدُّ من أخطر الحيات السامة انظر: (Kees, G. G. S. 58)، وأنه لا يزل معروفًا في مصر الوسطى، وفي الصعيد، ثم في الصحراء أيضاً. ويسمى الشعب اليوم تلك الحية بأسماء منها «الطريشة» و«العمية» و«الدفانة»؛ يوهمون أنفسهم بأنها لا تسمع، وبأنها لا ترى، ثم يُحَدِّثُونَ أنفسهم من خطرها لأنها تدفن جسمها في التراب مُتَلَوِّنةً بلونه فتصعب رؤيتها.

٧٥ — ويوجد في بلاد العرب مكان يقع تقريبا تجاه مدينة « بوطو » (١). وقد ذهبت إلى هذا المكان في أثناء بحثي عن الحيات ذات الأجنحة . ولما وصلت رأيت كميات تفوق الوصف من عظام حيات من وأعمدتها الفقرية . إذ كانت هناك أكوام كثيرة من الأعمدة الفقرية بعضها كبير وبعضها صغير وأخرى أصغر من هذه وتلك . . . وهذا وصف المكان الذي تملؤه الأعمدة الفقرية : هو عبارة عن ممر ضيق يبدأ من الجبال وينتهي بسهل فسيح ؛ ذلك السهل يتاخم سهل مصر . ويقال إن الحيات ذات الأجنحة تطير عند بدء الربيع من بلاد العرب إلى مصر ، وإن « أبا منجل » يتصدى للقائها عند مدخل هذا الممر ولا يسمح لها (بدخول مصر) ؛ بل يهلكها (٢) . ويقول الأعراب إن المصريين يُعْظَمُونَ « أبا منجل » كل التعظيم من أجل صنيعه هذا . والمصريون يتفقون مع الأعراب على أنهم يُجْلَوْنَ ذلك الطير لهذا السبب .

(١) بوطو : ربما يقصد بها الجزء الممتد في الصحراء من وراء الفرع الشرقي للنيل . والغالب أن « بوطو » هنا مدينة أخرى غير التي مر ذكرها في الفصول ١٥٩ و١٦٢ و١٥٥ وهو يعنى في الغالب مدينة أخرى ربما كان مكانها بالقرب من البحيرات المرة . انظر : (Waddell, Herodotus, p. 192, Not. 7) . وربما كان غير بعيد من بحيرة التمساح .

انظر : (Sourdille, La durée et l'étendue du Voyage, p. 87) .
(٢) لا نظن أن مصر قد عرفت ما يسميه « هردوت » بالحيات المجنحة ، وبخاصة بعد الذى قال فى وصفها (فى الفصل رقم ٧٦) من حيث أنها تشبه حيات الماء ، وأن أجنحتها بغير ريش ، وأنها تشبه إلى حد ما أجنحة الحفافيش ، أما من حيث تصدى « أبى منجل » لتلك الحيات وإهلاكها ؛ فإن ذلك يبعدها كل البعد عن أن تكون حيات بالمعنى أو المبنى الذى يتصوره هردوت ، بل إن الظن ليتجه بنا إلى تصوّر شيء كالجراد الذى يحجى عادة من الشرق عبر الصحراء العربية إذا ما كان فصل الربيع .

٧٦ — وهذا شكل « أبي منجل » : كله أسود حالك السواد ، له فخذاً كركي ، منقاره مُقَوَّسٌ جداً ، وهو في حجم الكركي . ذلك شكل « أبي منجل » الأسود الذي يقاتل الحيات . وفيما يلي وصف « أبي منجل » الذي يروح ويغدو بين الناس في أغلب الأحيان (لأن هناك نوعين من هذا الطير) : الرأس وكافة العنق لا يكسوها الريش ، وريشه أبيض فيما عدا الرأس والرقبة وأطراف الجناحين ، ونهاية الذيل . (كل هذه الأجزاء التي ذكرتها حالكة السواد) وهو يشبه النوع الآخر من حيث الفخذ والمنقار (١) . أما الحيات ذات الأجنحة فتشبه في شكلها حيات الماء ؛ أجنحتها بغير ريش ؛ تشبه على وجه التقريب أجنحة الخفافيش .

وإن لفي ذلك الحديث الكفاية عن الحيوانات المقدسة .

(١) أبو منجل : يَتَكَوَّهُمْ كثيرون أن المقصود بهذا الطائر المقدس ، هو ما نسميه اليوم « أبا قردان » ؛ ذلك الطائر الأبيض المعروف الذي ينتشر في الزروع ويُحَوِّم حول الأماكن التي يكثر فيها الماء ، ثم يعلو ظهور الدواب — وبخاصة البقر — يلتقط من جراحها الدود . واسم هذا الطائر عند العلماء (*Ardeola ibis*) والواقع أن أسلافنا قد عرفوه كما نعرفه اليوم ، وكانوا يَعُدُّونَهُ من حماة البقر .

فأما الطائر الذي قدَّسوه فعلاً ؛ فقد صوروه على آثارهم في صور ثلاث :

أولها الأسود وكانوا يسمونه (gm.t) ويسميه العلماء *Plegadis falcinellus* وذلك هو الذي عناه « هردوت » وقال إنه كان يقي مصر شر ما أحماء « الحيات المسجَّنة » . وفنك الطيور بالحيات عامة أمرٌ معروف ، إذ يقال إن بعض البقاع الإفريقية طائرٌ يقال له الـ *Serpentaire* يتصدى للحيات ويقتلها .

وثانيهما ذو الناصية وكانوا يسمونه (akh) أى « اللماح » . ويسميه العلماء *Comatibis eremita* . وقد انقرض اليوم من مصر تماماً كما اختفى من ربوع أوروبا الوسطى والجنوبية .

٧٧ — أما عن المصريين أنفسهم ؛ فأولئك الذين يعيشون في الأراضي المنزرعة^(١) ، يهتمون دون سائر الناس اهتماماً كبيراً بتمرير الذّاكرة . وهم ، في العلم ، يتفوقون كثيراً على كل الشعوب التي خبثتها . وهذه هي طريقة الحياة التي يتَّبِعُونَهَا :

مراعاة لصحتهم ، يتناولون في ثلاثة أيام متتالية من كل شهر مقيّئات^(٢) وحُقْنٍ شرجيّة ؛ إذ يعتقدون أن جميع الأمراض تصيب الناس من الأطعمة التي نتغذّي بها . وهم — حتى بغير ذلك — أصح الناس عامة بعد الليبيين^(٣) .

= وثالث هذه الأنواع وأهمها وهو الذي قدسه المصريون وأسموه (hibi) وجعلوه رمزاً لمبودهم « توت » فيسميه العلماء *Threskiornis aethiopica* كان أبيض اللون ، وفيه من السواد لون رأسه وعنقه وأطراف ريشه . ولقد انقرض هذا الأخير من مصر ولم يعد يُرى بوادي النيل إلا في السودان الأعلى .
انظر : (Kees, K. G. S. 32 34) .

ثم : (Knauers Lex. d. Aeg. Kultur)
وأخيراً : (Keimer, An. d. S. XXX, S. 20 ff.) .

(١) يقصد بذلك من يعيشون في الوادي ؛ حيث الأراضي التي تزرع على ماء النيل وما يتفرع منه من ترع وجداول تميزاً لهم من البدو الرحّل الذين يعيشون في الصحراء .

(٢) لا نظن أن المصريين وحدهم قد كانوا يفعلون ذلك ، وإنما شركتهم في ذلك شعوب أخرى ؛ يقصدون به إلى تطهير أحشائهم حفاظاً على سلامة أبدانهم .
(٣) ذلك قول صحيح إلى حدٍّ كبير ، والمصريون القدماء كانوا أشدّ عناية بسلامة أبدانهم من خلفائهم في العصور الوسطى والحديثة ؛ فهم لم يعرفوا أمراض « الكوليرا » ، وما سمعنا كذلك بأنهم أصيبوا بالطاعون ، ولا غيره من تلك الأمراض التي نشأت بعد مشروعات الري الدائم . وليس معنى ذلك أنهم سلموا من سائر العلل والأمراض ؛ كلا ؛ بل إن كثرة ما كان عندهم من أطباء — تنوعت تخصصاتهم — يدل على ما كان يصيبهم من مختلف الأدوية .
انظر : (الفصل رقم ٨٤ من هذا الكتاب) .

وهذا يعزى — فيما أعتقد — إلى المناخ ؛ فهو غير متغير الفصول (١) ،
إذ أن الأمراض تنتاب الناس — أغلب الأحيان — نتيجة للتغيرات بجميع
أنواعها ، وبوجه خاص ، نتيجة لتغيرات الفصول (٢) . ويأكلون خبزا يصنعونه
من القمح ذى الحبة الواحدة ويسمونه « كيليستيس » (٣) . ويشربون نبيذاً
مصنوعاً من الشعير ؛ إذ لا توجد في بلادهم كروم (٤) . ويأكلون بعض السمك

(١) انظر مايرويه « ديودور » عن مناخ مصر : (Diod. I, 10, 1) .
(٢) مثل ذلك ما رواه « أبقرط » عن تغيير المناخ في فصول مصر السنوية .
انظر : (Hippocrates, Aphorismi, III, 1) . ثم ما رواه « جالينوس »
وغيره من الأطباء عن فروق التغيير خلال تلك الفصول وإن كانت غير كبيرة
كما هي الحال في بلاد أوروبا .
(٣) انظر الحديث عن ذلك النوع من الجبوب في (الفصل رقم ٣٦) من
هذا الكتاب .

(٤) ليس المقصود هنا نبيذاً بالمعنى الذى نفهمه من هذه الكلمة ؛ فالنبيذ
لا يصنع من الشعير ، بل يعصر من العنب . وإنما الذى يصنع من الشعير هو الجعة .
والمصريون قد عرفوا الجعة ، واستمتعوا بهذا الشراب الشعبى ؛ شأنهم فى ذلك
شأن الألمان الذين اشتهروا بجمعهم الممتازة . وإذا كان الإغريق قد أسمىوا هذا
اللون من الشراب نبيذاً (OINOS) فلم يكن ذلك — أكبر الظن — إلا من
باب التعميم كما يسمى العامة فى مصر اليوم كافة أنواع الأشربة الروحية « خرا » .
ولم يكن « هردوت » وحده هو الذى ذكر هذا الشراب ، وإنما ذكره « ديودور »
(Diod. I, 3) و « استرابون » . انظر : (Strab. Geography XVII, 2,5) .
وكذلك ذكر « أثينيوس » Athenaeus أن المصريين قد صنعوا من الشعير
شراباً مسكراً . انظر : (Athenaeus, The Deipnosophists, I, 34) .
واشتهر المصريون بصناعة الجعة ، وأغرموا بشربها ، وزودوا بها موتاهم
فى الآخرة . وكانت صناعتها من محتكرات القصر الملكى أيام البطالة .
انظر : (Bevan, A Hist. of. Eg. under Ptol. Dyn. (1927)) . =

نيثاً ، مجففاً في الشمس ، ويأكلون البعض الآخر بعد حفظه في الملح ،
ويأكلون من الطيور السمان والبط والعصافير ، يأكلونها نيئة بعد تمليحها (١).
وخلاف ذلك من الطير والأسماك التي توجد عندهم — إلا ما يعدونه مقدساً —
وكل ما تبقى يأكلونه مشويّاً أو مسلوقاً .

٧٨ — وفي اجتماعاتهم عند الأثرياء منهم — بعد أن ينتهوا من الأكل —
يطوف بهم رجل يحمل في نعش جثة من الخشب تشبه تماماً ، بما عليها من
نقش وتصوير (٢) ، جثة حقيقية تبلغ إجمالاً في حجمها ذراعاً أو ذراعين .

== ذلك قول لا يستقيم مع الحق والواقع ، بل ولا مع ما ذكره « هردوت »
نفسه عن مقادير النبيذ التي كان يشربها السكهان (فصل رقم ٣٧) . ولا ما ذكره
من مقادير الأنبذة التي كان يستهلكها المصريون عامة في الأعياد (فصل رقم ٦٠) ،
ولا مع ما ذكره عن استمتاعهم بالأنبذة (فصل رقم ٧٨ ، ١٢١ ، ١٣٧) .
ولا ندرى كيف فات « هردوت » كل ذلك ، فوقع في هذا الخطأ البين ، ذلك
لأن مجرد النظرة البسيطة فيما ترك المصريون من صور حياتهم في مختلف العصور
تدلنا على أنهم عرفوا الكروم عامة ، وكروم العنب بخاصة ، وعصروا منها
الأنبذة (Erman, Aeg. S. 227) ثم (Breasted, Anc. Rec. V. P. 170)
كما عُسِرَت المعاصر منذ أبعد العصور (Breasted, ibid. 1, 173) ومناظر
الكروم والمعاصر وتعبئة النبيذ معروفة في الصور المنتشرة على صفحات القبور
منذ أيام الدولة القديمة (Davies, The Mastaba of Ptahhetep & Akhethetep, I. pl. XXIII).

(١) ذلك صحيح ، فقد كان السمك المجفف المملوح ، وسائر ألوان الطيور
من عناصر الغذاء لدى المصريين ، ينال منها الغنى والفقير على السواء . وإن
على آثارهم من الرسوم ما يرينا صور العمل في تجهيز مختلف أنواع السمك والطيور
ثم تجفيفها وتمريرها .

(٢) انظر : (Plut., Isis & Osiris, I, 7) .

ويريها الرجل كل فردٍ من الحاضرين وهو يقول : « انظر إلى هذه . . . ثم اشرب وتمتع (بالحياة) ، ذلك لأنك سوف تصير مثلها بعد الموت » (١) . ذلك ما يفعلونه في الولايم .

٧٩ — ويتمسك المصريون بتقاليد أسلافهم (٢) ، ولا يزدون عليها مطلقاً أى جديد . ومن بين عاداتهم المختلفة التى تستحق الذكر هذه بالذات . أعنى وجود أنشودة وحيدة ؛ أنشودة « لينوس » التى تنشده فى « فينيقيا » و « قبرص » وغيرها . ومع أن اسمها يختلف باختلاف الشعوب (٣) ، إلا أنها

(١) من الطريف أننا ما زلنا نرددُ مثل هذه العبارات فى حياتنا الحديثة (« ساعة لقلبك وساعة لربك » و « اتمتع بالدنيا وسبيك ») .

(٢) حقيقة إن المصريين من أشد شعوب الأرض محافظة على تقاليدهم القديمة انظر : (الفصل رقم ٩١) ؛ يحرصون عليها أشد الحرص ، بل يحرسون عليها حرصهم على عقائدهم وأعراضهم . لا يكاد يدانهم فى ذلك شعب من شعوب الأرض غير الصينيين . بل إن بعض هذه التقاليد ما زالت تغشى حياة أهل القرى ؛ وإن كانوا لا يعرفون عنها أكثر من أن آباءهم كانوا يفعلون ذلك .

(٣) Linus : الكلمة فى أغلب الظن اسم لفناء حزين يُنشَدُ به العزيزُ ممن يودعون الدنيا ؛ كمن يموتون فى سن مبكرة من الأبناء والأحباب . وأكبر الظن أيضاً أن مرجع ذلك كله إلى موت الشهيد « أزوريس » . وقد كانوا يرمزون بموته إلى ما يصيب الطبيعة من موات أيام الشتاء . ولم يكن مثل هذا التفسير قاصراً على المصريين من آل فرعون وحسب ؛ بل تعداهم إلى غيرهم من شعوب الشرق مم إلى شعب يونان . و « آدون » عند شعوب الشرق يمثل البعث فى الطبيعة ؛ أى يمثل ربيع الحياة الزاهر كلما استدار العام من وراء موات الطبيعة فى أيام الشتاء . واسمنا نستبعد أن يكون هو بعينه الذى عبر عنه العرب بلفظ « عدن » ، ونسبوا إليه « جنات عدن » . ثم هو بعينه من يسميه الإغريق فى أساطيرهم « أدونيس » ، ويصورونه فتىً جميل الطلعة من أبناء =

بالإجماع نفس الأنشودة التي ينشدها اليونانيون باسم « لينوس » . ومن بين الأمور العديدة التي تثير أشد العجب في مصر ، المصدر الذي أخذوا عنه اسم « لينوس » . ويظهر أنهم يتغنّون به دائماً من قديم الزمان . و « لينوس » اسمه في اللغة المصرية « مانيروس » (١) . ولقد قال لي المصريون إنه كان الابن الوحيد لأول ملك حكم مصر ، ولما مات قبل أوانه كرّمه المصريون بهذه المراثية فكانت هذه أنشودتهم الأولى والوحيدة (٢) .

٨٠ — ويتفق المصريون مع « اللّاكيديمونيين » وحدهم من بين اليونانيين في أمر آخر ؛ عندما يقابل الشبان الشيوخ منهم يفسحون لهم الطريق ،

== الملوك . تراه « أفروديت » فيشففها حبّاً ، ويحسده على ذلك آريس (Ares) ، ويمتلىء قلبه كرهاً له وحقدّاً عليه ، ويظل يتربص به حتى يلقاه ذات يوم في الصيد فيغري به من الوحوش ما يفتسه . ومن ذلك كله نرى أن « آدون » الذي يرمز به أهل الشرق إلى ربيع الحياة الزاهرة ، ويتخيّله الإغريق في ميسم الشباب الفاتن لا يخرجان في طبيعتهما عن طبيعة « أزوريس » الذي صورته الأسطورة المصرية الخالدة صريعاً في نضرة الشباب ، وجعلته رمزاً للخير والوفاء ؛ فهو يمثل وفاء النيل وفيضه ، ويمثل البعث في حياة الطبيعة .

(١) MANEROS « مانروس » : اسم لم تعرفه الوثائق المصرية برغم ما بينه وبين الكلمة القبطية « مانرو » (= راعى) من تشابه . ويحتمل أنه مشتق من المقاطع المصرية « ما — ن — را » بمعنى « تعال » ارجع « عُدْ » . التي ورد ذكرها في كتاب الموتى . انظر : (Waddell, p. 196) . وليس يبعد كذلك أن يكون أصل الكلمة المصري Ma - n - ir - bs (ما — إن — إر — حس) بمعنى « مكان الإنشاد » .

(٢) انظر : (Plut. Isis & Osiris, 15—17) .

ثم (Paus. I, 29. 3; Athénée, 14. 71 p. 620) .

ويتنحّون جانباً . وعندما يقبل عليهم الشيوخ^(١) ، يقومون من مقاعدهم . ولكنهم لا يتفقون مع أحد من اليونانيين في عادة أخرى ، فبدلاً من أن يتبادلوا فيما بينهم عبارات التحية في الطرقات ، ينحنون احتراماً ويخفضون اليد حتى الركبة^(٢) .

٨١ — ويحملون ثياباً من الكتان محلاة بهُدّاب حول الساقين يسمونها « كالاسيريس »^(٣) . ويلبسون فوقها معاطف من الصوف الأبيض تنسدل على الكتف^(٤) . ولكنهم لا يلبسون الملابس الصوفيّة عند ذهابهم إلى المعابد^(٥) . ولا يُدَقِّقُون بها ؛ لأن الدين يحرم ذلك . وهم يتفقون في هذا

(١) إن احترام الصّغير للكبير أمرٌ من أخصّ خصائص التّربية في الشرق عامة وفي مصر بخاصّة . ولسنا نشك في رواية « هردوت » ؛ بل ليس علينا إلّا أن ننظر في بعض ما ترك السلف من كتب التّربية لنرى تلك الحقيقة واضحة . انظر : (Pap. Prisse, S.4 ff. die Sprueche des Wesirs Ptahhotep)

(٢) انظر : (Mueller (Helmuth) Darstellungen von Gebaerden auf Denkmälern d. AR. (Mitt. d. deutsch. Inst. in Kairo Bd.7 S. 91 ff. .

(٣) *καλασιρις* : لباسٌ من الكتان .

انظر : (Spiegelberg, Z. Ae. S. 43 (1906) 39) .

(٤) نوع من المعاطف أشبه شيء بما يسمونه « البرُّنس » في بلاد المغرب .

(٥) سبق أن قدّمنا ما كان يجب على الكهّان من العناية بنظافة أبدانهم ، وكيف أن حرصهم على ذلك قد اقتضى ألا يلبس الكهّان غير ثياب من الكتان الأبيض الناصع البياض . انظر الحديث عن ذلك (في الفصل رقم ٣٧ من هذا الكتاب) . فلا عجب إذن في أن يُحرّم على المصريّين دخول المعابد بملابس غير كتّانية .

مع الطقوس التي تسمى «أورفيّة» (١) و «باخوسية» (٢) . وهي في الواقع طقوس مصرية (٣) ؛ وفيثاغورسيه (٤) ؛ إذ لا يباح لأحد ممن يشتركون في هذه النّحل أن يُذفنَ وعليه ملابس صوفية . ولذلك قصة دينية يروونها (٥).

٨٢ — ويُعزى اكتشاف هذه الأشياء الأخرى إلى المصريين أيضاً ، باسم أي إله يسمى كل شهر وكل يوم . لاحظ من يولد في يوم كذا وكذا ؟ كيف سيقضى أيامه . وما سيكون شأنه (٦) . ولقد استخدم

(١) أصلها في الإغريقية Orphika وفي اللاتينية Orphica ومعناها «الطقوس السرية لعبادة Orphéus» معبود «تراقيا» .

انظر : (Lamer, (Hans) Woerterbuch d. Antik. S. 537) .

(٢) Bakchai : «عابدات باكوس» . وكن يرتدين أردية طويلة وعليها

جلد غزال ، وشعورهن منحلة مسدلة . انظر : (Lamer, ibd. S. 76) .

(٣) انظر ما جاء عن ذلك في (الفصل رقم ٤٩) من هذا الكتاب .

(٤) ظاهر أن «هردوت» كان يرى أن الطقوس «الأورفيّة» التي أمماها

«الباكوسية» أو «الباخوسية» إنما جاءت من مصر ، وأن الإغريق كانوا يسمونها في عصره «الفيثاغورسيّة» ؛ لأنها بلغت بلادهم بين يدي «فيثاغورس» .

(٥) يعني بذلك قصة الشهيد «أزوريس» . وهو يتجسّد دائماً التحدث عنه

كما ذكر في الفصول (رقم ٤٨ و ٦٢ و ٦٥) من هذا الكتاب .

(٦) استخدم المصريون التشجيم في كشف طوابع الناس وتحديد حظوظهم

من الأيام التي ولدوا فيها . وقلدهم في ذلك الإغريق والرومان . وفعل

المسيحيّون مثل ذلك في عصورهم الوسطى ، ثم ظلّوا على ذلك حتى أيام القرن

السابع عشر للميلاد . ولقد كانت للمصريين في أيامهم عقائد ؛ فمنها ما يكون فيه

طالع السعد ، ومنها ما يكون فيه طالع النحس .

انظر : (Bakir, (Mohsen) Cairo Calender of lucky & unlucky) .

(Days, No. 86637) .

==

الشعراء^(١) من اليونانيين هذه المعلومات . ولقد اكتشف المصريون من علامات الغيب أكثر من الشعوب قاطبة ؛ وذلك لأنه كلما حدثت معجزة خارقة ، راقبوا نتيجهها وسجلوها . فإذا ما حدث شيء مشابه بعدئذ ، ظنوا أن عاقبته ستكون شبيهة بالأولى .

٨٣ — وهذا شأن العرافة عندهم : لا يُنسبُ هذا الفن إلى واحد من البشر ؛ ولكن إلى بعض الآلهة^(٢) . فعندهم وحي « لهيراكليس » و « أبوللون » وآثينا و « أرتيميس » و « آريس »^(٣) وزيوس . ووحى « ليتو » في مدينة « بوطو »^(٤) ، الذي يُجلونه أكثر مما (يُجلون) الجميع . ولكن طرق العرافة عندهم ليست واحدة ؛ بل مختلفة .

== حيث اهتم الدكتور عبد المحسن بكير الأستاذ بجامعة القاهرة بهذا الأثر وأعدّه للنشر ، وهو قرطاس يحوى كافة أيام السنة (٣٦٥) مع وصف طوالها السعيدة وغير السعيدة .

انظر أيضا^(١) Chabas, Le Calendrier des jours fastes et néfastes de l'année égyptienne Paris 1870.

وأخيراً Pierre Montet, Everyday life in Egypt, trans. p. 36 f.

(١) انظر : (Hesiode, Orphée) .

(٢) نلاحظ أن « هردوت » هنا يسمّى المعبودات المصرية بما خلع عليها هو أو قبيله من الإغريق — الذين يجهلون أسماء المعبودات المصرية — من أسماء إغريقية

(٣) انظر الفصل (رقم ٦٣) وما بعده من فصول .

(٤) انظر الفصل (رقم ١٥٥) .

(٥) يقصد بذلك الطريقة التى تتبع فى الاستيحاء والتى يُعلن بها الوحي .

انظر : (Erman, Relig. 23. 312. 337) .

ثم Ed. Meyer, Die Papyrusfunde von Eleph. (Leipzig. 1912)

. (S. 78 ff

٨٤ — وينقسم التطبيب عندهم^(١) إلى الفروع التالية : لكل مرض

(١) سجل التاريخ قديمه وحديثه لشعب مصر العظيم معرفة في الطب لم يسجلها لغيره من شعوب الدنيا ، ثم وضع بين أيدينا من شواهد تلك المعرفة ذخيرة غنية مترفة قوامها كتب^١ « ثمانية » . زعم كتّابها أنها صور^٢ من أصول قديمة . وعلى الرغم من هذه الكتب المتعددة ؛ نرى أننا نَظلمُ المصريّين أشد الظلم إن نحن اكتفينا بها في تصوير ما ينبغي لهم من معرفة في علم الطب ؛ ذلك لأن هذا العلم قد كان لديهم من الأسرار . ولسنا نشك مطلقاً في أنهم قد أخفوا من أسرارهم أضعاف ما أبدوا . وتلك حقيقة يشير إليها ويؤكدها « استرابون » حين يقول : إن علوم الطب كانت سرّاً من أسرار الكهنة المصريّين . ثم يدلّل على ذلك بأن بعض من طلبوا شيئاً من أسرار المصريّين في معارف الطب قد ظلوا يلزمون أبواب الكهان ثلاثة عشر عاماً

وإذا كان تراث المعارف الطبية عند آل فرعون قد جاء مشوّباً بتعاويد السحر والرقى ؛ فهو قد كان وما يزال كذلك عند كثير من شعوب الدنيا . وإنه ليسعدنا حقاً أن نقرر أن مهنة الطب عند أجدادنا من شعب هذا الوادي قد كانت تقتضى من أصحابها أن يعرفوا الفنّ الجميل ، وأن يعرفوا صناعة التحنيط ، وأن يكونوا من الكتّاب المجيدين ، والسحرة الماهرين ؛ كما كانوا يؤمنون بقداسة هذا العلم ؛ فهذا قرطاسى « إپرس » (Pap. Ebers) ، وهو واحد من تلك الكتب التى ذكرنا ، يزعم كاتبه ويؤكد ، أن علمه قد أورشى إليه من أرباب « صا الحجر » (سايس) وأرباب « أون » (عين شمس = هليوبوليس) ليخفف عن الناس آلامهم ، وليحفظهم من شرور العلل والأسقام .

انظر : (Schaefer, Z. Ae. S. XXXVII, P. 27) .

هذا ، وكان الملوك من آل فرعون يقرّون الأطباء ، ويجذلون لهم العطاء . انظر : (Quibell, Saqqara, 1905/6 - II. 4. 7. 22) . كما كان بعضهم يعرفون الطب ؛ وإلى بعضهم تُنسب أصول معرفته ومنهم الملك « أوديو » أحد ملوك الأسرة الأولى (٣٤٠٠ — ٣٢٠٠ ق.م.) ومنهم الملك « نفر إركارع » من ملوك الأسرة الخامسة .

طبيب متخصص فيه لا لآكثر . وبلادهم كلها خاصة بالأطباء ؛ بعضهم متخصص في العيون^(١) ، وبعضهم في الرأس ، وبعضهم في الأسنان ، وبعضهم

= انظر : (في موكب الشمس ج ١ ص ١٨١ وما بعدها) .

كذلك كانت أكثر العقاقير التي استخدمها أطباء الفراعنة تُوصف بأنها من عمل الأرباب ، وقد يذكرنا ذلك بما يفعل المحدثون من اتقياء الأطباء حين يبدأون عملهم « بسم الله » . وكذلك كان الأطباء المصريون من كهان المعبودة « زُخة » (ربة الفتك ، ومذبة العلل والأوبئة) . كما كان الأطباء الإغريق ينتسبون إلى معبود لهم يدعونه « أسكليبيوس » ، ويرمزون إليه بالثعبان الذي يحمل السم .

وبعد ، فقد كان من أشهر ما تميّناه « السكُتب الطبية » عند آل فرعون ذلك القرطاس الشهير الذي يعرف لدى العلماء باسم « Pap. Edwin Smith » (قرطاس « أدوين سميث ») في الجراحة . ولأنه لكتاب يعالج أجزاء الجسم الإنساني ، ويشخص ما يصيب أعضائه من علل ، ثم يتحدث عن الجراح وعلاجها ، وما لا يمكن علاجه منها . ونحب أن نشير آخر الأمر إلى أن أقوم ما يمكن أن يُقرأ عن ذلك القرطاس وقيمه في عالم الطب والجراحة ، ما كتبه طبيبنا المصري العالم المفكر والباحث المدقق الدكتور « محمد كامل حسين » في كتابه « متنوعات » (القاهرة ١٩٥١) . ثم بحثه الذي صدر بعد ذلك بعنوان

The EDWIN SMITH PAPYRUS, The OLDEST SURGICAL
TREATISE IN THE WORLD.

(١) إذا كان « هردوت » قد رأى ذلك في مصر ؛ فإن البحوث العالمية في الأعوام الأخيرة قد طلعت علينا بما يؤيد قوله لا في الأيام التي زار فيها مصر وحسب ؛ بل في أيام الدولة القديمة أيضاً ؛ فهي قد يئنت لنا تقدّم علوم الطب إلى حدٍّ يبعث على الدهشة ، ذلك لأن مصر قد عرّفت في ذلك الوقت البعيد من تاريخ الإنسانية أطباءً للأمراض الباطنية ، وآخرين للعيون ، وغيرهم للأسنان . كما عرفت طوائف منظمة من رجال الطب ، مثل « عميد الأطباء » . و « الطبيب الأول » و « عميد أطباء القصر » و « طبيب القصر الأول » ، و « طبيب الأسنان الأول للقصر » . انظر : (في موكب الشمس ج ١ ص ١٨٩) . =

في الأمعاء ، وبعضهم في الأمراض الخفية (١) .

٨٥ — وهذه أساليب الحداد والدفن عند المصريين ؛ إذا مات — في بيت من البيوت — رجل ذو قدر ، لطّخت كل نساء هذا البيت الرأس أو الوجه بالطين ، ثم يتركن الجثة في الدار ، ويحلن في المدينة لاطمات وقد شمّن ، وكشفن عن صدورهن (٢) ، ومعهن كل قريباتهن . والرجال كذلك = وأخيراً وليس آخراً ، لا نجد أدلّ على تقدّم المصريين في علوم الطب عامة وفي طب العيون بخاصة من أن يلجأ « قورش » ملك فارس — حينما أصيب بمرض في عينيه — إلى فرعون مصر « أمازيس » ؛ يلتمس منه إرسال أحد أطبائه المتخصصين ليقوم بعلاجه .

انظر : (الحديث عن ذلك في الفصل الأول من الكتاب الثالث لهردوت) .

(١) يقصد الأمراض الباطنة . انظر : (Kees, K. G. S. 306) .

(٢) إن لطم الخدود ، وشقّ الجيوب ، وتلطّيح الوجوه والثياب بالوجل أو صبغها بالألوان القاتمة كان وما يزال معروفاً كله أو بعضه في الشرق عامة ، وفي مصر بخاصة ، وظاهر أن تقاليد الندب ومظاهر الحزن في مصر قديماً وحديثاً إنما ترجع إلى أصل قديم ؛ نطالع آثاره في تلك الأسطورة الخالدة المعروفة التي تصور لنا مأساة إمام الشهداء عند آل فرعون « أزوريس » . وإذا كانت اختاء « إيزيس » و « نفتيس » في مقدمة المحزونين لمصرعه ؛ فقد رمز المصريون إليهما بمحدأتين نسواحتين ؛ تركع الأولى عند رأسه وتضع يديها عليه ، وترقع الأخرى عند قدميه وتضع يديها على صدرها . وتلك صورة مألوقة في مناظر الجنائز التي رسمها القوم في قبور موتاهم ومن حولها صور لطوائف من النساء باكيات معلولات صائحات ، وقد حللن شعورهن ، وشقّقن جيوبهن ، وأرسلن دموعهن . انظر : (Kees, K. G. S. 98) .

تلك صور ما زالت أمثالها حية في ريف بلادنا عامة وفي ريف الصعيد بخاصة . وإذا كان الإسلام قد قبّح ذلك ونهى عنه ، فإن الناس في مصر لم ينتهوا عن ذلك وما أظن أنهم منتهون عنه في سهولة ، بل ولا في وقت قصير . =

يلطمون ويشمرون ، وعندما ينتهى ذلك يحملون الجثة لتحنيطها (١) .

== حقيقة إن الإسلام قد نهى عن ذلك ، وحقيقة إن النبي صلوات الله عليه يقول « ليس منا من لطم الحدودَ وشقَّ الجيوبَ ودعا بدعوى الجاهلية » . ولكننا نسمع أن النبي عندما اشتد حزنه على شهيد أحد الأول عمه « حمزة » رضوان الله عليه ، وسمع نساء الأنصار يبكين من استشهيد من أهلن ، سُمِعَ يقول محزوناً : « ولكن حمزة لا بواكى له » . فخرج نساء الأنصار جميعاً يبكين « حمزة » . وإنا لنسمع أن ذلك قد أصبح من التقاليد المعروفة عند الأنصار وبعض القبائل العربية التي هاجرت إلى مصر ؛ حيث يبدأ النساء ندهن بذكر « حمزة » ، ثم يخلصن من ذلك إلى بكاء الميت من أهلن .

(١) الحنيط : عادة قديمة ، ابتدعها واشتهر بها قدماء المصريين ؛ مبعثها الاعتقاد أن الموت لم يكن عندهم نهاية كل حي ، وإنما كان نقلةً تفارق فيها الروح الجسد فترة ، ومن الممكن أن تعود إليه إذا ما استطاعوا حفظه سليماً بين المعالم . وفكرة المحافظة على الجسد من التلف ترجع عند المصريين إلى عصر بعيد جداً ؛ فهم قد كانوا يعمدون إلى الجسد فينزعون عنه ما يكسو العظام من لحم ، وما يتخلل ذلك من مواد رخوة تعمل على إذابة العظم . ولم يكن غريباً إذا أن يسموا القبر « مكان العظم » (Sethe, Die Totenliteratur d. alt. Aeg.) (Preuss. Akad Wissensch. Phil. Hist. Klasse 1931, XVIII) . فأما التحنيط الكيميائي فترجمه إلى عصور قديمة أيضاً ، وإننا لنجد آثار ذلك من زمان الأسرة الأولى . انظر : (JEA. 7. 31—7) .

ثم لا نلبث أن تبيِّننا بوضوح في زمان الأسرة الثانية .

انظر : (Lucas, Anc. Eg. Mat. & Ind. p. 230,) .

ثم (Petrie, R. T. II, 1.) . ولقد كان من الممكن أن يتوافر لدينا الكثير من آثار التحنيط رتيبة يتلو بعضها بعضاً ، لولا ما وقع على قبور الملوك والموسرين من عدوان ، وما أصابها من تخريب خلال الثورة الاجتماعية التي قامت أواخر أيام الدولة القديمة .

انظر : (في موكب الشمس ج ١ ص ٢٠٤ وما بعدها) .

٨٦ — ويقم هناك أناس مهنتهم التحنيط وبه يشتغلون^(١). عندما يؤتى إليهم بجثة ؛ يعرضون على من جاء بها نماذج لجثث مصنوعة من الخشب ، تشبه الحقيقة بنقشها ، ويقولون إن أجود أنواع التحنيط إتقاناً هو ما يرجع إلى من لا أستبيح ذكر اسمه في هذا المجال^(٢) . ثم يعرضون نماذج الطريقة الثانية وهي أقل من الأولى جودة وثمناً . والثالثة وهي أقلها نفقة . وبعد شرحهم هذا ، يستفهمون منهم عن الطريقة التي يريدون أن تعد لهم بها الجثة . وبعد أن يتفق أصحاب الجثة معهم على التكاليف^(٣) ، ينهبون عنهم ويتركونهم في محلاتهم . فيقوم المخطون بتحنيط الجثة على الوجه التالي ؛ وهذه أحسن الطرق : أولاً : بواسطة قطعة معقوفة من الحديد يخرجون المنخ من المنخارين ؛ يخرجون بعضه هكذا

= هذا ولقد أصبح التحنيط في مصر صناعة طبقت شهرتها الآفاق ، وصارت حديثاً يروى حتى يومنا هذا . انظر : (Ell. Smith, Eg. Mummies 1924) .
ثم (B. Grdseloff, D. Aegyptische Reinigungszeit (Le Caire)
(1941) .

(١) من الطبيعي أن يكون في مصر أناسٌ يحترفون التحنيط ، وقد كانت حرفة مُربحة من غير شك ، وكان الأبناء يتوارثونها عن الآباء ؛ شأنهم في ذلك شأن أبناء المحترفين من كل لون . انظر : (Diodor, I. 91, 2) .

(٢) يقصد « أزوريس » كما أوضحنا غير مرة في الفصول السابقة .

(٣) تلك حقيقة لا نعتمد العثور على ما يؤيدها في تراث المصريين من العصر الروماني .

انظر : (١) Pap.Bulaq III; Pap. Louvre 5158

(٢) Maspero, Mém. sur quelques pap. d. L. p. 14

(٣) Urk. d. Relig. d. Aeg. S. 297

والبعض الآخر بفضل عقاقير يَصْبُونُها (فى الرأس) ، وبعد ذلك يشقون الكشع بحجر أثيوبى مسنون^(١) . ويخرجون الأحشاء كلها التى ينظفونها ويغسلونها ببنيد التمر^(٢) ، ثم يطهرونها بالتوابل المجروشة . وبعدئذ يملأون الجوف بمر نقي مسحوق ، ودارصينى^(٣) وسائر أنواع الطيب ما عدا البخور ، ثم يخيطنونها ثانية . وبعد أن يفعلوا ذلك يملحون الجثة بتغطيتها بالنطرون^(٤)

(١) أكبر الظن أن ما يسميه « هردوت » هنا « بالحجر الأثيوبى » هو « الصوّان » . وقد كان من أوائل المواد التى اتخذ منها المصريون أسلحتهم منذ أقدم العصور . وفى تراثهم كثير من تلك الأسلحة . وطبيعى أن المصريين لم يكونوا بحاجة إلى الأسلحة الحجرية أيام « هردوت » ؛ ذلك لأنهم عرفوا المعدن قبل أيام « هردوت » بوقت طويل . فإذا صح ما يقوله « هردوت » من أنهم استعملوا « الصوّان » ؛ فأغلب الظن أن يكون سببه الحرص على التقاليد . وأن المحافظة على القديم قد دعتهم إلى استعمال « الصوّان » مع وجود المعادن التى تصلح لأن تصاغ منها أسلحة الجراحة .

(٢) يقصد بذلك الحمر المقطر من البلح وقد عرفه المصريون القدماء كما يعرفه خلفاؤهم اليوم . وكما كان يعرفه غيرهم مثل سكان أرض النهرين . انظر : (ما قاله « هردوت » عن ذلك الحمر فى كتابه الأول فصل ١٩٣) .

عُرف ذلك النوع من الحمر عند المصريين منذ أيام الدولة الوسطى ، وكان يستعمل دواءً . انظر : (Kees. K. G. S. 52) .

(٣) الاسم العلمى *Cinnamomum Zeylnicum* Nees

(٤) عرف المصريون قيمة « النطرون » ، فاستعملوه للتطهير ، وفطنوا إلى قيمته الكيميائية من حيث قدرته على امتصاص ما فى الجسم من مواد رخوة (Lucas, JEA 1. P. 119) . وكان محظوراً على الكاهن أن يدخل على تمثال المعبود قبل أن يُطهرَ فيه بالنطرون ، كما كان يفعل مثل ذلك كل من دخل على الملك ليتحدث إليه . انظر : (Kees, K. G. S. 87 ff.) .

سبعين يوماً^(١) ، ولا يجوز أن تستغرق عملية التلميح وقتاً أطول من هذا ، وفي نهاية الأيام السبعين ، يغسلون الجثة ويلفون الجسم كله بشرائط من الكتان الشفاف^(٢) ، مغطاة بالصمغ الذي يستعمله المصريون غالباً بدلاً من الغراء . وعندئذ يتسلم الجثة أصحابها ، ويعملون لها هيكلًا خشبياً على شكل إنسان ، ويضعونها فيه . وبعد إغلاقه عليها ، يحفظونها بعناية في غرفة الدفن

(١) إن مدة الأيام السبعين هي مدة الحزن على الميت من يوم الوفاة حتى يوم الدفن . ونحن نعرف ذلك منذ زمان الأسرة الثامنة عشرة .

انظر : (Knauers Lex. d. Aeg. Kult. S. 54 ff) .

فأما جعل فترة الحزن — وهي تشمل التحنيط — سبعين يوماً ، فأمر ينبغى أن يُسأل عنه المصريون أنفسهم . كما ينبغى أن يُسأل آباؤنا الأقربون ، مثلاً لم كانوا يحزنون على موتهم أربعين يوماً ؟ بل ينبغى أن يسأل المصريون القدماء أيضاً ، لم تمنّوا أن يعيشوا عشرة ومئة عام . إن أقصى ما وصل إليه تخمين العلماء بشأن ذلك التحديد هو ربطه بفترة اختفاء « نجم الشعرى » من سماء مصر ، وهي فترة تبلغ سبعين يوماً ، يعود النجم بعدها إلى الظهور . ومعنى ذلك أن المصريين كانوا يتمنون للميت أن يعود إلى الحياة بعد سبعين يوماً . انظر : (Knauers ibid. S. 54 ff) .

ونحن نذكر آخر الأمر ما يروى في « التوراة » من أن « يوسف » أمر الأطباء أن يُحنّطوا أباه « إسرائيل » (يعقوب) ، « حنّط الأطباء » إسرائيل » وكمّل له أربعين يوماً ، لأنه هكذا تكمل أيام الحنّطين ، وبكى عليه المصريون سبعين يوماً . (سفر التكوين ، الأصحاح ٥٠ و ١٠ و ٢ و ٣ و ٤) . ومن ذلك نرى أن مدة الأيام السبعين هي مدة الحزن من يوم الوفاة إلى يوم الدفن .

(٢) الكتان الشفاف Byssus : ورد اللفظ في اللسان الإغريقي Byssus

وفي اللسان العبري בִּשְׁשׁ وفي اللغة الآشورية būsu . ويحتمل أن يكون أصله مصري قديم وإن كان ذلك الاحتمال بعيداً وتحقيقه غير ميسور . وقد يكون هو « البز » في اللغة العربية . وهو ماورد في سفر الخروج باسم « بوس » . انظر : (سفر الخروج الأصحاح ٢٥ و ٤) .

وَيَقِيمُونَهَا مَسْنَدَةً إِلَى حَائِطٍ (١) .

٨٧ — هَكَذَا يُعَدُّ الْمُحْنَطُونَ الْجِثَّ بِأَبْهَظِ الْوَسَائِلِ نَفَقَاتٍ . وَلَكِنَّهُمْ يُجَهِّزُونَهَا عَلَى النُّحُو التَّالِي لِمَنْ يَرْغَبُونَ فِي الطَّرِيقَةِ الْوَسْطَى وَيَتَجَنَّبُونَ النَفَقَاتِ الْبَاهِظَةَ : يَمْلَأُونَ الْحَقْنَ بِزَيْتِ الصُّنُوبَرِ ، ثُمَّ يَمْلَأُونَ بِهِ جُوفَ الْجِثَّةِ دُونَ أَنْ يَشْجُوَهَا ، وَدُونَ أَنْ يَسْتَخْرِجُوا الْأَحْشَاءَ . وَلَكِنَّهُمْ يَضَعُونَ الزَّيْتَ مِنَ الشَّرْحِ ، وَيَسِدُونَهُ لِكَيْلَا يَنْسَابَ مِنْهُ الزَّيْتُ بَعْدَئِذٍ . وَيَمْلَحُونَ الْجِثَّةَ أَيَّامًا عَدَّتْهَا [سَبْعُونَ يَوْمًا] . وَفِي نَهَائِثِهَا يَخْرُجُونَ مِنَ الْجُوفِ الزَّيْتَ الَّذِي كَانُوا قَدْ أَدْخَلُوهُ مِنْ قَبْلُ . وَقُوَّةُ هَذَا الزَّيْتُ عَظِيمَةٌ ، حَتَّى أَنَّهُ يَجْرِفُ مَعَهُ الْأَحْشَاءَ وَالْمَصَارِينَ الَّتِي تَكُونُ قَدْ تَحَلَّتْ . أَمَّا اللَّحْمُ فَيُذَيِّبُهُ النَّظَرُونَ وَبِذَلِكَ لَا يَبْقَى مِنَ الْجِثَّةِ إِلَّا الْجِلْدُ وَالْعِظَامُ فَقَطْ . وَبَعْدَ أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ يَرُدُّونَ الْجِثَّةَ إِلَى أَهْلِهَا دُونَ عَنَاءٍ أُخْرَى بَعْدَئِذٍ .

٨٨ — وَهَذِهِ هِيَ طَرِيقَةُ التَّحْنِيطِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي تَسْتَعْمَلُ لِإِعْدَادِ جِثَّ مِنْ هُمْ أَقْلُ ثَرَاءٍ . يَغْسِلُونَ الْجُوفَ بِمَاءِ الْفَجْلِ (٢) . وَتَتْرَكَ الْجِثَّةُ فِي الْمَلْحِ سَبْعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ تَرُدُّ لِأَصْحَابِهَا لِيَنْهَبُوا بِهَا .

(١) لَا نَفْظَنَ أَنَّ تَوَاتُيْتَ الْمَوْتَى كَانَتْ تَقَامُ فِي حِجَرَاتِ الدَّفْنِ مَسْنَدَةً إِلَى حَائِطٍ إِلَّا إِذَا تَعَدَّدَتْ وَضَاقَ بِهَا الْمَكَانُ .

(٢) الْفَجْلُ (*συρματ*) . لَا نَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الْمَادَّةُ قَدْ كَانَتْ تَسْتَعْمَلُ فِي التَّحْنِيطِ ، وَلَا نَعْرِفُ عَلَى وَجْهِ التَّحْقِيقِ أَنَّ الْمَصْرِيِّينَ الْقَدِيمَاءَ قَدْ عَرَفُوا الْفَجْلَ الَّذِي نَعْرِفُهُ فِي بِلَادِنَا الْيَوْمَ ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَسْتَطِيعُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ تَسْكَذِيبَ « هَرْدُوت » ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ اسْمَ الْفَجْلِ قَدْ وَرَدَ مِمَّنْ مَا كَانَ يَقْدَمُ فِي الْوُجِيَّاتِ الْخَاصَّةِ بِعِمَالِ الْبَنَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي هَرَمِ « خَوْفُو » (فَصْل ١٢٥ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ) . وَيَعْرِفُ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْفَجْلِ فِي اللَّاتِينِيَّةِ — أَغَابَ الظَّنُّ — بِاسْمِ *Raphanus* ، وَفِي الْفَرَنْسِيَّةِ *raifort* ، وَفِي الْإِنْجَلِيزِيَّةِ *horse radish* ، وَفِي الْأَلْمَانِيَّةِ *Meerrettich* أَيْ « الْفَجْلُ الْبَحْرِيُّ » وَهُمْ يَقْصِدُونَ بِذَلِكَ « الْفَجْلُ الْبَرِّي » .

٨٩ — إن زوجات العظماء ، والنساء الفاضلات الحسن ، والذائعات الصيت ، لا يسمأن مباشرة بعد موتهن للتحنيط . ولكن بعد انقضاء ثلاثة أيام أو أربعة على موتهن . تعطى عندئذ جثتهن للمحنطين ، وذلك حتى لا يجامع المحنطون أولئك النسوة . إذ يُحكى إن أحدهم قد قبضَ عليه وهو يواقع جثة امرأة ماتت حديثاً ، حين وشى به أحد زملائه (١) .

(١) لا نعرف مطلقاً أن المصريين القدماء قد انحرفوا إلى هذا الحد الذي انحطوا عنده إلى نكاح الموتى . ومع ذلك فإن دنيا الناس لم تخل من مرضى النفوس الذين يمكن أن يفعلوا مثل ذلك في كل زمان ومكان . والأمر ليس مستحيلاً ؛ ذلك لأن في الإنسان نوازع إذا سيطرت عليه استحالة إلى وحش منكر ؛ لا نكاد نجد في طبيعته هزة من عاطفة ، أو فضلة من وقار ، أو طيفا من مروءة وحياء ؛ بل لا نكاد نجد في نفسه معنى واحداً من معاني الإنسانية . حقيقة إن فكرة نكاح الموتى أو مجرد تصورها شيء بشع ، إلا أنها غير مستحيلة ؛ فكثيراً ما سمعنا بقصص السفّاحين الذين كانوا يقتلون الصغار من الجنسيتين ، ثم يفعلون بهم تلك الفعلة النكراء . وتاريخ البشر ملئ بالمآسى الخلقية والأمراض النفسية التي تعيد الحياة تمثيلها وسيرتها في كل زمان ومكان . وإما لنذكر قصة سمعناها في الريف أواخر أيام الصبا ، وأوائل أيام الشباب ، يسمونها قصة الشيخ « أبي نبوت » . وكان الشيخ أول الأمر سفّاحاً ؛ قيل إنه قَتَلَ بنبوته مائة رجل ، وكان كلما قتل واحداً آوى إلى الجبانة ليمتّع النفس بمرأى فريسته وهي تُوارى التراب . وبينما هو ساهر في الجبانة في إحدى لياليه ، رأى رجلاً ينبش قبر عذراء كانت قد دُفِنَتْ ظهر النهار ، ثم يخرجها فيجمل أكفانها ليَقْضَى منها وطره ؛ فنارث نفس الشيخ ، واستيقظ ضميره ؛ فأمسك بالجاني وسأله ما بال المرأة التي شق قبرها ، فعلم منه أنها عذراء ، وأنه هام بها وطلب يدها فاباها عليه أهلها ، فلما مات أراد أن يقضى منها وطره . فقال الشيخ إذا كنت لم تدركها بين يدي أبيها أفتريد أن تدركها وهي بين يدي الله ، والله لاقتلنك ، ثم هوى عليه بنبوته فقتله ، ثم دعا الله أن يغفر له ما جنت يده ، أن يجازيه بفعلة تلك مغفرة ورضواناً ، وخطر له أن يفرس « نبوته » =

٩٠ — إذا اختطف تَمَسَّاحُ أحد المصريين أو الأجنبي ، على حد سواء ، أو جرفه النهر نفسه ثم طفت جثته ، تحتم قطعاً على سكان المدينة التي وصلت عندها الجثة ، أن يُحْنَطُوها ، وأن يعنوا بها كل العناية ، ويدفنها في مقبرة مقدسة (١) . ولا يسمح لشخص ما أن يلمس الميت ؛ لا من أقاربه ولا من أصدقائه . ولكن ذلك يباح لكهنة النيل أنفسهم (٢) ؛ فهم الذين يدفنون الجثة بأيديهم إذ تعد هذه شيئاً أعظم من جثة فرد (عادي) (٣) .

٩١ — والمصريون يتجنبون اتخاذ العادات اليونانية ، وجملة القول إنهم يتجنبون عادات الناس جميعاً دون استثناء . وهكذا يراعى سائر المصريين

== فوق قبر القتيل ؛ فإن أدركه الصبح واخضرَّ نبوته فأصبح شجرة ، كانت هذه آية من الله بالمغفرة ، فأصبح الصبح واخضرَّ النبوت وأضحى شجرة ، وجلس الرجل من تحتها يتقيأ ظلّها وظل يعبد الله ويستغفره حتى مات فد فن في ظلها .

ولا يفوتنا آخر الأمر أن نذكر أن حياة المخطئين — كحياة من يغسلون الموتى في أيامنا — كانت حياة منفرة تنقرّف منها النفس ؛ يضاف إلى ذلك أن انزعاجهم في معامل النحيط على حدود الصحراء قد كان يبعدهم عن رؤية من يهرون من النساء . وليس يبعد بعد ذلك أن يوجد منهم من يقدم على تلك الفعلة التكرار .

(١) انظر : (Erman, Relig. Kap. 19;5) ثم (Kees, K. G. S. 13) .

(٢) الغالب أن المقصود بكاهن النيل هو كاهن « أزوريس » الذي عدّوه إماماً للشهداء وربطوا بينه وبين النيل كما تشير الأسطورة الخالدة (أسطورة لميزيس وأزوريس) .

(٣) « من مات غريقاً مات شهيداً » . كان الموت بالفرق أو الإغراق يُكَنَسِبُ صاحبه قداسة ، ويكتب له الشهادة في العصور المتأخرة على الأقل .

انظر : (132 (1909) Z. Ae. S.46 Griffith, Z. Ae. S.46) ثم (Kees, in: Studies presented to Griffith, Oxford 1932. p. 402 ff.

هذا العرف (١) . إلا أنه في مقاطعة طيبة بالقرب من مدينة « نياپوليس » (٢) ،

(١) ليس من شك في أن المصريين من آل فرعون قد كانوا من أكثر شعوب العالم اعتزازاً بماضيهم ومحافظة على تقاليدهم ؛ يرون ذلك من قواعد الإيمان . وليس من شك كذلك في أن الإغريق قد أخذوا عنهم كثيراً ، ولما يأخذ الإغريق عنهم حتى ذلك الوقت كثيراً ولا قليلاً . ولم يكن « هردوت » وحده هو الذي اعترف بفضل المصريين وسبقهم في سائر الفنون والمعارف الإنسانية ؛ بل فعل غيره من بنى قومه ومنهم « پلاتون » Platon . وليس يفوتنا أن ما حصله « هردوت » من علوم المصريين ومعارفهم ؛ بل وطاداتهم أيضاً ، قد كان ضئيلاً ضحلاً ؛ ذلك لأن رواته لم يعدوا طوائف الأدلاء من بنى قومه ، والبسطاء من كهّان مصر . يضاف إلى ذلك أن المصريين في زمان « هردوت » ، قد كانوا غارقين في المحنة السياسية والاجتماعية إلى آذانهم ، وكان من حقهم أن يضيعوا بالأجانب عامّة ، والإغريق منهم بخاصة ؛ إذ كان من هؤلاء المرتزقون في جيش البلاد ، وأصحاب الأمر والنهى في بلاط الحاكم ، كما كان منهم حراس بدنه . لقد كانت حال المصريين يومئذ أشبه شيء بحال أبنائهم في القرن الماضى وبخاصة أيام « إسماعيل » وابنه « محمد توفيق » ؛ فالحاكم فى بلادهم لم يكن مصرياً ، وإنما كان ينحدر من سلالة ليبية ، وبلاطه كما ذكرنا يموج بالغرباء ، والمقدمون من عسكريه وأمراء جيشه كانوا من الغرباء . فلا عجب إذاً أن يضيق المصريون بالغرباء ، وأن يكون أشدهم ضيقاً تلك الطبقة المستتيرة من أهل العلم والمعرفة ؛ وهم يومئذ من رجال الدين . ولم يكن هؤلاء يملكون لأنفسهم ولا لشعبهم من الأمر غير التذكير بالماضى ؛ يفاخرون به كل غريب ، ويوقظون به وعى الشباب ، ويلتمسون لأنفسهم فيما كانوا يفعلون بعض العزاء .

انظر : (Kees, Art. Sesostrie, RE, Sp. 1861) .

(٢) NEAPOLIS أى « المدينة الجديدة » . وليس يبعد أن يكون مكانها الآن قرية « المنشيّة » قرب « أخميم » . والمنشيّة قائمة فى الغالب على أنقاض مدينة بناها « بطليموس الأول » ، وأسمها باسمه وكانت من قبل أيامه منشأة حديثة . انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ ص ٣٢٦) .

توجد مدينة عظيمة تسمى « خيس » (١) ؛ بها معبد مربع لبرسيوس ابن داناي ، ينمو حوله النخيل ، بَوَابَتُهُ من الحجر ، وهي ضخمة جداً يقوم فوقها تمثالان عظيمان من الحجر ، وفي نطاق هذه الساحة يوجد محراب يقوم به تمثال لبرسيوس . ويروى أهل « خيس » أن « برسيوس » كثيراً ما يتجلى لهم في الأقاليم ، وكثيراً ما يظهر داخل المعبد . وغالباً ما يجدون النعل الذي ينتعله وطوله ذراعان (٢) ، وعند ظهوره تزدهر مصر كلها (٣) . وفيما يلي ما يفعلون

(١) CHEMMIS : تصحيف للاسم المصري القديم « خم — مين » مقصورة المعبود « مين » ، ثم قلبت النون ميما فأصبح الاسم « خميم » . ثم وضع العرب في أوله همزة فأصبح « أخميم » . علم على البلد المعروف بهذا الاسم في صعيد الوادي . ويقع على الشاطئ الشرقي للنيل بين قرية « كوم اشقاو » وقرية « المنشيّة » مركز طهطا .

(٢) شبيه بذلك ما قيل عن « هرقل » وأثر قدمه في أرض السكيتيين (Scythen) . انظر : (هردوت ج ٤ الفصل رقم ٨٢) ، أو ما يحكى عن أثر قدمي « بوذا » في الهند ، أو ما كان يحكى في مصر من القصص الشعبي عن « أثر النبي » في مصر العتيقة (جنوبي القاهرة) . أو قدمي آدم أبي البشر في صخور سيلان . الخ .

(٣) ذلك تخليط من « هردوت » وعذره في ذلك واضح ؛ فثقافته إغريقية ، ورواته كما أسلفنا قد كانوا من التراجمة ، سواء منهم من كان إغريقياً لا يفهم من الحياة المصرية إلاّ أمانى ، أو من كان مصرياً لا يفهم من ثقافة الإغريق غير القليل التافه ، فالصورة التي رسمها هردوت لن تعدو ذلك النسيج المتخلط من ثقافة الإغريق وعقيدة المصريين التي لم يقو يومئذ على هضمها . ومن هنا جاءت الصورة مرقّعة مشوّهة . وأكبر الظن أن « برسيوس » ذلك البطل الإغريقي الأسطوري لم يكن في تخليط هردوت — الذي حاول أن يجعل منه إلهاً للشمس — غير صورة لمعبود المصريين « مين » رمز الحصب الذي صورّه المصريون في صورة عملاق من بني آدم ، ممسكا يمينه عضو التذكير منتشراً ، ليعبروا بذلك عن =

— على الطريقة اليونانية — تكريماً له . يقيمون مباريات رياضية تشمل جميع ضروب المسابقات ، ويقدمون جوائز من الأغنام والأردية والجلود (١) . ولما سألتهم لماذا تعود « پرسوس » أن يتجلى لهم وحدهم ، ولماذا يقيمون المباريات الرياضية ، مخالفين بذلك سائر المصريين ، ردوا على بأن « پرسوس » أصله من مدينتهم ، وأن « دناؤس » (٢) و « لينكيوس » (٣) اللذين أبحرا إلى بلاد اليونان كانا من أهل « خيس » . وذكروا الأنساب التي تبدأ بهما وتنتهى پرسوس (٤) . ويقولون إن الأخير لما جاء مصر لعين السبب الذي

= قوة الحُصْب الكامنة في صورته وقديماً عُرِفَتْ كعبة عبادته «خيم» (أخيم) — انظر : (هامش ٣ من هذا الفصل) — بِحُصْبِ بُرْتِهَا ، وكان أذكي نباتها « الخس » الذي أثبتت البحوث العلمية أن في زيته ما يزيد في القوة الجنسية . انظر : (Kees, K. G. S. 32.) . والعجيب أن بعض أهل الصعيد من حول « أخيم » ما يزالون يذكرون ذلك الحُصْب في أغانيهم التي يرددونها مستعينين بها على العمل ومن ذلك : « هات لي عنب وتين من جناب خيم » . (١) الواقع أن آل فرعون عرفوا رياضة البدن . وكانت لهم ألعاب مختلفة يمارسونها على الدوام ، كما كان يفعل أبناء القرى في العصر الحديث قبل أعوام . إلا أنها لم تكن قاصرة على عيد بعينه ، ولا على الأعياد وحسب . فأما أمر الجوائز فواضح أنه كان معروفاً في المسابقات الرياضية التي تجري بمناسبة الأعياد في بلاد الإغريق .

(٢) DANAUS : انظر فصل ٩٨ ، ١٧١ من هذا الكتاب .

(٣) LYNCIUS : هو زوج HYPERMNESTRA الذي رعاها الـ DANAIDEN وبقي على قيد الحياة .

(٤) ظاهر من هذه الخرافة أن قيمة « پرسوس » هنا قيمة روح شمسية وظاهر أن « هردوت » قد جمع بقصة الحية « أبو قيس » التي كانت تعترض موكب الشمس في خيال المصريين ، فينتهى الأمر بانتصار الشمس وقطع رأس الحية .

يقول به اليونانيون ؛ أى لإحضار رأس «جورجو»^(١) من ليبيا — ذهب عندهم بالذات — وتعرّف على كل أقاربه ، وإنه قبل وصوله إلى مصر كان يعرف اسم «خميس» الذى تعلمه عن أمه ، وإنه قد أمرهم بأقامة المباريات الرياضية من أجله .

٩٢ — ويراعى المصريون الذين يعيشون فيما وراء المستنقعات^(٢) كل هذه العادات ، والقاطنون فى المستنقعات يتبعون هذه العادات بعينها التى يراها سائر المصريين من حيث أن يعيش كل منهم — مثل اليونانيين — مع زوجة واحدة^(٣) . ولكنهم ؛ توفيراً للحبوب ، ابتكروا طرقاً أخرى ؛ عندما يمتلئ النهر وتصبح السهول بحاراً ينمو فى الماء السوسن بكيات وفيرة .

(١) «جورجو أو ميدوزا» تقول الأسطورة إنها كانت على درجة رائعة فى الجمال ، أساءت إلى المعبودة «آثينا» التى ثارت عليها ، فحوّلت شعرها إلى حيّات مفزعة ، ووضعت فى عينها قوةً خارقةً لتحيل كل من تنظر إليه إلى حجر ، ولقد نجح «پرسىوس» فى قطع رأسها ممّ حملها معه فى كل أسفاره لى يتغلب على أعدائه ، ويحولهم إلى أحجار .

(٢) أعلى المستنقعات : يقصد بذلك أرض الدلتا وبخاصة ما وقع منها بين «الفرع السنودى» و «الفرع البوليبيى» .

انظر : (Diodor, I 80, 3) ثم (Kees, K. G. SS. 19, 52, 60) .

(٣) من ذلك نرى أن المصريين كالإغريق كانوا يكتفون بالزواج بواحدة . انظر : (Kees, K. G. S. 63) . فاما التعدد أو ما يسمونه «الحریم»

فقد عُرف فى بلاط فرعون . وربما عُرف كذلك عند بعض المقتدرين من أهل اليسار . وأما الحریم الذى تعود الكتاب الغربيون أن يرموا به الشعوب الشرقية عامة والمسلمين بخاصة ، فقد كان معروفاً فى بلادهم أيضاً . ويكفى أن نذكر على سبيل المثال «أغسطس» ملك بولندا وسكسونيا وحریمه الضخم . ويكفى أن نذكر أن تعدد الزوجات عند الشرقيين قد كان شرعياً ، على حين كان يمارسه الأوربيون فى السر . انظر : (غوستاف لوبون ، حضارة العرب : ترجمة عادل زعيتر الطبعة الثالثة ص ٣٩٨) .

ويسميه المصريون البشنين (لوتس) (١). فيجمعون هذا النبات ويجففونه في الشمس ويأخذون ما في وسط البشنين من حب . وهو يشبه الخشخاش . ويطحنونه ويصنعون منه أرغفة يخبزونها على النار . وجذر البشنين يمكن أكله أيضاً ، وهو حلو لذيق إلى حد ما ، مستدير الشكل ، في حجم التفاحة (٢) . وهناك أنواع أخرى من السوسن تشبه الورد ، تنبت في النهر مثل البشنين وتتكون ثمرتها من كأس تنفرع عن الساق ، وهي في الشكل مثل خلية الزنابير . وتحتوي هذه الكأس على حبوب كثيرة صالحة للأكل ، وهي في حجم نوى الزيتون . تؤكل طازجة وجافة . أما البردى (٣) الذي ينبت

(١) لم يكن ذلك النبات قاصراً على الدلتا وحسب ، بل عرف في أمواه مصر العليا وكان رمزاً لها . كما كان يسميه المصريون « سشن » وهي كلمة ليست بعيدة في لفظها ومعناها عن « السّوسن » . انظر : (Wb, III. S. 485) . وقد كانوا يعصرون منه الزيت . انظر : (Kees, K. G. S 52) . عرف المصريون منه لوتين : الأبيض وهو المسمى NYMPHAEA LOTUS والأزرق وهو ما يسمى : NYMPHAEA CAERULEA .

(٢) أكبر الظن أن هذا النوع لم يكن معروفاً في مصر قبل العصور المتأخرة وهو النوع المعروف باسم NYMPHAEA NELUMBO . انظر : (Posener, Dict. of Eg. Civil. P. 152) .

(٣) يسميه « هردوت » BYBLOS . وأكبر الظن أنه سُمّي بذلك الاسم وعُرفَ به في الغرب عامة وفي بلاد اليونان بخاصة لأنه صُدِّرَ إليها من ميناء « بيلوس » (جبيل) على الساحل الفينيقي . وكانت للمصريين هذا الساحل صلات قديمة ، منها الديني ومنها المدني . ولن يبدو غريباً إذا كان « الكتاب » (BIBEL) « وخزانة الكتب » (BIBLIOTHEK) عند الغربيين قد اشتقا من هذا الاسم . كذلك عُرف البردى عند القدماء من أهل أوربا باسم CYPRUS PAPYRUS ذلك لأنه كان يصل أول الأمر إلى =

سنويا ؛ فعندما يقتلعونه من المستنقعات ، يقطعون الجزء الأعلى منه ويفيدون منه في أمور عدة (١) أو يبيعونه . والجزء الأسفل الذى يتبقى وطوله ذراع تقريبا يأكلونه أو يبيعونه . أما المولعون جداً به فيأكلونه بعد طبخه في فرن محى ويعيش بعض المصريين على الأسماك وحدها (٢) . فعندما يصيدونها ويخرجون أحشائها ، يجففونها في الشمس ثم يأكلونها بعد تجفيفها .

٩٣ — إن الأسماك التى تعيش في أسراب لا تعيش بكثرة في الأنهار ، ولكنها تكبر وتترعرع في المستنقعات على النحو التالى : عندما تتملكها

= «قبرص» ، ثم يرسل منها بالتالى إلى بلاد اليونان . وكان وصوله إلى «قبرص» بين أيدي الفينيقيين الذين لم تعد أساطيلهم في شرق البحر الأبيض «قبرص» و «رودس» و «كريت» . هذا وقد انتقلت زراعة البردى والتجارة فيه إلى قبرص وفلسطين في العصور المتأخرة .

انظر : (Posener, Dict. of. Eg. Civil. P. 205) .

(١) كان للبردى في حياة المصريين وحضارتهم أثر خطير ، فهم قد بنوا من سوقه أول مساكنهم ، ثم حاكوا مظاهر عمارتها في مبانيهم عندما عرفوا البناء بالحجر ، كما اتخذوا منه أول فراشهم : انظر : (Kees, K. G. S. 75) ، ثم طعاماً يستخلصونه من جذوره ويطبخونه . انظر : (Posener, Dict. of. Eg. Civil. P. 206) ، كما اتخذوا منه أكفانهم الأولى . ثم بنوا من أعواده مراكبهم الخفيفة ، وبخاصة زوارق الصيد . انظر : (Kees, K. G. SS. 26, 110) يلتمسون فيها السلامة من عدوان التماسيح زاعمين أن «إيزيس» قد حملت أشلاء زوجها الشهيد على زورق من البردى . انظر : (Kees, K. G. S. 110) . ثم كانوا يصنعون منه النعال ، ويجدلون منه الحبال ، كما كان في مقدمة صادراتهم الوفيرة . انظر : (Kees, K. G. S. 118) . ولا يفوتنا أخيراً أن الدنيا أودعت هذا النبات خلاصة الفكر البشرى من علم وأدب ومعرفة . وذلك فيما صنعوا منه من قراطيس أيام العالم القديم .

شهوة التلقيح الجامحة — تسبح إلى البحر على هيئة أسراب . فتأخذ الذكور القيادة وتنثر اللقاح ، فتلتهمه الإناث التي تتبعها وتحبل منه . وعندما تحمل في البحر ، تعود إلى النهر ؛ كل واحدة إلى مكانها المعتاد ، ولكن القيادة لم تعد بعد للذكور ؛ بل إن الإناث هي التي تكون في المقدمة . وهي إذ تأخذ القيادة تفعل ما كان يفعله الذكور تماماً . فتلشر بيضها — وهو في حجم حبات الأذرة — قليلاً قليلاً فتبلعها الذكور التي تسبح خلفها . وهذه الحبات هي السمك . إذ من الحبات التي تبقى ولا تبتلع تولد الأسماك التي تكبر . وإن صيدت بعض هذه الأسماك عند ذهابها إلى البحر ، يلاحظ أن الجانب الأيسر من رأسها قد تهشم . ولكن عند رجوعها إلى النهر يشاهد أن الجانب الأيمن هو الذي قد تهشم . وهي تعاني هذا الأذى للسبب الآتي : عند ذهابها إلى البحر تلزم الجانب الأيسر من الشاطئ . وعند عودتها ثانية تتبع نفس الجانب ، وتقرب منه وتحسك بقدر الإمكان حتى لا تفضل طريقها بسبب التيار ، وعندما يبدأ النيل في الفيضان ؛ تأخذ الحفر التي في الأرض والبرك التي بجانب النهر في الامتلاء — قبل غيرها — بالماء الذي يتسرب إليها من النهر . وبمجرد امتلائها بالماء تغص بالأسماك الصغيرة سريعاً . وأحسبني أفهم ، لم كان من الطبيعي أن تتوالد هذه الأسماك . فعندما انخفض النيل في العام السابق ، رجعت الأسماك مع آخر ما انحسر من الماء بعد أن وضعت بيضها في الطين . فإذا ما انقضى الوقت ورجع الماء من جديد خرجت هذه الأسماك على الفور من هذا البيض . ذلك شأن الأسماك .

٩٤ — والمصريون الذين يعيشون حول المستنقعات^(١) ، يستخدمون

(١) انظر : (الفصل رقم ٩٢ هامش رقم ١) .

زيتا يستخرجونه من ثمار الخروع ، ويسمونه « كيكي » (١) . وهم يصنعونه بهذه الطريقة : يبدرون هذا الخروع على شواطئ الأنهار وحافات البحيرات (في بلاد اليونان ينمو من الخروع نوع يرى من تلقاء نفسه) . والنوع الذى يندر في مصر يحمل ثماراً كثيرة ، ولكنها كريهة الرائحة . وعند جمعها يكسرها البعض ويعصرونها والبعض الآخر يحمصونها ويغلوونها ويجمعون ما يتقطر منها . وهذا السائل لزج ، لا تقل صلاحيته عن زيت الزيتون للمصباح ولكن تنبعث منه رائحة كريهة .

٩٥ — ولقد دبر المصريون هذه الحيلة (وقاية) ضد البعوض الذى يوجد عندهم بكثرة (٢) : فالذين يسكنون شمال المستنقعات (٣) ، يفيدون من أبراجهم التى يصعدون إليها وينامون بها . لأن البعوض لا يمكنه أن يطير إلى هذا

(١) KIKI : عرف المصريون القدماء كثيراً من الزيوت النباتية ، منها ما استعمل في الغذاء ، ومنها استعمل في أغراض صحية . ومن بينها زيت الخروع الذى كثر في أيام الدولة الحديثة . وليس من الثابت أنهم أسموه « كاكا » كما جاء في قاموس برلين .

انظر : (Wb. Bd. V, S. 109)

ثم انظر : (Kees, K. G. S. 33.) ، وما يزيد أن تنكر ما قاله « هردوت » من أن المصريين قد استعملوه لتنظيف أمعائهم وتطهيرها كما نستعمله اليوم . والواقع أننا لا نعرف على وجه التحقيق كيف ممي المصريون الخروع ، ذلك لأن قاموس برلين قد ذكره باسمين مختلفين في غير تأكيد وإن كنا نرجح أن ثاني الاعمين « dgm » هو الأصح . انظر : (Wb. Bd. Vs. 500) .

(٢) من الطبيعى أن يكثر البعوض حيث توجد مجارى الماء عامة وتنتشر المستنقعات بخاصة .

(٣) الغالب أن هردوت يقصد من يعيشون جنوبى الدلتا أى جنوبى « ممفيس » .

العلو تحت ضغط الرياح (١). أما الذين يعيشون حول المستنقعات فقد فكروا في وسيلة أخرى تحل محل الأبراج ؛ كل فرد منهم عنده شبكة يصيد بها السمك أثناء النهار ويستخدمها أثناء الليل كما يلي : يضرب الشبكة حول السرير الذى يستريح عليه ثم يتسلل داخلها وينام تحتها (٢). وإذا ما نام أحدهم ملفوفاً في رداء أو ملاءة من الكتان لسعه البعوض من خلالها بينما لا يحاول البعوض ذلك مطلقاً من خلال الشبكة.

٩٦ — ويصنع المصريون السفن التى تحمل البضائع من شجر السنط (٣).

(١) ربما يقصد بالأبراج هنا أعلى المنازل ، وهى تلك الأسطح المكشوفة يتخللها الهواء ولا يستقر فيها البعوض . والمصريون فى القرى يحيطون أسطح الدور بما يشبه الأبراج ، يحفظون فيها الغلال والوقود ، وينامون فيها فى ليالى الصيف ، وأحسن أمثلة لذلك ما نراه فى منطقة « القرنة » غربى « طيبة » .

(٢) لا غرابة فى أن يستخدم الناس شباك الصيد يتقنون بها لسع البعوض . فالأمر لا يختلف عما نفعل اليوم حين نستخدم « السِكَّة » (الناموسية) .

(٣) ACANTHUS : يقصد بها فى الغالب الشجر المعروف فى الكتب العلمية باسم MIMOSA NILOTICA . وهو معروف فى مصر منذ زمن بعيد ، وما زال يعرف اليوم — كما عرف فى الماضى — باسم « السنط » . والسنط كلمة مصرية أصيلة (WONTG : WONT- فى القبطية) وشجرة السنط إذا لم تكن سامقة العود مديدة الغصن فإن خشبها قوى شديد الاحتمال ومنه يبنى السودانيون سفنهم حتى اليوم . انظر : (Schweinfurth, Im Herzen von Afrika, S. 24 (Akazienholz) .

والمصريون القدماء لم يبنوا سفنهم من هذا الخشب وحسب ؛ بل كانوا يبنونها من أخشاب أختر ؛ فهم قد استغلوا أعواد البردى لبناء خفاف الزوارق وصغار المراكب ؛ يستخدمونها حين يخرجون للصيد والقنص أو للسفر القاصد . انظر : (الفصل الثانى والتسعين هامش رقم ٦) . ولم يكن من اليسير على المصريين =

وشكله كثير الشبه بالبشنين الكورنياي^(١) ويسيل منه الصمغ . يقطعون من خشبه ألواحاً طول كل منها ذراعان تقريباً ويصفونها كما يصف اللّبن ، ثم يصنعون منه السفن على الوجه الآتى : يعشقون الألواح التى طول الواحد منها ذراعان حول أوتاد طويلة متقاربة جداً ، وبعد أن يبنوا هيكل السفينة بهذه الكيفية يمدون عوارض على أعاليها . وهم لا يستخدمون الصلوع بل يسدون الفواصل التى بالداخل بالبردى ، ويصنعون دفة واحدة تدفع من قاع السفينة^(٢) . ويصنعون السارى من السنط ، والشرع من البردى . وهذه السفن لا يمكن أن تبحر صعداً فى النهر إذا لم تواتها ريح قوية . بل تجر حينئذ من الشاطئ وهى تسير مع التيار هكندا : يوجد إطار مصنوع من الأثل^(٣) ، وقد خشى

== أن يقتلعوا الأشجار ذات الثمر الحلو للارتفاع بخشبها إلا عند الضرورة الملحة ؛ بل كان اقتلاع الشجر عامة ينبغى أن يصدر به أمر من كبير الوزراء . انظر : (Sethe, Urk. IV, 111) . واقتلاع شجر الجيز بخاصة كان مكروهاً (ولم يزل الأمر كذلك حتى يومنا هذا) إلا أن تكون الحاجة إلى خشبه ملحة ، كما وقع أيام الملكة « حتشبسوت » ؛ حين صدرت الأوامر بتوفير خشب الجيز اللازم لبناء السفينة التى حملت المستلثين الشهيرتين فى أيامها من محاجر أسوان إلى معبد الكرنك . وكان طول كل منها ٢٩ر٥٠ متراً ، كما بلغ وزن كل منها ٣٢٣٠٠٠ كجم . مما اقتضى بناء سفينة بلغ طولها نحو ٨٢ متراً ، كما بلغ مسمكها ٢٩ متراً . ولم يكن من السهل بناء سفينة كهذه من خشب السنط (Sethe, Urk. IV, 425) .

(١) اللوتس الكورنياي : هو ما يسمونه RHAMNUS LOTUS .

انظر : (Herodot. IV. 177) . ويسمى أيضاً (Zizyphus و lotus) . وهو ما نسميه « السدر » وثمره « النبق » ومنابعه فى إفريقيا . (انظر : Wiedemann, H. Z. B. S. 385) وسمى بالكورنياي نسبة إلى (برقة) . (٢) هكندا كان يبنى المصريون سفنهم حقا . انظر (Kees. K.G. S. 111 f.) (٣) TAMARISK : فى هذه الفصيلة من الخشب نوعان ، أحدهما سامق العود واسمه العلمى Tamarix arpiculate وهو ما يسمى بالعربية الأثل ، ويسمى فى اللغات السامية الأخرى eshel فى العبرية و Ashlu فى الآشورية . ومما المصريين القدماء « أزر » وفى القبطية « OCI » . انظر : (Wb. Bd. I, S. 130) . والثانى قصير العود ضامر الفروع واسمه العلمى Tamarix gallica ويسمى « الطرفاء » .

بقصب مجدول وحجر مثقوب زنته تالنتان تقريباً . يُلقى بالإطار وقد شدَّ بحبل ليطفو أمام السفينة، ثم بالحجر خلفها وقد رُبطَ بحبل آخر. وباندفاع التيار يتحرك الإطار في سرعة ويسحب « الباريس »^(١) (وهذا هو اسم السفينة) بينما ينسحب الحجر وراءها وهو في قاع النهر فيَهْدِي السفينة في إبحارها . وعندهم من هذه السفن أعداد كبيرة^(٢) . ويحمل بعضها آلاف عديدة من التالنتات .

٩٧ — وعندما يفيض النهر على البلاد ، تظهر المدن وحدها فوق الماء ؛ وتسكاد تشبه الجزائر في « بحر إيجيه » . على حين تصبح سائر أجزاء مصر بجرأً . فلا يبدو منها غير المدن . وأثناء ذلك لا ينتقل المصريون بمراكبهم في مجرى النهر ؛ بل في وسط السهل^(٣) . فالصاعد في النهر مثلاً من مدينة « نوقراطيس »^(٤) إلى « ممفيس » يسير بجناء الأهرام^(٥) . وليس ذلك

(١) BARIS : تصحيف للكلمة المصرية Br — انظر : (Wb. I. S. 30) — التي عرفت منذ أيام الدولة الحديثة كصفة لنوع من سفن النقل والسفر في آن معاً . وقد استخدم الإغريق هذا الوصف للسفن غير الإغريقية . انظر : (Plutarch. Isis & Osiris 18. p. 358 a) .

(٢) إن ما خلف آل فرعون من تراث ، يوضح لنا ذلك في جلاء ، فما أكثر ما رمموا على آثارهم من ألوان السفن والزوارق التي استخدموها في السفر ، وحمل السلع كما نرى في أكثر ما صوروا من مناظر رحلاتهم وما جرى فيها من حوادث . (٣) ذلك صحيح ، وهكذا كانت تبدو مصر أيام الفيضان . ولعل أروع وصف لتلك الصورة ما جاء في رسالة « عمرو بن العاص » إلى أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه .

(٤) NAUKRATIS : انظر : (الفصول ١٣٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩) . مدينة موقعها « كوم جعيف » الحالية قرب « نقراش » وعلى الشاطئ الأيسر للفرع الكانوبي ثم على بعد ٣٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقى من الإسكندرية . وقد كان لإنشاؤها بين عامي ٦١٥ ، ٦١٠ ق . م .

انظر : (Kees, Naukratis, in RE. XVI 2, Sp. 1959—1966) .

(٥) يقصد أهرام الجيزة المعروفة .

بالطريق المعتاد التي تمر برأس الدلتا وبمدينة « كركاسوروس » (١) . وإذا أبحرت من البحر و فرع « كانوب » إلى مدينة « نوقراطيس » عابراً السهل فإنك تبلغها ماراً بمدينة « أنثيلا » والمدينة التي تسمى بمدينة « أرخاندروس » (٢) .
٩٨ — أولاهها — « أنثيلا » فهي مدينة عظيمة ، اشتهرت بأنها توهب لزوجة الجالس على عرش مصر لشراء أحذيتها . ولقد جرى ذلك التقليد منذ عصر احتلال الفرس مصر (٣) .

والمدينة الثانية — ويلوح لى أنها أخذت اسمها من ختن « دناؤس » وهو « أرخاندروس » بن « فيثيوس » بن « أخيوس » (٤) — إذ أنها تسمى مدينة « أرخاندروس » . ويحتمل أن كان هناك شخص آخر يدعى « أرخاندروس » . ومهما يكن من أمر فالاسم ليس مصرياً .

٩٩ — إن ما قلته حتى الآن هو نتيجة لمشاهداتي الخاصة وآرائى وأبحاثى الشخصية . ولكنى سأبدأ من الآن فصاعداً بقص الروايات المصرية طبقاً لما

-
- (١) CERCASORUS: انظر (الفصل الخامس عشر هامش رقم ٦ من هذا الكتاب) .
 (٢) ARCHANDER و ANTHYLLA : مدينتان بالدلتا . تقع الأولى بين كانوب (كوم ممعدى) ونوقراطيس (كوم جيف) وتقع الثانية بالقرب منها . انظر : (I Ball, Egypt in the classical geographers p. 17) .
 (٣) ليس المقصود بالجالس على عرش مصر فرعونها ، وإنما المقصود هو الحاكم الفارسي الذي يمثل الغاصب المحتل . والظاهر أن نفقات حياة الترف التي عاشها زوجات أولئك الحكام — وبخاصة نفقات زينتهن — كانت باهظة ؛ بحيث كانت تُوزَع على مدائن معينة من مدائن الوادي ؛ تلتزم كل منها بنفقات لون معين من ألوان الزينة التي كان يهواها أولئك النسوة . وليس عجيباً أن يقع مثل ذلك العبث المنكر في بلد محتل لا سلطان لأهله عليه .
 (٤) كان « أرخاندروس » ابن « أخيوس » ولم يكن من أحفاده .

سمعته ، مضافا إليها — كذلك — بعض ما شاهدته بنفسى (١) . لقد حدثنى السكينة (٢) بأن « مينا » (منا) كان أول من حكم مصر (٣) ، وبأنه أوجد جسرا لحماية « ممفيس » . إذ كان النهر كله يجرى بجذاء الهضبة الرملية من الجانب اللبى . على حين أن « مينا » — مبتدئا من أعلى — قد أنشأ بوساطة السدود الثانية التى تقع جنوبى « ممفيس » بنحو مائة « ستاد » ، وبذلك وجفَّ المجرى القديم ، وحول مجرى النهر لينساب فيما بين الهضبتين . ولا يزال الفرس حتى الآن يتعهدون ثنية النيل هذه لى ينساب النهر فى مجرى محدود ، يتعهدونها بالعناية البالغة ، ويدعمونها كل عام ؛ لأنه إذا اجتاحت النهر الجسر فى هذه المنطقة لأمت « ممفيس » كلها فى خطر من الغرق ، ولما تكونت لمينا — أول ملك للبلاد — هذه البقعة التى جفَّت من الأرض بعد عزلها عن الماء ، أسس فيها المدينة التى تسمى الآن « ممفيس » ، (لأن ممفيس تقع فى الجزء الضيق من مصر) (٤) وحفر خارج المدينة بحيرة تخرج من النهر وتتجه نحو الشمال والغرب

(١) انظر فصل ١٢٣ و ١٤٧ من هذا الكتاب .

(٢) ظاهر أنه يقصد كهنة ممفيس .

(٣) انظر : (الحديث عن مينا « منا » فى الفصل رقم (٤) هامش رقم (٥) من هذا الكتاب) .

(٤) مدينة ممفيس والظروف التى بنيت فيها : ليس لدينا ما ينقضى تلك الرواية ، ولا ما ينهض دليلا لبطلانها ؛ بل إن فى تاريخ آل فرعون الطويل ما يشير إلى قيام الصلة القوية بين « منا » وبين « ممفيس » ؛ فعبودها « بتاح » قد قامت عبادته منذ نشأتها . وفى أخبار الأسرة التاسعة عشرة من الوثائق التاريخية ما يُسمَّى « بتاح » هذا « بتاح منا » . انظر : (Badawi, Memphis, S. 13) . ثم قصة « منا » وبناء ممفيس فى الجزء الأول من كتابنا « فى موكب الشمس » ج ١ الطبعة الثانية ص ١١٥ وما بعدها .

(والنيل نفسه يحدها من الشرق) ، ثم شيد في المدينة معبد « هيفايستوس » ، وهو هائل ، ويستحق بكل جدارة أن نتحدث عنه (١) .

١٠٠ — وتلا على الكهنة — من ثبت بردى — (٢) أسماء ثلثمائة وثلاثين ملكاً آخرين بعد « مينا » . وكان من ضمن هذه الأجيال ثمانية عشر ملكاً من الأثيوبيين (٣) وامرأة واحدة من أهل

(١) معبد هيفايستوس : هو معبد « پتاح » الذى بُنى فى الجنوب من ظاهر مدينة « ممفيس » أيام بناء المدينة . وتعاقب الملوك على تجديده والإضافة فى عمارته . انظر : (Badawi, Memphis, S. 12 ff.) .

(٢) إذا صح ما قاله « هردوت » من أن الكهنة قد تلوا عليه أسماء الملوك من قرطاس البردى ؛ فقد كان ذلك أمراً منطقياً ؛ لأن الكهنة كانوا يملكون الكثير من تلك الوثائق الرسمية التى سجلوا فيها أسماء الملوك ، وكانوا يحفظونها فى خزائن المعابد ؛ ومنها تلك الوثيقة التى آلت إلى متحف « تورين » ، وعُرفت من أجل ذلك باسم « قرطاس تورين » . وعلى تلك الوثيقة ونظائرها اعتمد المؤرخون حين كتبوا تاريخ الفراعنة وحساب أيامهم . وفى مقدمتهم مؤرخنا المصرى السمنودى « منتون » ومن جاء بعده من القدماء والمحدثين . وبذل المحدثون غاية الجهد فى تحقيق ما ورد فى ذلك القرطاس وبقية الأبحاث الحجرية الموجودة فى المعابد ؛ وذلك فى ضوء ما وحّد من آثار الحكام فيما تركوا من مختلف التراث . وعلى الرغم مما بذلوا من جهود جيّارة ؛ فإنهم لم يصلوا إلى تحقيق كل ما أرادوا بالتفصيل والتحديد والضبط ، وإن كانوا قد بلغوا أكثره جملةً وتقريباً .

(٣) لم يبلغ الملوك الأثيوبيون — ويقصد بهم النوبيين — هذا العدد الذى يزعمه هردوت ؛ وإنما كانوا ستة هم على التعاقب : « كشتا » و « بنحسى » و « شباكو » و « شبتاكو » و « طهرقة » ثم « تنمامون » . وكان زمان حكمهم بين عامى ٧٥٠ و ٦٥٦ ق . م . انظر : (JEA. XXXV, P. 141 ff.) .

البلاد (١). أما البقية فكانت من الرجال المصريين . والمرأة التي حكمت كانت تدعى « نيتوكريس » (٢) . كالمملكة

(١) كلا : لم تكن « نيتوكريس » المرأة الوحيدة التي حكمت البلاد ، فهناك الملكة « سبك - نفرو - رع » آخر حكام الأسرة الثانية عشرة ؛ وقد جلست على العرش نحو ثلاثة أعوام ، ثم « حتشبسوت » من حكام الأسرة الثامنة عشرة ، وقد استقلت بالحكم نحو ثلاثة عشر عاماً .

انظر : (Parker, Journal of Near East, Studies XVI, 42) .
(٢) ظاهر في تاريخ الدولة القديمة من حكم آل فرعون أن سلطان الأسرة السادسة على الرغم من ذكر أربعة ملوك بعد زمان « بيبي الثاني » كان قد انتهى فعلاً بموت هذا الأخير . ومهما يكن من أمر ؛ فإن المتواتر من أقوال المؤرخين القدامى ، وعلى رأسهم مؤرخنا المصرى السمنودى « منتون » يرسم لنا من ذلك العهد ملحة لا يقبلها غير منطق الأساطير ؛ حين يعد فيها أسماء الأسرة السابعة ، سبعين ملكاً ، ويجعل مدى حكمهم جميعاً سبعين يوماً . لكأنما هى ساحة من ساحات الصراع بين أبطال خياليين ؛ يبرز بعضهم لبعض بحيث يكون الحكم يومئذ لمن ظفر . . . وهلم جراً . و « منتون » يجعل نهاية حكم الأسرة السادسة على يد امرأة يقال لها « نيتوكريس » ، ويزعم أنها بذلت من السعى كل ما كان فى طاقتها لتحتفظ بعرش آبائها . ويضيف إلى ذلك أنها كانت أحب وأنبى نساء عصرها جميعاً . وجاء فى « قرطاس تورين » NITOKERTI . كما جعلها ثانى أو ثالث من حكم بعد « بيبي الثانى » .

ومهما يكن من شيء ، فإن وجودها قد وقع فى تلك الحقبة على كل حال . وإن كان يستبعد أن تكون هى « NEITH » التى كشف عن ضريحها الهرمى العالم السويسرى Jéquier . انظر : (C. Jéquier, Les Pyramides des Reines Neit et Apout; Caire 1933) . ذلك لأن « نيتوكريس » — إن صرح ما جاء فى الخبر على نحو ما قدمنا — ربما كانت من بنات « بيبي الأول » ، وأنها أنجحت فى حريم أخيها « بيبي الثانى » أول عهده بالحكم .

البابلية (١) . ثم قالوا لي إنها احتمالت ، وأهلكت الكثيرين من المصريين انتقاماً لأخيها الذي قتله المصريون أثناء حكمه عليهم ، وولّوها المملكة بعد

== فأما ما جاء في رواية « هردوت » من قصة احتيالها في التديير للانتقام ممن قتلوا أخاها ، فليس من اختراع « هردوت » وإنما هو خلط مبعثه — في الغالب — ما كان من سيرة القصر أيام تلك الأسرة ، وما كان يدبر في البلاط من فتن ومؤامرات ؛ منها ما ذكره « منتون » من أن رأس الأسرة السادسة ويسميه « تى » قدم مات مقتولا . (انظر في موكب الشمس ج ١ الطبعة الثانية ص ١٧٥ و ١٧٦) . ومنها ما أثبتته التاريخ في تلك الإشارة التي وردت في ترجمة « أونى » إلى مؤامرة الحريم في بلاط « بيهي الأول » . (انظر المرجع السابق ص ٩٩ وما بعدها) . يضاف إلى كل ذلك طول الزمن ؛ يتناقل الناس فيه تلك الروايات جيلاً بعد جيل . وإذا كانت رواية الخبر تتغير أحياناً بين عشية وضحاها ، ويتغير أسلوبها بين الرواة من البيئة الواحدة ومن أهل الزمن الواحد والثقافة الواحدة أحياناً ، فأخلق بقصة « نيتوكريس » — التي ظلت تتناوبها الرواية ، وتتناقلها الأجيال عبر الزمن الطويل الذي بلغ مداه أكثر من ألفي عام ، لتبلغ مع « هردوت » في القرن « الخامس قبل ميلاد المسيح » — أن تحمل في ثناياها ذلك اللون من ألوان الخيال . والشئ الواضح أن في بناء تلك القصة أثراً من الأسطورة الخالدة « إيزيس وأزوريس » التي لم تخل منه أكثر الأساطير المصرية .

(١) ورد ذكر هذه المملكة البابلية ضمن أسماء ملوك بابل . انظر : (هردوت الكتاب الأول فصل ١٨٥ ، ١٨٧) بوصفها أمماً لآخر ملوك بابل . وكان يدعى LABYNETUS ، وأنها أنجبته في الغالب لزوجها « نبوخاذنسر » . وقيل إنها نظرت بالحكم بعد وفاة هذا الأخير عام ٦٠٤ ق . م . هذا ، وينبغي أن نقرر أن اسم « نيتوكريس » الذي ذكرت به ملكة بابل لم يكن اسم علم ، وإنما كان في الغالب صفة ؛ إذ قد جاء وصفاً لغير واحدة من نساء بابل مثله في ذلك كمثلى SEMIRAMIS الذي وصفت به ملكة ومعبودة في آن معا .

قتله . فقد ابنت قاعة واسعة تحت الأرض ، وقالت إنها ستفتتحها . ولكنها في قرارة نفسها كانت تدبر أمراً غير ذلك ؛ دعت إلى الوليمة عدداً كبيراً من المصريين وبخاصة أولئك الذين علمت أنهم كانوا من المتآمرين على قتل أخيها . وأطلقت عليهم — أثناء التهامهم الطعام — ماء النهر من قناة واسعة خفية . هذا كل مارووه لى عن هذه الملكة فيما عدا أنها بعد أن قامت بفعلتها هذه ألفت بنفسها فى غرفة مليئة بالرماد حتى لا تعاقب .

١٠١ — وقالوا لى إنه لم يبق أحد من بين الملوك الآخرين بأى عمل مجيد ، ولم يكن منهم واحد ذائع الصيت غير آخرهم « مويريس » ؛ فقد خلد ذكره بتشيد بهو معبد « هيفايستوس »^(١) الذى يتجه نحو الشمال ، وحفر بحيرة سابين فيما بعد^(٢) كم يبلغ طول محيطها بالأستاد . وبني فيها أهرامات^(٣)

(١) مر ذكر هذا المعبد فى الفصل التاسع والتسعين من هذا الكتاب ، والمقصود به « معبد بتاح » . وبعد ، فأما كهنة منف قد ذكروا لهردوت — كما يزعم — أن الملك « مويريس » « أمنمحات الثالث » قد كان آخر ملوك مصر الذين ذاع صيتهم ، فأكبر الظن أنهم قصدوا بذلك أنه كان آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة . وأما أن الملك المذكور قد شيد بهو معبد « هيفايستوس » ، فصحيح ؛ إذ المعروف أنه جدّد عمارة ذلك المعبد ، وقد وُجِدَ له فى أنقاضه ما يدل على ذلك . انظر : (Petrie, Tarkhan vol. I. pl. 7) .

(٢) انظر ما قلناه عن « مويريس » (MOERIS) هذا فى (الفصل رقم ١٣ هامش رقم ١) . ثم الحديث عن البحيرة المعروفة بهذا الاسم فى (الفصل رقم ١٤٩) .

(٣) المقول أنه يقصد هرم الملك الذى أقامه عند مدخل الفيوم ، وعلى مسيرة أربعة أميال منها . انظر : (« فى موكب الشمس » ج ٢ ص ١٤٣) . لولا أن الأمر أمر أهرام لا هرم واحد ، فإذا كان ذلك كذلك ، فليس أمامنا إلا نتصور الحائط وسوء الفهم . (انظر : الحديث عن ذلك فى الفصل رقم ١٤٩ هامش رقم ٢) .

سأذكر أبعاده في نفس الوقت مع أبعاد البحيرة . هذه هي الأعمال التي خلفها هذا الملك ولكن لم يعمل واحد من الآخرين شيئاً ما .

١٠٢ — وعلى ذلك ؛ سوف لا أتحدث عنهم ، وسأتى على ذكر الملك الذى خلفهم وكان يدعى « سيزوستريس » (١) . روى السكينة أنه أقلع أولاً من الخليج العربى بسفن حربية ، وأخضع السكان على سواحل بحر أروتري (٢) ، ثم واصل الإبحار حتى بلغ المنطقة التي لم يعد عندها البحر صالحاً للملاحة لضحاياه (٣) . ولما عاد بعدئذ إلى مصر أعد — وفقاً لرواية السكينة — جيشاً جرّاراً ، واخترق القارة ، وأخضع الشعوب التي كانت في طريقه . وكان إذا صادف منهم شعوباً بأسلة ، تُقاتل بعنف من أجل حريتها أقام ببلادهم أعمدة

(١) « سيزوستريس » : هو « سنوسرة الثالث » .

انظر : (Kees, RE. sp. 1861 Art. Sesostris) .

ثم (في « موكب الشمس » ج ٢ ص ١٣٧ وما بعدها) .

(٢) لا نعرف أن « سنوسرة » في حروبه قد ركب البحر . ولكننا نعرف أنه ركب النيل ليخضع العُصاة في بلاد النوبة ، وليردّ عنها إغارات الزوج . فهو قد حمل على تلك البقاع حملات أربع ؛ كانت أولها في العام التاسع وكانت آخرها في العام التاسع عشر من أعوام حكمه .

انظر : (في موكب الشمس ج ٢ ص ٢٣٧ وما بعدها) .

(٣) لقد اختلط الأمر على « هردوت » أو على روايته ؛ فهو قد سمع ذلك رواية من أفواه الكهّان كما يقول . على أن الرواية لا تمثل الحقيقة دائماً . وإنما الحقيقة أن فرعون عندما فكّر في تحصين أقاليم النوبة ؛ بدأ بجزيرة الفيلة . ثم بدا له من بعد ذلك أن الملاحة في النهر صعبة غير ميسورة ؛ فعمد إلى حفر قناة في الصخر أسماها باسمه ، وبلغ طولها خمسين ومئة ذراع ، وبلغ عرضها عشرين ، كما بلغ عمقها خمس عشرة ذراعاً . انظر : (« في موكب الشمس » ج ٢ ص ٢٣٧) .

عليها نقوش تنطق باسمه ووطنه ، وتبين كيف أنه أخضعهم بالقوة ، وعند هؤلاء الذين لم تقاوم مدنهم واستولى عليها في سهولة ، نقش على الأعمدة نفس ما نقشه عند الأمم الباسلة ، وأضاف إلى ذلك نقشا يصور عورة المرأة ؛ رغبة منه في أن يبرهن بذلك على جبنهم (١) .

١٠٣ — وبعمله هذا ، عبر القارة واجتاز آسية إلى أوروبا ، وأخضع « السكيثيين » و « الثراقيين » (٢) . ويخيل إلى أن هذين الإقليمين هما أقصى

(١) إن في الرواية خلطاً وسوء فهم ومبالغة . ومصدر هذا كله ما حفظته الأجيال من سيرة ذلك الملك العظيم ؛ فن مأثور قوله يصف نفسه « إنه ملك إذا قال فعل ، ينفذ إرادته بقوة يمينه ، وإنه مولع بالفتح ، شديد الحرص على ما يفتح . لا تكاد رغبته تضطرب بين جوائحه حتى يعمل على تحقيقها ، لا يلين لمدو ، ولا يسكت على أذى ، ولا يقعد عن مهاجمة من هاجمه ، ولا يحجم عن مهادنة من هادنه . ويعرف كيف يرد القول بنظيره » . ثم يصف أعداءه فيقول : « إنهم يصدعون بقول الشجاع ؛ فإذا ما هوجوا خضعوا ، وإذا لان لهم أمرؤ هجموا . وإنهم لقوم ضعفاء ؛ لا يقام لهم وزن ، ثم هم مساكين ؛ ضعاف قلوبهم » . ذلك بعض حديث فرعون تركه على لوح نصبه عند حدود أملاكه في جنوب الوادي ، ثم ختمه بوصية إلى خلفائه فقال : « إن امرأ من ولدى يستطيع أن يحمي ما أقمت من حدود ، لهو ولدى من صلبى ، وإنه لمثل صادق لذلك الابن الذى يحمى أباه ، ويذود عن حدوده . فأما من قعد عن ذلك ولم يذد عن حدودى ، فذلك ليس من ولدى ؛ لأننى لم ألد . وهذا تمنالى أقنته لكم على الحدود علته أن يُنهضكم فذودوا عنه » .

انظر : (« فى موكب الشمس » ج ٢ ص ٢٣٨) .

(٢) السكيثيون و الثراقيون : من القبائل التى تفرقت قديماً فى جنوب روسية انظر : (الحديث عن السكيثيين فى الكتاب الرابع لهردوت من الفصل الأول حتى الفصل الرابع والأربعين بعد المئة . ثم ما جاء من ذكرهم أيام إيسباتيك =

ما وصل إليه الجيش المصرى ؛ إذ أن الأعمدة ما تزال قائمة بها . ولكن لا يرى لها أثر أبعد من ذلك . ومن هناك دار على عقبه ورجع . وليس بإمكانى أن أتكلم بدقة عما تم بعدئذ عندما بلغ نهر « فاسيس » (١) . أفصلَ الملك « سيزوستريس » نفسه جزءاً من جيشه وتركه هناك لاستعمار الديار ، أم أن طائفة من الجنود — وقد أنهكها السير — بقيت بمحض إرادتها على ضفاف « نهر فاسيس » .

١٠٤ — إذ أن من الواضح أن « الكونخيين » مصريون (٢) . ولقد

== فى الكتاب الذى أخرجه MEULENAERE عن هردوت والأسرة السادسة والعشرين ص ٣٠ وما بعدها) .

فأما أن « سنوسرة الثالث » (سيزوستريس) قد عبر القارة واحتاز آسية إلى أوربا ليخضع هاتين القبيلتين ، فذلك قول لا يستند إلى أساس . وما تقدر له من سبب غير شخصية البطل الطاغية الساحرة التى نسبّت إليه كل خارق من العمل . وبطولة ذلك الرجل لم تبهر الكتّاب والمؤرخين فحسب ؛ بل بهرت خلفاءه من بعده ، فهذا أحد خلفائه الأبعدين « تحتمس الثالث » يامر بتقديسه فى معابد النوبة ، وهذا « طهرقه » — الذى عاش بعد أيامه بمئتين وألف عام — يعيد تقديسه فى معابد تلك الديار . وهكذا خدعت سيرة الرجل بعض المؤرخين وكتّاب السير فنسبوا إليه ما ليس له . والظاهر أنهم خلطوا بين سيرته وسيرة « تحتمس الثالث » ، كما خلطوا بين سيرة هذا الأخير وسيرة « رمسيس الثانى » .

انظر : (« فى موكب الشمس » ج ٢ ص ٢٤٦) .

(١) نهر « فاسيس » ، أشهر أنهار « كوتخس » الواقعة على شاطئ البحر الأسود . وتُعزى شهرته إلى أنه كان أحد الأنهار التى اخترقتها السفينة « آرحو » . (٢) لا نستطيع أن نكذب « هردوت » فيما روى من أنه زار بلاد « الكونخيين » وإن كنا لا نستطيع التسليم برأيه فى أن « الكونخيين » كانوا من مصر ، وأنهم من بقايا عساكر « سيزوستريس » الذين وصلوا إلى تلك

ذهبت شخصياً إلى هذا الرأي الذى أعلنه قبل أن أسمع به من الغير . ولما خطر هذا الموضوع ببالى ، استجوبت كلاً الشعبين وأدركت أن تدّكر « الكولخيين » المصريين أقوى من تدّكر هؤلاء إياهم . هذا ، مع أن طائفة من المصريين صرحت لى بأنها تعتبر « الكولخيين » بعضاً من جيش « سينوستريس » . ولقد خمنت ذلك بنفسى ؛ لأن « الكولخيين » سمر البشرية ، جعد الشعر . (ولكن ذلك لا يؤدى فى الحقيقة إلى دليل ما لأن غيرهم من الناس لهم هذه الأوصاف) . وإنما يؤيدنى علاوة على ذلك أنهم وخدمهم مع الأثيوبيين والمصريين (وهذا دليل أقوى) يمارسون دون سائر البشر عادة الختان منذ البداية (١) . إذ أن الفينيقية والسوريين بفلسطين (٢) أنفسهم يعترفون بأنهم أخذوا هذه العادة عن المصريين . أما السوريون (٣) الذين يقطنون على ضفاف نهري « ثرمودون » و « بارثينوس » (٤)

= البقاع ؛ ذلك لأنه يسند هذا رأى ويدعمه بممارسة الكولخيين عملية الختان كالمصريين والأثيوبيين . وليس ذلك — فى رأينا — بالدليل الكافى على أنهم كانوا مصريين . لأن المصريين وإن كانوا من أقدم الشعوب التى عرفت الختان ؛ إلا أنهم لم ينفردوا بذلك بين شعوب الشرق ؛ وإنما عرفته شعوب أخرى فى آسية كالعبرانيين مثلاً .

(١) انظر الفصل رقم (٣٧) من هذا الكتاب .

(٢) السوريون بفلسطين هم اليهود بطبيعة الحال .

(٣) يقصد بهم سكان Cappadocia . انظر : (Breasted, Gesch. Aeg. S. 131) . فأما عن أصل السوريين عامة .

فانظر : (« هردوت » الكتاب الأول الفصل رقم ٧٢) .

(٤) نهرا « ثرمودون » و « بارثينوس » : الأول هو نهري TERMID ،

والثانى يسميه الإغريق PARTHIN ويسميه الترك DOLAP .

و « الماكرونيون » (١) الذين يجاورونهم ؛ فيقولون إنهم تعلموها حديثاً من « الكونخيين ». وهؤلاء وحدهم هم الذين يعرفون الختسان . ويظهر أنهم يمارسونه كما يمارسه المصريون تماماً . وأما فيما يتعلق بالآثوبيين والمصريين ؛ فلا أستطيع أن أقول أى الشعبين أخذ هذه العادة عن الآخر . إذ الظاهر أنها عادة قديمة عندهم . أما أن الشعوب قد تعلمتها من اختلاطها بالمصريين ؛ فبرهاني على ذلك ساطع ، لأن الذين يختلطون باليونانيين من الفينيقيين لا يقلدون المصريين فيما يختص بأعضاء التناسل ؛ بل يتركون ذريتهم بلا ختان (٢).

١٠٥ — والآن ؟ دعنى أتحدث — مادمنا بصدد « الكونخيين » —

عن عادة أخرى يشبهون فيها المصريين . فهم والمصريون فقط يصنعون التيل بنفس الكيفية ، كما أن طريقة الحياة واللغة متشابهة عند الشعبين (٣) . واليونانيون يسمون « التيل الكونخى » (٤) (ساردينيا) (٥) . بينما الذى يرد إليهم من مصر يسمونه مصرياً .

(١) الماكرونيون : ليس بين أيدينا من الوثائق ما يمكننا من تحديد وطن

هؤلاء القوم ، وإن كان يظن أنهم لم ينزلوا بعيداً عن Cappadocia .

انظر : (« هردوت » الكتاب الثالث الفصل رقم ٩٤ والكتاب السابع الفصل رقم ٧٨) . و Cappadocia تقع على مسيرة ٢٠ كم من « قيصرية » .

(٢) إذا صح أن بعض الفينيقيين كانوا يختنون ؛ فليس ذلك بالدليل على أنهم قد تعلموا الختان من المصريين ؛ بل الأرجح أن يكونوا قد أخذوا ذلك عن اليهود بحكم الجوار وكثرة الاختلاط .

(٣) يبدو أن المؤرخ قد أخطأ التوفيق في تصوير هذا الأمر ، إذ ليس من السهل عقد مقارنة بين الشعبين بهذه الصورة التى أوردها .

(٤) نسبة إلى بلد فى آسية الصغرى ، وفى الطريق إلى بلاد اليونان . ومنها كان الكتان يصل إلى تلك البلاد .

(٥) ورد ذكر هذا النوع من الكتان عند « سترابون » .

انظر : (Wiedemann, Herodots Zweites Buch S. 413) .

١٠٦ — ومع أن أغلب الأعمدة التي أقامها ملك مصر «سيزوستريس» (١) في الأقطار اختفت ولم يبق منها شيء بعد ، إلا أنني لحظت بنفسى أن بعضها ما زال موجوداً بفلسطين السورية (٢) وعليها النقوش التي تحدثت عنها . وكذا عورة المرأة . وفي «إيونيا» يوجد أيضاً تمثالان (٣) لهذا الملك منحوتان في الصخر ، أحدهما في الطريق المؤدية من «إفسوس» إلى «فوكايا» (٤) ، والآخر في الطريق المؤدية من «سارديس» إلى «سميرنا» (٥) . وفي كلا الحالتين يُصوّر التمثال المنحوت رجلاً ضخمًا ارتفاعه أربعة أذرع ونصف ؛ ممسكاً بيمينه حربة ، ويسراه قوساً (٦) . وباقى عدته على هذا النمط ، بعضها

-
- (١) انظر : (الفصل الواحد بعد المئة ، هامش رقم ١) .
- (٢) الغالب أن المقصود هنا الساحل الفلسطيني الذي مر به «هردوت» فشواهد الأمور تدل على أنه لم يوغل فيما وراء الشاطئ .
- (٣) ذلك خطأ وقع فيه «هردوت» . انظر (Legrand, p. 135, note 2.)
- ثم (Waddell, Herodotus, p. 216, note 5.) .
- (٤) إفسوس ، وفوكايا : مدينتان من مدائن «ليديا» تقع الأولى وهي «سليجوق» — وكانت من الثغور المهمة — على شاطئ ليديا . وكان بها معبد شهير للمعبودة «أرتميس» . انظر : (Van Der Heyden, ATLAS of the Classical World p. 82, 85) . وتقع الثانية على شاطئ ليديا أيضاً . انظر : (المرجع السابق الخرائط رقم ١٩٠١ ، ٧٨ ، ٩١ ، ١١٠ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٩٠) .
- (٥) سارديس . انظر : (الفصل رقم ١٠٥ هامش ٢) .
- (٦) تلك صورة إن صَحَّتْ . قد تكون لألمة الحرب أو الملوك الذين يصوِّرون في صورتها .

مصرى ، وبعضها إثيوبي . ويمتد بعرض الصدر من كتف إلى كتف نقش محفور باللغة المصرية المقدسة يقول : « لقد استوليت على هذه الأرض بقوة أكتفى » ، ولكنه لا يوضح هنا من أين جاء ، إذ قد أوضح ذلك في مكان آخر . ويظن بعض من شاهدوها أنهما يمثلان « ممنون » (١) . ولكنهم في ظنهم هذا يبعدون عن الحق كثيراً .

١٠٧ — وعندما وصل « سيزوستريس » المصري إلى « دافناي البيلوزية » (٢) ، أثناء رجوعه وهو يقود رجالاً عديدين من الشعوب التي قد أخضع بلادها ، عندما وصل هناك — وفقاً لرواية الكهنة — دعاه أخوه (٣) الذي كان قد عهد إليه « سيزوستريس » بأمر مصر — إلى وليمة هو وأولاده ، ثم أحاط المنزل من الخارج بأكوام من الحطب ، وبعد تكريمه أشعل فيه النار . فلما علم الملك بذلك ، تشاور في الحال مع امرأته التي كان قد أحضرها معه أيضاً . فأشارت عليه بأن يضع اثنين من أولاده وكانوا ستة — على كومة الحطب المشتعلة ليكونا بمثابة جسر على النار وبذلك ينجيان نفسيهما بالعبور عليهما . فعل « سيزوستريس » هذا — فاحترق اثنان من أبنائه بهذه الطريقة ،

(١) ممنون : ابن Eos ملك أثيوبيا وحليف « بريام » . كما جاء عند « هوميرو » . انظر : (Homer, Ody. IV, 188 IX, 522) .

(٢) « دافناي البيلوزية » : وتسمى أيضاً « كوم دفنة » ، موقعها على الفرع البيلوزي وعلى مسيرة ١٥ كم من القنطرة الحالية وفيها وضع « إيسماتيك » الأول حامية من المرتزقين من جنود الإغريق الذين استعان بهم على الخلاص من نير الأثيوبيين . انظر : (الفصل رقم ٣٠ من هذا الكتاب) . ثم (الاصحاح ٤٣ من أرميا : ٥ و ٧) .

(٣) انظر : (الفصل رقم ١٠٨ هامش رقم ١) .

أما الآخرون فقد نُجِجوا مع أبيهم (١).

١٠٨ — عند رجوعه إلى مصر بعد أن ثار من أخيه (٢) استخدم « سيزوستريس » العدد الغفير الذي أحضره معه من البلاد التي أخضعها فيما يلي : هم الذين جرّوا الأحجار التي نقلت في عهده إلى معبد « هيفايستوس » ، وقد كانت ضخمة الحجم . وهم الذين سُخِّروا في حفر جميع القنوات التي توجد الآن في مصر . وبذا جعلوا — بغير رضاهم (٣) — من مصر التي كانت كلها

(١) في الحق إن الأثرة والأنانية من أخص خصائص النفس البشرية . وتقول العامة « إن جاء الطوفان حُطَّ ابنك تحت رجلتك » . كما نسمع أن آباءً عزّموا على التضحية بأبنائهم في سبيل عقيدة دينية (انظر : ص ٢٣٧) على أننا لا نظن أن القصة صحيحة بحال من الأحوال .

(٢) لم يكن « رمسيس الثاني » بكر أبناء أبيه ، وإنما ودّع البكر هذه الدنيا قبل أن يبلغ منها ما قدّر له أبوه . والعجيب أن الدهر الذي احتفظ لنا برسم ذلك الأمير وألقابه وصفاته ، لم يدّخر لنا اسمه . ولقد حامت الشكوك حول مصيره ، حتى ظن الناس برمسيس الظنون . ولم يستبعدوا أن يكون قد وقعت بين الأخوين وقائع انتهت بمصرع الأول على يد الثاني . وربما بقي دوى ذلك حتى طرق سمع « هردوت » ؛ فكان ما كان من حبك تلك القصة التي رواها . والله يعلم الغيب من كل أمر .

انظر : (الحديث عن ذلك في موكب الشمس ج ٢ ص ٨٣٨ و ٨٥١) .
(٣) ذلك أمر لا يخالف منطق الظروف ؛ فقد كانوا أسرى ، وكان عليهم أن يعملوا ليعيشوا . وإذا صح أن يُسمّى العمل في مرافق الدولة يومئذ « سُخْرًا » ؛ فلم يكن الأسرى وحدهم هم الذين يُسَخَّرُونَ ، وإنما كان يشاركون في ذلك المواطنون أيضاً . وتلك أمور لم تجر في عهد آل فرعون وحسب ؛ بل جرت في سائر العهود قديمها وحديثها . وليس علينا إلا أن نذكر كيف شُقَّت « قناة السويس » ، وكيف شُقَّت « المحمودية » و « الإسماعيلية » و « الإبراهيمية » ، وكيف بُنيت « القناطر الخيرية » . وعلينا أن نذكر كيف كان يُسْتَعْدَم عساكر الجيش أيام « فاروق » . وعلينا أن نذكر أن ذلك لم يجر في مصر وحدها ؛ بل جرى في بلاد غير مصر . ويكفي أن نذكر نظام الخدمة الإجبارية العامة « أيام النازيين في ألمانيا قبيل الحرب العالمية الثانية » .

من قبل بلادا — تقطعها الخيول والعجلات^(١) — بلادا خالية منها . فمئذ ذلك الحين أصبحت مصر — بالرغم من أنها كلها مسطحة — خالية من الخيل والعجلات . وكانت القنوات السبب في ذلك لكثرتها وامتدادها في كل الجهات . ولقد شق الملك هذه القنوات في البلاد لأن المصريين الذين كانوا يقطنون مناطق لا تقع على النهر وتقع في داخل البلاد ، كانوا — لحرمانهم من مياه النهر كلها انحسر — يتعاطون شربا صالحا يستمدونه من الآبار . لذلك شقت القنوات .

١٠٩ — وقال الكهنة إن هذا الملك وزع الأراضي^(٢) على جميع المصريين ؛ فأعطى كل فرد بالتساوى نصيبا مربعا . ومن هذا المصدر أوجد

(١) وهذا برهان آخر على أن « هردوت » قد فهم أن « سيزوستريس » لم يكن « سنوسرة » الثالث ، وإنما كان « رمسيس الثاني » ؛ ذلك لأن الخيول والعجلات لم تكن قد عرفت في أيام «سنوسرة الثالث» . ونحب بهذه المناسبة أن نشير إلى أن حفر الترع والقنوات لا يمكن أن يكون قد قصد به الاستغناء عن المعجلات ، وإنما قصد به في الغالب توسيع الرقعة الزراعية .

(٢) الواقع أن تصديق رواية هردوت عن التوزيع أمر غير يسير . فقد كان التوزيع معروفا على حكام الأقاليم باعتبارهم ملتزمين . فأما مسح الأراضي الزراعية فكان من أهم الأمور التي تشغل الدولة والشعب في كل عام . وذلك أمر اقتضته طبيعة النيل وما يفعل فيضانه في الأرض . وما زلنا نعرف ما نسميه اليوم « أكل البحر » أو « طرح البحر » ، ونعرف أن حدود الأرض الثابتة لا يمكن أن تجرى صحيحة مع تلك الظاهرة ، إذ أن الأمر يتوقف على منسوب الفيضان من كل عام ؛ فعلى قدر المنزرع من الأرض كانت الدولة تقدر دخلها من الضرائب السنوية انظر : (Strabon, XXII; 787) .

الدخل ؛ لأنه أمر بتأدية ضريبة سنوية (١) . وإذا أكل النهر جزءاً من نصيب أحد الأفراد (لطغيانه على هذا الجزء) ، توجه إلى الملك وبيّن له ما حدث ، فكان « سيزوستريس » يرسل أشخاصاً لمعاينة الأرض وقياس المقدار الذى نقص منها حتى يدفع من الضريبة المقررة ما يتناسب والمتبقى من الأرض . ويُخَيَّلُ إلى أن هذا كان بدء اكتشاف علم المساحة (٢) الذى انتقل إلى اليونانيين ؛ لأن هؤلاء تعلموا عن البابليين الساعة الشمسية والمزولة وتقسيم النهار إلى اثني عشر قسماً .

١١٠ — « وسيزوستريس » هو الملك الوحيد الذى حكم اثيوبية (٣) ، وقد خلف تخليداً لذكره أمام معبد « هيفايستوس » (٤) تماثيل حجرية : اثنان يُمثّلانه هو وزوجته ؛ طول كل منهما ثلاثون ذراعاً . والأخرى تمثل

(١) كان المعفون من الضرائب بين طبقات الشعب هم الكهان والجنود .
انظر : (الفصل رقم ٨٧ و ١٦٨ من هذا الكتاب) .

(٢) ظاهر فيما قدمنا من الحديث عن اضطراب المصريين إلى مسح الأراضى الزراعية فى كل عام ليتبينوا مقدار مساحتها ، ولترتب الحكومة بناء على ذلك ما يخصها من ضرائب . (انظر : Kees, K. G. S. 35) ، أن ذلك قد جعل مصر فى نظر هردوت وطن الهندسة عامة والهندسة المساحية بخاصة .
انظر : (Kees, K. G. S. 293) .

(٣) إن فى كلام « هردوت » نصف الحقيقة ؛ فسيزوستريس كان أول من أقر الأمور فى بلاد النوبة (إثيوبية) بحيث أصبحت جميعاً فى قبضة يده وتحت رايته ؛ إلا أن « سيزوستريس » هذا لم يكن « رمسيس الثانى » كما خال « هردوت » ولكنه كان « سنوسرة الثالث » . ثانياً أبطال الأسرة الثانية عشرة ، وأقوامهم عزيزة وأشدّهم بأساً .

انظر : (الحديث عن ذلك فى الفصل رقم ١٠١ من هذا الكتاب) .
(٤) انظر : (الفصل رقم ٩٩ هامش رقم ٥) .

أبناء الأربعة وطول كل منها عشرون ذراعاً^(١) . وبعد ذلك بز من طويل لم يسمح كاهن « هيفايستوس » لدارا الفارسي أن يقيم تمثاله أمام هذه التماثيل قائلا: إن الملك الفارسي لم يقم بأعمال مثل التي قام بها « سيزوستريس » المصري ؛ لأن هذا قد أخضع من الشعوب مالا يقل عما أخضعه « دارا » . وبصورة خاصة « السكيثيين » الذين لم يستطع « دارا » قهرهم ، فلم يكن إذن من العدل أن يقام أمام الآثار التي شيدها « سيزوستريس » تمثال « دارا » ما لم يبره هذا بأعماله . ويقولون إن « دارا » قد وافق على ذلك الرأي^(٢) .

١١١ — وبعد موت « سيزوستريس » خلفه على العرش فيما يقال ابنه

(١) كدأبر الحكام البنائين من فراعنة الوادي وبخاصة « رمسيس الثاني » الذي بز أسلافه وخلفاءه ؛ بل بز ملوك الأرض جميعاً في هذا الميدان ، لم يسبقه فيه سابق ولم يلحقه لاحق ، ولم تخل عاصمة من عواصم الأرض في شمالها وجنوبها من آثاره الضخمة ، ونحن نعرف أنه سكن « ممفيس » ونزل منها قصرأ كان — أكبر الظن — في غربها أو في الشمال الغربي منها . انظر : (Badawi, Memphis S. 110) ، وبني فيها وعمّر ، وترك في ضواحيها آثاراً لا تدع مجالاً للشك في رواية هردوت ؛ فلقد أبقت الأيام على بعض تماثيله بين خرائبها ، وحسبنا منها ذلك التمثال الضخم الذي ما زال في قرية « ميت رهينة » ، ثم ذلك الذي نقلته حكومة الثورة وأقامته في ميدان محطة القاهرة .

(٢) أما عن السكيثيين الذين لم يستطع داراً قهرهم . فانظر : (الفصل ١٧٣ هامش رقم ١ من هذا الكتاب) . وأما أن كاهن « هيفايستوس » (= پتاح) قد رفض أن يقام تمثال « دارا » أمام تماثيل « سيزوستريس » (= رمسيس الثاني) لأنه لم يستطع ما استطاعه هذا الأخير ، فأمر يحتاج إلى نظر ؛ ذلك لأن « دارا » كان فاتحاً ، وما أظن أن رأى الكاهن — إن صحت الرواية — قد كان يرضيه إلا أن يكون « دارا » قد كان حاكماً من طراز إنساني ممتاز . وما أظن أن الغزاة والفاتحين من المغتصبين والمستعمرين قد كانوا كذلك .

« فيروس »^(١) الذي لم يقم بحملة حربية واحدة . وحدث أن أصابه العمى من جرّاء هذه الحادثة التالية : فاض النهر وقتئذ فيضانا شديداً جداً ؛ بلغ ارتفاعه ثمان عشرة ذراعاً ، وغمر الزروع ، وذلك عندما ثارت الريح ، واضطرب النهر . وهم يروون أن الملك — وقد تملكه سخطٌ مُضِلٌّ — أخذ رحماً

(١) إذا عرفنا أن « سيزوستريس » عند هردوت كان « رمسيس الثاني » ، فإن ابنه الذي بلغ العرش من بعده قد كان « منفتاح » . وأن هردوت لم يُسمِّه باسمه هذا ، وإنما أمماه « فرعون » . ولفظ « فرعون » كما نعلم ليس باسم علم ؛ وإنما كان لقباً يُنعتُ به الجالس على العرش ، ومعناه « البيت العظيم » . وقد ظهر وذاع في العصور المتأخرة . ومثله ممثّل لقب « الباب العالي » الذي كان يُنعتُ به سلاطين « آل عثمان » . على أن اللقب — فيما يظهر — قد أصبح بعد أيام المصريين القدماء علماً عاماً على كل من حكم مصر .
وبنو إسرائيل يُسمُّون من زعموا أنه عدّهم ، ثم أتبعهم بمجنوده ليشردهم في شرق الأرض « فرعون » .

والعجيب أن يُذكر اسم إسرائيل في التوراة ثمانين وستمائة مرة ، على حين أنه لم يرد في تراث المصريين الطويل غير مرة واحدة ؛ وذلك في أيام « منفتاح » حوالي عام ١٢٣٠ ق . م .

وليس يبعد أن يكون فيما يسميه « هردوت » عن ذلك الملك ، وبخاصة قصة العمى ، والاستشفاء منه بيول النساء ، أثرٌ من الدعاية السيئة التي نشرها بنو إسرائيل حول سيرة « منفتاح » ؛ نقول لا نستبعد ذلك وبخاصة إذا ذكرنا أن « هردوت » قد جاء بعد الفتح الفارسي الأول بنحو قرن من الزمان ، وأن اليهود الذين كانوا في مصر قد انتهزوا فرصة دخول الفرس فباتوا يطالبون بحقوق زعموا أنها كانت لهم ثم هُضمّت ، وباتوا يستصرخون الحاكم الفارسي ويستعدونه على المصريين . كما أننا لا نستبعد آخر الأمر أن « سفر الخروج » على الأقل ، قد كتب في ذلك العهد الفارسي . انظر : (في موكب الشمس ج ٢ ص ٨٨٨) .

وَأَلْقَى بِهِ وَسَطَ دَوَامَاتِ النهر . وبعد ذلك أصابه في الحال أذى في عينيه ففقد بصره ، وبقي أعمى عشر سنوات . وفي السنة الحادية عشرة ، جاءه وحى من مدينة « بوطو » (١) ينبئ أنه قد انتقضت ، وأنه قد يسترد بصره إذا غسل عينيه ببول امرأة لم تجتمع إلا بزوجها فقط . فبدأ أولاً بتجربة بول امرأته ، وبعد ذلك لم يبصر ، فحرب بعد ذلك على التوالى بول كثيرات من النساء . ولما عاد إليه بصره ، جمع النساء اللاتي جربهن ، حاشا تلك التي أبصر بعد الاغتسال ببولها ، جمعهن في مدينة تسمى الآن (أروتري بولوس) (٢) ، وبعد جمعهن أحرقهن جميعاً والمدينة معهن . أما المرأة التي أبصر بعد الاغتسال ببولها فاتخذها زوجاً له . ولنجاته من الأذى الذى لحق بعينه أقام نصبا في كل المعابد الشهيرة ، أحقها بالذكر على وجه الخصوص الأعمال التي أقامها في معبد الشمس ، وهي جديرة بالمشاهدة : مسلتان حجريتان ، صنعت كل منها من حجر واحد ، وطول الواحدة مئة ذراع وعرضها ثمانية أذرع (٣) .

(١) انظر الفصل رقم ٥٥ من هذا الكتاب .

(٢) « أروتري بولوس » (ERYTHRABOLUS) يعنى « الأرض الحمراء »

ويقصد بذلك غالباً منطقة « الجبل الأحمر » . وكانت لدى المصريين من البقاع المقدسة ، وكانت لهم فيها معبودة خالوها في هيئة الطير وأسموها « الحمراء » .

(٣) لم يقيم « منفتاح » مسلات في « هليوبوليس » . وأكبر الظن أن تكون القصة كلها أثراً من تلفيق المؤرخ اليهودي « يوسف » حين استغل قصة المكسوس وهجومهم على مصر ، فانتحلها لصالح قومه من بني إسرائيل . وهناك خلط — عن قصد أو جهل — بين « منفتاح » و « تحتشمس الثالث » فتجنب ذكر اسم الأول ، تماماً كما هي الحال عند من كتبوا سفر الخروج من قومه حين سموا من شرد اليهود باسم « فرعون » . انظر : (سفر =

١١٢ — تولى الحكم من بعده — حسب قولهم — رجل من « ممفيس » ،
يسمى باللغة اليونانية « پروتيوس »^(١). له فى « ممفيس » حرم جميل جداً ،
حسن الزينة ، يقع إلى الجنوب من معبد هيفايستوس^(٢). يقيم حول هذا الحرم

(= الخروج) . ثم انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ ص ٢٩٤) .
فالمسلستان كانتا لثحتمس الثالث ، وقد نُقلتا — فى زمان « أغسطس »
وعلى يد الحاكم الرومانى « برباروس » عام ٢٥ ق . م — إلى الإسكندرية
لتقاما فيها . وأمامها العرب حين رأوها « مسلتى كليوطره » ، ثم أُهديت
إحداها فى زمان « محمد على » إلى حكومة بريطانيا ، فأقيمت على شاطئ نهر
« التمس » بمدينة « لندن » عام ١٨٧٧ ، وأهديت الأخرى إلى حكومة الولايات
المتحدة فى زمان حفيده « إسماعيل » عام ١٨٨٠ ، وهى تُزَيْن اليوم
« حديقة السنترال » بمدينة « نيويورك » .

(١) پروتیوس : إن الوصف الذى وصف به « هردوت » هذا الحاكم إنما
يلأثم تماماً الملك الذى عُرِفَ عند المصريين باسم « ست نخت » وظهر حوالى
عام ١٢٠٠ ق . م . وبه تبدأ الأسرة العشرون .

انظر : (Ed. MEYER , Gesch. II 1, S. 581) . ويظن بعض
المؤرخين أنه ربما يكون من سلالة البيت الزائل . وقد جلس على العرش نحو
عامين ، واستطاع خلال ذلك الوقت القصير أن يرّث الطامعين فى العرش من
المدّعين . وأن يردّ الحياة المصرية إلى صوابها . انظر : (فى موكب الشمس
ج ٢ ص ٨٩٢ وما بعدها) كما استطاع — قبل أن يودع الدنيا (عام ١١٩٨) —
أن يجعل العرش من حقّ ولده عُرِفَ فى التاريخ باسم « رمسيس الثالث » .
انظر : (Breasted, Gesch. Aeg. S. 262) .

(٢) الواقع أن ملوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين ، قد بنوا فى معبد
« هيفايستوس » (= بتاح) كثيراً ، وبخاصّة « رمسيس الثانى » وولده
« منفتاح » ، ثم الملك « ست نخت » الذى يسميه هردوت « پروتيوس » .
وقد كانت عمارته — أكبر الظن — إلى الجنوب من عمارة « منفتاح » ، وفى المكان
المعروف اليوم بين خرائب « ممفيس » باسم « كوم القلعة » .
انظر : (Badawi, Memphis. S. 19/20) .

« فينيقيون » من « صور » . ويسمى هذا الحى كله معسكر الصُوريين (١) .
ويوجد فى حرم « پروتيوس » معبد يسمى معبد « أفروديت الأجنبية » (٢) .
وأظن أن هذا المعبد هو معبد هيلينا ، ابنة « تنداروس » ؛ وذلك لما سمعته
من أن « هيلينا » كانت تقيم عند « پروتيوس » (٣) . ولأن المعبد يسمى معبد
« أفروديت الأجنبية » بينما لا تطلق هذه التسمية على أى معبد من سائر معابد
« أفروديت » .

١١٣ — وعندما سألتهم ، روى لى الكهنة هذه القصة عن « هيلينا » (٤) :

(١) اقتضت العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر وجاراتها من دول
الشرق القريب أن ينفذ إلى مصر كثير من أمراء تلك البلاد ، ليتربوا فيها تربيةً
ثقافيةً وعسكريةً وكانت « ممفيس » — وهى يومئذ قاعدة مصر الحربية —
مقر أولئك الوافدين . وأكبر الظن أن أولئك الأمراء لم ينفذوا وحدهم
إلى مصر ، وإنما وفد فى ركبهم كثيرون من العُبدان والحوارى ، وأصحاب
التجارة . فنشأت لهم مع الزمن أحياء فى تلك العاصمة ؛ كان أكثرها إلى جوار
معبد « پروتيوس » . انظر : (Badawi, Memphis S. 29) .

(٢) هذه المعبودة أسيوية الأصل ، وانتمها الأسيوى الأصيل « عشتاره » ،
ساواها المصريون — أو قل قرَّبوا — بمعبودتهم « زخة » ، التى كانت كعبتها
فى « ممفيس » ، والتى ساواها الإغريق بمعبودتهم « أفروديت » .
انظر : (Badawi, Memphis 31 — 32) .

(٤) هيلينا : أكبر الظن أن قصة هيلينا كان أمرها قد ذاع فى مصر قبل
أيام « هرودوت » وأن الإغريق كانوا مشغوفين بالبحث والتقصى عن أصل كل
ما جاء فى ملاحم هوميرو . انظر : (RAWLINSON, Herodotus II. p. 158) .

خطفها الإسكندر^(١) من إسبرطة وركب البحر نحو بلده . وبينما هو في بحر
إيجيه طوّحت به رياح عاتية مضادة في « البحر المصرى »^(٢) ، ومن هناك
(لأن الرياح لم تهدأ) وصل إلى مصر ، وإلى ما يسمى الآن « بفرع النيل
الكانوبي » والملاحات^(٣) . وكان يوجد على الشاطئ — وما زال موجوداً
حتى الآن — معبد لهيرا كليس^(٤) ، إذا لجأ إليه عبدٌ أئى كائن من البشر ،
ووسم نفسه بالعلامات المقدسة — واهباً نفسه للإله — فلا يحل لأحد أن يمسه
بسوء . وما زالت هذه السنة متبعة في زمنى ، تماماً كما كانت منذ البداية .
لذلك لما علم أتباع الإسكندر^(٥) بالسنة الخاصة بهذا المعبد انفضوا من حوله ،

(١) هذا الإسكندر هو ثاڤى أبناء « پرياموس » صاحب طرواده من زوجه
« هيكوبه » وكان يعرف أيضاً باسم « پاريس » وقد خطف « هيلينا » هذه من
« إسبرطة » ، وكان ذلك سبباً في إشعال نار الحروب الطروادية المتصلة التي
استمرت أحد عشر عاماً (١١٩٢ — ١١٨٣) . انظر : (Wiedemann,)
Herodots Zzweites Buch S. 432 ff. .

(٢) البحر المصرى : هو بطبيعة الحال البحر الأبيض المتوسط .

(٣) الملاحات : يقصد بها تلك المستنقعات البحرية التي كان المصريون
يصطادون منها السمك ، فبأكلونه أو يصدرونه مملوحاً إلى الخارج . وقد مر ذكر
نظائر تلك الملاحات عند الفرع البيلوزى . انظر : (الفصل رقم ١٥ من هذا
الكتاب) .

(٤) كان هذا المعبد في ضاحية يُسميها الإغريق HERAKLEION موقعها
على مصب قناة تجرى من الإسكندرية إلى الفرع الكانوبي . كان معبدها الرئيسى
لآمون . فأما معبد « هيرا كليس » فقصد ذكره « استرابون » ، كما ذكره
« ديودور » أيضاً . انظر : (Wiedemann, ibid. S. 436) .

(٥) يقصد بأتباع الإسكندر العبيد الذين كانوا معه .

وجثوا ضارعين للإله ، وشكوا «الإسكندر» بُغية إيداعه ، ورووا القصة كلها ؛ ما حدث من أمر « هيلينا » والخطيئة التي ارتكبت في حق « مينلاوس » . وأعلنوا هذه الاتهامات إلى الكهنة ، وإلى حارس هذا الفرع ، وكان يسمى « ثونيس » (١) .

١١٤ — وبعد أن أصغى إليهم « ثونيس » ، أرسل — على جناح السرعة — إلى « پروتيوس » بمفيس رسالة يقول فيها : جاءنا أجنبي تيوكري الجنس بعد أن ارتكب ذنبا فاحشا في بلاد اليونان ؛ إذ غرر بزواج مضيفه بالذات ، وأحضرها معه هي وثروة طائلة جدا . وقد طوحت به الرياح إلى أرضك ، فهل تدعه يقلع دون أذى . أم تجرّده مما جاء به ؟ . فرد « پروتيوس » على ذلك قائلا : اقبضوا عليه مهما كان شأنه ، هذا الرجل الذي ارتكب إثما منكرا في حق مضيفه ، وأحضروه إليّ حتى أعرف ما عساه أن يقول .

١١٥ — فلما سمع « ثونيس » بهذا ، قبض على « الإسكندر » واستولى على سفنه . وبعد ذلك ساقه إلى « ممفيس » هو و « هيلينا » ومعهما الأموال وكذا العبيد الضارعين . فلما حضروا جميعا ، طلب « پروتيوس » إلى « الإسكندر » أن ينبئه من هو ومن أين أبجر . فحدثه الإسكندر بالتفصيل عن نسبه وأخبره باسم بلده وقصّ عليه — في إسهاب — أبناء رحلته من

(١) ثونيس THONIS : يزعم البعض أن ذلك ربما كان تصحيفا لاسم أحد حكام مصر ، وقد جاء ذكر زوجة له أسموها (POLYDAMNA) في شعر « هومير » . انظر : (Odys. IV, 228) ، وفي رأى « ديودور الصقلي » (Diod. I. 19) أن ذلك الحاكم قد خلع اسمه على تلك المدينة التي يقول إنها كانت إحدى الموانئ التجارية على الفرع الكانوبي .

المكان الذى أقلع منه . وبعد ذلك سأله « پروتيوس » من أين أخذ « هيلينا » . ولما حاد « الإسكندر » عن جادة الصدق ، ولم يقل الحقيقة ؛ كذّب به الذين جاءوا ضارعين . ورووا قصة جرمه بمخادفيرها . وأخيراً أعلن إليهم « پروتيوس » حكمه قائلاً ؛ لو لم أكن أهتم كثيراً بالآأقتل أحداً من الأجانب الذين تطوح بهم الرياح ويأتون إلى بلادى ، لثأرت لليونانى منك يا أخس الرجال ، لأنك بعد أن تمتعت بحقوق الضيافة ارتكبت أشنع ذنب ؛ فجامعت زوجة مضيفك نفسه ولم تكتف بذلك ؛ بل أغريتها بالفرار ، وخطفتها وأخذتها معك . ولم تكتف بهذا وحسب ، بل جئت بعد أن نهبت دار مضيفك . وبناء عليه ، لما كنت أعلّق أهمية كبيرة على ألا أقتل أجنياً ، فلن أسمح لك بأن تأخذ معك هذه المرأة ولا تلك الأموال ؛ بل سأحتفظ بها لمضيفك اليونانى إلى أن يرى الحضور بنفسه لأخذها ، أما أنت ورفاقتك ، فأنى أنذركم بأن تفلعوا وترحلوا عن بلادى إلى غيرها فى ظرف ثلاثة أيام ، فإن لم تفعلوا فسأعاملكم معاملة الأعداء (١) .

١١٦ — هكذا — وفقاً لرواية الكهنة — وصلت « هيلينا » عند « پروتيوس » . ويخيل إلى أن « هوميروس » كان على علم تام بهذه الرواية ، ولكن لما لم تكن مناسبة للملحمة مثل الرواية الأخرى التى أخذ بها ، فإنه قد

(١) لقد يبدو أن تقوى هردوت ، وإيمانه بالعدل الإلهى ، وبالثواب والعقاب هما اللذان دفعاه إلى أن يُجرى على لسان « پروتيوس » مثل هذا الحديث كما فعل فى كتابه الأول . انظر : (الفصلين رقم ١١٨ ورقم ١٢٣ من الكتاب المذكور) . ولو اطلع هردوت على تراث المصريين لكفاه من ذلك — لتصوير سلوكهم ، وإيمانهم بالقيم الخلقية — ما أممهم العلماء « كتاب الموتى » ؛ فإن فى هذا الكتاب ما يكفى للدلالة على حرص كل امرئ من آل فرعون على أن يبرأ من الآثام كافة طمعا فى أن يأتى ربه بقلب سليم .

أغفلها مع الإشارة إلى أنه كان على معرفة تامة بها . وينضح ذلك مما رواه عن طواف الإسكندر في « الإلياذة » (ولم يناقض نفسه في أى موضع آخر) . إذ قال إن الاسكندر ومعه « هيلينا » قد حيد به عن طريقه ، فطوّف بأماكن مختلفة ، ثم وصل إلى « صيدا » في « فينيقيا » . ثم هو يذكره في الكلام عن رسالة « ديوميديس » فيقول في أشعاره (١) :

« هناك حيث كانت توجد الثياب الموشاة بالرسوم من صنع لسوة « صيدا » اللاتي أحضرهن من هذه المدينة الإسكندر نفسه — الشبيه بإله — عندما ركب البحر الخضم أثناء رحلته التي حمل فيها « هيلينا » ابنة من يشار إليه بالبنان » (٢) .

ثم ردّد ذكرها أيضاً في هذه الأبيات من « الأوديسا » (٣) :

« وابنة « زيوس » كانت عندها عقاقير شافية ممتازة ، حضّرت بمهارة فائقة ، أهدتها إليها « بوليدامنا » المصرية ، امرأة « ثون » . وأرض مصر خصبة تنتج من العقاقير مالا حصره . كثير منها يضر ، وكثير منها إذا خلط كان دواء ناجحاً » .

وفي البيتين التاليين أيضاً يقول « مينلاوس » لتيلماخوس :

« وبمصر حجزتني الآلهة ، رغم رغبتى الملحة في الرجوع إلى هنا ، إذ قد فاتني أن أقرب لها قرباناً كافياً لأنني لم أنحر لها مائة ثور كاملة » .

(١) عنوان خامس كتب الإلياذة .

(٢) (٦) ٢٨٩ وما يلي ذلك ، هو التقسيم الحالي للملاحم « الموميرية » ويُنسب عادةً إلى Zenodote (عام ٣٠٠ ق . م) . ولم يكن ذلك معروفاً لدى هردوت بطبيعة الحال .

(٣) الأوديسا (٤) ٢٢٧ وما يلي ذلك ، ٣٥١ — ٣٥٢ .

يتضح من تلك الأبيات أن «هوميروس» كان على علم تام برحلة «الإسكندر» إلى مصر، لأن سورية تجاور مصر، ولأن الفينيقيين الذين يملكون «صيда» يقطنون سورية .

١١٧ — ويتضح من هذه الأبيات أن «الملحمة القبرصية» (١) ليست قطعاً لهوميروس؛ ولكنها لشاعر آخر إذ ورد فيها أن الإسكندر وصل من «إسبرطة» إلى «طروادة» خلال ثلاثة أيام وبصحبه «هيلينا» . لأن الريح كانت مواتية له وكان البحر هادئاً . بينما يقول «هوميروس» في «الإلياذة» : إن الإسكندر قد هام على وجهه وهي معه . فلنترك الآن هوميروس والملحمة القبرصية .

١١٨ — ولما سألت الكهنة عما إذا كانت الرواية التي يرويها اليونانيون عن طروادة باطلة (فارغة) (نافثة) أم لا ، ردّوا قائلين : إن معلوماتهم مستقاة من «مينلاوس» نفسه . وهذه روايتهم : بعد خطف «هيلينا» توجه إلى بلاد «تيوكريس» جيش عرمرم من اليونانيين لمساعدة «مينلاوس» . وعندما وصل الجيش إلى البر وضرب معسكراته ، أرسل إلى «طروادة» سفراء كان معهم «مينلاوس» نفسه . ولما اخترق هؤلاء أسوار المدينة ، طالبوا بهيلينا والأموال التي كان الإسكندر قد سرقها منهم عند رحيله ، وطالبوا بالتعويض عما ارتكب من ظلم . ولكن أهل «تيوكريس» أكدوا وقتئذ وفيما بعد ، مُقسِّمين ، وبغير قسم ، أن «هيلينا» ليست عندهم ، وأنهم لا يستحوذون على الأموال التي يُتهمون بأخذها ، وإن كل ذلك في مصر ، ولأنه ليس من

(١) الملحمة القبرصية : ينسبها بعض الكتاب إلى شاعر قبرصي عاش في مطلع القرن الثامن قبل الميلاد . ويقال إنها كانت من سبعة أجزاء .

العدل أن يؤخذوا بجيازة أشياء في حوزة « پروتيوس » ملك مصر . وظن اليونانيون أنهم يسخرون منهم ، وعلى ذلك حاصروا المدينة واستمر حصارهم لها حتى استولوا عليها . ولما استولوا عليها ولم تظهر لهم « هيلينا » بل وسمعوا نفس القصة التي قيلت لهم من قبل ، آمنوا عندئذ بصحة ما سبق قوله وبعثوا مينلاوس نفسه إلى « پروتيوس » .

١١٩ — وعندما وصل « مينلاوس » وأبحر إلى « ممفيس » ، روى القصة على حقيقتها ولقى منتهى الكرم . إذ استرد « هيلينا » ولم يمسها سوء ، وكذا كل أمواله . ولكن بالرغم من ذلك كله كان « مينلاوس » ظالماً للمصريين . فبينما كان يسرع للرحيل ، عاقه نوء شديد ، ولما استمر الحال على هذا المنوال وقتاً طويلاً ، فكر في أمر حرام . إذ أخذ صبيين من أبناء أهل مصر فذبحهما وقدمهما ضحية (١) . ولما ذاع الخبر بأنه قد ارتكب ذلك ، كرهه المصريون وطاردوه ؛ ففر هارباً بسفنه إلى ليبيا (٢) . ولم يستطع المصريون أن يذكروا الاتجاه الذي سار فيه هناك ، وقالوا إنهم وقفوا على بعض هذه المعلومات عن طريق الاستقصاء . أما ما حدث في بلادهم فهم يروونه عن يقين.

(١) إن التضحية بالبشر تكفيراً عن ذنب مقترف ، أو دَرءاً للشر يُنظر وقوعه ، أو نذراً للأرباب لقضاء خير مرتقب ، قد كانت من الأمور المعروفة في الأساطير اليونانية القديمة . وقد عُرِفَتْ عند غير اليونان أيضاً . وحسبنا أن نذكر قصة « إبراهيم » وإقدامه على التضحية بابنه (« إسحق » عند المسيحيين و « إسماعيل » عند المسلمين) . ثم قصة « عبد المطاب » وإقدامه على التضحية بولده « عبد الله » . وليس يفوتنا آخر الأمر أن نُذكر بأن المصريين من آل فرعون لم يعرفوا هذا النوع من التضحية . انظر : (ص ٢٢٤ هامش رقم ١) . (٢) ذكر « هردوت » في كتابه الرابع (فصل ١٦٩) ميناءً نسبها إلى « مينلاوس » على الشاطئ الليبي .

١٢٠ — ذلك ما رواه كهنه مصر . وأنا نفسى أوافق على ما قيل بشأن « هيلينا » للاعتبار التالى: لو أن « هيلينا » كانت فى « طروادة » لردّت إلى اليونانيين ، رغب الإسكندر أم لم يرغب . إذ لم يصب « برياموس » ولا الآخرون من أهله بخبل للدرجة أنهم يعرضون أنفسهم للخطر ، وكذا أبناءهم ومدنيتهم ليعاشر الإسكندر « هيلينا » . وإذا افترضنا أنهم أقرّوا ذلك بادى الأمر (١) ، إلا أنه لما كان عدد القتلى من سائر الطرواديين كبيراً كلما التحموا مع اليونانيين ، ولما كان يموت لبرياموس كلما نشبت الموقعة ، اثنان أو ثلاثة أو أكثر من أبنائه ، (إذا جاز الكلام اعتماداً على شعراء الملاحم) (٢) ، فإنى أعتقد شخصياً أن « برياموس » — فى مثل هذه الظروف — كان يرد « هيلينا » إلى الأخيين ، حتى ولو كان هو نفسه الذى يعيش معها إذا قدر له أن يتخلص بذلك من الشرور المحيطة به . كما أن الملك لم يكن ليثول إلى الإسكندر وأن مقاليد الأمور كانت فى يديه لشيخوخة « برياموس » بل إن « هيكتور » ، أخاه الأكبر الذى يفوقه رجولة ، كان صاحب الحق فى تولى الملك بعد موت أبيه . ولم يكن من اللائق بهيكتور أن يسمح لأخيه بالاستمرار فى عبثه وخصوصاً أن شروراً جسيمة قد أصابت « هيكتور » بالذبات وسائر الطرواديين بوجه عام بسبب الإسكندر . كلا . فلم يكن فى مقدورهم أن يردّوا « هيلينا » (٣) ولم يصدقهم اليونانيون عندما قالوا الحق .

(١) يعنى أنه لم يكن فى الإمكان ردّ « هيلينا » وتسليمها إلى « منيلاوس » .
 (٢) يسمونهم الـ zykliker ؛ ويعنون تلك الطائفة من الشعراء الذين كانوا يقلدون « هوميروس » ، والذين بنّوا شعرهم من أحداث حروب « طروادة » . انظر: (Dr. Friedrich Erdmann, Handbuch der Fremdwoerter, Leipzig 1887) .

(٣) — فى رأى « هردوت » — لم يكونوا قادرين على ذلك .

بل كان ذلك — وهذا رأي الخصاص أعلنه — تدبيراً إلهياً ليتضح للناس من هلاك أهل طروادة الذريع أن الآلهة تنزل العقوبات الصارمة جزاءً وفاقاً للأخطاء الجسيمة. ذلك هو رأي الشخصى (١).

١٢١ — وقال الكهنة إن « رامپسينيتوس » (٢) الذى ورث الملك عن « بروتوس » قد خلف تذكاراً لحكمه بوابة معبد « هيفايستوس » (٣) التى تتجه نحو الغرب ، وأقام أمام هذه البوابة تمثالين ارتفاع كل منهما خمسة وعشرون ذراعاً . ويسمى المصريون التمثال القاسم ناحية الشمال « الصيف » والآخر القاسم ناحية الجنوب « الشتاء ». وهم يسجدون تعظيماً للتمثال المسى بالصيف

(١) ذلك مظهر من مظاهر تقوى « هردوت » وعقيدته فى العقاب والثواب . وقد أشرنا إلى ذلك فى الفصل رقم (١١٥) من هذا الكتاب .

(٢) RHAMPSINITUS . مثل هذا الاسم كمثل سابقه PROTEUS الذى مر ذكره فى الفصل الثانى عشر بعد المئة من هذا الكتاب — لم يرد ذكره بين أسماء الفراعنة فى الأبحاث والآثار المعروفة . على أنه إذا صح ما قدرناه فى الفصل المذكور من أن PROTEUS هو « ست نخت » وأنه كان آخر ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، أو بمعنى أدق ، قد كان حلقة الوصل بين الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين؛ فن المرجح أن يكون RHAMPSINITUS خليفته أول ملوك الأسرة العشرين ونفى « رمسيس الثالث ». وإذا كنا نعرف بأننا لا نستطيع إثبات ذلك من واقع الآثار ، فأننا لا نعدم فى حكم المنطق ما يحملنا على مثل هذا التخمين . انظر : (Roeder, in RE. 2, 1. unter Rhamp. Sp. 14) ثم (Helck, Untersuchungen Zu Manetho (Berl. 1956)) (٣) انظر الحديث عن هذا المعبد (فى الفصل رقم ٩٩ من هذا الكتاب)؛ فلقد تعاقب أكثر الفراعنة منذ عهد « منا » على التجديد فى عمارته ومنهم « رمسيس الثالث » . ولعمارة هذا الأخير فيه وصف رائع جاء تفصيله فيما بين أيدينا من تراث زمانه . انظر : (Badawi, Memphis S. 20) .

ويجلونه . أما المسمى بالشتاء ، فيتصرفون إزاءه خلاف ذلك (١) .

وقالوا إن « رامپسينيتوس » قد امتلك من الفضة ثروة طائلة ، لم يستطع ملك ممن خلفوه ، فيما بعد ، أن يقتنى أكثر من هذه الثروة أو أن يدانيه فيها (٢) . وحرصاً منه على كنز هذه الأموال في أمان ، ابنتى خزانة من الحجر تمتد لإحدى حوائطها إلى الجدار الخارجى من القصر (٣) . ولكن البناء

(١) أكبر الظن أن « هردوت » يقصد تمثالين ؛ أحدهما لحورس والآخر لست ، وقد كان الأول معبود الشمال وخليفة أبيه « أزوريس » رب الحصب والخير ، وكان الثانى عدو الأول وواتره ، وقتل أبيه ، علماً على الجنوب ، ورباً للصحرى ، ورمزاً للعقم والجفاف .

(٢) الواقع أن أغنى كنوز مصر المعدنية وأشهرها قد كانت فى الأغلب الأعم من الذهب ؛ ذلك لأن الذهب كان وفيراً فى مناجها . فأما الفضة فكانت تستورد من الخارج . والشئ الذى لا شك فيه هو أن « رمسيس الثالث » قد كان ملكاً غنياً واسع الغنى ؛ يشير إلى ذلك مقدار ما أنفق على بيوت العبادة ، وما أغدق عليها من منح ، وما أوقف عليها من أرض وماشية . وفى الحق أنه أعطى فأجزل ؛ عطاء لم نسمع بمثله فى تاريخ الفراعين من أسلافه وخلفائه . انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ ص ٨٩٣ - ٨٩٩ وما بعدها) .

(٣) تشير هذه القصة إلى أنها إغريقية الأصل ؛ إذ تذكرنا حوادثها بقصة الأخوين : Agamedes ، Trophonius وكانا بنىءين ؛ قاما ببناء خزانة لكنوز الملك Hyrieus . وحشرا فى جدرانها حجراً يمكن سحبه فى سهولة ويسر ؛ بحيث يتمكن من يريد دخول الخزانة أن يأتيا من غير بابها . ولما عرف الملك أن كنوزه تنقص ، نصب فى الخزانة شركاً وقع فيه أحد الأخوين المشار إليهما . وعجز أخوه عن تخليصه ، فاضطر إلى أن يحتز رأسه حتى لا يتعرف عليه أحد .

فالقصة ، كما ترى ، إغريقية النسيج . وليس يبعد أن يكون المصريون قد سمعوا بها من الإغريق الذين سبقوا « هردوت » إلى مصر ، فأعادوا نسجها =

— لغرض خبيث في نفسه — فكر في الحيلة التالية : رتب الأحجار بحيث كان من السهل على رجلين ؛ بل على رجل واحد رفع أحدها من الحائط . ولما تم بناء الخزانة كمنز الملك أمواله فيها . ومرت الأيام . . فلما قاربت حياة البناء على الانتهاء استدعى أولاده (وكان له اثنان) . وبين لهما كيف أنه لجأ إلى الحيلة في بناء خزانة الملك حرصاً منه على أن يعيشا في رخاء . وشرح لهما بـإيضاح كل ما يتعلق برفع الحجر ، وأعطاهما أبعاده ، ثم قال لهما إذا حافظا على ذلك باهتمام ، فإنهما سيصيران الأمنيين على أموال الملك . ولما مات أبوهما ، لم ينتظرا طويلاً قبل أن يبدأ العمل . وذهبا إلى القصر ليلاً ، واكتشفا الحجر في الجدار ، وانتزعا بأيديهما دون مشقة . وحملوا مقداراً عظيماً من الأموال . وحدث أن فتح الملك الخزانة ، فأخذته الدهشة عندما شاهد أن المال الذي بالقدر (١) قد قل . ولكنه لم يستطع أن يتهم أحداً لأن الخزانة مقفولة والأختام بقيت سليمة . ولما فتح الخزانة مرة ثانية وثالثة ، تبين له أن الأموال آخذة في النقصان باستمرار . (لأن اللصين لم يتراخيا في النهب) فلجأ الملك إلى هذه الحيلة : أمر بصنع أشراك ووضعها بجانب القدر التي وضعت فيها الأموال . وذهب اللصان إلى الخزانة كما فعلا في الأيام السابقة . ولما دخل

== بعد أن أضافوا إليها شيئاً من خيالهم القصصى . وقد يكون السبب في إدارة حوادثها حول ذلك الفرعون (رمسيس الثالث) بالذات ما كان معروفاً عن ثرائه الواسع العريض من ناحية ، ثم ما عُرِفَ من المؤامرات التي دُبِّرَت في بلاطه . — وقد تكون أودت بحياته — من ناحية أخرى . والله وحده يعلم الغيب من كل أمر .

(١) إن حفظ العُمتلة في قدور الفخَّار من الأمور المألوفة . وما زال المصريون من أهل الريف يفعلون ذلك ، لأن الفخَّار أجفُّ ، وأحفظ ، وأوعى من غيره .

أحدها فيها واقترب من القدر ، وقع لتوه في الشرك . ولما أدرك في أى مأزق خرج هو ؛ دعا أخاه في الحال وأراه ما ألمَّ به ، وأمره بأن يدخل بسرعة متناهية ليقطع رأسه ، حتى إذا رآه أحد وتعرّف على شخصه ، لا يكون في ذلك هلاك الثاني أيضاً . واعتقد هذا بوجهة الفكرة فاقتنع بها ونفذها ، ثم أعاد الحجر إلى مكانه ، ورجع إلى بيته يحمل رأس أخيه . وفي صبيحة اليوم التالي دخل الملك الخزانة ، وذهل عندما رأى جثة اللص في الشرك دون رأس ، وأن المكان كان سليماً لا أثر فيه مطلقاً لدخول أو خروج . ولجأ الملك — في حيرته — إلى عمل هذا . . . علق جثة اللص فوق الحائط^(١) ، وأمر الحراس الذين عينهم لحراستها أن يقبضوا على من يروونه باكياً أو نادباً ، وأن يحضروه إليه . ولما علقت الجثة ، ثارت ثورة أمه وتحدثت إلى ابنها الذى تبقى لها ، وأمرته بأن يمتثل بكل ما يستطيع من الوسائل حتى يفك جثة أخيه ويحضرها ، وهددته بأنها — إذا هو أهمل ما قالت — ستذهب بنفسها إلى الملك وتبلغ عنه بأنه سارق المال . ولما داومت على تأنيبه بمرارة^(٢) ، ولما لم ينجح هذا الولد المتبقي في إقناعها رغم ما ردّده عليها من قول ، فكر هو في هذه الحيلة . أعدّ حيراً وزقاقاً ملاءها بالنبيذ وحمل بها الحجير ، ثم ساق هذه وعندما

(١) كان ذلك النوع من الصّلب معروفاً عند قدماء المصريين ، ويكفى أن نذكر ما فعله فرعون مصر « أمينوفيس الثانى » بالعصاة والخارجين من أهل فلسطين . انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ . ص : ٥١٦) .

وانظر أيضاً (Legrand, Hérodote, Livre 2. P. 148. Note 3.) .

(٢) ذلك أمر يبدو طبيعياً ؛ لأن الأم تكره أن تبقى جثة ولدها بغير تحنيط . انظر : (ما ذكر عن قيمة التحنيط عند الفراعنة فى الفصل رقم ٨٥ من هذا الكتاب) .

اقترب من حرّاس الجثة المعلقة شدّ إليه من الزقاق اثنين أو ثلاثا ، وفك بنفسه رقابها المربوطة ، ولما أخذ النبيذ في الانهمار ، بدأ يضرب رأسه ويصيح بصوت جهورى - كأنه لا يدرى إلى أى الحخير يتجه أولا - ولما رأى الحرّاس النبيذ المنهمر^(١) ، أسرعوا جميعاً ، يحملون أوعية ليأخذوا فيها النبيذ المتدفق حاسبين ذلك غنما . أما هو فتظاهر بالغضب وأمطرهم وابلا من اللعنات . ولما أخذ الحرّاس في مواساته ، تصنع الهدوء بعد برهة ، وتخلّى عن غضبه . وأخيراً ساق الحخير من الطريق ، وأخذ في إعدادها . وجرى بينهم حديث طويل ، ومزح معه أحدهم بما حمّله على الضحك ، فقدم لهم إحدى الزقاق وجلس الحراس في الحال ، حيث كانوا ، معتزمين الشرب ، ودعوه إلى البقاء معهم لمشاركتهم في احتساء النبيذ فوافق وبقى . وبدأ الحرّاس يتلاطفون معه في ود . فقدم لهم أيضاً إحدى الزقاق . ولما أفرط الحراس في شرب النبيذ ، صرعهم السكر ، وغلبهم النوم فناموا بالمكان الذى كانوا به يشربون . فأما هو ، فحين تقدم الليل ، فك جثة أخيه ، وحلق على سبيل السخرية الخلد الآمين لجميع الحراس^(٢) ، ثم حمل الجثة على حميره وعاد إلى داره بعد أن نفذ ما قد أمرته به أمه .

فاستشأ الملك غيظاً حينما بلغه الخبر بأن جثة اللص قد سرقت . وأراد أن يكشف بأى حال من الأحوال شخصية ذلك الذى دبر تلك المكيده ، فلجأ إلى الحيلة التالية : ولو أننى لا أصدقها .

(١) أكبر الظن أن « هردوت » قد خلط هنا بين الجمعة والنبيذ ، فقد كانت الجمعة هى الشراب الوطنى المألوف عند آل فرعون . انظر : (الفصل السابع والسبعين من هذا الكتاب) .

(٢) ذلك أمر منطقي ؛ لأن حلق الذقن على هذا النحو شئ مهين .

وضع ابنته في مأخور ، وأمرها أن تستقبل جميع من يفدون إليها على السواء . وأن تختبر كل زائر منهم ، قبل مجامعته إياها ، على أن يقص عليها أروع وأخبث ما فعل في حياته . فإذا روى لها أحدهم ما حدث بشأن اللص ؛ فعليها أن تمسك به ولا تسمح له بالخروج . وعندما بدأت الصبية بتنفيذ ما أمرها به أبوها ؛ فكر اللص فيما يلي : — لأنه كان عليماً بالسبب الذي من أجله دُبرّت هذه الخديعة ، وكان يرغب في أن يبرزَ الملك في مكره — قطع من عند الكتف ذراع جثة شخص مات حديثاً ، وذهب إلى ابنة الملك ، يحمل الذراع تحت رداءه . ولما دخل عندها ، وجهت إليه الأسئلة التي وجهتها لمن سبقوه . فأنبأها أن أشنع ما قام به هو قطع رأس أخيه عندما وقع في شرك في خزانة الملك ، وأن أمهر ما أقدم عليه هو إسكار الحراس وفك جثة أخيه المعلقة . فلما سمعت الفتاة ذلك ، همّت بالقبض عليه ، فدنا إليها اللص في الظلام ذراع الجثة ، فأمسكت بها . وأطبقت عليها حاسبة أنها ممسكة بذراعه هو . أما اللص فترك لها الذراع وخرج هارباً . فلما وصلت هذه الأنباء أيضاً إلى مسامع الملك ، اندهش لفطنة هذا الرجل وجرأته وأرسل في النهاية إلى كافة المدن معلناً ، أنه إذا جاء الرجل إلى حضرته فهو يضمن له حرّيته ، ويعده بوعود مغرية . فوثق به اللص وذهب إليه فأعجب به « رامپسينيتوس » أشد الإعجاب وزوجه من ابنته هذه ؛ لكونه أروع الخلق أجمعين ، إذ أنه يميز المصريين كلهم وهؤلاء يميزون سائر البشر في البراعة .

١٢٢ — وبعد ذلك قيل لي (١) إن هذا الملك نزل حياً إلى العالم

(١) يقصد أنه سمع ذلك من الكهّان .

السُّفلى^(١) الذى يسميه اليونانيون الجحيم وهناك لعب النرد مع «ديمتر» وتغلب عليها أحياناً وانتصرت أحياناً عليه^(٢). ثم عاد ثانية إلى الأرض ومعه منديل مشغول بالذهب، أهدته إليه^(٣).

(١) تلك قصة كانت معروفة لدى المصريين وبخاصة فى عصورهم المتأخرة .
انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ ص ٩٠٦ وما بعدها) .

ثم انظر : ما جاء عن قصة «خواسى» فى (ERMAN, Relig. S. 406 ff.).
(٢) إن « لعب النرد » (أو كيفما كانت تسميته) قد كان معروفاً فى العالم القديم ، وبخاصة عند المصريين من آل فرعون الذين عرفوه قبل الإغريق ؛ تشير إلى ذلك آثارهم المعروفة منذ أبعد عصور التاريخ . وحسبنا ما عُثر عليه من أدوات تلك اللعبة بين آثار الملك « توت عنخ آمون » ، ثم ما نراه مصوراً من ممارسة اللعبة فى رسوم قبر الملكة « نفرتارى » زوجة « رمسيس الثانى » فى جبانة الملكات غربى طيبة (WRESZINSKI, ATLAS, Taf. 49) .

ثم (Erman - Ranke, Aeg. 1923) .

ثم (Posener, Dict. de la Civil. eg. Paris 1954) .

وأخيراً (Pieper, D. Brettspiel d. alt. Aeg. 1909 S. 10 f.) .

ويقول « هردوت » إن الإغريق عرفوا تلك اللعبة عن اللّيديين . انظر :
(هردوت الكتاب الأول فصل ٩٤) . ونحن نعتقد أن ما أشار إليه من لعب الفرعون الذى أسماه RHAMPSINITOS مع «ديمتر» (= ايزيس) قد كان له معنى رمزى كالذى صوّره بلوتارخ بين « هرميس » « وسيلين » . انظر :
(Plut. Isis & Osiris, Cap. 12) .

(٣) نكاد نعتقد أن تلك الهدية التى صورتها الأسطورة فى صورة « منديل » موشى بالذهب لا تخرج عن تصوير المصريين من آل فرعون لأنفسهم فى الخصب ، فالمنديل — أغلب الظن — يمثل الأرض الزراعية ، وموشى الذهب يمثل القمح .
وقديماً سمى المصريون القمح « ذهباً » (Wb. Bd. II, S. 240) . ثم إننا نعتقد آخر الأمر أن عودة RHAMPSINITOS من أسفل الأرض رمزاً إلى عودة الخصب والخير . نقول هذا ونحن نعلم أن بعض العلماء قد عرضوا لتفسير قصة =

ويقولون إن عودة « رامسينيتوس » من الجحيم — بعد أن نزل إليه — جعلت المصريين يحتفلون بعيد ما زالوا — فيما أعلم — يحيونه حتى وقتى هذا . وليس فى إمكانى القول بأن ذلك هو السبب فى إقامة العيد . ويوم العيد نفسه ، بعد انتهاء الكهنة من نسج ثوب ، يلبسونه أحدهم ويعصبون عينيه بعصابة ، ويقودونه على الطريق المؤدية إلى معبد « ديمتر » الذى يبعد عن المدينة عشرين « ستاد » . ثم يعودون أدراجهم فى الحال . أما ذلك الكاهن الذى عصبت عيناه ، فيقوده — حسب قولهم — ذئبان إلى معبد « ديمتر » ، ثم يرجعان به على الفور من المعبد إلى نفس المكان (١) .

== المنديل ومنهم Legrand فقال إنه منديل لتجفيف العرق كذلك الذى نراه غالباً
مثلاً فى أيدي التماثيل .

انظر : (Legrand, Hèrodote, Livre, II Notice, 47) .
ثم Sethe ، ويرى أنه المنديل الملفوف حول شارة الحياة التى يمسك بها الملك .
انظر : (Sethe, Untersuchungen zur Gesch. & Altertumskunde)
6 , (Aegyptens, Bd. II, Sesostria, (Leipzig 1900) .

(١) إن فى تسمية هذا الحيوان بالذئب أثراً من خطأ الإغريق وخطئهم ، وربما شاركهم فى هذا الخطأ من حاصروهم من المصريين فى العصور المتأخرة ، يؤيد ذلك ما أطلق الإغريق مثلاً على « سيوط » حين أمموها « ليسكوبوليس » (== مدينة الذئب) على حين كان رمزها المقدس حيواناً من بنات آوى ، ولم يكن من الذئاب . انظر : (Kees, G. G. S. 27) . والمصريون قد عرفوا طبيعة « ابن آوى » منذ أقدم العصور ، وعرفوا له حاسة الشم القوية ، وقدسوه من أجل ذلك . ثم خافوه على قبور موتاهم من أن ينبشها وحاولوا أن يعزوا أنفسهم عن ذلك نخلوه حارساً على قبور موتاهم . والفكرة — على بساطتها — من طبيعة النفس البشرية حين تلتصق العزاء فى ساعة المحنة الطارئة . ويكفى أن نذكر — على سبيل المثال — أن الناس فى عصرنا الحديث قد كانوا يلجأون ==

١٢٣ — وليقبل روايات المصريين من يرى أن مثل هذه الأشياء تحتل التصديق . أما أنا ففهمت أن أسجل في هذا التاريخ ما أسمع من أقوال أية جماعة (١) . يقول المصريون إن « ديميتير » و « ديونيسوس » هما أصحاب السلطان في الجحيم (٢) . والمصريون كذلك هم أول القائلين بخلود الروح (٣) ودخولها — بعد فناء الجسد — في جسم حيوان آخر عند ميلاده . وبعد أن

== إلى « شيوخ المناسر » فيعهدون إليهم بحراسة أرزاقهم .
ولقد بالغ المصريون القدماء في تقديرهم حين جعلوا من « ابن آوى » الذى خافوه على قبور موتاهم « محنطاً » لأجساد أولئك الموتى ، مقدّرين — فى الغالب — أن الصانع شديد الحرص على ادخار آثار صنعته والحفاظة عليها .
وليس يفوتنا آخر الأمر أن نذكر ما جاء فى حديث القوم عن رحلة الشمس الليلية — حين تخيلوا سيرة موكبها من تحت هذه الأرض — من أن تلك الكلاب من بنات آوى قد كانت تجرّ زورقها فى الظلام . وظاهر من خلال كل ذلك أن الإبصار لم يكن هو الذى يهدى تلك الكلاب من بنات آوى ، وإنما هى حاسة الشم القوية عند تلك الحيوانات . انظر : (Sethe, Pyr. Texte, Spruch 215).
(١) انظر الفصل التاسع والتسعين من هذا الكتاب .
(٢) يعنى « إيزيس » و « أزوريس » وقد كان الأخير سلطاناً على العالم الآخر .
(٣) آمن المصريون القدماء بحياة أخرى من وراء الموت وآمنوا بالخلود فيها ، ودعاهم ذلك إلى التفكير فى تأمين أجسادهم وحفظها من العدم .

انظر : (Kees, Totenglauben, S. 38 ff. 45. 46 ff.) ، والحرص على تحصينها بما نحتوا لها فى الصخر من بيوت ، وما حملوا إليها من زاد مادى ومعنوى .
انظر : (Kees, Totenglauben S. 50) وحتى لاتضل الأرواح السبيل إليها .
وفى ذلك ما يشير إلى اعتقادهم فى خلود الروح . على أن السبيل إلى حياة الخلد لم يكن هينا ولا ميسورا ، وإنما كان مشروطا بالتقوى والبراءة من كبائر الإثم . انظر : (Erman, Relig. S. 158 f.) . كذلك صور المصريون الروح فى هيئة طائر .
انظر : (Naville, T. B. cap. 76 - 88) ثم (Kees, T. G. S. 56 f.)

إلى البؤس^(١) . إذ بدأ بإغلاق المعابد ، ومنع المصريين من التضحية^(٢) . ثم أمرهم جميعاً بالعمل من أجله ؛ فأجبر البعض على جرّ الأحجار من المحاجر الموجودة بالجبل العربى^(٣) حتى النيل ، وأمر البعض الآخر باستلامها بعد نقلها في السفن عبر النهر ، وجرّها إلى الجبل المسّى بالجبل الليبى^(٤) . وكانوا

(١) لا نظن أن عصر « خوفو » كان عصر بؤس . ولو كان كذلك ؛ لما قدّر خلفائه أن ينهضوا بعده بذلك التقدم العمرانى الذى نرى آثاره فيما تركوا وترك الناس من حولهم من آثار تدل على الرخاء المادى . وأكبر الظن أن يكون ماسمعه « هردوت » ، بقية من آثار الدعاية التى قام بها كهان الشمس ، وأماروا حربها على البيت الحاكم أيام الأسرة الرابعة . وشواهد ذلك بادية واضحة في ذلك القصص الذى نطالعه في القرطاس المعروف باسم « قرطاس فستكار » .

انظر : (« فى موكب الشمس » ج ١ ص ٢١٨ وما بعدها) .

(٢) ليس ذلك بالأمر المعقول ، وإنما هو أثر من آثار الحرب الباردة التى أدارها أصحاب مذهب الشمس من أعداء البيت الحاكم والثائرين عليه . انظر : (« فى موكب الشمس » ج ٢ ص ٨٨٧ وما بعدها) . مثل هذه الإشاعات قد كانت معروفة بين الناس ؛ ولا أدل على ذلك من أنها بقيت إلى ما بعد أيام « هردوت » بقرون ، وقد ذكرها المؤرخ المصرى السمنودى « منتون » . وكان كاهنا مصرياً عاش في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد .

(٣) انظر الحديث عن محاجر الجبل العربى في الفصل الثامن من هذا الكتاب . فأما إجبار الناس وتسخيرهم في أعمال الدولة ففسالة فيها نظر ، وما ينبغى لنا مطلقاً أن نحكم على عصر « خوفو » بمنطق الحياة وأهلها في أواخر القرن العشرين . انظر : (حديثنا عن السخرة في الفصل الثامن بعد المئة من هذا الكتاب) ، ثم عن « الخدمة الإجبارية » في كتابنا عن تاريخ ممفيس .

انظر : (Badawi, Memphis S. 42) .

(٤) يقصدُ بالجبل الليبى الهضبة التى أقيمت عليها الأهرام من شاطئ الوادى الأيمن .

يشتغلون في مجموعات من مائة ألف رجل ؛ تعمل كل منها ثلاثة أشهر . ولقد مرت عشر سنوات أنهكت فيها قوى الشعب لإنشاء الطريق الذي جروا عليه الأحجار (١) . وهذا — في نظري — عمل لا يقل كثيراً عن تشييد الأهرام (طوله في الواقع خمسة « استاد » وعرضه عشرة « أبواع » وعلوه في أقصى ارتفاعه ثمانية أبواع) (٢) . وهو مبنى من أحجار مصقولة ، حُفرت عليها صور . وقد انقضت العشر سنوات في بناء هذا الطريق ، وبناء الغرف التي تحت الأرض في التل الذي تقوم عليه الأهرام . وقد بنى هذه الغرف

(١) لقد خلط « هردوت » بين شيئين ؛ خلط بين الطريق الذي كانت تستحَبُّ عليه الأحجار محمولة فوق الزحافات الخشبية — ولم يكن طريقاً واحداً بل كانت طرقاً متعددة — وبين الطريق الذي يجري بين ما نسميه اليوم « معبد الوادي » الواقع على شاطئ النهر ، والمعبد الجنائزى الذي يقع في شرق الهرم مباشرة . وأوضح مثل لذلك ما بقى إلى اليوم من عمارة هرم « خفرع » . فأما أثره عند « خوفو » فلا نشك في أن « هردوت » قد رآه ؛ ولا أدل على ذلك من أن العالم الألماني R. Lepsius الذي زار مصر قبل مئة عام ويزيد قد رآه وتحدث عنه ، وعن التفق من تحته يسلكه الحجيج وغيرهم من الزوار إلى الناحية المقابلة بدلاً من الدوران حول الضريح . وقد كشفت أعمال التنقيب عن بقايا هذا الطريق ؛ وكانت صفحاته مزدانة بالرسوم ، كما وجدت كذلك بقية من أسس المعبد الجنائزى في الجهة الشرقية من الهرم .

انظر : (Ricke, Bemerkungen, I, 37, Fig. 10.) .

(٢) لم يكن من السهل على « هردوت » ولا على الذين تحدث إليهم أن يعرفوا الحجرة التي دُفِنَ فيها الملك ؛ ذلك لأن علماء الآثار والعمارة في العصور الحديثة قد تأكدوا في ضوء دراساتهم الدقيقة من أن تغيرات كثيرة قد حدثت في تصميم بناء الهرم بحيث تغيّر موضع الدفن في بناء الهرم غير مرة . يضاف إلى ذلك أن مواضع الدفن في أهرام الأسرة الخامسة ، قد وُجدت في مستوى عادي لا ينخفض عن قاع الهرم .

واتخذها مقابر لنفسه^(١) في جزيرة تنقل إليها مياه النيل بواسطة قناة^(٢) . واستغرق بناء الهرم نفسه عشرين عاماً . وهو مربع طول كل واجهة من واجهاته ثمانية بلترا ، وارتفاعه مثل ذلك^(٣) . وهو مبني من حجر مصقول

(١) ظاهر أن حديث القناة والجزيرة خلطٌ وسوء فهم مصدرها بعض ما ترك المصريون من قبور وهمية لإمام الشهداء « أزوريس » ، ومنها ذلك الأثر الباقي إلى جوار معبد الملك « سيتي الأول » في العرابية المدفونة ، فحجرة الدفن قد كانت في قلب الهرم ، ولا يمكن أن تصل إليها المياه بحال من الأحوال ؛ بل إن الهرم كله قد بنى على ربوة لا يمكن أن يصل إليها ماء النيل مهما يرتفع منسوب فيضانه . فأما القناة فهي تلك الحفرة الدائرة من حول الهرم والتي خصصت لوضع السفن التي خال المصريون أن موتاهم سوف يستعينون بها في العالم الآخر على الانتقال من مكان إلى مكان . ولقد أمماها بعضهم خطأ « مراكب الشمس » . ويبلغ عددها ثمانية . لم يستحق منها هذا الاسم الأخير غير اثنتين ؛ إحداها لرحلة النهار والأخرى لرحلة الليل . ولقد كُشِفَ عن إحدى تلك الحفر عام ١٩٥٤ في الناحية الجنوبية من ضريح « خوفو » ؛ طولها ٣١٢٠ متراً ، وعرضها ٢٦٠ من الأمتار ، وعمقها ٣٥٠ . ووجدت بها سفينة من خشب الأرز تكاد تكون — بين ما عثر عليه من السفن — منقطعة النظير . ومن أمثالها — وإن لم يكن يناظرها في الجودة — ما عثر عليه منذ أكثر من ستين عاماً في منطقة دهبور ونفى المراكب الثلاث التي آل منها مركبان إلى متحف القاهرة وآلت الثالثة إلى شيكاغو حيث استقرت بمتحف التاريخ الطبيعي فيها ، وكلها من أيام الأسرة الثانية عشرة . انظر : (Knauers Lex. d. Aeg. Kultur, S. 45) .

(٢) يعني نحو ثمانية قدم .

(٣) الواقع أن الأحجار التي استخدمت في بناء الهرم كانت مصقولة بحيث لا يحتاج البناء في وضعها إلى ما يسمونه « المونة » إلا بقدر ما يسمح بدفع الواحد منها فوق الآخر في سهولة ويسر . فأما وزن كل منها فيبلغ في الأغلب الأعم طنّاً ونصف طن .

يلتصق بعضه ببعض تمام الالتصاق (١) . وليس هناك حجر واحد يقل طوله عن ثلاثين قدما .

١٢٥ — وفيما يلي وصف بناء هذا الهرم . بُنِيَ أولاً على هيئة سلام يسميها البعض « درجات » والبعض الآخر هياكل (٢) . وبعد تشييده بهذا الشكل رفعوا الأحجار الباقية بواسطة آلات مصنوعة من ألواح خشبية قصيرة (٣) ، وكانوا يرفعون الأحجار من الأرض إلى الطبقة الأولى من الدرجات . وبعد رفع الحجر إلى هذه الطبقة كان يوضع على آلة أخرى قائمة على الطبقة الأولى ، ومنها يرفع إلى الدرجة الثانية ويوضع في آلة أخرى . وكانت هناك آلات بعدد الدرجات ، أو لعلها كانت آلة واحدة سهلة الحمل . كانوا ينقلونها من طبقة إلى أخرى كلما جروا الحجر . ومن الواجب التحدث

(١) يعني أن الأحجار ملتصقة بالثقل والتفريغ .

(٢) علته يقصد بالهياكل ما نسميه اليوم « بالمصاطب » . والشئ الذي لا شك فيه هو أن بناء الهرم يُعد من المعجزات . ولست أشك في أن رجال العمارة في العصر الحديث بكافة ما أوتوا من أدوات ووسائل ، سوف يشفقون على أنفسهم أشد الإشفاق ، وقد يترددون ؛ بل ربما يحجمون ، إن نحن طلبنا إليهم أن يبنوا لنا هرمًا مثل هرم خوفو .

(٣) علته يقصد الزحافات المصنوعة من الخشب ، والتي كانت توضع فوقها الأحجار ، ثم تُجر بها من « مدماك » إلى « مدماك » . وأول من تحدث عن الطريقة التي اتبعها البنائون في تشييد الهرم ، وهي طريقة استخدام الجسور الصاعدة هو « ديودور الصقلي » وقد آمن بها بعض العارفين بشئون العمارة في العصر الحديث .

انظر : S. Clarke & R. Engelbach, Anc. Eg. Masonry)

(The Building Craft, p. 127 .

عن الطريقتين؛ إذ يقال بكتليهما، ثم - أولاً - بناء أعلى جزء من الهرم، ثم بعد ذلك بنوا الأجزاء التالية بالتدرج. وأخيراً أكملوا الأجزاء السفلى التي على الأرض (١). وقد بُنِيَ على الهرم بالحروف المصرية مقدار ما أنفق ثمنه لما استهلكه العمال من الفجل والبصل والثوم. وإذا وعدت ذا كرتى بالضبط ما قاله لى الترجمان عندما قرأ على النقش فإن النفقات قد بلغت ١٦٠٠ تالنت من الفضة (٢).

(١) لم تكن الأحجار التي استخدمت في بناء الهرم مقدودة كلها من محاجر الجبل الواقع على شاطئ النيل الأيسر (= جبل طره أو المعصرة)، وإنما شيد الهرم من الحجر المقدود من الهضبة التي بني عليها. ولم يستخدم في بنائه من مقالع الأحجار في الشاطئ الأيسر (= الشرق) غير تلك الصفائح الرقيقة التي استخدمت في السكساء الخارجي.

(٢) لم ينفرد « هردوت » بالحديث عن تلك النقوش التي ازدادت بها صفحات الهرم الأكبر، بل أشار إليها غيره من الكتاب الذين رأوها من قبله ومن بعده، فأما الذين من قبله فيكفي أن نذكر منهم الأمير « خمواسي » بكر فرعون مصر « رمسيس الثاني » الذي طال الحديث عنه في كتب العلماء نظراً لما قام به من رعاية آثار السلف الصالح، ثم المؤرخ العربي « عبد اللطيف البغدادي » الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي، وقال إن ما وُجِدَ على صفحات الهرم الأكبر من كتابات ونقوش تملأ عشرات الألوف من صفحات الكتب. إلا أنها أزيلت حينما بدأ الناس ينتزعون كسساء الهرم خلال القرن الثالث عشر الميلادي. ولولا اهتمام الهواة من رجال العمارة في القرن التاسع عشر الميلادي لصاعت كل معلوماتنا عن الهرم والغرض من بنائه. انظر: (Vyse, Operation Carried on the Pyramids of Gizeh II, 152) .

ثم (F. Petrie, The Pyramids & Tempels of Giza) .

فأما حسبة التكاليف فذلك شيء من عمل « هردوت »، ذلك بالإضافة إلى أن الفضة لم تتداول في مصر إلا بعد زمان « خوفو » بوقت طويل. وفي ذلك ما يدل =

فإذا كان الأمر كذلك ، فإذا كان — بالإضافة إلى هذا — مقدار ثمن الآلات الحديدية التي اشتغلوا بها ، وما مقدار ما أنفق على ماكل العمال ، وملبسهم . ذلك إذا ما كان الوقت الذي أمضوه في العمل كما ذكرت ، مضافا إليه ، ما قصوه من الزمن في قلع الأحجار ونقلها ، وفي حفر القناة التي تحت الأرض ، ذلك عمل لم يستغرق ، فيما يخیل إلى ، وقتا قليلا .

١٢٦ — ولقد بلغ « كيوبس » — فيما يقولون — أخط درجات الرذيلة حتى إنه — لحاجته إلى المال — وضع ابنته هو في ماخور وأمرها أن تحصل على مبلغ معين لم يذكروا لي مقداره (١) . فضلا عن حصولها على ما أمرها به أبوها فإنها فكرت بدورها في ترك أثر خاص بها ؛ لذلك كانت تطلب إلى كل من دخل عليها أن يهدي إليها حجراً . ومن هذه الأحجار — فيما يقال — بُني الهرم الذي يقع بين الثلاثة ، وهو أمام الهرم الأكبر . ويبلغ طول كل

= على بساطة « هردوت » . فهو لم يُخدع في هذه وحسب ، بل مُخدع غير مرة . انظر : (الفصلين رقم ٣٦ ، رقم ١٣٦ من هذا الكتاب) .

(١) إن أقل الناس حظا من معرفة أخلاق المصريين وسلوكهم ، وإيمانهم بالقيم الإنسانية ، واعتبارهم الزنا من كبائر الإثم التي يُجَازى مرتكبها بالموت . (انظر : في موكب الشمس ج ١ ص ٢١٤) . لا يستطيع أن يصدق مثل هذه الفرية . ولست أستبعد أنها من روايب الماضي ، وأن أعداء بيت خوفو من أصحاب المذهب الشمسي هم أصحاب هذه الفرية ، يضاف إلى ذلك الخلاف الذي يُحتمل أن يكون قد وقع بين أبنائه من بعده — وكانوا من أمهات مختلفات — ومنهن تلك الليبية الشقراء ذات العينين الزرقاوين ، وأعى « حنبحرس » الثانية التي يظن بعض المؤرخين أنها أم ولده الذي يحتمل أن يكون قد خلفه على العرش وهو « رع — ددف » ؛ ذلك الذي بنى هرمه في منطقة « أبي رواش » . لسنا نستبعد أن يكون لكل ما ذكرنا أثر في اختلاق هذه الفرية .

جانب من جوانبه بليثرون ونصف (١) .

١٢٧ — ويقول المصريون إن « كيوس » هذا حكم خسين علما (٢) . وبعد موته تولى الملك أخوه « خفرع » (٣) وسار هذا على منوال أخيه في كل شيء . وبني كذلك هرمًا لا يبلغ في أحجامة هرم كيوس ، (إذ قد أخذنا المقاييس بأنفسنا) ولا توجد بأسفله غرف تحت الأرض ولا تصل إليه قناة من النيل مثل التي تتصل بالهرم الأكبر وتنساب من مجرى مبنى ، وتحيط بجذيرة يرقد فيها « كيوس » حسب قولهم . وقد بنيت الطبقة الأولى من حجر إثيوبي مختلف الألوان (٤) . وبني « خفرع » هذا الهرم الذي يقل في ضخامته أربعين قدمًا عن الهرم الأكبر ؛ بناء بجانب الأخير . ويقع كلاهما على نفس التسلسل

(١) في الحق أنه يوجد في شرق هرم « خوفو » ثلاثة أهرام صغيرة . لا نستبعد أن تكون قد بُنيت لتصبح مشوى لثلاث من أزواجه . كل ذلك على الرغم من وجود شاهد عُثِرَ عليه في معبد لإيزيس يحمل ما يشير إلى أن إحدى تلك الأهرام الثلاثة لأحدى بنات خوفو ، ونحن نستبعد أن يكون الهرم لأحدى بناته ؛ ذلك لأن أولاده جميعًا قد دفنوا في قبور كانت على هيئة مانسميه المصاطب .

(٢) لا تظن أن حكم « خوفو » قد بلغ هذا المدى ؛ فلدينا من الوثائق التاريخية ما لم يجاوز بأيام حكمه أكثر من ثلاثة وعشرين عامًا . وما يدل على أنه تزوج بغير واحدة ، ومنهن تلك التي تحمل اسم أمه « حتب حرس » ، والتي صُوِّرت في قبر ابنتها شقراء الشعر زرقاء العينين ، وقد قيل إنها من أصل ليبي . انظر : (فصل ١٢٦ هامش رقم ١) ، كما كان له كثير من البنين والبنات .

(٣) لم يكن « خفرع » من إخوة « خوفو » ، وإنما كان من أبنائه ، وكان ثاني خلفائه ؛ وربما كان ثالثهم . وقد حكم حوالي عام ٢٦٢٠ ق . م .

(٤) يقصد حجر الجرانيت ما بين أحمر وأسود . وقد نُسِبَ إلى « إثيوبية » لأن الإغريق كانوا يسمون مناطق النوبة « إثيوبية » .

الذى يبلغ ارتفاعه مائة قدم تقريبا (١). وقيل إن « خفرع » حكم سنا وخمسين سنة (٢).

١٢٨ — وهم يعتبرون أن المصريين قد تعرضوا لمنتهى البؤس خلال هذه السنوات الست والمائة (٣). إذ لم تفتح أثناءها المعابد التى كانت قد

(٤) يبلغ ارتفاع هرم « خفرع » ١٤٣ م . كما يبلغ طول كل جانب من جوانبه ٢١٥ م . وتعد عمارته أهم عمارات الأهرام مجموعة وأكملها أجزاء . كشف العالم الفرنسى « أغسطس مارييت » عما يسمونه معبد الوادى من عمارته عام ١٨٥٣ ، وهو أروع مثل بين نظائره . ولم يوضع كساء الهرم إلا فى عصر متأخر نسبياً ، ولعل ذلك هو السر فى بقاءه مدى طويلا . ويقدر العالم البريطانى « فلندرز پترى » عدد من كانوا يعملون فى بنائه فى وقت واحد بما يتراوح بين ٣٥٠٠ — ٤٠٠٠ من العمال .

(٥) المعروف أن مدى حكم الأسرة كلها لم يجاوز ١٨٠ عاما (من ٢٩٣٠ — ٢٧٥٠ ق . م) .

(١) واضح أن هردوت يجعل هذه قسمة بين ملوكين هما « خوفو » و « خفرع » ؛ جعل لأولهما خمسين عاما ، وجعل لثانيهما ستة وخمسين عاما . على أن فى الأسرة غير هذين ملوكاً آخرين ؛ فرأس الأسرة قد كان الملك « سنفرى » ، وآخرها كان « شيسسكاف » . إلا أن ترتيب الملوك من بعد أيام « خوفو » لم يتضح بعد ؛ تخليفة « خوفو » لم يكن « خفرع » وإنما الراجح أنه كان « رع — ددف » الذى أقام هرمه على مسيرة ٧ كيلو مترات من شمالى هرم أبيه ، وفى المنطقة المعروفة باسم « أبى رواش » . ثم جاء من بعده « خفرع » . وبين تراث هذه الأسرة ما يشير إلى وجود ملوكين آخرين بين « خفرع » و « منكورع » وهما « حور — ددف » ثم « باوف — رع » .

انظر : (Debono, F. Expédition archéologique royale du)

== (desért oriental, An. d. Serv. LI. 1951) p. 89.

أغلقت . ولا يرغب المصريون مطلقاً في تسمية هذين الملكين لكرهم بل إنهم ليُسَمَّونَ الهرمين باسم الراعى « فيليتيوس »^(١) الذى كان يرعى غنمه يومئذ بالقرب من تلك المنطقة .

١٢٩ — وبعد « خفرع » — وفقاً لما قالوا — تولى الملك « منكاورع » ابن « كيوس »^(٢) . ولم يرض « منكاورع » عن أعمال أبيه ففتح المعابد وسمح للشعب — الذى عانى أقصى درجات البؤس — بأن يمارس أعماله ويقدم الأضحيات . فكانت الأحكام التى يصدرها أعدل من أحكام سائر الملوك .

= ولسنا نستبعد أن الأدلاء الذين صاحبوا هردوت قد خلطوا بين زمان هذه الأسرة وزمان المكسوس . انظر : (الفصل رقم ١٣٣ من هذا الكتاب ؛ حيث جاء أن الشقاء قد ر على مصر مئة وخسين عاماً ، وهى المدة التى حكمها المكسوس) ، وإن فى خلطهم هذا لبَقِيَّةٌ من أثر الدعاية التى لم يفترا أصحاب مذهب الشمس من أعداء « خوفو » وقبيله فى نشرها كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . انظر : (فى موكب الشمس ج ٢ ص ٨٠٦ وما بعدها) .

(١) لا نعتقد أن ذلك صحيح ، لأن الشعائر الدينية والطقوس الجنائزية الخاصة بالملك « خوفو » قد كانت قائمة عند ضريحه فى أيام العصر الصاوى . انظر : (Gauthier, L. d. R. I, p. 78) . كما ظلت كذلك فى زمان الفرس ؛ بل ربما بقيت بعد ذلك أيضاً . فأما نسبة الهرمين إلى الراعى الذى ذكره « هردوت » فقد لا يعدو سببها فى الأغلب الأعم ملازمة ذلك الراعى منطقة الهرمين . كما يسمي الناس فى العصر الحديث أحد الأهرام باسم « هرم الشواف » ، وذلك لأن اللصوص من نباشى القبور قد استخدموه مرقباً ، يرصدون منه حركات الحراس . ولسنا نستبعد آخر الأمر أن يكون اسم PHILITIS اسماً مصرياً مؤغرباً .

(٢) حقيقة إن « منكاورع » قد خلف « خفرع » على العرش ، إلا أنه لم يكن من أبناء « خوفو » وإنما كان من أحفاده .

ولهذا السبب، فهم يخصصونه بالمديح دون سائر الملوك الذين حكموا مصر حتى ذلك الحين (١). وعلاوة على إصدار الأحكام العادلة؛ فإنه كان يعطى تعويضا من ماله الخاص كل من لم ترضه أحكامه ويهدى ثورة غضبه (٢). وبينما هو يحبو الرعاية بحسن رعايته؛ دائب على عمل ذلك في ورع، حلت به أولى المصائب وهي وفاة ابنته؛ الطفلة الوحيدة التي كانت له في القصر (٣). فاستولى عليه حزن عميق من جراء الخطب الذي نزل به. وأراد أن يدفن ابنته بطريقة تخالف كل ماعداها؛ فأمر بصنع بقرة جوفاء من الخشب وطلاها بالذهب ثم دفن بداخلها ابنته المتوفاة (٤).

١٣٠ — ولم تُغيَّب هذه البقرة في الأرض، ولكنها ما زالت ترى حتى يومنا هذا، في مدينة «سايس» (٥)، موضوعة في القصر الملكي

-
- (١) نلمح في ذلك بقية من أثار الدعاية التي آثارها أصحاب المذهب الشمسي. فقد كان «منكاورع» أول من أمى نفسه «ابن الشمس» وأخذ خلفاؤه بهذه السنة من بعده. انظر: (في موكب الشمس ج ١ ص ١٦١ وما بعدها).
- (٢) من الجائز أن يكون «هردوت» قد خلط بين سيرة هذا الملك وسيرة الملك «بوخريس» الذي حكم في سايس أيام العصر الآتيوبي (حوالي عام ٧١٥ ق.م).
- (٣) انظر قصة ذلك في الفصل الثالث والثلاثين بعد المئة من هذا الكتاب.
- (٤) ربما كان مرجع ذلك إلى أن الناس كانوا يرون صوراً ورسوماً على توابيت العصور المتأخرة وبينها ما يمثل جثة الميت محمولة على ظهر بقرة.
- (٥) إن الجبانة التي كان ينبغي أن تدفن فيها ابنة «منكاورع» — إن صح أن ينظر إلى مثل هذه القصة — قد كانت جبانة الجيزة؛ حيث مدافن الأسرة ولم يكن هناك من داع مطلقاً إلى نقلها إلى «سايس». وليس من المقبول ولا من المعقول أن تتصور أن الأجيال قد احتفظت بتابوت ابنة «منكاورع» حتى أيام «هردوت». وليس من المعقول كذلك أن يوضع تابوتها في القصر الملكي، ليحرق فوقه البخور، وتضاء من حوله المصابيح.

بأحدى عُرفه المزيّنة . ويحرقون طول النهار بجانبها مختلف أنواع البخور . وكل ليلة يشعلون مصباحا بالقرب منها . وعلى مقربة من هذه البقرة توجد في قاعة أخرى تماثيل لسرايا « منقرع » — حسب قول كهنة « سايس » — إذ تقوم هناك تماثيل ضخمة من الخشب يبلغ عددها العشرين تقريبا . وهي تُمثّل نسوة عاريات . أما من عسى أن يَكُنَّ فليس في إمكاننا أن أجزم إلا بما رووه (١) .

١٣١ — ويروى البعض القصة التالية بخصوص البقرة والتماثيل الضخمة : يقولون إن « منكورع » هام بحب ابنته وجامعها رغما عنها . وإن البنت شنت نفسها بعد ذلك ، وإن الملك دفنها في البقرة . وقالوا : إن الأم قطعت أيدي الوصيفات اللاتي قدّمن البنت إلى أبيها ، وإن التماثيل تعرضت الآن لما لاقته النسوة في حياتهن . ولكنني أعتقد أن مارووه هو محض هراء وخاصة ما يتعلق بأيدي التماثيل ؛ لأننا قد شاهدنا بأنفسنا أن التماثيل قد فقدت أيديها بفعل الأيام ، وأن الأيدي إلى يومنا هذا ترى ملقاة تحت أقدامها (٢) .

(١) لا نكاد نجد داعيا للاحتفاظ بتماثيل لسرايا « منكورع » في مدينة « سايس » وأكبر الظن أن القصة من أولها إلى آخرها قد استغلت في الدعاية أيام الملك إسماتيك الثاني ذلك لأن « منكورع » من أسماء إسماتيك الثاني . انظر : (HERMAN DE MEULENAERE, Herodotos over de 26^{Ste} Dyn: S. 152) .

(٢) في هذه الرواية خلط مصدره بقية من آثار الدعاية التي قام بها أصحاب المذهب الشمسي من أعداء هذه الأسرة ، كما رأينا غير مرة . ثم من عقائد المصريين التي غُصّت على أكثرهم لطول العهد ، وتتابع المحن ؛ فهم يذكرون « كاموتف » (= فحل أمه) ، وهم قد فهموا خطأ ما يروى عن زواج بعض الملوك بيناتهن ، مثل « أمنوفيس الثالث » و « رمسيس الثاني » ، ولعلمهم نسجوا من كل هذا التراث المهلهل تلك القصة وأمثالها مما ممعه « هردوت » فانكره . =

١٣٢ — وقد أخفيت البقرة بجميع أجزائها في غطاء أحمر فيما عدا الرقبة والرأس؛ فبقيت ظاهرة للعيان، تكسوها طبقة سميكة جداً من الذهب، ويوجد بين القرنين قرص من الذهب، تقليداً لقرص الشمس. والبقرة لا تقف على أرجلها ولكنها جاثمة على ركبتيها. وهى فى حجم بقرة ضخمة حية. وتنقل البقرة خارج الغرفة عندما يلطم المصريون على الإله الذى لا أسميه (١) فى مثل هذه المناسبة (٢)؛ يخرجون وقتئذ البقرة إلى ضوء النهار لأنهم يدعون أن البنت عند موتها توسلت إلى أبيها أن ترى الشمس مرة واحدة فى السنة (٣).

١٣٣ — وبعد موت ابنته أتم بالملك خطب آخر، هذا هو: جاءه وحى من مدينة «بوطو» (٤) يخبره أنه سيعمر ست سنين فقط ويموت فى السنة السابعة.

= ونحب أن نضيف إلى كل ذلك ما لسنأ نستبعده من أن يكون للدعاية الإسرائيلية أثر فى هذه القصص. فاجتماع الأب بابنته أمر عرفه بنو إسرائيل وقالوا إنه جرى بين «لوط» وابنتيه. انظر: (التوراة وسفر التكوين ١٩، ٣٢-٣٦). وأما تقطيع الأيدي فقد جاء ذكره فى قصة يوسف. انظر: (قرآن كريم سورة يوسف ٣١، ٥٠).

(١) يعنى «أزوريس».

(٢) ليس خافياً أن البقرة قد كانت من الحيوانات المقدسة عند آل فرعون، وكانوا يرزونها إلى الأمام، ويتخذون منها علماً على «إيزيس»، فضلاً عن وصفها «حتحور» الذى أضحى يشير إلى أن القوم اعتبروها مرضعة لحورس ابن «إيزيس» وأماله. فأما الصورة التى يتحدث عنها هردوت، فليست غريبة عن المصريين. فإذا صح أنهم كانوا يفعلون ما رواه، فأكبر الظن أنهم كانوا يفعلون ذلك فى ذكرى الشهيد «أزوريس».

(٣) فى ذلك ما يدل على الجهل وسوء الفهم؛ فلم يكن يكفى أن يطعم القدماء لموتاهم فى أن يروا الشمس مرة واحدة، وإنما كانوا يأملون لهم أن يروها فى كل يوم.

(٤) انظر فصلى ٨٣، ١٥٢ من هذا الكتاب.

فاستشاط الملك غيظاً ، وأرسل يُسِّفُه الوحي والإله معاً^(١) على أن أباه وعمه اللذين أغلقا المعابد ، وأغفلا ذكر الآلهة ؛ بل وساقا الناس إلى التهلكة^(٢) قد عاشا زمنا طويلا . أما هو التقي فسيموت بمثل هذه السرعة . وجاءه من الوحي ردٌّ ثان يقول إن أيام حياته قد مرّت سراعاً لهذه الأسباب ؛ إذ أنه لم يفعل ما كان يجب فعله . فقد كان مقدّراً على مصر الشقاء حتماً مدة مئة وخمسين عاما . وقد فهم الملكان السابقان ذلك . أما هو فلم يدركه . ولما سمع «منكاورع» بهذا الردّ عرف أن مصيره قد تقرّر فأمر بصنع مصابيح عديدة كان يشعلها عند مجيء الليل ؛ ويشرب ويتمتع بلذات الحياة دون انقطاع سواء بالليل أو بالنهار ، وطاف بالمستنقعات والغابات ، وورد كل مكان علم أن به أحب متع الشباب . وقد فصل ذلك رغبةً منه في تكذيب الوحي . فهو قد جعل من الليل نهاراً حتى تصير السنوات الست اثنتي عشرة سنة .

(١) تأنيب الآلهة ، بل وتهديدهم أحياناً ، كان شيئاً معروفاً في العالم القديم ، وقد أشرت إلى ذلك في بعض ما كتبت . انظر : (في موكب الشمس ج ٢ ص ٨٧٠) . فأما الأب والعم اللذان أشير إلى أنهما حكما طويلا ؛ فأكبر الظن أنه يعني بهما « خفرع » و « خوفو » . فإذا كان ذلك كذلك ؛ فينبغي أن نشير هنا إلى أن في الأمر خلطاً ؛ لأن شواهد الأمور تدل على أن البلاد إيمان حكم « خفرع » وأواخر أيامه قد كانت تجتاز فترة عصيبة بسبب الخلاف الذي نشب بين الطامعين في العرش من ولد « خوفو » .

انظر : (١) Ed. MEYER, Chronologie S. 142 .

(٢) Walter Federn, Zur Familiengeschichte d. IV.

Dyn. Aegyptens (Wiener Ztsch. f. d. Kunde des Morgenlandes XLII, S. 163 - 192)

(٣) انظر : (الفصل رقم ١٢٨ هامش رقم ١) .

١٣٤ — وترك هو بدوره هرمًا ، أصغر بكثير من هرم أبيه (١) ، يقل عنه في كل جانب من جوانبه عشرين قدما في كل ثلثة قدم ، وهو مريع ؛ مبنىً إلى النصف بالحجر الأثيوبي (٢) . ويدعى بعض اليونانيين أنه يُنسب إلى الغانية « رودويس » (٣) . ولكنهم لا يقولون صدقا . ويلوح لى أنهم يتكلمون دون أن يعرفوا من عساها تكون « رودويس » . (وإلا لما نسبوا إليها بناء هرم مثل هذا ، أُنْفِقَ عليه مالا يعدُّ من ألوف التالنتات كما تقول) . هذا إلى أن « رودويس » كانت في ربيع الحياة ، أثناء حكم الملك « أمازيس » لا في عهد « منكورع » (٤) . فهي عاشت إذن بعد هؤلاء الملوك الذين خلفوا الأهرام بسنين كثيرة جداً . وأصل « رودويس » من « ثراقيا » وكانت

(١) نعم إن هرمه أصغر من هرم أبيه ، وطول كل ضلع من أضلاع قاعدته يبلغ حوالى ١٠٨,٥٠ م . فأما ارتفاعه فكان أصلاً ٦٦,٥٠ م .

(٢) يقصد الكساء الذى يغطى صفحات البناء من حجر الجرانيت فيغطى من ذلك ما لا يقل عن ١٦ « مدمًا كًا » . وأكبر الظن أن « منكورع » قد مات قبل أن يتم بناء هذا الضريح ، أو قبل أن يتم وضع هذا الكساء .

(٣) إذا صح أن تعجب بوعى هردوت ، ويقظة عقله أحياناً ، ثم بصدق حسه التاريخي حين ينكر نسبة هذا الهرم إلى هذه الحساء . وينكر أنها عاشت أيام « منكورع » ، فن الحق علينا أن نبحت عن الأسباب التى جعلت أصحاب هذه الفرية ينسبون الهرم إلى تلك الغانية بالذات . ولكننا حين نفعل ، لا نكاد ننتهى إلى سبب ، وإن كنا نسأل : ترى أيسكون مبعث ذلك ما بين اسمها واسم « روددة » زوج كاهن الشمس التى ورد اسمها فى قرطاس « فستكار » إبان حكم « منكورع » . انظر : (فى موكب الشمس ج ١ ص ٢١٧ ، ٢١٨) . الله وحده يعلم الغيب من كل أمر .

(٤) انظر : (فصل ١٧٢ من هذا الكتاب) .

عبدة لايدامون بن « هيفايستوبوليس » . وهو من جزيرة « ساموس » . وكانت زميلة في الرّق لأيزوبوس^(١) راوية الخرافات ؛ لأن هذا كان عبداً لايدامون . ويتضح ذلك بوجه خاص مما يلي . لما نادى رسول من قبل أهل « دلفي » عدة مرات من يريد أن يأخذ دية « ايزوبوس » ؛ لم يتقدم لأخذها أحدٌ آخر غير « لايدامون » وهو حفيد الأول . وهكذا كان « ايزوبوس » عبداً لايدامون^(٢) .

١٣٥ — وصلت « رودوبيس » مصر حيث أحضرها « كسانثوس الساموسى » ؛ ولما كان مجيئها بقصد التكبُّب أعتقها « خراكسوس الميثيليني » وهو ابن « سكلاماندرونيوموس » وأخو الشاعرة « سافو » لقاء ثمن باهظ . وهكذا تحررت « رودوبيس » وبقيت في مصر . ولما كانت في منتهى الجاذبية^(٣) ، أحرزت ثروة كبيرة كافية لها . ولكنها ليست بالثروة الطائلة التي تكفى لبناء هرم مثل هذا ، إذ من الممكن لكل من يشاء — حتى يومنا هذا — أن يعرف عشر ثروتها فلا ينبغي أن تنسب إليها ثروة طائلة . فقد أرادت « رودوبيس » أن تخلف لها أثراً في بلاد اليونان ، فأمرت

(١) AESOPUS صاحب الخرافة الشهيرة التي أدار حوادثها أيام القرن السادس ق . م . انظر : (Plut., Moral., 557 a) .

(٢) واضح أن « هردوت » — يؤمن على الأقل — بوجود شخصية AESOPUS ، وواضح كذلك أن وجوده في رأى « هردوت » قد كان في الأولمبياد الخامس . وجاء في بعض القصص أن أهل « دلفي » قد ألقوا بهذا الرسول من فوق صخرة عالية ، وأن « أبوللون » جازاهم على ذلك بمحنتين ؛ محنة الجوع ، ومحنة المرض . وأنهم كفّروا عن ذلك بدفع الدية .

(٣) معنى الاسم « ذات الوجه الوردى » .

بصنع شيء لم يكن لغيرها أن يفكر فيه أو يقدمه للمعبد ، ووهبته لدلفي تذكارا لها . وبعث ثروتها ، طلبت صنع سفافيد كثيرة من حديد ، خاصة بشتى البقر بقدر ما سمح به عشر الثروة ، وأرسلتها إلى « دلفي » . ولا تزال هذه السفافيد حتى الآن مسكومة هناك خلف الهيكل الذي وهبه الخيويون أمام المحراب ذاته . وغواني « نوقراطيس » هنّ في العادة على درجة كبيرة من الجاذبية . إذ لا يقتصر الأمر على هذه التي دار حولها الحديث هنا ، والتي طبقت شهرتها الآفاق ، حتى أن كافة اليونانيين عرفوا باسم « رودوبيس » ؛ بل وجدت غانية أخرى فيما بعد تدعى « أرخيديكي » ذاع صيتها في بلاد اليونان . ولو أنها لم تكن موضوعا لحديث الجميع بقدر ما كانت « رودوبيس » . وبعد أن أعتق « خراكسوس » هذه وعاد إلى « ميتيليني » سخرت منه « سافو » (١) في إحدى قصائدها من السخرية ، والآن ينتهي حديثي عن « رودوبيس » .

١٣٦ — ويقول الكهنة أن « أسوخيس » (٢) حكم مصر بعد « منقرع » .

(١) يؤكد ATHÉNÉE على أي حال أن الشاعرة هاجت « رودوبيس » . انظر : (ATHÉNÉE, XIII. P. 596) .

(٢) إن الذي حكم بعد « منكورع » مباشرة قد كان « شبسكاف » . وله قبر قائم عرف في الكتب العلمية باسم « مصطبة فرعون » . فأما ASYCHIS هذا فيما نذكر أنه ورد ضمن أسماء الملوك عند مؤرخنا الوطني « منتون » . ولانذكر كذلك أنه ورد ضمن أسماء الملوك التي دوّنها الفراعنة في الأبنات التي عرفت في بعض معابدهم ، أو في القراطيس التي خصصت لذلك . ولربما يبدو طبيعياً أن يظن بعض المؤرخين أن المقصود بهذا الاسم هو Bochoris ، وإن كنا لا نعرف له مثل هذا الاسم . انظر : (Wiedemann, ibd. S. 490) . كذلك ظن بعضهم أن ذلك الملك هو من أسماء « يوسف اليهودي » (آسوخاوس) ونسب إليه فتح « أورشليم » . انظر : (Josephus, Bellum Jud. 6. 10) =

وهو الذى شيد مدخل معبد « هيفايستوس » (١) الذى يتجه نحو الشرق . وهو أكثر المداخل جمالاً وضخامة . فمع أن كل المداخل تحوى أشكالاً محفورة وآلافاً من المناظر الأخرى للعمارة ، فإن هذا المدخل يفوقها جميعاً إلى حد بعيد . ويقول الكهنة : إن النقد فى عصر هذا الملك كاد يكون معدوماً ، وإنه صدر إلى المصريين قانون بمقتضاه يقدم الفرد جثة أبيه رهناً ليحصل على قرض . وأضيف إلى هذا القانون بند آخر يخول الدائن التحكّم فى مقبرة المدين كلها (٢) . وإذا رفض المدين الذى قدّم ذلك الرهن ، سداد دينه ، عوقب بالأيدفن بعد موته لا فى مقبرة آبائه ولا فى أى مقبرة أخرى . وليس له أن يدفن أى ميت آخر من أقاربه . وقد أراد ذلك الملك أن يبرز

= (436) . ثم (Pietschmann. in RE. unter Asychis) . وبذلك يكون الملك الذى عناء « هردوت » هو « شيشنق الأول » ؛ وإن كان قد خلط بينه وبين « بوخوريس » . وربما يؤيد هذا الزعم ما نسب إليه « هردوت » من العمائر الضخمة فى معبد « بتاح » . وقد كان « شيشنق الأول » من كبار البنائين فعلاً . وليس يفوتنا آخر الأمر أن نذكر أن شيشنق وآله جميعاً لم يبنوا أهراماً . ومهما يكن من شئ فليس لدينا آخر الأمر ما يمكن أن نسنده به كل هذا الزعم .

(١) انظر : (فصل ١٠١ من هذا الكتاب) .

(٢) ذلك أمر لا يمكن تصوّره فى سهولة ؛ فنحن نعرف عقيدة الشعب المصرى فى الحياة والموت ، ونعرف شدة محافظته على آثار السلف ، ومقدار احترامه للتقاليد . كما نعرف تقواه التى لم يستطع هردوت نفسه إنكارها ، ونعرف فوق ذلك تقديره الصادق لمقام الأبوة . ونحن لا نقول ذلك تمصياً لشعبنا الذى ما زلنا نعيش على بعض تراثه ، وإنما نقوله بعض علماء الغرب المحدثين من المنصفين فى هذا العصر الحديث .

انظر : (Erman, Relig. d. Aeg., Kap. XV, S. 291 f.) .

الملوك الذين حكموا مصر قبله ، فخلف أثراً عبارة عن هرم مبنى من اللبن ، وعليه نقش — محفور على حجر — يقول : « لا تحتقري بالقياس إلى الأهرام الحجرية فأنا أفوقها بقدر ما يفوق « زيوس » الآلهة الآخرون (١) . فقد أُلقيَ مسبار في البحيرة فلصق به بعض الطين وأُخذَ هذا الطين وصنعت منه لبنات . وبهذه الوسيلة كان بنائى » . تلك هى أعمال هذا الملك .

١٣٧ — وتولى الحكم ، بعد هذا الملك ، رجل أعشى من مدينة « أنيسيس » (٢) . وفى عهد هذا الملك تقدّم الأثيوبيون وملكهم « شباكو » (٣) نحو مصر بقوة عظيمة . ففر الأعشى هارباً إلى المستنقعات ، وحكم الأثيوبي مصر خمسين عاماً فعل فيها الآتى (٤) : إذا ارتكب أحد المصريين خطأ ما ، رفض أن يقتل أى واحد منهم ، ولكن كان يحاكم كلا بما يتناسب وجسامته الخطأ ،

(١) ما زالت بعض أهرام المصريين المبنية من اللبن قائمة . ويسمىها المواطنون « الأهرام السود » . ويكفى أن نذكر منها « أهرام دهشور » التى تقع على بعد قريب من منطقة صقارة . وقد يكون للقصاص الذى طالعنا فى ما كتب المؤرخون أثره فى ذلك الخلط . فنحن نذكر كيف قيل إن « منكاورع » قدم مات قبل أن يتمَّ هرمه ، وأن ابنته « نيتوكريس » قد أتمت بناءه من اللبن . وليس يفوتنا « ونحن ننظر فى رواية هردوت » كذلك أن « آمون » الذى أمماه الإغريق « زيوس » لم يكن معروفاً أيام « منكاورع » .

(٢) من الجائز أن يكون واحداً من حكام الأقاليم . فأما المدينة نفسها فكانت أغلب الظن فى شرقى الدلتا وطى مسيرة نحو ١٩ كم إلى الشمال الغربى من القنطرة وفى المكان المعروف بتل « بليم » . انظر : (J. Ball, 17, 168) .

(٣) شباكو : أحد الملوك الأثيوبيين . انظر : (الفصل رقم ١٠٠) .

(٤) إن « شباكو » لم يجاوز مدى حكمه اثنى عشر عاماً ، ولم يبلغ حكم الأسرة كلها خمسين عاماً .

مصدرا الأمر إلى كل فرد من المذنبين بأن يقيم السدود أمام المدينة التي ينتسب إليها، وبذلك صارت المدن أكثر ارتفاعا. وقد علت أول الأمر نتيجة لعمل الذين شقوا القنوات في عهد « سيزوستريس » (١) ، ثم في عهد الأثيوبي . فصارت ذات علو شاهق . ومع أن سائر المدن في مصر أصبحت مرتفعة إلا أن أكثرها ارتفاعا في نظري هي مدينة « بوباسطيس » (٢) ؛ حيث يوجد معبد « بوباسطيس » وهو جدير جدا بالوصف ، وإن كانت المعابد الأخرى أعظم منه وأبهظ نفقة إلا أنه أكثرها بهجة للنظر . و « بوباسطيس » باللغة اليونانية هي « أرتيمس » (٣) .

١٣٨ — وهذا هو وصف المعبد : فيما عدا المدخل يقوم على جزيرة ؛ إذ ينساب في النيل مجريان ، لا يختلطان ببعضهما ؛ بل يسيران حتى مدخل المعبد كل على حدة ؛ هذا من جانب وذلك من الجانب الآخر . وعرض كل منهما مائة قدم ، تظللها الأشجار . والمدخل ارتفاعه عشرة أبواع (٤) ، مزخرف بأشكال ، ارتفاعها ست أذرع (٥) تستحق الكلام . ويقع المعبد في وسط المدينة ، ويراه الطائف حوله من جميع الجهات ؛ إذ بينما ارتفعت المدينة بفعل أكوام الطمي ، بقي المعبد كما شُيِّد منذ البداية ؛ لم يلحق به أى تغيير ، لذا من الممكن رؤيته . ويحيط بالمعبد سور حفرت عليه أشكال

(١) انظر : (الفصل رقم ١٠٨) .

(٢) انظر : (الفصل رقم ٦٠) .

(٣) هكذا سمى الإغريق « بسته » المصرية ، كما أطلقوا نفس الاسم على « پخه » (Pakhet) التي كانت تقدر في وادي بنى حسن وكانت هرة بصرية .

(٤) أى حوالى ١٠٠ قدم .

(٥) أى حوالى تسع أقدام .

وبداخل السور فناء تنمو به أشجار باسقة حول المحراب الكبير الذى به تمثال الآلهة ويبلغ طول المعبد وعرضه ستاد فى جميع الجهات ، وقبالة المدخل ، يمتد طريق مرصوف بالحجارة لمسافة ثلاثة ستاد تقريبا . وهو يخترق السوق متجها نحو الشرق وعرضه أربعة بليثرون وعلى جانبيه هذا الطريق تنمو أشجار ترتفع إلى عنان السماء وهو يؤدى إلى معبد هرمس . تلك هى الحال التى عليها المعبد .

١٣٩ — وقال الكهنة إن انسحاب الأثيوبي قد انتهى بهذه الصورة :
ولمّا هارباً بعد أن شاهد فى نومه الرؤيا التالية : بدا له رجل يقف بجانبه ، ينصحه بجمع كل كهنة ويقطعهم نصفين . فلما رأى هذا الحلم قال إن الآلهة — فيما ظن — أرتة هذا كمبرر لكى يصيبه شر ، بعد انتهاك حرمة الأشياء المقدسة ، من الآلهة أو من الناس (٢) . وعليه فلن يفعل من ذلك شيئاً بل إنه سينسحب لأن الوقت الذى تنبأ به لحكمه مصر قد انقضى وبالفعل لما كان بأثيوبية أعلن الوحي الذى يستنبؤه الأثيوبيون أنه من الواجب عليه حكم مصر خسين عاما . فيما أن هذه المدة قد مرت ؛ فضلا عن انزعاجه من الحلم الذى رآه فى منامه ، فقد انسحب « شباكو » من مصر برضاه (٣) .

(١) أى حوالى أربعمائة قدم .

(٢) انظر : (هردوت ج ١ فصل ٣٢) حيث نجد ما يشبه تلك الصورة .

(٣) انظر : (Diod. I. 65. 5 - 8) . ونحن نتساءل : ترى أيسكون فى قصة الرؤيا أثر من قصة رؤيا « تانوتامون » ؟

انظر : (Schaefer, Urk. d. aelteren Aethiopen Koenige 577—7)
Siegessinschr. d. Tanotamon (Die sog. Traumstele). Les Songes
(et Leur interprétation (Ed. du SEUIL) p. 26 .

١٤٠ — وعندما رحل الأثيوني عن مصر ، حكمها الأعمى ثانية بعد رجوعه من المستنقعات . حيث كان يسكن خلال الخمسين عاما ، جزيرة (١) علاها بركام الرماد والتراب . إذ كلما جاء إليه ، دون علم الأثيوني ، مصريون يحملون له الخنطة — وفقا لما كان مقررا على كل منهم — أمرهم بأن يحضروا رمادا مع هديتهم . ولم يستطع أى فرد أن يجد هذه الجزيرة قبل «أميرتيوس» (٢) . بل إنه خلال فترة تزيد على سبعمائة عام لم يكن فى مقدور الملوك الذين سبقوا «أميرتيوس» فى الحكم ، أن يكتشفوا هذه الجزيرة ؛ واسمها «ألبو» (٣) وحجمها عشرة استاد فى جميع الجهات .

(١) ليس من السهل أن نعرف موقع هذه الجزيرة .

(٢) امرتيوس Amyrtée تحريف أو تصحيف لاسم أمير وطنى من أمراء الدلتا «أمن حرى» (= أمون حرى) كان أميراً لسايس . ظهر إبان ضعف الفرس وأيام الثورة التى قام بها المصريون عام ٤٦٠ ق.م. والى أعان الإغريق فيها المصريين على الفرس ، فبعثوا إليهم بأسطول من ثلثمائة (٣٠٠) سفينة . وكان الفرس قد بعثوا على مصر جيشا من ٣٠٠٠٠٠ رجل التقوا بالمصريين قبل وصول المدد الإغريقى فى مدينة Paprimus ، وكان قد سبقه إلى الجهاد أمير مصرى يدعى «إنتمحررو» . أكبر الظن أن يكون ذلك تصحيفا للاسم «إرت — إن — حور» (بمعنى عين حورس) ، ويسميه الإغريق Inarus . وفى رواية هردوت خلط من الناحية التاريخية . انظر : (Legrand, Hérodote II, p. 54 - 55) .

(٣) ليس يبعد أن تكون هذه الجزيرة (ألبو) فى منطقة بحيرة المنزلة على أن الطبيعة قد تغيرت ، وتغير معها وجه الأرض فى تلك البقعة من زمن هردوت أو من زمن الفراعنة عموما حتى يومنا هذا . فأما هذا التحديد الزمنى الذى يقدره هردوت بأكثر من سبعة قرون ، فليس من السهل أن نأخذ به .

١٤١ — خلفه في الحكم كاهن «هيفايستوس» ويسمى «سيثوس» (١). ولقد عامل المحاربين المصريين بازدراء ، ولم يكثر بهم — ظاناً أنه لن يحتاج إليهم — ومن بين الأمور الأخرى التي قام بها ليحط من قدرهم ، أنه انتزع أراضيهم ، وهم الذين كان يملك كل واحد منهم في عهد الملوك السابقين اثني عشر فدانا من الأرض الممتازة (٢) . وبعد ذلك ساق ملك

(١) إن Selhos هذا الذي يصفه هردوت بأنه كان من كهان «هيفايستوس» (= يتاح) ، والذي يجعله خليفة للحاكم الأثيوبي «شباكا» ، ينبغي أن يكون بداهة «شباتاكا» . والظاهر أن هذا الأخير قد آثر أن يحتفى وراء ستار المسرح ، ويجعل مكانه «طهرقه» بن «بمنخى» . وكان يومئذ قد لم يجاوز العقد الثاني من عمره ، وكان قد جاء في ركاب «شباكا» وأسهم في غزو الدلتا عام ٧١٥ ق . م .

وليس بمستبعد أن يكون لذكرى ملك مصر العظيم «سيتي الأول» وحروبه التي أجراها في فلسطين أثره في هذا الخلط ؛ يضاف إلى ذلك أن الحاكم الأثيوبي «كشتا» قد ورد ذكره عند «منتون» تحت اسم (سيتي) . وظاهر أن الحكام الأثيوبيين لم يستطيعوا توحيد مصر بحال من الأحوال . ونحن نسمع صدى ذلك في النبوءة المنسوبة إلى يوشع (إصحاح ١٩) حيث يقال : «أهسيج مصريين على مصريين ؛ فيحارب رجل أخاه ، ورجل صاحبه ؛ مدينة مدينة ، ومملكة مملكة» . و«سيتون» في رأى Griffith هو بطل من أبطال ذلك القصص الذي أخرجه تحت عنوان «قصص أخبار ممفيس» .

انظر : (Griffith, Stories of the High - Priests of Memphis)
(The SETHON of Herodotus (Oxford 1909, 13 - 40) .

وكان ذلك القصص جاريا على السنة الناس أيام هردوت .

(٢) من الحقائق المعروفة في تاريخ مصر الفرعونية وبخاصة أيام الدولة الحديثة ؛ بل منذ طرد الهكسوس ، أن القواد والأبطال من رجال الحرب =

العرب (١) والآشوريين سنحريب جيشاً عظيماً نجحوا مصر (٢) . وهناك رفض المحاربون المصريون مد يد المساعدة له . فلما وقع السكاكن في هذه الحيرة ؛ توجه إلى المحراب يندب أمام التمثال ما يعانیه من خطر . وفيما هو يئن استولى عليه النعاس ، وبدأ له في الحلم أن الرب يقف بجانبه ، يشجعه ويقول : إنه لن يصيبه مكروه إذا خرج للملاقاة الجيش العربي ، لأن الإله نفسه سيبعث إليه بمن يدافعون عنه . ولثقتة في أحلامه ، أخذ معه من المصريين من رغب في اتّباعه ، وعسكر في « بيلوزيوس » (إذ هناك توجد المنافذ إلى مصر) . ولم يكن بين من تبعوه واحد من المحاربين ؛ بل كانوا من صغار التجار والصناع الذين يرتادون الأسواق . فلما وصل الأعداء هناك انقضّت الفئران ليلاً على الأعداء كالسيل الجارف ، وقرضت جُعبهم وأقواسهم وحمائل دروعهم أيضاً . فكانت النتيجة أنهم — وقد أصبحوا عزّلاً من السلاح — ولوا الأدبار ، وسقط منهم الكثيرون . وحتى الآن يقوم لهذا الملك تمثال حجري في معبد « هيفايستوس » ، يمسك في يده فأراً ، عليه نقش ، ينطق بهذه العبارة :

== قد كانوا يقطعون مساحات من الأرض الزراعية ، وحسبنا أن نذكر من ذلك على سبيل المثال مارواه البطل « أحموسى بن إبنا » الذى شارك فى طرد الهكسوس تحت قيادة « أحموسى » الأول . انظر : (Sethe, Urk. IV, 18 Dyn., 6) . ثم (Badawi, Memphis, S. 59) . فأما مساحة الفدان المصرى القديم فكانت بحسب اليوم تساوى ٢١ س ١٥ ط .

- (١) أكبر الظن أن المقصود بالعرب هنا قد كانوا سكان وادى النهرين ومن يليهم من أهل البقاع المجاورة الذين خضعوا يومئذ لسلطان « سنحريب » .
- (٢) كان ذلك حوالى عام ٢٠١ ق . م . أيام « حاكم » طهرقه « الأثيوبى مصر .

« فليثق الله من ينظرني » (١) .

(١) ليس من السهل أن نعرف أسباب الهزيمة على وجه التحقيق ، وإن كان يمكن — بسبب ذكر الفيران — أن نتصور أن الجيش الآشوري قد هلك بوباء الطاعون وبذلك نجَّى الله « أورشليم » ، وفاز معها جيش « طهرقه » بالنجاة . وتلك قصة تذكرنا بهجوم « أبرهة الأشرم » على الكعبة ، وما كان من معجزات « عام الفيل » ، الذي ورد ذكره في القرآن الكريم . وتذكرنا كذلك بما وعد به الله النبي في « وقعة بدر » وبما كان في « وقعة الخندق » ، وظاهر من شواهد الأمور أن الخطر الآشوري قد كان يتزايد ، وأن « سنحريب » الذي خلف أباه « سرجون الثاني » منذ عام ٧٠٥ ق . م . كان قد قرر أن يهاجم فلسطين ، وأن ملوك آسيا الدنيا قد اضطروا إلى التحالف لمواجهة هذا الخطر . انظر : (التوراة سفر الملوك الثاني ١٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ١٩ : ١٢ — ١٣) ، وكيف أن « سنحريب » قد حاصر « أورشليم » ، وكيف استطاعت هذه بفضل قوة حصونها أن تقاوم هجوم الآشوريين ، وكيف أن ملك مصر « شباتاكا » قد بعث بجيش إلى آسيا تحت إمرة « طهرقه » ، وكيف أن « سنحريب » قد هزأ بكل ذلك فأرسل إلى « حزقيا » قائلاً : على من اتكلت حتى عصيتني ، هو ذا قد اتكلت على مصر ، واتخذت عكازه هذه القصبة المرسوطة التي إذا اتكأ عليها إنسان دخلت في كفه وثقيبتا . كذلك هو فرعون ملك مصر لجميع المنسكبين عليه . انظر : (سفر الملوك الثاني ١٨ : ٢٠ — ٢١) .

وليس يفوتنا آخر الأمر أن نذكر أننا لا نملك من وثائق التاريخ الصحيح ما يؤيد تلك الهزيمة التي حاقت بسنحريب وجيشه ، وإن كنا نملك روايتين ولا نملك إزاء أحداث التاريخ إلا أن نضعهما في مصاف المعجزات : أولاهما أن « يهوى » رب العبرانيين قد بعث بواحد من ملائكته أهلك يسيفه ١٨٥٠٠٠ من عساكر الآشوريين . انظر : (كتاب الملوك ١٩ : ٣٥ — ٣٦) ، وتلك — في رأيي — أشبه بالمعجزة التي أهلك بها الله أعداء المسلمين يوم « بدر » ، والثانية هي التي تصدى لها « هردوت » .

انظر : (Legrand, Hérodote. p. 165) .

١٤٢ — إلى هذا الحد من الرواية ، كان الكلام للمصريين وكهنتهم :
 وضخوا الى أنه وجد عندهم ابتداءً من أول ملك إلى كاهن « هيفايستوس » هذا
 — وهو آخر من حكمهم — واحد وأربعون وثلاث مئة جيل من البشر^(١). وخلال
 هذه الأجيال ، كان عدد كبار الكهنة بقدر عدد الملوك^(٢). والآن. فإن ثلاث مئة
 جيل من الرجال تعادل عشرة آلاف عام ؛ لأن ثلاثة من هذه الأجيال تعادل
 مئة سنة^(٣) ، ويبلغ ما تشتمل عليه الأجيال الواحد والأربعون الباقية
 — التي تضاف إلى الثلاث مئة — ١٣٤٠ عاماً^(٤). وهكذا ؛ لم يظهر — حسب
 قولهم — إله على شكل إنسان^(٥). وقالوا : إنه لم يظهر شيء من هذا القبيل ،
 لا من قبل ولا من بعد في عهد ملوك مصر الباقين . ثم قالوا إن الشمس في ذلك
 العصر غيّرت مناطقها المألوفة أربع مرات ؛ فأشرقت مرتين حيث تغرب الآن ،
 وغربت مرتين حيث تشرق الآن . ولكن لم يتبع ذلك أى تغيير في
 مصر ، لا فيما تُغسله الأرض ، ولا فيما يجود به النهر ، ولا فيما يتعلق

(١) يقصد « منا » أول الملوك فضلاً عن الثلاثين والثلاث مئة . كما أوضح
 في الفصل رقم ١٠٠ من هذا الكتاب ، ثم يضيف إلى ذلك العشرة الذين ورد
 ذكرهم بين فصلي (١٠٢ — ١٤١) .

- (٢) ليس ضرورياً أن يكون عدد كبار الكهنة بقدر عدد الملوك .
 (٣) يتضح من ذلك أن « هردوت » لم يتوخ الدقة ، وإنما أخذ بالعميم ؛
 حين جعل لكل ملك متوسطاً من العمر لا يعدو الجيل الواحد .
 (٤) لقد أخطأ « هردوت » ولم يكن دقيقاً في حسابه ، إذ أن الأجيال
 التي ذكرها ؛ وعددها واحد وأربعون وثلاث مئة تعد من السنين ١١٣٦٦ .
 وذلك على أساس أن كل قرن من السنين يشمل ثلاثة أجيال .
 (٥) ذلك كلام تنقصه الدقة . وحسبنا أن معبود المصريين « بتاح » قد كان
 منذ أول عهد المصريين يظهر في صورة بشر .

بالأمراض أو الموت (١).

١٤٣ — وعندما وضع المؤرخ « هيكاتيوس » (٢) — فيما مضى أثناء وجوده في طيبة — تسلسل أنسابه ؛ فرفع أصل أسرته إلى إله جعله جده السادس عشر (٣) ، فعل معه كهنة « زيوس » ما فعلوه معي . ولو أنني لم أوضح نسبي . فقادوني داخل المحراب (٤) وهو ضخم . وأروني تماثيل خشبية ضخمة وعدوها ؛ فكان عددها كما قالوا تماماً ؛ لأن كل كاهن كبير يقيم هناك في حياته تمثالا لنفسه . وفيما كان الكهنة يعدونها ويطلعونني عليها أكدوا لي أن كل ابن منهم كان خليفة لأبيه . بادئين بآخر من مات منهم . ومارين بهم جميعاً حتى أتوا على ذكرهم جميعاً . وعندما وضع « هيكاتيوس » نسبه ووصل بأصله إلى إله

(١) يقصد ما كان يعتري بدء السنة المصرية من تغير . انظر : (ما جاء من الحديث عن ذلك في (Erman, Aegypten S. 397 - 399) .

(٢) هيكاتيوس : هو الشهير « بالملطية » نسبة إلى وطنه « ملطية » . وكان من أشهر رجال زمانه . سبق « هردوت » في كتابة التاريخ ، ويعد أول أسلافه في هذا المجال ؛ زار كثيراً من بقاع الدنيا المعروفة في أيامه ، وسجل كل مشاهداته وبخاصة وصف تلك البقاع ومنها مصر ؛ وذلك في كتابه « حول الأرض » . وله كتاب آخر أسماء « الأنساب » . وظهر في أكثر ما كتب « هردوت » أنه شديد الكره لسلفه هذا ، كثير الطعن عليه ، شديد الميل إلى تسفيه آرائه . ويسكني أن نشير إلى ذلك في بعض فصول هذا الكتاب مثل : (فصل : ٢١ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٧ ، ١٥٦) . وليس بين أيدينا ما يحقق زعم « هردوت » من أن سلفه قد حكى كل ما نسب إليه ، وأكبر الظن أن الأمر لا يخرج عن افتراء مصدره الكره والحسد . (٣) أغلب الظن أن الإله المعنى هنا هو « أبوللون » الذي عبد في « ملطية » وطن « هيكاتيوس » .

(٤) لا ندرى لم لم يصف « هردوت » ذلك المحراب بالتفصيل كدأبه ؟ .

بمثابة جده السادس عشر ، عارضوه في أن نسباً يعتمد على هذا الثبت لأنهم لا يسمون بقوله إن إنساناً يخلق من آله ، وعارضوا نسبه بهذه الكيفية . . . أعلنوا أن كل واحد من أصحاب التماثيل الضخمة كان « بيروميس »^(١) خليفة « بيروميس » إلى أن وضخوا أن هذا التسلسل من « بيروميس » إلى « بيروميس » يشمل الخمسة والأربعين والثلاث مئة تمثال ولم ينسبهم إلى إله أو بطل . و « بيروميس » تعنى فى اللغة اليونانية « الرجل الفاضل » .

١٤٤ — إذن هذه التماثيل — وفقاً لتبيانهم — كانت على شاكلة أصحابها (من البشر) ، بعيدة كل البعد عن الآلهة . ولكن قبل هؤلاء الناس ، كان حكام مصر آلهة يعيشون مع البشر ، وكان صاحب السلطان دائماً واحداً منها ، وآخر الملوك من الآلهة هو « حورس » بن « أزوريس » . ويسميه اليونانيون « أبوللون »^(٣) بحكم بعد أن خلع « تيفون »^(٤) ؛ فكان آخر ملوك مصر من الآلهة .

(١) الواقع أن « هردوت » يقصد إلى تحوير اللفظ فى اللغة الإغريقية إلى معنى « الرجل الفاضل » ؛ وإن كان يمكن إرجاعه إلى أصل مصرى قديم لا يعدو بمعناه كلمة « الرجل » ، « الإنسان » ، « البشر » .

(٢) عرف المصريون من آل فرعون — كغيرهم من سائر شعوب الأرض القديمة — أسراً مقدسة لأربابهم التى عبدوها .

انظر: (Alex. Moret, Le Nil et la Civilisation égyptienne, p. 68.)

(٣) كان « أبوللون » هو الاسم الذى أطلقه الأفاقة على المعبود المصرى « حورس » ، وكان هذا الأخير إنما يمثل — فى الأغلب الأعم — « الشمس » . وهى مظهر القوة الطبيعية التى تفعل فعلها فى الحياة وتطورها على مدار السنة . وأما أن « حورس » كان آخر من حكم من الآلهة ، فذلك قول يطابق ما جاء فى نظرية هليوبوليس الدينية .

(٤) الاسم الذى أطلقه المصريون على المعبود المصرى « ست » رمز الجفاف ، وصاحب الصحراء ، وقاتل أخيه « أزوريس » ، وعدو ولده « حورس » (= أبوللون) .

« وأزوريس » هو في اللغة اليونانية « ديونيسوس »^(١).

١٤٥ — يعتبر « هيراكليس »^(٢) و « ديونيسوس » و « بان » عند اليونانيين أحدث الآلهة . أما المصريون فيعتبرون « بان » أقدم الآلهة . وبعد الآلهة التي يسمونها الآلهة الثمانية^(٣) الأولى . و « هيراكليس » أحد آلهة المرتبة الثانية المسماة بالآلهة الاثني عشر^(٤) ، و « ديونيسوس » أحد آلهة المرتبة الثالثة الذين خلقوا من الآلهة الاثني عشر . ولقد بينت — فيما سبق — عدد السنين التي انقضت — حسب قول المصريين أنفسهم — بين « هيراكليس » والملك « أمازيس »^(٥) . ويقال إن المدة التي مرت منذ « بان » أطول من ذلك أيضاً ، وانقضت منذ « ديونيسوس » فترة أقصر من هذه وتلك . ويعدون من زمان « ديونيسوس » إلى زمان الملك « أمازيس » خمسة عشر ألف عام^(٦) . ويؤكد المصريون أنهم يعرفون ذلك بمنتهى الدقة لأنهم يحسبون السنين ويسجلونها باستمرار . مع أن الفترة منذ وجود « ديونيسوس » بن « سميلي » بنت « كادموس » حتى أيامنا هذه ، تبلغ ألفاً

(١) واضح أن « هردوت » يعنى بالمعبود الإغريقي Dionysos نظيره من معبودات المصريين « أزوريس » الذي يمثل البعث في الطبيعة . وقد أوضحنا ذلك في غير موضع من هذا الكتاب . انظر : (الفصلين رقم ٤١ ، ورقم ١٢٣) .

(٢) انظر : (الفصلين رقم ٤٣ ، رقم ٤٤) من هذا الكتاب .

(٣) انظر : (الفصول رقم ٤ ، ٤٣ ، ٤٦) من هذا الكتاب .

(٤) انظر : (الفصل رقم ٤٣) من هذا الكتاب .

(٥) انظر : (الفصل رقم ٤٣) من هذا الكتاب .

(٦) انظر : (Legrand, H. L. II p. 144, Note 7) .

وستمئة سنة تقريباً^(١). ومنذ زمان «هيراكليس» بن «ألكميني» تسع مئة عام على وجه التقريب. ومنذ «بان» بن «پنيولوي»: (إذ يقول اليونانيون إنه ابنها من «هرمس»)^(٢)، انقضت أعوام أقل مما انقضى منذ حرب طروادة أي ما يقرب من ثمان مئة.

١٤٦ — ولكل امرئ أن يختار من هاتين الروايتين ما يرى أنها أولى بالتصديق. أما أنا فلقد سبق أن بينت رأيي في هذا الشأن^(٣)، لأنه إذا كان «ديونيسوس» بن «سميلي» و«بان» بن «پنيولوي» اشتهرا وعمرًا كذلك في بلاد اليونان مثل «هيراكليس» بن «أمفيتريون»، فللمرء أن يقول إنهما كانا — مثل «هيراكليس» — رجلين يسميان باسمي الإلهين اللذين وجدا من قبلهما. على أن اليونانييّن يقولون عن «ديونيسوس» أن «زيوس» قد خاطه إلى فخذه بمجرد ولادته، وحمله إلى «نيسا»^(٤) التي تقع بأثيوبية فيما وراء مصر. أما بخصوص «بان» فليس في إمكانهم أن يقولوا إلى أين

(١) إذا جاز لنا أن نرى أزهر أيام «هردوت» خلال رحلته إلى مدينة «توري» Thuri في إيطاليا؛ أي حوالي ٤٤٤ ق. م، فإن أيام «ديونيسوس» ينبغي أن تقع حوالي ٢٠٦٤ ق. م، وأيام «هيراكليس» حوالي ١٣٤٤ وأيام «بان» حوالي ١٢٤٤ ق. م.

(٢) انظر الحديث عن Hermes في الفصل رقم ٥١ من هذا الكتاب، فأما Penelope. فلن يختلف وضعها هنا عن وضع Helena أو عن وضع Jo.

(٣) انظر الفصول من ٤٣ — ٤٩، ثم الفصل رقم ٥٢ من هذا الكتاب.

(٤) هذا هو الاسم الذي وضعته الخرافة الإغريقية علماً على الموضع الذي بعث إليه «زيوس» بالطفل «ديونيسوس»، وأسلمه إلى الحور ليرضعه. ولما انتشرت شعائر «ديونيسوس» مع الزمن أخذت أسماء الأماكن الخاصة بمولده ونشأته تتردد وتختلف بين «تراقية»، و«آسية الصغرى»، و«الهند».

توجّه بعد مولده . ومن ذلك يتضح أن اليونانيين - فيما يبدو لي - قد عرفوا
اسمى هذين الإلهين بعد أسماء الآلهة الأخرى ، وأنهم حددوا تاريخ ميلادهما
وقتما علموا بهما .

١٤٧ - إن ما سبق هو من كلام المصريين أنفسهم : وأقص الآن
روايات الآخرين ؛ وتلك يوافق عليها المصريون ، بشأن ما حدث في هذا البلد .
وسيضاف إلى هذا أيضاً بعض مشاهداتي الخاصة (١) .

لما تحرّر المصريون بعد حكم « كاهن هيفايستوس » (لأنهم لم يستسيغوا
مطلقاً أن يعيشوا زمناً بدون ملك) ، قسّموا مصر كلها اثني عشر قسماً ،
ونصبوا عليها اثني عشر ملكاً (٢) .

(١) انظر الفصل رقم ٩٩ من هذا الكتاب .

(٢) الواقع أن فكرة الأثني عشرية لا تبدو قائمة على أساس واضح . فأما
فكرة الانحلال والتكالب على الحكم قبل أيام الأسرة السادسة والعشرين فأمرها
معروف ، وإن كان قد غاب عن « هردوت » أن هذه الصورة من الانقسام
والتفكك قد عُرِفَتْ وتكررت في مصر قبل أيام الأسرة الخامسة والعشرين ؛
فهى قد عرفت قبل أيام « منا » ، وهى قد عرفت قبل أيام الدولة الوسطى ، وبعد
انتهاء أيامها أيضاً . انظر : (de Meulenaere ibd. 12 f.) . وأكبر الظن أن ضخامة
بناء « اللايرنث » . انظر : (الفصل رقم ١٤٨) قد راعت هردوت بحيث لم يستطع
أن يتصور أنه من عمل ملك واحد . والواقع أن ذكر العدد والإصرار
على تحديده لم يكن من عمل هردوت وحده ، بل أخذ به كل من « استرابون »
و « بلينيوس » فجعل كل فناء من أفنية المعبد الأثني عشر لإقليم من الأقاليم
الإثني عشر . انظر : (Plinius, Naturalis historia 36, Cap. 13) .

وفكرة تمثيل الأقاليم في المعابد كانت معروفة قبل أيام هردوت ، وقبل أيام
الأسرة السادسة والعشرين ؛ بل قبل أيام صاحب اللايرنث . عرفت أيام
« منكاورع » . انظر : (Reisner, Mycerinus (Cambridge 1913)) .

وتخالف هؤلاء الملوك فيما بينهم عن طريق الزواج ، وحكموا متبعين هذه القواعد . . ألا يخلع أحدهم الآخر ، ألا يسعى أحدهم إلى أن يمتلك أكثر من الآخر ، وأن يكونوا أصدقاء مخلصين . أما السبب الذي من أجله استنوا هذه القواعد واحترموها احتراماً فائقاً فهو أن وحياء بمجرد توليتهم الحكم جاءهم منذ البداية قائلاً إن حكم مصر سينزل إلى من يسكب منهم القربان من قدح برونزي في معبد « هيفايستوس » (١) (ذلك لأنهم كانوا يجتمعون في جميع المعابد) (٢) .

١٤٨ — وقرروا جميعاً أن يخلّفوا أثراً مشتركاً . وعلى أثر ذلك القرار ، شيّدوا « اللابيرنث » (٣) الذي يقع وراء بحيرة

(١) انظر الحديث عن ذلك في الفصل (رقم ٥١) من هذا الكتاب .

(٢) يعنى أن الاجتماع لم يكن قاصراً على المعبد التابع للإقليم الذى سيتولى حكمه كل واحد من أولئك الأثني عشر ، بل كان فى معابد الأقاليم الأخرى ، وفى مقدمتها معبد « بتاح » .

(٣) اللابيرنث المصرى : كتب فى وصفه غير هردوت آخرون من كتاب العالم القديم ، وليس فى مقدورنا اليوم تحقيق الوصف الذى أورده هردوت ، بعد أن تتابعت محن الأيام على البناء ، وعدت عليه العواذى فى القديم والحديث ، فى العصر الرومانى بُنيت من أنقاضه مدينة « كروكوديلوپوليس » (مدينة التمساح) . ومنها بُنيت أكثر مرافق السكة الحديدية فى الأيام الحديثة ، وتخير الباحثون فى تحديد مكانه . انظر : (Petrie, Hawara, Biahmu & Arsinoe, London 1889) . ومن الذين وصفوا المعبد غير « هردوت » « استرابون » . انظر : (Strab. 17, 811) الذى عاش بعده بأربعة قرون . ونستطيع أن نقدر مطمئنين أن بناء المعبد قد تغير فى هذا المدى الطويل ، ويتضح أثر ذلك فى اختلاف الوصفين ، كما يتضح يماً رواه « ديودور الصقلى » . انظر : =

« مويريس »^(١) بقليل ، وعلى قرب من المدينة المسماة بمدينة التماسيح^(٢) .
ولقد رأيت به بنفسى ، وهو عمل يعجز عن وصفه البيان . إذ لو قدر لأمرى أن
يجمع معرضاً للعباني والآثار الفنية التي شيدها اليونانيون ، لبنت عملاً أقل من
هذا « اللابيرنث » بشأن ما تطلبه من نفقات ومن عمل شاق . ولو أن معبدى
« إفسوس »^(٣) و « ساموس »^(٤) ليستحقان الكلام . كذا لاحظنا أن الأهرام
تجل عن الوصف وأن كلا منها يكفى كثيراً من آثار يونانية ، حتى عظيمها .
ولكن « اللابيرنث » يفوق الأهرام أيضاً وبه اثنا عشر بهواً مستقوفاً مداخلها
متقابلة ، ستة تتجه نحو الشرق وستة نحو الغرب ، متتابعة ، يحيط بها سور
خارجى واحد . وهناك نوعان من القاعات ، بعضها تحت الأرض وبعضها فوق
الأولى ، تحت سطح الأرض . وعددها ثلاثة آلاف قاعة . خمسمائة وألف من

= (Diod. I, 66) . والواقع أن فى ضياع هذا الأثر خسارة فى تراث العمارة
الفرعونية لاتعد لها خسارة ؛ فهو كما وصفه الكتّاب الذين ذكرنا يعد شيئاً
منقطع النظير بين عجائب الدنيا ؛ بل هو كما وصفوا يفوق كافة المعابد المصرية من
حيث المساحة ، وتعدد الغرفات وزينتها وزخرفها وتماثيلها . انظر : (Petrie, ibd.)
ثم (Petrie, Labyrinth, Gizeh & Mazghuneh) . ثم انظر الحديث الذى
جاء عن ذلك فى الكتاب الذى أصدره de Meulenaere عن هردوت
والأسرة السادسة والعشرين عام ١٩٥١ ، وأخيراً المقال الذى نشره العالم Kees .

انظر : (Kees, Aeg. Laby. RE. XII, 1, S. 323 - 326) .

ثم (Wiedemann, Herodots II Buch S. 525—533) .

(١) انظر ما جاء عن البحيرة فى الفصل رقم ١٣ من هذا الكتاب .

(٢) « مدينة التماسيح » التى عرفت بعد أيام الفراعنة باسم Arsinoe وهى
تبعد كثيراً عن مدينة الفيوم الحالية (انظر : ص ٢٧٩ هامش ٣) .

(٣) يقصد معبد ARTEMIS فى تلك المدينة . انظر : (هردوت ج ١ فصل ٩٢) .

(٤) يقصد معبد HERA ؛ وكان فى رأيه أكبر المعابد . انظر : (هردوت

ج ٣ فصل ٦٠) .

كل نوع ، ولقد رأينا بأنفسنا القاعات التي فوق سطح الأرض وجسنا خلالها .
 وإنا لنتكلم عما شاهدناه بأعيننا . . أما القاعات التي تحت الأرض ، فوقنا على
 أمرها مما قيل لنا . لأن هؤلاء الذين يشرفون عليها من المصريين لم يرضوا البتة
 أن يرونا إياها ؛ مدعين أنه توجد بها توايت الملوك الذين بنّوا ، أول الأمر ،
 ذلك اللابيرنث . وبها توايت التماسيح المقدسة أيضاً . وهكذا تلقفنا الحديث عن
 القاعات السفلى ؛ عرفناه عن طريق السماع . أما القاعات العليا فقد رأيناها بأعيننا
 وهي تفوق أعمال البشر . فالممرات خلال الردهات والمنعرجات المعقدة منتهى
 التعقيد خلال الأبهاء كانت لنا مصدر أعجاب لا حد له ، أثناء مرورنا من البهو
 إلى القاعات . ومن هذه إلى الأروقة ، ومن هذه إلى ردهات أخرى ومن
 القاعات إلى سائر الأبهاء . وسقف هذه الأبنية كلها من الحجر مثل الجدران ،
 والجدران ممتلئة بالأشكال المحفورة ، وتحيط بكل بهو أعمدة من الحجر الأبيض
 متداخلة بإتقان فائق . ويلتصق بالركن الذي ينتهى عنده اللابيرنث هرم ارتفاعه
 أربعون باعاً ؛ حفرت عليه أشكال حيوانات كبيرة (١) ، وقد بنى تحت الأرض
 طريق تصل إليه .

(١) إنه هرم « أمنمحات الثالث » في « هوآره » . ويقصد هردوت بالأشكال
 الكبيرة الكتابة الهيروغليفية ، وعلى ذلك جرى النظراء من الكتاب الأقدمين ؛
 إذ كانوا يسمون إشارات الكتابة المصرية « الحيوانات الكبيرة المحفورة » ،
 وفي ذلك الوصف ما يدل على أن هردوت قد رأى هذا الهرم ، فأما تقدير
 الارتفاع عنده ويبلغ ٢٤٠ قدماً فيختلف عن تقدير Perring الذي يبلغ ١٦٠ قدماً .
 هذا ؛ ولا يفوتنا أنه قد كان لأمنمحات هذا هرم آخر على بعد قريب من منف ،
 وقد بقيت منه قته الموجودة بالمتحف المصري والتي بلغ ارتفاعها ١٤٠ م كما بلغ
 طول قاعدتها ١٨٥ م . انظر : (Schaefer, Z.Ae.S. 41, 1904 S. 84. f.) .

١٤٩ — ومع أن « اللابيرنث » على هذه الدرجة من العظمة ، لكن البحيرة المسماة بحيرة مويريس^(١) والتي بنى « اللابيرنث » بالقرب منها ، تثير عجباً أشد ، فطول محيطها ٣٦٠٠ ستاداً أو ستون اسخينوس ، وهذا مدى يساوى امتداد مصر نفسها على ساحل البحر . وتمتد البحيرة نحو الشمال والجنوب ، وغورها في أعماق الجهات خمسون باعاً ، وهى ذاتها تشير إلى أنها صناعية ، صورتها السواعد ، إذ يقوم في وسطها تقريباً هرمان ، يرتفع كل منهما فوق الماء خمسين باعاً ، وما بنى تحت الماء منهما يعادل هذا القدر . ويوجد فوق كل منهما تمثال ضخيم من الحجر يجلس على عرش . وبذا يكون ارتفاع كل من الهرمين مئة باع ومئة باع تساوى « ستاداً » واحداً مكوناً من ستة بليثرونات ؛ لأن الباع يساوى ستة أقدام أو أربع أذرع ؛ ذلك لأن القدم أربعة أشبار والذراع ستة أشبار^(٢) . والماء الذى بالبحيرة ليس فيها بالطبيعة (فالإقليم فى هذه المنطقة شديد الجفاف) بل يصل إليها

(١) يقصد البحيرة المعروفة اليوم باسم « بركة قارون » انظر فصل ١٣ .
(٢) إن التمثالين اللذين ظنَّ « هردوت » أن قاعدة كل منهما هرم ، يقعان على مسيرة ٨ كيلو مترات إلى الشمال من مدينة ARSINOE ، ولسنا نعتقد أنهما يوم رآهما هردوت كانا — كما يقول — يتوسطان البحيرة . وقد عثر « بترى » على القاعدة فى القرن الماضى ، وكان ارتفاع التمثالين ١٢ م ، وكان جزءاها السفليان واضحين حتى أيام القرن السابع عشر . وعثر « بترى » أيضاً على شئ من حطام هذين الأثرين . ونحب أن نقرر آخر الأمر ؛ أن هردوت لم يكن كاذباً ، وإنما كان معذوراً حين رأى القاعدة هرمياً ، إذ أنه رآها من بُعد ، فهالته ضخامتها .

انظر : (Brown, The Fayum & lake Moeris 1892) .

ثم (Petrie, Hawara, Biahmu & Arsinoe, London 1889) .

من النيل بواسطة قناة^(١) وينساب الماء من النيل إلى البحيرة مدة ستة أشهر ، ثم يرجع منها إلى النيل ثانية مدة ستة أشهر ، وعندما يخرج منها الماء في الأشهر الستة ، تجلب من الأسماك^(٢) ما يُدرُّ يومياً على الخزانة الملكية (مبلغ) تالنت من الفضة ، وعندما يدخلها الماء يكون واردها عشرين مناً لحسب.

١٥٠ — وكذلك قال أهل البلاد : إن هذه البحيرة تتجه من ناحيتها الغربية إلى الأرض الداخلية بجذاء الجبل الذي يقع فوق ممفيس ، وتصب تحت الأرض في «السيرتيس» في ليبيا . ولما لم يقع بصرى في أى مكان على الرديم الناتج عن حفر البحيرة ، فقد شغلنى الأمر ، فسألت الذين يسكنون قريباً جداً من البحيرة أين يوجد الرديم الذى أخرج منها . فوضحوا لى بالقول أين تقل . فصددتهم فى سهولة ؛ لأننى كنت علمت بالسماع أن شيئاً مثل هذا حدث بالمدينة الآشورية « نينوى »^(٣) ، إذ أن « اساردانا پالوس »^(٤) ملك نينوى كان يملك أموالاً طائلة محفوظة فى كنوز تحت الأرض ، وأن اللصوص فسكروا فى سرقتها . فشرع هؤلاء فى الحفر تحت الأرض ، مبتدئين من بيوتهم

(١) تلك هى القناة المعروفة اليوم باسم «بحر يوسف» الذى يفصل من النيل عند ديروط ثم يجرى بالماء إلى واحة الفيوم . وأكبر الظن أن القناة القديمة كانت أوسع من قناة اليوم .

(٢) ليس غريباً أن تَغْنَى البحيرة بأسمائها ، وقد أشار إلى ذلك «ديودور» ، انظر : (Diod. I, 52) ، وإن كان قد أخطأ حين نسب إلى الملك «مويريس» تخصيص إيراد السمك الخارج من هذه البحيرة لزينة زوجته ، وأغلب الظن أنه خلط بين هذا الملك وبين حكام الفرس الذين خصصوا إيراد بعض المدن لزينة أزواجهن .

(٣) نينوى : عاصمة آشور من عام ١٣٠٠ — ٦١٢ ق . م .

انظر : (هردوت ج ١ فصل ١٧٨) .

(٤) ملك من ملوك آشور ورد اسمه كالأتى فى الخط المسهارى :

ASSUR-DAN-APLU . عاش فى القرن السابع قبل الميلاد .

ومقدرين المسافة إلى القصر الملكي ، وكانوا كل ليلة يحملون التراب الناتج عن الحفر إلى نهر دجلة الذي ينساب بالقرب من «نيدوى» حتى حققوا بغيتهم . ولقد سمعت أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث عند حفر البحيرة في مصر . إلا أنه لم يتم بالليل ؛ بل تم بالنهار . إذ كان المصريون يحملون التراب الذي يُخْرِجُونَهُ إلى النيل ، وكان النهر يأخذه معه ويبعثه حتماً .

١٥١ — واتبع الملوك الاثنا عشر العدل . وبعد مرور فترة من الزمن ، بينما كانوا يُقَرَّبُونَ في معبد هيفايستوس ، وفيما هم يزعمون سكب القربان في آخر أيام العيد ، أحضر لهم الكاهن الأكبر الأواني الذهبية التي اعتادوا استخدامها في سكب القربان . ولكنه أخطأ في العدد فأحضر إحدى عشرة آنية مع أنهم كانوا اثني عشر ملكاً . ولما لم يكن لا «إسماتيك»^(١) ، الذي كان يقف آخرهم ، إناء نزع خوذته وكانت من البرونز^(٢) ومدها ثم سكب بها القربان . وكان جميع الملوك الآخرين أيضاً يلبسون خوذات . وتصادف عندئذ أنهم كانوا يلبسونها . (ومعنى ذلك أنه) لم يجلب مطلقاً بخاطر «إسماتيك» أى تفكير خبيث عندما مد خوذته . ولكن الآخرين فكروا فيما فعله ، وفي الوحي الذي كان قد أنبأهم بأن الذي يسكب منهم القربان من إناء برونزي سيكون وحده ملك

(١) إسماتيك الأول حكم بين عامي ٦٧٠ ، ٦١٦ ق . م . انظر : (الفصل

رقم ١٥٧) .

(٢) لم تكن كافّة النيجان التي نراها في الصور والرسوم على رؤوس الفراعنة من المعدن . وليس بمستبعد كذلك أن يكون في الأمر خلط وسوء فهم في تفسير كلمة برونز . انظر : (de Meulenaere ibd. p. 24 s. 99) .

مصر . ولما تذكروا النبوة ، اعتبروا أنه من الظلم قتل « إسماتيك »
إذ اكتشفوا ، بعد سؤاله ، أنه أقدم على فعلته دون أى تفكير مقصود .
وقرروا إبعاده إلى المستنقعات (١) بعد تجريده من الجزء الأكبر من سلطانه .
وعلى ألا يغادر المستنقعات ، وألا تكون له صلات مع باقى أقاليم مصر .

١٥٢ — وإسماتيك هذا كان قد فر فيما مضى أمام «شباكو» الأثيوبي
الذى قتل أباه « نيكوس » (٢) ولجأ عندئذ إلى سورية . وعندما انسحب
الأثيوبي بسبب الحلم الذى رآه ، أُرْجِعَ المصريون (أهل سايس) إسماتيك
الذى تولى الحكم بعد ذلك . وحدث لسوء حظه أن نفاه الملك الأحد عشر
مرة ثانية إلى المستنقعات بسبب الخوذة . ولما أحس أنهم امتنوا كرامته فكر فى
الانتقام ممن طردوه فأرسل إلى معبد «ليتو» فى مدينة «بوطو» حيث يوجد وحي
مصدق تمام التصديق عند المصريين (٣) ، وجاء الوحي بأن الانتقام سيأتى من
البحر عند ظهور قوم برونزيين ، وداخله شك كبير فى مجيئ رجال برونزيين
لمساعدته . ولكن بعد مضى وقت غير طويل شاء القضاء المحتوم أن يطوح
إلى مصر بنفر من الأيونيين والكاريين (٤) ، كانوا قد أبحروا بغية السلب .

(١) انظر : (الفصلين رقم ٩٢ ، رقم ١٤٠) . المقصود هنا منخفضات الدلتا تحيط
بها القنوات أحيانا وتغطيها الأخوار أحيانا أخرى .

(٢) نخاو : والد أوسلف إسماتيك ؛ قتله الأثيوبيون عام ٦٦٣ ق . م .
انظر : (de Meulenaere, Herodotus over de 26 te Dyn.)
(Leuven 1951) .

(٣) انظر : (فصل ١٥٥) ، ثم انظر : (ماورد فى الفصل الثالث والثمانين) .
(٤) كان الكاريئون أصلاً يحترفون القرصنة ، ثم أصبحوا بعد ذلك من
الجنود المرتزقين . وقد عُثِرَ بين نقوش معبد أبى سنبل على نصوص تدل أن
الجنود الكارييين قد باعوا أسوان تحت إمرة « إسماتيك » فعلاً .
انظر : (Wiedemann, Herodots II^{tes} Buch S. 592) .

ولما نزلوا إلى البر ، مدرعين بالبرونز ، ذهب أحد المصريين إلى المستنقعات إلى « إسماتيك » ، ولم يكن قد رأى من قبل رجالا مدرعين بالبرونز ، فأبلغ « إسماتيك » أن رجالا برونزيين قد وصلوا من البحر وأنهم يهبون الأرض المنزرعة. فأدرك « إسماتيك » أن النبوءة قد تحققت وعمل على مصادقة الأيونيين والكاريين وإغرائهم بوعود سخية لينضموا إليه . فلما أقنعهم ، خلع الملوك بمساعدة هؤلاء المرتزقة والمصريين الذين رغبوا في تأييده .

١٥٣ — ولما تمت له السيادة على مصر كلها ، أقام « إسماتيك » في ممفيس رواقاً لهيفايستوس ، يتجه نحو الجنوب . وبنى لأبيس (١) تجاه الرواق فناء حيث كان يطعم عندما يتجلى ، والفناء كله محاط بالأعمدة ومملوء بالصور (٢). وبدلاً من أن يقوم على أعمدة ، تحمله تماثيل ضخمة ، طول كل منها اثنتا عشرة ذراعاً . و « آبيس » في اللغة اليونانية هو « إيافوس » (٣) .

١٥٤ — وأعطى « إسماتيك » الأيونيين والكاريين الذين ساعدوه أراضى ليسكنوها ، بعضها قبالة البعص (٤) يمر النيل في وسطها ، وتسمى المعسكرات (٥) ، منحهم هذه الأراضى ووفى لكل بما كان قد وعد به . كما أنه عهد إليهم بصبية مصريين لِيَتَعَلَّمُوا اللغة اليونانية . ومن هؤلاء الذين تعلموا انحدر التراجة (٦) الحاليون بمصر . وأقام الأيونيون والكاريون بهذه

(١) انظر : (الفصلين رقم ٩٩ ، رقم ١٠١ من هذا الكتاب) .

(٢) يعنى الكتابة الهيروغليفية .

(٣) انظر : (ما جاء عن « إيافوس » في الفصل رقم ٣٧ من هذا الكتاب) .

(٤) انظر : (Kees, Zur Innenpolitik der Saiten Dyn.)

(٥) انظر : (الفصل رقم ١١٢) .

(٦) انظر : (المقدمة ثم الفصل رقم ١٦٤) .

الأراضى وقتنا طويلا . وتقع بجانب البحر بعد مدينة « بوباسطيس » بقليل ، وعلى فرع النيل المسمى بالفرع اليلوزى ، وأخيراً هجرهم « أمازيس » من هذا المكان وأسكنهم « ممفيس » وجعلهم حرسه الخاص ؛ يتقى بهم المصريين . وبسكنى هؤلاء مصر وبفضل اتصال اليونانيين بهم عرفنا تماماً كل ما جرى بمصر ابتداء من حكم « إسماتيك » وما بعده . وهم أول من سكن مصر من الأجانب . ولقد بقيت حتى وقتنا هذا الأماكن التى كانوا يحفظون فيها سفنهم (١) . وبقياء مساكنهم موجودة فى الأراضى التى هاجروا منها . تلك كانت سبيل استيلاء « إسماتيك » على مصر .

١٥٥ — ذكرت فيما سبق وحى (٢) مصر مرات عديدة ، وسيدور حديثى عنه لأنه جدير بالكلام ؛ إن مهبط وحى مصر هو معبد « ليتو » ، المقام فى مدينة كبيرة على فرع النيل (٣) المسمى بالفرع السينيئى فى طريق صاعد فى النهر من البحر متجها إلى الداخل . وتدعى هذه المدينة التى يوجد بها الوحى « بوتو » كما سميتها من قبل (٤) . وفى مدينة « بوتو » هذه معبد لأبولون وأرتميس . أما معبد ليتو (٥) الذى يوجد به الوحى فهو فى حد ذاته ضخم وله صرح ارتفاعه عشرة أبواع (٦) وسأتكلم الآن عما أثار فى نفسى أشد العجب

(١) يقصد القواعد التى كانت تحفظ عليها السفن إذا ما أخرجوها من الماء ، ثم تدفع بعد ذلك بواسطتها إذا ما أرادوا إنزالها إلى الماء .

انظر : (Wiedemann, H. II^{tes} Buch S. 554) .

(٢) انظر : (فصل ٨٣ من هذا الكتاب) .

(٣) انظر : (فصل ١٧ من هذا الكتاب) .

(٤) انظر : (الفصول ٥٩ ، ٦٣ ، ٨٣ ، ثم ١٣٣) .

(٥) يقصد معبد « حتحور » .

(٦) أى نحو ٦٠ قدما .

مما رأيت : يوجد داخل سور معبد « ليتو » محراب مصنوع من حجر واحد (١) ، وهو متساوى الأبعاد من ناحية الارتفاع ومن ناحية الطول ، فكل منهما أربعون ذراعاً . والسقف الذى يغطيه عبارة عن حجر له إفريز بارز (سمكه) أربع أذرع .

١٥٦ — إن هذا المحراب — من بين ما شاهدت في نطاق هذا المعبد — يثير في النفس منتهى العجب . ومن بين الأشياء التى تليه (في إثارة الدهشة) ، الجزيرة المسماة « خميس » (٢) وتوجد هذه في بحيرة عميقة واسعة (٣) بالقرب من معبد « بوتو » . ويسمىها المصريون الجزيرة الطافية . أما أنا فلم أرها طافية أو متحركة ؛ بل عندما سمعت بهذا ، أخذتني الدهشة . وفكرت فيما إذا كانت توجد حقاً جزيرة طافية (٤) . ولكن مما لا شك فيه أن بهذه الجزيرة معبداً عظيماً لأبولون وثلاثة هياكل . وينمو فيها نخيل متكاثف وأشجار

(١) يقصد ما نسميه الناوس ومثله كثير بين آثار المصريين .

(٢) ليست هذه نفس مدينة « خميس » التى ورد ذكرها في الفصل ٩١ . وإنما هذه كانت موجودة بالدلتا ، وأكبر الظن أن يكون اسمها مصرى قديم « خم » بمعنى « المقصورة » ، أو « القدس » ، وربما كانت الجزيرة قرية من « بوتو » . انظر : (J. Ball, 17) .

(٣) البحيرة التى يصفها هردوت بالعمق والاتساع قد تكون « بحيرة البرلس » التى كانت تتصل بالبحر يومئذ عن طريق الفرع السمينودى .

(٤) قد نرى في ذلك ما يدل على أن « هردوت » كان حريصاً كل الحرص على ألا يصدق كل ما كان يسمع . ولم يكن عليه من بأس أن هو صدق ذلك في سهولة ؛ ذلك لأنه يعرف من أساطير قومه اليونان أن هناك جزيرة طافية قالوا أن AELUS قد عاش فيها . انظر الحديث عن ذلك في : (Odys. X, 3) . ثم حديث الجزيرة العائمة أيضاً في (Kea, G. G. S. 50) .

أخرى كثيرة ؛ بعضها يثمر وبعضها لا يثمر . ويؤكد المصريون أن الجزيرة طافية ، ويردّدون هذه الرواية . لقد حدث في هذه الجزيرة — ولم تكن طافية فيما مضى — أن إحدى الآلهة الثمانية الأولى (١) ، « ليتو » التي كانت تسكن في مدينة « بوتو » ؛ حيث يوجد وحيا ذاك ؛ حدث في هذه الجزيرة أن تسلّمت « ليتو » من « إيزيس » « أبوللون » وديعة . وأثقلت حياته بأن خبأته في الجزيرة التي تدعى حالياً بالجزيرة الطافية . حدث ذلك وقتما ذهب « تيفون » يبحث في كل مكان رغبة منه في العثور على ابن « أزوريس » (٢) . (يقول المصريون إن « أبوللون » و « أرتيمس » هما من ولد « ديونيسوس » و « إيزيس » وأن « ليتو » كانت مربّيتهما ومنقذتهما . وفي اللغة المصرية ، « أبوللون » هو « حورس » و « ديميتير » هي « إيزيس » و « أرتيمس » هي « بوباسطيس » (٣) . وعن هذه الرواية — وليس عن أى مصدر آخر — أخذ « أيسخيلوس » ابن « أوفوريون » — وحده من بين الشعراء السابقين — أخذ ما سأقول : جعل « أرتيمس » ابنة « ديميتير » . ومن أجل هذا ، صارت الجزيرة طافية . تلك هي رواية المصريين .

١٥٧ — وحكم إسماتيك مصر أربعاً وخمسين سنة (٤) ؛ استمر أثناء تسع وعشرين منها محاصراً لأزوتوس (٥) حتى استولى عليها ، وهي مدينة

-
- (١) انظر : (الفصل رقم ٤٣ من هذا الكتاب) .
 (٢) انظر : (الفصلين رقم ٥٩ ، رقم ١٤٤ من هذا الكتاب) .
 (٣) انظر : (الفصل رقم ١٣٧ من هذا الكتاب) .
 (٤) ذلك صحيح فقد حكم إسماتيك من ٦٦٣ إلى ٦٠٩ ق . م .
 (٥) أزوتوس AZOTUS « أشدود » مدينة قديمة موقعها في المنطقة الحصينة الممتدة على الساحل بين « غزة » و « الكرمل » . وقد يكون موقعها قريباً من « عسقلان » . تردد ذكرها في التوراة ، وكانت مركزاً من المراكز =

كبيرة بسوريا . وقد صمدت « أزوتوس » هذه أمام الحصار من بين كل المدن التي نعرفها أطول مدة .

١٥٨ — وأنجب « إسماتيك » ولدًا ، (هو) « نيخوس »^(١) ، حكم

مصر . وهو أول من شرع في حفر القناة التي تؤدي إلى بحر « أروتري » ، والتي أتم حفرها من بعده (دارا) الفارسي^(٢) . وطول القناة يساوي مدى إبحار

== الحرية الهامة في الشرق القريب عامة وبالنسبة لسياسة مصر يومئذ بخاصة . وقد حاصرها « إسماتيك » زمنًا طويلا ، وكان عظيم الأمل في استرداد أملاك مصر في غرب آسية ، ثم اضطر أخيراً إلى فك الحصار عنها ليعود إلى بلاده ويحميها من ذلك الخطر الداهم الذي كان يهدد حدودها بين أيدي « السكيثيين » الذين أخذوا يجتاحون بلاد الشرق الأدنى حتى قربوا من حدود مصر . انظر : Breasted, *Gesch. Aegypten* S. 307; de Meulenaere, H. p. 30 (١) NEKOS : فرعون مصر « نخاو » الذي تردد اسمه في التوراة كما ورد

على كثير من آثار عهده بين عامي ٦١٠ ، ٥٩٥ ق . م .

(٢) كانت الملاحة في البحر الأحمر من أشق الأمور على المصريين في ذلك العهد وهي ما زالت كذلك إن قارناها بالملاحة في غيره من البحار وبخاصة إذا كانت بالشرع . انظر : (Koester, *Z. Ae. S.* 58, S. 125 f). والغالب أن ذلك كان من دواعي التفكير في شق قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر عن طريق « وادي الطميلات » ، وإن كنا لا نكاد نجد في تراث المصريين ما يشير إلى ذلك ؛ لا في أيام الدولة القديمة ، ولا في أيام الدولة الوسطى ؛ وإنما بات أمر ذلك يشغل بال المصريين منذ أيام الدولة الحديثة ؛ فالرسوم التي تمثل مناظر الأسطول المصري في رحلته إلى بلاد « بنط » تشير إلى اختراقه مياه النيل ، وفي ذلك ما يدل على وجود قناة تصل النيل بالبحر الأحمر . ومن الجائز أن يكون استخدام تلك القناة قد بطل في عهد الرعامسة . ولما كانت أيام الأسرة السادسة والعشرين أخذ « نخاو » في حفر القناة التي يتحدث عنها « هردوت » والتي أتم حفرها من بعده الحاكمان الفارسيان « داريوس » و « إجزركسيس » (Ξέρξης) ، إلا أنها لم تُعَمَّر طويلاً .

أربعة أيام ، وقد حفرت عريضة ، حتى أن سفينتين من ذوات ثلاثة صفوف من المجاديف تمخرانها جنباً إلى جنب (١). ويؤتى إليها بالماء من النيل ، منصرفاً من مكان فوق مدينة « بوباسطيس » بقليل ، بالقرب من المدينة العربية « باتوموس » (٢) ، وتنتهى إلى بحر « أروتري » . حفر منها الجزء الذى فى السهل المصرى من جانب بلاد العرب ، ويتصل بهذا الجانب إلى الشمال من السهل ، سلسلة الجبال التى تواجه « ممفيس » (٣) ، والى توجد بها المحاجر . وعلى ذلك فالقناة تجرى بجذاء أسفل الجبل ، ممتدة من الغرب إلى الشرق (٤) ثم تسير فى منحدرات متّجهة من الجبل نحو الجنوب ، ونحو مهبط الريح الجنوبية حتى تبلغ الخليج

(١) إذا كان ذلك كذلك ، فلا بد أن القناة قد كانت تستخدم فى أغراض حربية ؛ ذلك لأن السفن ذوات الصفوف الثلاثة من المجاديف كانت سفناً حربية . انظر : (فصل ١٥٩ من هذا الكتاب) .

(٢) PATUMOS : مدينة مصرية قديمة ، ورد ذكرها فى التوراة ؛ حيث جاء فى الإصحاح الأول من سفر الخروج أن بنى إسرائيل قد بنوا لفرعون مخازن مدينتى « فيتوم » و « رمسيس » . وقد اختلف المؤرخون فى تحديد موقع المدينتين وطال الجدل حول ذلك زمناً وبخاصة حول موقع الثانية منهما ؛ وإن كانوا يجمعون على أنها فى شرق الدلتا وعلى بعد قريب من « فاقوس » . فأما « فيتوم » فقد جعلها بعضهم عند « تل المسخوطة » . انظر : (I. Ball, P. 15) .

ثم (Breasted, Gesch. Aegypten S. 248) . وأحدث من كتب عنها هو المهندس « على شافعى » فى المقال الذى أخرجه حديثاً حول هذا الموضوع . انظر : (Historical Notes on the Pelusiac Branch, the Red sea) .
Canal & the Route of the Exodus, Bul. d. l. soc. Geogr. d' Egypte XVI .

(٣) انظر (الفصل رقم ٤٨ هامش رقم ١)

(٤) يعنى : إلى البحر الأحمر

العربي . وهناك ، حيث يوجد أصغر طريق وأقصره للذهاب من البحر الشمالى (١) إلى البحر الجنوبي — وهذا نفسه يسمى بحر «أروتري» — من جبل «كاسيوس» (٢) ، الحد الفاصل بين مصر وسورية ، تبلغ المسافة من هذا المكان حتى الخليج العربى ألف استاد . هذا هو أقصر طريق . أما القناة فهى أطول من ذلك بكثير بقدر ما هى أكثر تعرجاً . وقد هلك من المصريين أثناء عملهم فيها فى عهد «نيخوس» مئة وعشرون ألف عامل (٣) . وتوقف «نيخوس» فى منتصف عملية الحفر لأن نبؤة عاقته بقولها أنه يعمل لصالح البربر ، والمصريون يسمون كل من لا يتكلمون لغتهم بربراً (٤) .

(١) أى ، من البحر الأبيض

(٢) انظر : (الفصل رقم ٦)

(٣) ليس عجيباً أن يهلك مثل هذا العدد من الرجال فى حفر تلك القناة . وإن كان رجال الأعمال من المصريين أيام الفراعنة لم يذكروا فى كافة ما قاموا به من عمل — فى المحاجر والمناجم ؛ بل ولا فى أعمال البناء ، وإنشاء المرافق العامة ، وما اقتضاه كل ذلك من جهود شاقة — عدد من فقدوا من العمال . ولن يكون فى سكوتهم هذا ما يدل على أن أعمالهم قد تمت فى سلام .

انظر : ما كتبه Reg. Engelbach عن مسألة أسوان عام ١٩٢٢ .

على أن أيسر النظر فى خسارة مصر فيمن فقدت من رجالها أيام حفر قناة السويس ، وقناة الحمودية ، وغير ذلك من مرافق الرى ، ليدلنا على أن «هردوت» لم يبالغ فى تحديد عدد العمال الذين هلكوا أثناء العمل فى القناة المشار إليها .

(٤) ذلك تعبير غير مصرى ؛ وإنما هو إغريقى استعمله الإغريق وصفا لكل من لا يتكلم بلسانهم ؛ فالبربرى عندهم هو الأجنبى بصفة عامة . (انظر الفصل رقم ١٦٧ من هذا الكتاب) .

١٥٩ — ولما توقّف « نيكوس » عن حفر القناة ، وجّه اهتمامه نحو

الخدمة العسكرية ، فبنى سفناً ذوات ثلاثة صفوف من المجاديف ؛ بعضها للبحر
الشمالي، وبعضها الآخر في الخليج العربي في بحر أروتري . وما زال من الممكن ،
حتى الآن ، رؤية الأماكن التي كانت تحفظ بها . وكان يستخدم هذه السفن
وقت الحاجة . واشتبك برّاً في معركة مع السوريين^(١) عند « ماجدولوس »^(٢) ،
فانتصر فيها . وبعد هذه الواقعة ، استولى على « كاديثيس »^(٣) ، وهي مدينة
كبيرة في سورية . وأرسل إلى « البرانخيديين » في « Milet »^(٤) الملابس التي كان

(١) ينبغي أن نعرف هنا أن المقصود بالسوريين لم يكونوا سكان سورية
وحسب ؛ بل يجب أن نطوى تحتهم أهل فلسطين وغيرهم من بعض سكان آسية
الدنيا الذين شملهم ذلك الهجوم الذي قام به « نخاو » ، والذي وردت أخباره
في التوراة . وكانت وجهة الحملة شطر القوّات الآشورية عبر فلسطين ؛ حيث
التقى « نخاو » يوشع JOSIAS ملك اليهود . وكان قد خرج للقاءه بغية صدّه ،
إلا أنه سقط عند « مجدو » وعلى بعد قريب من « جبل الكرمل » . هنالك
أصبحت السيادة لصاحب مصر المظفر على جميع تلك البقاع بما فيها « أورشليم » .
وهنالك واصل « نخاو » زحفه مزهواً بالنصر إلى وادي النهرين ؛ حيث لقيه
صاحب آشور « نبوكاذ نصر » على مقربة من الفرات فهزمه .

(٢) ماجدولوس MAGDOLUS : هي « مجدو » عند السهل الذي اخترقه
المصريون إلى بابل وآشور والذي يعرف اليوم باسم « مرج ابن عامر » .

(٣) كاديثيس CADYTES (المدينة المقدسة) ، وهي « أورشليم »
وتعرف اليوم باسم « القدس » . ويرى بعضهم أنها « غزة » . انظر :

(Strab. XIII, 2. 3. p. 617) ثم انظر : (de Meulenaere, H. 152)

ثم « Wiedemann, H. II Buch. 566 » ونحن نرجح الرأي الأخير ،
ذلك لأن مكانها على شاطئ البحر .

(٤) كان « البرانخيديون » يشكلون طائفة مرموقة من الكهّان الذين
اشتهروا بالحكمة ، وكانوا يخدمون في معابد « أبوللون » . وظلوا محتفظين بمكانتهم
تلك حتى أيام العصر الروماني .

يرتديها عند قيامه بهذه الأعمال ، ووهبها « لأبولون » (١) . وبعد حكم بلغ في مجموعه ست عشرة سنة (٢) ، مات تاركا السلطة لابنه « ساميس » (٣) .

١٦٠ — وأثناء حكم « ساميس » هذا لمصر ، جاء سفراء من الإيليايين (٤) ، يتباهون بأن نظام المباراة الأولمبية عندهم أعدل وأحسن النظم التي عند الناس أجمعين (٥) ، وكانوا يظنون أن المصريين — وهم أحكم البشر — لن يضيفوا باختراعهم أى شئ يقارن بذلك . وعندما وصل الإيليايون إلى مصر ، أعلنوا أسباب مجيئهم . عندئذ استدعى الملك من يقال إنهم أحكم المصريين . ولما اجتمع المصريون ، عرفوا من كلام « الإيليايين » بكل الأنظمة المعمول بها عندهم بشأن المباراة . وبعد أن شرح الإيليايون كل ما عندهم ، قالوا : إنهم جاءوا ليعلموا ما إذا كان في مقدور المصريين أن يكتشفوا ما هو أعدل منها . وتشاور المصريون وسألوا الإيليايين عما إذا كان مواطنوهم يشتركون في المباراة . فأجاب هؤلاء بأنه يسمح في المباراة لكل من يشاء من الإيليايين ومن باقى اليونانيين على حد سواء . فقال

(١) في تلك الإشارة — إن صحت — ما يدل على حسن العلاقات بين المصريين والإغريق ، وكانت قد بدأت منذ أيام « إسماتيك » (انظر : الفصل رقم ١٥٤) ثم (هردوت ج ١ الفصل رقم ٩٢) .
(٢) أى من عام ٦٠٩ إلى عام ٥٩٣ ق.م .

(٣) « ساميس » PSAMMIS : هو « إسماتيك الثانى » وأكبر الظن أن صيغة الاسم على هذا النحو منشؤها خطأ فى النقل بالقلم اليونانى عن الأصل المصرى . انظر : (Wiedemann, H. II ^{tes} Buch, S. 568)

(٤) ذلك مخالف لما يقرره « ديودور الصقلى » ، الذى ذكر أن مجيء أولئك السفراء قد كان أيام الملك « أمازيس » انظر : (Diod. 195)
(٥) انظر : (الفصل رقم ٩٢ من هذا الكتاب) .
ثم (Plut. Mor., 160 c. 215 f; Athénée 350)

المصريون منهم بوضعهم هذه القاعدة قد اخفقوا تماماً في تحقيق العدل ، إذ ليس من المحتمل مطلقاً ألاّ يتحيزوا لمواطنهم عندما يتبارى ويظهروا الأجنبي . ولكن إذا شاءوا أن يطبقوا العدل — وكان ذلك سبب مجيئهم إلى مصر — فليأمرُوا أن تقام المسابقة بين المتبارين من الأجانب . وألاًّ يسمحوا لإيلياىي أبدأً بالاشتراك فيها . ذلك ما اقترحه المصريون على الإيليايين .

١٦١ — حكم « پساميس » مصر ست سنوات (١) فقط ، وقام بحملة على « أثيوبيه » (٢) . ثم توفي بعد ذلك مباشرة وخلفه ابنه « أپريس » (٣) . وكان هذا — بعد جده الثانى « ايسماتيك » — أسعد الملوك السابقين ؛ حكم خمسة وعشرين عاماً (٤) . سير أثناءها جيشاً إلى « صيدا » . وحارب ملك « صور » بحراً ، وكان سوء الحظ قد أصابه كما سأفصل في رواياتى الليبية (٥) . أما الآن فسأذكره باختصار : عندما أرسل جيشاً عظيماً ضد السكورينائيين أصابه فشل ذريع ، فأنتبه المصريون لذلك وثاروا ضده ؛ إذ ظنوا أنه قد أرسل بهم ، قصداً ، إلى هلاك محقق ليصيبهم الدمار . وليحكم هو بنفسه بقية المصريين في أمن أكثر ثباتاً . فسخط من ذلك الذين عادوا ، وأصدقاء الذين هلكوا وثاروا جهرًا .

(١) يعنى من ٥٩٣/٥٩٤ حتى ٥٨٨ ق.م . ومن هذا التاريخ حتى عام ٥٧٠ حكم « أپريس » . انظر : (Breasted, Gesch. Aeg. S. 310-313)
(٢) وفي حملتهم هذه سجلوا أسماءهم على تماثيل « معبد أبى سنبل » (انظر الفصل رقم ١٥٢ من هذا الكتاب) .

(٣) اسم « أپريس » فى اللسان المصرى « واح — إيب — رع » .

(٤) لم يبلغ ٢٥ عاماً ولم يعد ٢٢ عاماً .

(٥) انظر : (هردوت ج ٤ — الفصل رقم ١٥٩) .

١٦٢ — ولما علم «أپريس» بذلك أرسل إليهم «أمازيس» ليحدثهم ، ويتوسل إليهم ليكشفوا عن ثورتهم ، فلما وصل هذا عندهم ، حاول أن يمنعهم عن عمل ذلك . وبينما هو يتحدث إليهم وضع أحد المصريين — وقد وقف وراءه — على رأسه خوذة ، وقال : إنه وضعها وليجعل منه ملكاً . ولم يكن «أمازيس» — كما أظهر — غير راغب فيما حدث . إذ بعد أن نصبه الثوار المصريون ملكاً ، بدأ يعد حملة للسير ضد «أپريس» . وعندما عرف «أپريس» بذلك أوفد إلى «أمازيس» رجلاً محترماً من أفراد حاشيته المصريين يدعى پاتاربيميس وأمره أن يحضره «أمازيس» حياً . ولما وصل «پاتاربيميس» عند «أمازيس» ناداه وتصادف أن كان «أمازيس» ممتطياً جواده ، فنهض وأخرج ربحاً وأمره أن يأخذه إلى «أپريس» . وبالرغم من ذلك ، توسل إليه «پاتاربيميس» أن يذهب إلى الملك الذى أرسل فى طلبه ؛ فأجابه «أمازيس» بأنه كان يستعد لعمل ذلك منذ وقت بعيد ، وليس لأپريس أن يشكو من ذلك لأنه سيحضر بنفسه وسيحضر معه آخرين . ومن ذلك الكلام ، ومما رأى «پاتاربيميس» من استعداداته ، فطن إلى قصده ، فعاد مسرعاً رغبة فى أن يوضح للملك ، بأقصى سرعة ممكنة ، ما يجرى . فلما وصل عند «أپريس» — دون أن يحضر «أمازيس» — لم يعط الملك نفسه فرصة للتروى ؛ بل استولى عليه الغضب وأمر بقطع أذنه وجذع أنفه . وعندما شاهد باقى المصريين الذين كانوا يخلصون له حتى ذلك الوقت ؛ ما يعانیه أعظمهم مكانة من الامتهان ، على تلك الصورة القاسية ، لم يترقبوا لحظة واحدة فى الانفصال والانضمام إلى الآخرين وتقديم أنفسهم إلى «أمازيس» .

١٦٣ — وعندما علم «أپريس» بذلك أيضاً ، سلح جنوده المرتزقة ، وقادهم ضد المصريين . وكان معه ثلاثون ألف جندى مرتزق من الكاريين والأيونيين^(١)

(١) انظر الفصلين (١٥٢ ، ١٥٤ من هذا الكتاب) .

وكان قصره الملكي في مدينة « سايس » ، ضخماً ، جديراً بالمشاهدة . وكان أن سار أتباع « أپريس » ضد المصريين وأتباع « أمازيس » ضد الأجانب والتقى الجمعان عند مدينة « مومفيس » (١) ، وكادا يلتحمان ليظهرامقدرتهما .

١٦٤ — وتوجد سبع طبقات (٣) من المصريين تسمى : طبقة الكهنة ، وطبقة المحاربين ، ورعاة البقر ، ورعاة الخنازير ، والتجار ، والمترجمين ، والملاحين . تلك عدة طبقات المصريين . وأسماؤها ناشئة من حرفها ؛ المحاربون يسمون

(١) مومفيس . يظن J. Ball أنها كانت في الغالب في المكان المعروف اليوم باسم « كوم أبو ييلو » انظر : (J. Ball, p. 172) ويرى غيره أنها كانت في المكان المعروف باسم « كوم الحصن » .

انظر : (de Meulenaere, S. 153)

(٢) نلاحظ على ذلك أمرين : الأول ؛ أن هردوت استعمل لفظ γέφυρα وهو نفس اللفظ التي استخدمه للدلالة على قبائل الميديين والفرس ؛ في حين أنه يتحدث هنا عن طبقات الشعب من حيث العمل والحرفة لا من حيث الجنس والقبيلة . والثاني ؛ أن الكتّاب القدماء لم يتفقوا على تحديد عدد تلك الطبقات ؛ إذ جعلها بعضهم ثلاثاً ، وبعضهم الآخر ستاً ؛ كما جعلها آخرون سبعاً . وأرقى تلك الطبقات اثنتان : طبقة الكهان ؛ وكانوا أغنى الطبقات مالا ، وأعلىها قدراً ؛ وأقواها نفوذاً ، وأعظمها حظاً من الثقافة . ثم طبقة المحاربين (وهم الذين يسميهم هردوت في الفصل ١٦٦ كلاسيريس) ؛ وكانوا غالباً في الدلتا ذات الأبواب المفتوحة ليدفعوا عنها إغارة المغيرين . وكانوا يُقسطعون أرضاً يرتزقون من غلاتها أيام السلم ، كما كانوا يعملون في خدمة الملك .

ثم يأتي من بعد ذلك بقية الطبقات مثل : رعاة البقر ، ورعاة الخنازير ؛ ويرايم « ديودور » طبقة واحدة . وإن كان رعاة الخنازير قد كانوا من أحط الطبقات . انظر : (Diod, I, 73, 2.) . وهناك « طبقة التجار » καπηλαιοί ، ثم « طبقة التراجة » ، وكان حظ هذه الطبقة الأخيرة من الرزق يتوقف على ظروف =

« كلاسيريس » (١) و « هرموتوبيس » (٢) . وهم من المقاطعات التالية لأن مصر كلها مقسمة إلى مقاطعات .

١٦٥ — (مقاطعات) الهرموتوبيس كالآتي : بوسيريس ، وسائيس ، وخنيس ، وپاپرييس ، ومقاطعة الجزيرة التي تسعى « پروسوپينيس » ، ونصف ناو (٣) . فالهرموتوبيس إذاً من هذه المقاطعات وكان عددهم عندما بلغ أقصاه ، مئة وستين ألفاً . ولم يتعلم أى واحد منهم حرفة على الإطلاق ، ولكنهم مُخَصَّصون للجنديّة .

١٦٦ — وهذه بدورها مقاطعات « الكلاسيريس » : طيبة ، وبوبسطيس ، وأفنييس ، وتانيس ، ومنديس ، وسينيتوس ، وأثرييس ، وفارباينيس ، وشمويس ، وأنوفيس ، وأنوسيس ، ومويكفوريس . (هذه المقاطعات تقع في جزيرة تجاه مدينة « بوبسطيس ») (٤) . تلك مقاطعات

== مصر من حيث علاقاتها بالبلاد الأخرى ، وفتح الأبواب في وجوه السائحين . وأخيراً رجال الملاحة وطبقة الزراعة (عمال الفلاحة) . ونلاحظ أن هذا التحديد — على اختلاف الآراء فيه — لا يمكن أن يكون مضبوطاً ، إذ ينبغي أن يكون أكثر من ذلك عدداً .

(١) انظر الحديث عن ذلك في الهامش رقم ١ من صفحة ٢٩٩ .
(٢) أرجع Spiegelberg هذه الكلمة إلى أصلها المصرى « رم (ة) » (حت (ر)) ومعناها « فارس » .

(٣) Naθw تقع — أغلب الظن — في شرق الدلتا بين الفرعين البوصيرى والبوبسطى . انظر : (Wieremann, H. II.tes Buch, S. 575)
(٤) كل هذه المقاطعات — فيما عدا « طيبة » — كانت في الدلتا . فأما عن « بوبسطيس » فانظر (الفصل رقم ٦٠) . وعن « أفنييس » انظر : J. Ball :
فأما « تانيس » هي « صان الحجر » و « منديس » هي « تل الربعة » و « سينيتوس » هي « سمود » و « أثرييس » هي « تل أتريب » قرب بنها . و « فارباينيس » هي « هوريط » شمال شرق الزقازيق ، و « شمويس » هي « تمى الأمديد » و « أنوفيس » هي « تل بلال » إلى الجنوب الغربى من « دكرنس » . أما عن « أنوسيس » فانظر (الفصل رقم ١٣٧ من هذا الكتاب) .

« الكالاسيريس » (١) . وكان عددهم عندما بلغ أقصاه مئتين وخمسين ألف رجل . ولا يسمح لهم بممارسة أية حرفة ؛ ولكنهم يحترفون الجندية فقط ؛ يتوارثها الولد عن أبيه .

١٦٧ — وليس في مقدوري أن أقرر بدقة ما إذا كان اليونانيون قد تعلموا هذا من المصريين أيضاً ؛ إذ أرى أن « الثراقيين » و « الأسكينيّين » (٢) و « الفرس » و « الليديّين » وكل البرابرة (٣) تقريباً ينظرون إلى المواطنين الذين يتعلمون حِرَفًا ؛ إليهم وإلى أولادهم ؛ بتقدير أقل من تقديرهم للآخرين . أما الذين يتجنبون المهن اليدوية — وبالنسبة الذين يتخصصون في الجندية — فيعدونهم نبلاء . وعلى كل لقد تعلم اليونانيون كل هذا وبخاصة

(١) Καλασίρις : أولئك هم طبقة المحاربين . وقد عرض العالم الألماني Spiegelberg لتفسير هذا اللفظ ، وإرجاعه إلى أصل مصري هو « خار — شري » ومعناه « شاب أسوي » انظر : (Spiegelberg, Mumienetiketten 1901) كما حاول العالم نفسه أن يرجعه إلى أصل نوبي هو Kar - gar بمعنى « ابن » انظر : (Spiegelberg, Z. Ae. S. 43 (1906) 87 - 90) .

ولسنا نستبعد آخر الأمر أن يكون أصل هذه الكلمة فيما لدينا من الألفاظ القبطية الآتية σκαυρις بمعنى « الرجل القوي الأيّد » . انظر : (Crum p. 813) ، ثم σκαυρις : δερωνηαι : ερωρηαι بمعنى « اليافع » . فإذا صح ذلك ، فإن كلا المعنيين يلائم ما ينبغي أن يكون عليه أهل هذه الطبقة ، ثم ما ينبغي لهم من صفات .

(٢) Scythia انظر : (Rawlinson, Vol. III; Map to illustrate the Scythia) .

(٣) انظر كيف يسمى « هردوت » كل من عدا قومه « برابرة » ؛ وتلك كانت مادة الإغريق على كل حال ؛ بل عادة غيرهم من الأمم الكبرى في القديم والحديث أيضاً ، (انظر حديثنا عن ذلك في الفصل الثامن والخمسين بعد المئة من هذا الكتاب مم ما سبق ذلك ص ٥٩ هامش ٣) .

« اللاكيديمونيون » . أما « السكورثيون » فهم أقل من يزدرى الصناع (١) .

١٦٨ — وكان المحاريون (٢) وحدهم من بين المصريين — ما عدا السكينة — (٣) يمنحون هذه الامتيازات ؛ يوهب كل منهم اثني عشر فدانا معفاة من الضرائب . والفدان (٤) مربع طول كل ضلع من أضلاعه مئة ذراع مصرى (٥) . والذراع المصرى يساوى الذراع « الساموسى » (٦) . وكان الجميع

(١) الواقع أن هذه الظاهرة كانت معروفة عند أكثر من عرفنا من الأمم القديمة ؛ إذ لم يكن لأهل الحرف والصناعات اليدوية كثير من الاحترام ؛ هكذا كانت الحال عند المصريين من آل فرعون (أنظر فى موكب الشمس ج ٢ . ص ١٦٠ وما بعدها) . وكذلك كان الأمر عند الإغريق ؛ فلم يكن يسمح للأسيرطى الأصيل مثلاً أن يزاول عملاً يدوياً ، أو أن يعمل فى فلاحة الأرض . فإذا شذت كورنته عن هذا السلوك ؛ فينبغى أن يكون لمركزها التجارى والصناعى أثر فى ذلك ؛ إذ لم يكن لأهلها من عمل فى غير ميدانى التجارة والصناعة . فأما بقية بلاد الإغريق فكانت تحتقر الحرف اليدوية ؛ لا يعمل فيها عندهم غير العبيد ، وذلك أمر إن دل على شيء ، فإنما يدل على جهل ، وغرور ، وضيق أفق . ولو قد فكر المفردون يومئذ أن ما تيسر لهم من متاع فى الحياة الدنيا قد كان من عمل أيدي أولئك الصناع والزراع وبقية أصحاب الحرف ؛ أقول لو فكروا فى ذلك قليلاً ؛ إذا لما سلكوا مثل هذا المسلك البغيض ، ولرفعوا كثيراً من قدر العمال وأصحاب الحرف .

(٢) أنظر الفصول رقم ١٦٥ ، رقم ١٦٦ ، ثم رقم ١٦٧ .

(٣) أنظر الفصل ٣٧ .

(٤) كانت مساحة الفدان المصرى القديم حوالى ٢١ س ١٥ ط ، أى أن حظ الجندى

من ملكية الأرض قد كان حوالى ٧ أفدنة بحسابنا اليوم .

(٥) الذراع المصرى يساوى ٥٢٣ مليمتراً .

(٦) كان الذراع الساموسى فى الغالب يختلف عن الذراع اليونانى . وأكبر

الظن أنه كان لدى اليونان بمثابة ذراع دولى بالنسبة لحوض البحر الأبيض ، وذلك نظراً لمكانة « ساموس » فى ميدانى البذل والتجارة .

يتمتعون بهذا الامتياز . كما كانوا يحظون بالامتيازات التالية بالدور الذى لا يصيبهم إلا مرة واحدة : كان حرس الملك يتكون كل عام من ألف من « السكلاسيريس » وألف أخرى من « الهرموتوپيس » . وكان هؤلاء يُمنحون امتيازات أخرى بالإضافة إلى الأرض ؛ فلكل فرد فى اليوم خمسة أمنان^(١) من الخنطة المحمصة . وله منان من لحم البقر ، وأربعة أقداح من النبيذ . ذلك ما كان يعطى لأفراد الحرس الملكى بالتتالى .

١٦٩ — عندما وصل « أبريس » على رأس المرتزقة « وأمازيس » على رأس المصريين جميعاً ؛ عندما وصلا إلى مدينة « مومفيس » ، اشتبكا فى معركة . ورغم استبسال الأجانب فى القتال ، فإنهم هُزموا لأن عددهم كان يقل كثيراً عن عدد خصومهم . ويقال إن « أبريس » كان يظن أن أى إله لا يستطيع تحويله عن الملك ؛ لاعتقاده بأن سلطانه قائم على أساس راسخ . ولكنه عندما التحم فى المعركة ، غلبَ على أمره ، وأخذَ حياءً ، وسبق إلى مدينة « سايس » ؛ إلى القصر الذى كان يملكه فيما سبق ، والذى أصبح الآن المقر الملكى لأمازيس . وخلال فترة من الزمن كان يطعم هناك . وكان « أمازيس » يعامله معاملة حسنة . ولكن فى نهاية الأمر عندما لام المصريون « أمازيس » لأنه لا يعمل بالعدل ؛ حين يعول ألد أعدائهم وأعدائه ، أسلمه

(١) أى ما بين أربعة وخمسة أرطال . والمنّ مكىال من مكاييل المصريين القدماء كانوا يكيلون به النبيذ والعسل وغيرها .

(أنظر : Wiedemann, Herodot's II^{tes} Buch s. 578)

(ثم : Gardiner, Egyptian Grammar, 3^d Edit. § 266.)

«أمازيس» لذلك إلى المصريين الذين خنقوه^(١) ثم دفنوه في مقبرة آبائه. وهذه توجد في «معبد آثينا»^(٢) ، وتقرب جداً من المحراب الذى يقع على يسار الداخل . ولقد دُفِنَ أهل «سايس» فى داخل المعبد كل الملوك الذين أصلهم من هذه المقاطعة^(٣) . ومع أن قبر «أمازيس» أبعد عن المحراب من مقبرة «أپريس» وأسلافه إلا أنه موجود أيضاً فى ساحة المعبد . وهذه الساحة عبارة عن رواق من الحجر واسع ومزدان بأعمدة تحاكي النخيل ، وبضروب أخرى من الزينة باهظة التكاليف . وبداخل هذا الرواق ، غرفتان لهما بابان ، توجد بهما المقبرة .

١٧٠ — ويوجد أيضاً بسايس فى حرم معبد «آثينا» قبر من لا يحل لى ذكر اسمه فى هذا الشأن^(٤) . والقبر موجود وراء الهيكل . ويمتد محاذياً لكل جدار المعبد . وفى حرم المعبد تقوم أيضاً مسلتان عظيمتان من الحجر ، توجد بجوارهما بحيرة مزخرفة ومزينة بحافة من الحجر ، متقنة الصنع على شكل

(١) هذا النوع البشع من القتل عُرفَ عند الفرس بين ألوان العذاب. ومن قبل روى هردوت مثل ذلك ونسبه إلى المصريين فى القصة التى وراها عن «نيتوكريس» ونحن نعتقد أنه حين فعل ذلك كان متأثراً بالروايات الفارسية (انظر الفصل رقم ١٠٠ من هذا الكتاب) .

(٢) انظر : الفصل رقم ١٦٣ من هذا الكتاب .

(٣) انظر : الفصل رقم ٦٢ من هذا الكتاب ؛ حيث كان الناس فى زمان «هردوت» يقولون إن الشهيد «أزوريس» قد دفن فى «سايس» . فأما دفن الملوك والأمراء فى المعابد ؛ وإن يكن ذلك أمراً غير مألوف قبل هذا العصر المتأخر . إلا أنه غير مستبعد على كل حال . وأكبر الظن أنه أسيح فى بعض الحالات كما وقع فى «صان الحجر» «وميت رهينة» (= ممفيس)

(٤) يقصد كدابه «أزوريس» بطبيعة الحال (انظر الفصول رقم ٦١ ،

(١٣٨ ، ٨٦)

دأرى^(١) . وحجمها — فيما بدا لى — كحجم بحيرة « ديلوس » التى تدعى
بالبحيرة المستديرة^(٢) .

١٧١ — وفى هذه البحيرة ، تُقدَّم ليلا الاستعراضات التى تُمثل مصيره
الحزن^(٣) التى يسميها المصريون « أسارا »^(٤) . ومع أننى عليمٌ بتفاصيل
ما يدور بكل منها إلا أننى ألتزم الصمت بصدها . كذلك فيما يختص بعيد
« ديميتير » الذى يسميه اليونانيون ثسموفوريا^(٥) ، فلن ألفظ بشأنه حرفاً

(١) الغالب أنها كانت فى « صا الحجر » ، وأن بعض آثار منها قد بقيت حتى
العصر الحديث . ولسكنها كانت أغلب الظن على هيئة نصف الدائرة .

(٢) يقال إن فى هذه الجزيرة كان مولد « أبوللون » (أنظر :
Waddell, H. p. 253)

(٣) يعنى « أزوريس » الذى سمع أنه دُفِنَ فى « سايس » ، وكانوا يحتفلون
بذكرى مصرعه فى المكان الذى خالوا أنه دفن فيه . وكانوا يمثلون فى احتفالهم
هذا مأساة الشهيد تمثيلاً واضحاً . وإذا صبح كل هذا فلا نجد ما يمنعنا من تصديق
ما يقال من أن الإغريق قد اتخذوا من تلك المأساة مثلاً لمأساة « ديونيسوس »
(٤) يعنى « بالأسرار » ما كان يحجرى فى ذلك الاحتفال ؛ إذ يقال إن القوم
كانوا يأتون بكاهن فيعصبون عينيه ، ثم يقودونه على الطريق إلى معبد « إيزيس »
ومن أمامه اثنتان من « بنات آوى » كانا يعودان به بعد ذلك .

أنظر : (Moret, Le Nil et la Civilisation égyptienne p. 287 ff)
ثم (Erman, Relig. d. Aeg. S. 335)

(٥) يزعم هردوت أن أصل هذا الاحتفال مصرى ، وأن أمره قد ذاع فى
أكثر بلاد « الهيلوينيز » ، ثم فى « أثينا » من بعد ذلك . وكان يقع فى ثلاثة أيام
من فصل الخريف ، وكان يحتفلون به من النساء ؛ وذلك تقديساً للمعبودة « ديميتير »
انظر : (Erman, ibd.)

إلا ما تبيح الشريعة الإلهية قوله عنه : إن بنات داناؤس هن اللاتي نعلن هذا العيد من مصر وعلمنه النسوة البيلاسجيات . ولكن عندما اضطرت الدوريون سكان البيلوپونيز كلها إلى الهجرة ، اختفى العيد ولم يحتفظ به سوى الأركاديين وحدهم ، وهم الذين بقوا من البيلوپونيزيين ولم يجبروا على الهجرة .

١٧٢ — وهكذا لما هُزم « أپريس » وقضى عليه (١) ، صار « أمازيس » (٢) ملكا . وهو من مقاطعة « سايس » . وكان أصله من مدينة « سيوف » (٣) . احتقره المصريون أول الأمر ولم يقدروه على الإطلاق ؛ لأنه كان فيما مضى من العامة ، ولم يكن من أسرة ذائعة الصيت . ولكن بعدئذ اجتنبهم « أمازيس » إليه بفضل حكمته ولينه ؛ إذ كان عنده — بين آلاف أخرى من الأشياء النفيسة — طستٌ ذهبي . وكان « أمازيس » نفسه وكل ضيوفه يغسلون فيه أقدامهم في كل مناسبة (٤) . فكسره وطلب أن يُصنع

(١) يقصد في الغالب هزيمته لا موته (انظر الفصل رقم ١٦٩ من هذا الكتاب) .

(٢) اسمه المصري « أحوسى » .

(٣) سيوف : إحدى مدن إقليم سايس (صا الحجر) ومكانها على الشاطئ الشرقى لفرع رشيد وتسمى اليوم « الصفة » .

(انظر Legrand, Hérodote, Livre II, p. 187) .

(Wiedemann, H. IItes Buch S - 593)

(٤) غريب جداً أن يكون « أحوسى » صعلوكاً من طامة الشعب ويملك مثل هذا الطست من الذهب . وأكبر الظن أن « هردوت » هنا كان يفكر بعقله الإغريقي ؛ إذ كانت هذه العادة من عادات قومه . ومن الجائز — إن سمحت هذه الواقعة — أن يكون « أحوسى » — بحكم علاقاته الطيبة بالإغريق — قد أخذ عنهم هذا التقليد . وادة غسل القدمين — بهذه المناسبة — كانت معروفة أيضاً عند العبرانيين ، (انظر سفر التكوين الإصحاح الثامن عشر من التوراة) .

منه تمثال لإله ؛ نصبه في المدينة وفي أنسب مكان فيها. فأخذ المصريون يتوافدون على التمثال ويعظمونه تعظيماً فائقاً . ولما علم « أمازيس » بما كان يفعله أهل المدينة ، دعا المصريين وأوضح لهم أن التمثال مصنوع من الطست الذي كان المصريون من قبل يتيقثون ويبولون ويفسلون أقدامهم فيه ، وهم الآن يُجِلُّونه إجلالاً فائقاً . ثم استطرد قائلاً : إن نصيبى كنصيب الطست . فهو إذا كان فيما سبق من عامة الشعب فإنه الآن ملكهم . وطلب إليهم أن يعظموه ويُجِلُّوه . وبذلك الطريقة استمال المصريين نحوه ، حتى وافقوا على الخضوع له .

١٧٣ — ولقد اتبع النظام التالى في إدارة أعماله . . من الصباح الباكر حتى ساعة امتلاء السوق (١) . كان يصرف بهمة ما يُعرض عليه من أمور ، وبعد ذلك كان يشرب ويشاكس ندماءه مازحاً معهم ، وكان يعبت ويلهو . ولما تضايق أصدقاؤه من تلك التصرفات ، لاموه قائلين له : « أيها الملك . . . إنك لا تحكم نفسك بالضبط ؛ بل تسوقها إلى غاية الانحطاط ، وإنه لينبغى لك أن تجلس في جلال على عرش مهيب ، وتدبر شئون المملكة طول النهار . وعندئذ يدرك المصريون أن حاكمهم رجلٌ عظيم ، وتكون ذا سمعة أطيب . أما الآن فإن ما تفعله لا يليق بملك على الإطلاق » . فرد عليهم « أمازيس » بما يلى : « إن أصحاب الأقواس يشدونها عندما يحتاجون إلى استعمالها وبعد استخدامها يرخونها ؛ لأنها إذا بقيت على الدوام مشدودة انقطعت ، فلا يمكن لهم أن يستخدموها عند الحاجة . وتلك طبيعة الإنسان أيضاً ؛ إذا ابتغى الجدد دائماً ولم يسمح لنفسه باللهو ساعة فإنه — من غير أن يدرك — يصير مُحْتَلّاً

(١) يعنى أنه كان يقضى وقته في السوق . فإذا ما هَجَرَ النهار قفل راجعاً إلى قصره .

أو معنوها . ولما كنت أعرف ما أقول ؛ لذا فإني أجعل من وقتي جزءاً اسكلى من الأمرين » (١) . ذلك ما أجاب به أصدقائه .

١٧٤ — ويروى أن « أمازيس » كان — حتى وهو شخص بسيط — يحب الشرب والمزاح ولم يكن على الإطلاق رجل جد ونشاط . وكان كلما أعوزته لوازم الحياة بسبب الشرب وحياة المجون ، أخذ يطوف ويسرق . فكان يسوقه الذين يدعون أنه أخذ ما لهم ، عندما ينكر ؛ تسوقه كل طائفة منهم إلى الوحي الذي عندها . وكثيراً ما كان الوحي يدينه ، وكثيراً ما كان يبرئهم أيضاً . وعندما أصبح ملكاً عمل الآتى : أغفل معابد الآلهة التي برأته من السرقة ، ولم يعط شيئاً لأصلاحيها ولم يزرها ، ولم يضح لها ؛ لأنها لم تكن جديرة بشيء ما ، ولأن نبوياتها كاذبة . أما الآلهة التي أفتت بأنه سارق ؛ فقد اهتم بها كل الاهتمام باعتبار أنها آلهة لا ريب فيها ، وأنها تنطق بنبوات صادقة (٢) .

١٧٥ — وفي مدينة « سايس » شيد (هذا الملك) رواقاً رائعاً لأثينا ، برز به كل (من شيدوا من أسلافه) من حيث ارتفاعه وحجمه كما فاقها بضخامة أحجاره (المستعملة) ونوعها . وأقام أيضاً الشوايح من التماثيل وتماثيل كباش بالغة الطول (٣) .

(١) ذلك قول رجل حصيف يذكرنى — مع الفارق من حيث المقام والقصد والوسيلة — بالقول المنسوب إلى الإمام على كرم الله وجهه « روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ؛ فإن القلوب إذا كثت كتمت » .
(٢) تلك صفة حميدة تدل على صدق الرجل ، وجودة معدنه ، وكمال مروءته وحسبنا من ذلك أنه كان صادقاً مع نفسه . وليس يمنع ما عرف عنه من الصعلكة من أن يكون صاحب مروءة .

(٣) يحرص « هردوت » على تذكير تلك الأصنام ؛ ذلك لأن مثلها عند اليونان إنما ورد في صورة الآتى . وكان أول ذلك اللون من أصنام الفراعنة وأضخمها حجماً وأخلدها بين تراثهم ، يمثل فرعون الرأجل المؤله الذى صار فمسا . ونعنى تماثيل « أبوالهول » المعروف عند هرم « خفرع » وفيه تتضح الفحولة الرائعة =

وأحضر حجارة أخرى للترميم ، هائلة الحجم ؛ جلب بعضها من مقالع الأحجار التي في «ممفيس» وبعضها الآخر — وهو ذو ضخامة منقطعة النظير — من مدينة «إليفانتينا»^(١) وهي على مسافة إبحار عشرين يوماً من «سايس» . على أن أكثر ما أثار في نفسي أبلغ العجب من بين كل ذلك ما يأتي : أمر بإحضار محراب (مشيد) من صخرة واحدة من «إليفانتينا»^(٢) ، واستغرق إحضاره ثلاث سنوات ، وكلف عشرين ألف رجل بنقله وكلهم كانوا

= وكذلك كانت الأصنام التي عُرفت بعد ذلك وانتشرت على جوانب الطرق إلى أبواب المعابد . فهي تمثل الذكور ، بل «الفحول» من معبودات المصريين . نجد بقاياها على جانبي الطريق بين معبدى الكرنك والأفصر ، والطريق الذي كان يجرى من معبد پتاح في منف إلى الأماكن المقدسة في جياتها منف ، والذي بقي اسمه علماً على القرية المعروفة غرب البدرشين وهي قرية «ميت رهينة» أي «طريق الكباش» .

والعجيب أن «هردوت» الذي تحدث عن كافة عجائب مصر وبخاصة «اللايرنت» لم يتحدث مطلقاً عن «أبو الهول» وهو إحدى عجائب الدنيا ، وسيظل كذلك مهما تعددت عجائبها . وأغلب الظن أن هرودوت لم يرد ذلك الأثر العظيم لأنه كان تحت الرمال في زمانه ، وفي تاريخ البلاد ما يثبت أن «أبو الهول» قد كانت تغطي عليه رمال الصحراء فتطمسه وتخفيه .

انظر (: Ein neu s :) Erman, Sitz. Ber. Berl. Akad. (1904), Denkmal vor der grossen Sphinx.)

(١) انظر ما جاء في الفصل (١٧) من حديث عن تلك المحاجر ولا زالت بعض صخورها تحمل من النصوص ما يشير إلى ما قد منها أيام «أمازيس» لبناء معبد .

(٢) انظر الحديث عن ذلك في الفصل (١٥٥) هامش (رقم ٦) . وتزن هذه الصخرة ما يزيد على ستة آلاف قنطار . وفي ذلك ما يجعل نقلها على الأرض واليم من أصعب الأمور .

من الملاحين^(١). وطول هذا المحراب من الخارج إحدى وعشرون ذراعاً، وعرضه أربع عشرة ذراعاً، وارتفاعه ثمان أذرع. تلك هي الأبعاد الخارجية لذلك المحراب المقدود من صخرة واحدة. أما في الداخل فطوله ثمان عشرة ذراعاً وعشرون أصبعاً^(٢). وعرضه اثنتا عشرة ذراعاً، وارتفاعه خمس أذرع. وهو يقع في مدخل المعبد. ويؤكدون أنه لم يُسحب إلى داخل المعبد لأن المشرف على أعمال البناء قد أرهقه ذلك العمل الشاق الطويل الأمد، فأشفق «أمازيس» من ذلك ولم يسمح بحجره إلى أمام أبعد مما وصلوا به. هذا. ويروى البعض أن واحداً من الذين كانوا يرفعونه قد تهشم تحتها، وبسبب ذلك لم يُسحب إلى داخل المعبد.

١٧٦ — وأقام «أمازيس» كذلك في سائر المعابد العظيمة أعمالاً تستحق المشاهدة لضخامتها؛ وبخاصة التمثال الشاخص الملقى على ظهره، في «مفيس»^(٣)، أمام معبد «هيفايستوس». وطول هذا التمثال خمس وسبعون قدماً. وعلى نفس قاعدة هذا التمثال يقوم تمثالان هائلان من الحجر الأثيوبي^(٤)، ارتفاع كل منهما عشرون قدماً. ويقف كل واحد منهما

(١) ليس هذا العدد من الملاحين والعمال بالكثير؛ ذلك لأن الصخرة كما قدمنا قد كانت ثقيلة؛ بحيث يقتضى نقلها استخدام هذا العدد الضخم من الرجال.

(٢) يعنى ما نسميه اليوم بالقيراط.

(٣) الغالب أنه يقصد بذلك كافة التماثيل التي تصور أصحابها جالسين وظهرهم إلى حائط المعبد على عكس التماثيل المنصوبة أمام المدخل، أو تلك التي تقوم مقام العمود من داخل المعبد والتي اصطلاح العلماء على تسميتها بالعمد الأوزيرية.

(٤) يقصد الجرانيت الوردى المحبب أو الأسود. (انظر الحديث عن ذلك في الفصلين ١٢٧، ١٣٤).

على أحد جانبي التمثال الكبير . ويوجد أيضاً في « سايس » تمثال حجري بنفس الحجم ، ملقى بنفس الطريقة كالتمثال الذي في « ممفيس » . و « أمازيس » هو الذي أنجز أيضاً بناء معبد « إيزيس » بممفيس ، وهو معبد عظيم ، جدير بالمشاهدة .

١٧٧ — ويقال إن مصر كانت تحت حكم « أمازيس » على درجة عظيمة جداً من الازدهار (١) ؛ وذلك نتيجة لما جاد به النيل على الأرض من طمي ، وما جادت به الأرض على الناس من خير . وكان بمصر على الجملة في ذلك العهد ألف مدينة أهلة بالسكان (٢) . كما كان « أمازيس » هو واضع القانون الذي يفرض على كل مصري أن يُبَيِّنَ سنوياً مورد عيشه لحاكم الولاية (٣) . ومن لا يفعل ذلك ، ولم يثبت أنه يعيش عيشة مشروعة ، كان عقابه الموت .

(١) تلك رواية لا تسكاد تتفق وما جاء في أخبار الثوراة (حزقيال ٢٩ ، ٩ وما بعدها) ؛ حيث جاء « وتكون أرض مصر مقفرة وخربة ، فيعملون أنى أنا الرب . لأنه قال النهر لى وأنا عملته . لذلك ها أنذا عليك وعلى أنهارك وأجعل أرض مصر خرباً خربة مقفرة من مجدلى إلى أسوان إلى تخوم كوش ... إلخ » . ترى أليكون من تحدثوا إلى هردوت قد أخفوا عنه أمر ذلك ، ولم ينبئوه إلا بما كانت عليه أحوال مصر فيما بعد ؛ حيث رآها هو ، ورأى علاقتها الاقتصادية مع بلاد اليونان ؟ الله وحده يعلم .

(٢) قَدَّرَ « ديودور الصقلى » عدد البلاد المعمورة في مصر يومئذ بحوالى ١٨٠٠٠ ، ثم ارتفع عددها أيام البطالة فبلغ حوالى ٣٠٠٠٠ ، وقَدَّرَ عدد السكان على هذا الأساس بنحو سبعة ملايين نسمة .

(٣) ظاهر من ذلك أنه كان لسلك إقليم حاكم مسئول . وإنا لنعلم فوق ذلك أنه كان لسلك ناحية حاكم مسئول أيضاً ؛ مما يدل على دقة النظام الإدارى فى مصر يومئذ .

ولقد نقل « صولون » الآثني^(١) هذا القانون عن المصريين ووضعه للآثنيين .
وهؤلاء يطبقونه إلى الآن إذ لم يوجّه إليه أى طعن .

١٧٨ — وكان « أمازيس » محباً لليونانيين ، وعبر لهم عن عاطفته
تلك بأنه وهب للذين جاءوا منهم إلى مصر مدينة « نوقراطيس »^(٢)
ليسكنوها . أما الذين لم يرغبوا في استيطانها ، وكانوا يفدون للسياحة وحسب ،
فقد أعطاهم أراضى ليقيموا عليها هياكل ومعابد لألهتهم . وأكبر هذه
المعابد وأشهرها وأكثرها رواداً يسمى « الهيلينيوم »^(٣) ، وقد ساهمت
في بنائه المدن التالية : مدن إيونية وهى : « خيوس » ، « ثيوس » ، « فوكايا » ،
ثم « كلازومنياس »^(٤) . مدن دورية^(٥) وهى : « رودس » ، « كنيديوس » ،
« هاليكارناسوس » ، « فاسيليس » ، ثم مدينة إيولية^(٦) واحدة وهى :

(١) كان ذلك تشريعاً خاصاً بالضرائب في مصر ، وبه أخذ « صولون »
عندما وضع قانون الضرائب السنوية في « أثينا » . ولكن ليس من الضروري
أن يكون « صولون » قد أخذه عن « أمازيس » بالذات .

(٢) نوقراطيس « Naukratis » : مر ذكرها فيما مضى من فصول موقعها
على الشاطئ الشرقى للفرع الكانوي وغير بعيد من المكان الذى أقيمت عليه
فيما بعد مدينة الإسكندرية . وكانت منزلاً للجالية الإغريقية التى تعيش تحت
سلطان مصر وتعمل في البدل والتجارة . وقد ظلت مكاتها التجارية مرموقة حتى
تحولت عنها إلى الإسكندرية . وأكبر الظن أن تأسيسها يرجع إلى ما بين عامي
٦١٣ ، ٦١٠ ق . م .

(٣) كان موقعه غالباً في شمالي المدينة .

(٤) انظر كتاب هردوت الأول (فصل ٤٢)

(٥) انظر كتاب هردوت الأول (فصل ١٤٤)

(٦) انظر كتاب هردوت الأول (فصل ١٤٩)

« ميتيليني » . تلك هي المدن التي يتبعها المعبد ، وهي أيضاً التي تُعَيَّن القناصل الذين يشرفون على التجارة (١) . أما كل المدن الأخرى التي تدعى أن لها فيه نصيباً فهي إنما تدعى شيئاً ليس لها فيه حق . ولقد بنى أهل « إيجينا » — على حدة — معبداً لزيوس خاصاً بهم ، وبنى أهل « ساموس » معبداً لهيرا ، والملطيون آخر لأبوللون .

١٧٩ — وقدما كانت « نوقراطيس » البلدة التجارية الوحيدة ، ولم يكن بمصر غيرها . وكان إذا بلغ أحد ما داخل مصب آخر من مصاب النيل ، وجب عليه أن يُقسِمَ إنه لم يأت بمحض رغبته . وبعد القسم كان عليه أن يُبحر بسفينته وحوالتها إلى المصب الكانوبي . وأما إذا استحال عليه الإبحار بسبب رياح مضادة ، فيتحتم عليه أن ينقل بضاعته في قوارب مصرية ويطوف بالدلتا حتى يصل إلى « نوقراطيس » ، وهكذا كانت « لنوقراطيس » مكانة ممتازة (٢) .

١٨٠ — ولما تعهد « الأمفيكتيونيون » (٣) — لقاء ثلثمئة تالنت — ببناء المعبد الموجود حالياً في « دلفي » (لأن المعبد الذي كان هناك من قبل احترق من نفسه) (٤) تحتم على أهل « دلفي » دفع ربع المبلغ ، فأخذوا يطوفون

(١) لقد كانوا — أغلب الظن — قناصل مهمتهم الإشراف على التجارة الإغريقية وحمايتها وهم أشبه الناس بمن نسميهم اليوم « الملحقين التجاريين » .

(٢) انظر : (Kees, K. G. S. 106 7)

(٣) الأمفيكتيونيون (= المجاورون) عَلمٌ على حلفٍ مُكوّنٍ من مجموعة مدائن كانت في الشمال الشرقي من بلاد اليونان .

(٤) يبدو أن هردوت يريد أن يقول — بطريق غير مباشر — إن الحريق لم يكن مصادفة (انظر ما جاء عن الحريق في الفصل (٥٠) من كتاب هردوت الأول ، ثم في الفصل (٦٢) من كتابه الخامس) .

بالمدين ، يتقبلون العطايا . ولم يجمعوا من مصر أقل مما جمعوا من غيرها ،
إذ منحهم « أمازيس » ألف تالنت من الشب^(١) ، ومنحهم اليونانيون المقيمون
بمصر عشرين منّا^(٢) .

١٨١ — وتصادق^(٣) « أمازيس » مع « الكورنيائيين » وحالفهم ،
وأراد أن يتزوج منهم ذلك لأنه اشتهى أن تكون له امرأة يونانية . أو لسبب آخر ،
ألا وهو صداقة « الكورنيائيين » . ولقد تزوج منهم على أى حال ؛ تزوج وفقا
لقول البعض من ابنة « باتوس » بن « أركيسيلوس » ، وفي قول البعض الآخر
من ابنة « كريتوبولوس » وهو مواطن ذو اعتبار . وكانت تسمى « لاديكي » .
وعندما نام معها « أمازيس » ، لم يجد نفسه قادرا على مجامعتها ؛ على حين كان
في مقدوره أن يجامع نساءه الأخريات . ولما استمر الحال على ذلك وقتنا طويلا ؛
قال « أمازيس » لهذه المدعوة « لاديكي » : أيتها المرأة ، لقد استخدمت ضدى
وسائل السحر فلا مفر من أن تموتى شر ميتة ؛ (ميتة) لم تلق مثلها امرأة قط .
فاحتجت « لاديكي » . ولكن « أمازيس » لم يلن أبدا . عندئذ ندرت بينها
وبين نفسها لأفروديت أنه إذا اجتمع بها « أمازيس » فى الليلة التالية — لأن

(١) كان « الشب » — فى الغالب — من سلع التجارة المهمة المتبادلة
بين مصر وبلاد اليونان .

(٢) أغلب الظن أن الهدية كانت من « الذهب » ، ولم تكن من « الشب » .
وإن كان الأمر يبدو غريبا على كل حال ، نظراً لذكر « السن » الذى كان فى
الغالب من مكاييل السوائل عند المصريين .

(٣) فى ذلك ما يشير إلى أن « أمازيس » — على العكس من سلفه —
قد كان صديقاً للهلينيين (انظر الفصل رقم ١٦١ من هذا الكتاب) .

في ذلك وقاية لها من الشر — فإنها سترسل إليها تمثالاً في « كوريني » .
وبعد النذر مباشرة جامعها « أمازيس » ومنذ ذلك الوقت — كلما أتى عندها —
كان يجامعها بها . ثم أحبها بعدئذ حباً جماً . ووفت « لاديكي » بنذرهما نحو الآلهة .
(فطلبت) صنع تمثال وأرسلته إلى « كوريني » . ولا يزال التمثال موجوداً
إلى يومنا هذا لم يمسه شيء ، وهو موضوع خارج مدينة الكورنثيين . أما فيما
يتعلق بلاديكي هذه ، فإنها عندما سيطر « قبيز » على مصر ، وعلم منها من هي أرسلها
إلى « كوريني » دون أن يصيبها مكروه .

١٨٢ — ولقد أرسل أمازيس^(١) الهدايا أيضاً إلى بلاد اليونان : فأتى

« كوريني » أرسل ، تمثالاً لأثينا مغطى بالذهب مع صورة له مرسومة ، وإلى « ليندوس » ،
تمثالين لأثينا من الحجر ومشدا للصدر جديراً بالمشاهدة^(٢) . ووهب أيضاً هليرا
في « ساموس » تمثالين لنفسه من الخشب ، لا يزالان حتى وقتنا هذا قائمين
في المعبد الكبير ، خلف الأبواب . وبعث الهدايا إلى « ثاموس » لتوثيق
صلات الود والكرم بينه وبين بوليكراتيس^(٣) بن « إياكيس » . إلا أن
ما أرسله إلى « ليندوس » لم يكن من أجل صلات الكرم والمحبة ، بل لأن
معبد أثينا في « ليندوس » كان قد شيدته — فيما يقال — بنات « دناؤس » ،
عندما حللن هناك أثناء فرارهم من أبناء « إيجيتيوس » . تلك هي الهدايا

(١) وهنا تقع أيدينا على دليل جديد يؤكد صداقة « أمازيس » للهيلينيين .

(٢) انظر في هذا الوصف ما ذكره هردوت في كتابه الثالث (فصل ٤٧) .

(٣) Polycrates هو طاغية « ساموس » (انظر ص ١٣) .

التي قدمها أمازيس . وهو أول رجل استولى على قبرص وفرض عليها
دفع الجزية (١) .

(١) خضعت « قبرص » قبل ذلك للآشوريين والفينيقيين . وليس يبعد أن
تكون قد خضعت لفرعون مصر « أمازيس » . ولكننا نحرص — كدأبنا —
على إثارة الشك في أقوال المؤرخين ، وبخاصة إذا كانوا رواة من طراز
« هردوت » ، إذ قد تكون العهود التي أبرمت بين « أمازيس » وأشهر مدائن
الجزيرة مثل « سلاميس » و « آماتوس » و « إيداليون » قد أول أمرها إلى
غير ما ينبغي لها حتى نلن — خطأ — أن « أمازيس » قد احتل الجزيرة .

محتويات الكتاب

ص		الفصل
٨ — ٥	مقدمة	
٣٧ — ٩	أبو التاريخ هردوت	
	تمهيد : « نظرة سريعة في أحوال مصر والشرق القريب	
٥٧ — ٣٩	قبيل أيام هردوت «	
	« قبز » وحملته على مصر	١
	قصة « إيسباتيك » والبحث عن أقدم شعوب الدنيا	٢
	متدمة الحديث عن مصر بين هردوت والسكينة	٣ — ٤
	وصف طبيعة مصر ؛ أرضها ، وتربتها ، ومساحتها	٥ — ١٣
	الحديث عن الزراعة	١٤
	الحديث عن حدود مصر	١٥
	الحديث عن النيل	١٩ — ٣١
	الحديث عن ليبيا	٣٢
	بين النيل والبطون	٣٣ — ٣٤
	عادات المصريين	٣٥ — ٣٦
	طقوس المصريين الدينية وشعائرهم	٣٧ — ٤٩
	ذكر ما بين عقائد المصريين وعقائد الإغريق الدينية	٥٠ — ٥٧
	من تشابه	
	أعياد المصريين	٥٨ — ٦٤
	تقديس الحيوان	٦٥ — ٧٦
	الحياة العامة وما يُمارس فيها من قواعد وتقاليد	٧٧ — ٨٤
	الجنائزات	٨٥ — ٩٠
	عبادة « پرسوس »	٩١
	سكان أقاليم الأخوار وعاداتهم	٩٢ — ٩٥
	المراكب التي استخدمها المصريون	٩٦
	وسائل النقل والانتقال أيام الفيضان	٩٧ — ٩٨

الفصل

- ٩٩ — ١١١ ذكر « مينا = منا » أول الحكام المصريين وخلفائه
 ١١٢ — ١٢٠ أسطورة « هيلينا »
 ١٢١ — ١٢٢ قصة « رامسيسيتوس »
 ١٢٣ ذكر تناسخ الأرواح
 ١٢٤ — ١٣٥ عصر بثاة الأهرام
 ١٣٦ — ١٤٣ ذكر الآثيوبيين في مصر
 ١٤٤ — ١٤٦ عصر البشر المؤهلين
 ١٤٨ — ١٥٢ الآثني عشرية
 ١٥٣ — ١٦٩ أسرة « إسماتيك » والعصر العباوى
 ١٧٠ قبر الشهيد « أزوريس »
 ١٧١ العقائد السرية في مصر
 ١٧٢ - ١٨٢ ذكر الملك « أمازيس » (أحمسى)

قائمة مختصرات المراجع الهامة

- An. d. Serv. = Annales du Service des Antiquités de l'Egypte.
Badawi, Memphis = Ahmad Badawi, Memphis als zweite
Landshauptstadt im NR. Kairo 1948.
- Ball = J. Ball = J. Ball, Egypt in the classical geographers,
Cairo Government Press 1942.
- Bonnet, Bilderatlas = H. Bonnet, Bilderatlas zur Religionsge-
schichte. hrsg. von H. Haas 2-4, Lief. Aegyptische Re-
ligion, Leipzig 1924.
- Borchardt, Neuserre, Sahurê = Das Grabdenkmal des Königs
Neuser-Rê, bzw. Sahw-Rê. Wiss. Veröffentl. der Deut-
schen Orient-Ges. Bd. 7 (1907), 14 (1910), 26 (1913).
- Brugsch, Gesch. Aegyptens = Geschichte Aegyptens unter den
Pharaonen, Leipzig 1877.
- Brugsch, Thes. = Brugsch, Thesaurus inscriptionum aegypti-
acarum, Leipzig, 1883/91.
- CAH = The Cambridge Ancient History, Camb. Univ. Press.
- Diod. = Diodorus of Sicily with an English translation by C.H.
Oldfather. 1946.
- Diod. = An account of Egypt by Diodorus the Sicilian, being
the 1st. book of his universal history translated into
English by W.G. Waddell. Bulletin of the Faculty of Arts
Univ. of Egypt. Vol. I part I, 1933.
- Drioton-Vandier, l'Egypte = Clio, Les peuples de l'Orient Mé-
diterranéen II, L'Egypte, Paris 1938.
- Erman, Aegypten = Adolf Erman, Aegypten und aegyptisches
Leben im Altertum. Neue Bearbeitung von H. Ranke,
Tübingen 1923.
- Erman, Lit. = Adolf Erman, Die Literatur der alten Aegypter,
Leipzig, 1923.

Erman, Relig. = Adolf Erman, Die Religion der Aegypter, ihr Werden und Vergehen in vier Jahrtausenden, Walter de Gruyter, Berlin & Leipzig. 1934.

Gardiner, Admonitions = Alan Gardiner, The admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig 1909.

Handbuch der Fremdwörter. = Handbuch der Fremdwörter v. Dr. Friedrich Erdmann Petri XIII, Aufl. Neu bearbeitet und vielfach vermehrt von Dr. Emanuel Samostz, Leipzig 1787.

Hopfner, Tierkult = Der Tierkult der alten Aegypter, Deutscher-Wiener Akad. phil.-hist. Klasse Bd. 57, 2 (1913).

J.E.A. = Journal of Egyptian Archaeology, London 1914 —

Kees, G.G. = Hermann Kees, Der Götterglaube im alten Aegypten, Leipzig 1941.

Kees, T.G. = H. Kees, Totenglauben und Jenseitsvorstellungen der alten Aegypter, Leipzig 1926.

Klebs, Reliefs = Die Reliefs des Alten Reiches.
Die Reliefs und Malereien des Mittleren Reiches.

Die Reliefs und Malereien des Neuen Reiches.
I. Abt. Heidelberger Akademie 1915, 1922, 1934.

L.D. = R. Lepsius, Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien, 12 Bände, Atlas in 6 Abteilungen, Berlin 1849 ff.; 5 Bände Text, 1 Tafelergänzungsband, Leipzig 1897 ff.

Mém. inst. fr. or. = Mémoires publiées par les membres de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, Le Caire 1902 ff.

Meyer, Gesch. = Ed. Meyer, Geschichte des Altertums, 5 Bde. Stuttgart und Berlin 1925, 1926, 1928, 1931, Stuttgart 1937, 1944, 1956, 1958.

O.L.Z. = Orientalische Literaturzeitung, Leipzig.

Otto, Stierkulte = Beiträge zur Geschichte und Stierkulte in Aegypten, Untersuchungen zur Geschichte und Altertumskunde Aegyptens, Bd. 13 Leipzig 1938.

- Plut. Isis et Osiris = Plutarque, Isis et Osiris. Trad. par Mario Meunier, Paris MDCCCXXIV.
- Plut. Isis und Osiris = Plutarch, Ueber Isis und Osiris, Text, Uebersetzung und Kommentar von Theodor Hopfner, Orientalisches Institut in Praga. Bd. IX, Iste. & IIte. teil.
- Plut. Moral. = Plutarchus Moralia gr. Plutarchos Ethika.
- PSBA. = Proceedings of the Society of Biblical Archaeology.
- Pyr. Text. = Sethe, Die altaegyptischen Pyramidentexte, Leipzig 1908 ff.
- Sethe, Amun = Kurt Sethe, Amun und die acht Urgoetter von Hermopolis, Abh. Berl. Akad. 1929.
- Sethe, Untersuchungen = Untersuchungen zur Geschichte und Altertumskunde Aegyptens, hersg. v. Kurt Sethe (Leipzig).
- Strabo = The Geography of Strabo, with an English translation by Horace Leonard Jones in eight volumes, Harvard Univ. Press. MCMXLIX.
- Thucydides = Thucydides Historiae, Edited by C. Hude I & II.
- Urk. = Sethe, Urkunden des aegyptischer Altertums, hersg. von G. Steindorff Abt. I-VII, Leipzig.
- Waddell, Manetho = Manetho, with an English translation by W.G. Waddell, Loeb Classical Library, Camb. Mass. Harvard Univ. Press, 1940.
- Wb. = A. Erman und Hermann Grapow, Woerterbuch der aegyptischen Sprache I-V, Leipzig, 1926/31.
- Wiedemann, Aeg. Gesch. = Karl Alfred Wiedemann, Aegyptische Geschichte, Handlehrbuecher der alten Geschichte (Serie I, Abt. 1)
- Wreszinski, Atlas = W. Wreszinski, Atlas zur altaegyptische Kulturgeschichte I, Leipzig, 1923.
- Z. Ae. S. = Zeitschrift fuer aegyptische Sprache und Altertumskunde, Leipzig.

فهرس الأعلام العامة

(١)

- أخناتون « ملك » ٨٦
 آخيل « بطل أسطوري » ٦٤
 أخبوس ٢١١
 آخيشون « شعب » ٢٣٨
 إداوين سميت « قرطاس بردى » ١٩١
 أرجو « سفينة » ٢١٩
 أرجوس « ملك » ١٣٢
 أرخانديروس ٢١١
 أرخيدبيكي « غانية » ٢٦٤
 أرسطو ٩٩
 أرفيشون « أوفيشون » ١٤٩ ، ٢٤٨
 أركاديشون « شعب » ٣٠٤
 أركيسيلوس ٣١٢
 آريون « شعب » ٥٢
 استرابون « سترابون » « مؤرخ » ٦٦ ،
 ٩٤ ، ١٠٦ ، ١٥٦ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ،
 ٢٢١ ، ٢٣٢ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣٠٩
 إسحق ٢٣٧
 إسرائيل « بنو » ٣٢ ، ١٣٠ ، ١٩٦ ،
 ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٦٠ ، ٢٩١
 أشرحدون « ملك » ٤٠
 اسطفانوس البيزنطي ٦٦
 إسكندر « ابن صاحب طرواده » ٢٣٢ ،
 ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ،
 إسكندر « المقدوني » ١١ ، ١٣٦
 اسكينيشون ٢٩٩
 إسماعيل « خديو مصر » ٢٣٠ ، ٢٣٧ ،
 أسوخيس « ملك » ٢٦٤
- إبراهيم ١٦٨ ، ٢٢٧
 أبرمة الأشرم ٢٧٢
 أبقراط « طبيب » ١٨٣
 ابن عبد الحكيم « مؤرخ » ١٠٥
 إياكيس ٣١٣
 أپريس « ملك » ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ،
 إيسماتيك « ملك » ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤١ ،
 ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ،
 ٢٢٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
 ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥
 أمانورك « الغازي » ١٢٩٠٥٢
 إتيارخوس ١١٠ ، ١١١ ، ١١٤
 أثينيوس ١٨٣
 أثينيون « شعب » ١٤٧ ، ١٥٣ ، ٣١٠ ،
 أثيونيون « شعب » ٣٩ ، ٤٠ ، ٦٠ ، ١٠٦ ،
 ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ،
 ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٥
 أجزرتيس « أجزركسيس » « ملك »
 ٥٢ ، ٢٩٠
 أجمنون « ملك » ١٥٠
 أحباش « شعب » ١٠٧ ، ٢١٣
 أحد البدوي « من أولياء الله » ١٦٨
 أحوصي « ملك » . أنظر أيضاً أمازيس
 ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٣٠٤
 أحوصي الأول « ملك » ٥٢ ، ٢٧١
 أحوصي بن إينا ٢٧١
 أحوصي نفرتاري « ملكة » ١١٩ ، ١٥٢

امونيون ١٤٩
 أمون حري (أنظر أميرتيوس)
 أمونيون ١٣٦، ١١١، ١١٠
 أميرتيوس (أميرتيوس) ٢٦٩
 أمينوفيس الأول « ملك » ١٥٢، ١١٩
 أمينوفيس الثاني « ملك » ٢٤٢
 أمينوفيس الثالث « ملك » ٢٥٩، ٤٩
 إناخوس ١٣٢
 أنتحرو ٢٦٩
 أوديسة ٢٣٢
 أوديمو « ملك » ١٩٠
 أوفوريون « شاعر » ٢٨٩
 أوني ٢١٥
 إيجيتيوس ٣١٣
 إيلياثيون « شعب » ٢٩٥، ٢٩٤
 أيوليون « شعب » ٥٩
 أيوليون « شعب » ١٢٩، ٨٨، ٥٩
 ٢٩٦، ٢٨٦، ٢٨٥، ١٧٦

(ب، پ)

باب العالي ٢٢٨
 بابليون ٢٢٦، ٤٧
 بابه ١٥٩
 باع « مقياس » ٢٨١، ٢٥٠، ٧٦، ٧٥
 ٢٨٢
 برباروس « ملك » ٢٣٠
 بربرة، بربر « قبائل » ٢٩٢، ٦٠
 ٢٩٩
 برمها ١٥٢
 برانخيدشون ٢٩٣
 بشنس ١٤٦
 بطالمة ٣٠٩، ١٨٣، ٩٠، ٨٥
 بطميوس الأول « ملك » ٢٠٠
 بطميوس الثاني « ملك » ٧٢

آشوريشون « شعب » ٥٣، ٤١، ٤٠
 ٣١٤، ٢٨٣، ٢٧٢، ٢٧١، ٧١
 آشور بالبيت « ملك » ٤٧
 أغريق، أغارقة ١٤، ١٧،
 ٢٨، ٢٧، ٢٦، ٢٥، ٢٤، ٢٣، ٢٢
 ٤٣، ٤٢، ٣٧، ٣٢، ٣١، ٣٠، ٢٩
 ٥١، ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٤٧، ٤٥، ٤٤
 ٦٤، ٦٣، ٦٢، ٦١، ٦٠، ٥٥، ٥٤
 ٨٥، ٨٤، ٨١، ٧٥، ٧١، ٧٠، ٦٦
 ١١٣، ١١٠، ١٠٨، ١٠٧، ١٠١
 ١٢٤، ١١٧، ١١٦، ١١٥، ١١٣
 ١٤١، ١٣٥، ١٣٤، ١٣٣، ١٣٢
 ١٥٧، ١٥٦، ١٥٢، ١٥٠، ١٤٣
 ١٧٦، ١٧٥، ١٧٣، ١٧٢، ١٥٨
 ١٨٩، ١٨٨، ١٨٦، ١٨٥، ١٨٣
 ٢٠٣، ٢٠٢، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩١
 ٢٤٠، ٢٣١، ٢٢٣، ٢١٠، ٢٠٧
 ٢٦٦، ٢٥٥، ٢٤٨، ٢٤٦، ٢٤٥
 ٢٩٤، ٢٩٢، ٢٧٦، ٢٦٩، ٢٦٧
 ٣٠٤، ٣٠٣، ٣٠٠، ٢٩٩

الحارث بن سدوس ١٤٨
 إلياذه ٢٣٦، ٢٣٥
 أمازيس « ملك » (أنظر أيضاً أجوسى)
 ٥٢، ٥١، ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٣٢، ٢٩
 ٣٨٧، ٢٧٦، ٢٦٢، ١٩٢، ١٤٠
 ٣٠٢، ٣٠١، ٢٩٧، ٢٩٦، ٢٩٤
 ٣٠٨، ٣٠٧، ٣٠٦، ٣٠٥، ٣٠٤
 ٣١٣، ٣١٢، ٣١١، ٣١٠، ٣٠٩
 ٣١٤

أمفيكتيونشون ٣١١
 أمنحات الثالث « نى — ماعة — رع » —
 « مارس — لامارس — لا بارس »
 « ملك » ٢٨١، ٢١٦، ٨٤

تليباخوس ٢٣٥
تنداروس ٢٣١
توت عنخ آمون « ملك » ٢٤٥
توراه « كتاب مقدس » ٦٦، ٦٧، ١٠٩
١٣٥، ١٩٦، ٢٦٠، ٢٧٢، ٢٨٩
٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٣، ٣٠٩
تباريتي « كاهنة » ١٥٧

(ث)

ثسموفوريا « عيد » ٣٠٣
ثونيس « ثون » ٢٣٣، ٢٣٥
ثيسپروثيون « شعب » ١٥٨

(ج)

جالينوس ١٨٣
جريجوار « البابا » ٧٠
جورجو « ميدوزا » ٢٠٣

(ح)

حطب حرس « ملكة » ٢٥٤، ٢٥٥
حششبسوة « حششبسوت » « ملكة »
٦٠، ٧١، ١١٩، ٢٠٩، ٢١٤
حجر رشيد ١٠
حزقيا ، حزقيال ٢٧٢، ٣٠٩
حزة ١٩٣
حور - ددف « ملك » ٢٥٦

(خ)

خار - شري ٢٩٩
خراكسوس « الميتيليني » ٢٦٣، ٢٦٤
خفراع « ملك » ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٥
٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦١
خواس « أمير » ٢٤٥، ٢٥٣

بطليموس الزممار « ملك » ١٦٩
بني أمية ١٢٩
بوخوريس « ملك » ٤٠، ٢٥٨، ٢٦٥
پاريس ٢٣٢
پانياس ١٣
پريام ٢٢٣ (أنظر پرياموس)
پساميس « ملك » ٢٩٤، ٢٩٥
پعنخي « ملك » ٤٠، ٢١٣، ٢٧٠
پلاتون ٢٠٠
پلوتارخ « مؤرخ » ١٩، ٢٠، ٥٥
١٢٥، ١٢٩، ١٤٨
پالينيوس ٢٧٨، ٦٦
پروتوس « ملك » ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣
٢٣٤، ٢٣٧، ٢٣٩
پرومليا « كاهنة » ١٥٧
پرياموس ٢٣٢، ٢٣٨ « أنظر پريام »
پوليدامنا ٢٣٥
پوليكراتيس « ملك » ٣١٣
پيبي الأول « ملك » ٢١٤، ٢١٥
پيبي الثاني « ملك » ٢١٤
پيروميس ٢٧٥
پيلاسيچيون « شعب » ١٥١، ١٥٣
١٥٤، ١٥٥، ٣٠٤
پيلوپونيزيون « شعب » ٣٠٤

(ت)

تالنت « مقيار » ٢٦٢، ٢٨٣
تاليس الملطي ٩٦
تانونامون « ملك » ٢٦٨
تقي « ملك » ٢١٥
تحتمس الثالث « ملك » ١٦٢، ١٦٧
٢١٩، ٢٢٩، ٢٣٠
تفتخت « ملك » ٤٠

رومان ٧٥٠، ٧١٠، ٧٠٠، ٦٥٠، ٥٩٠، ٥٥٠
١٥٣، ١٤٧، ٩٤، ٩٠، ٨٥، ٧٨
١٨٨، ١٦٩

(س)

سبك - نفرو - رع « ملك » ٢١٤
ستانلي « رحاله » ١١٣
ست نخت « ملك » ٢٣٩، ٢٣٠
سرجون الثاني « ملك » ٢٧٢
سفر التكوين ١٣٢، ١٣٩، ١٩٦، ٢٦٠،
٣٠٤
سفر الخروج ١٩٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٩١
سفر الملوك الثاني ٢٧٢
سكا ما اندرونيوس ٢٦٣
سكيثيون « السكيثيون » ٢٠١، ٢١٨،
٢٨٩، ٢٢٧

سنحريب « ملك » ٢٧٢، ٢٧١
سنفرو « ملك » ٢٥٦
سنموت ٧١
سنوسرة الأول « ملك » ٦٧
سنوسرة الثالث « ملك » ١٥٢، ٢١٧،
٢٢٥، ٢١٩
سورة البقرة ١٦٦
سورة النجم ٧٠
سورة يوسف ٢٦٠
سوفسطاثيون ١٨٠
سيتي الأول « ملك » ٧١، ٢٥٠، ٢٧٠
سيتوس ٢٧٠
سينوستريس « ملك » ١٧٠، ٢١٩، ٢٢٠،
٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦،
٢٢٧، ٢٢٨، ٢٦٢

(ش)

شاميليون ١٠
شباتاكو - شبتاكو « ملك » ٢١٣،
٢٧٢، ٢٧٠

خوفو « ملك » ٣٦، ٣٥، ١٩٧، ٢٤٨،
٢٥٤، ٢٥٣، ٢٥٢، ٢٥١، ٢٤٩
٢٦١، ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٥٥

خيوس ٣١٠

خيوشون ٢٦٤

(د)

دارا - « دارا الفارسي » = داريوس «
ملك » ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠
داناؤس ٢٠٢، ٢١١، ٢١٣، ٣٠٤
داناؤ ٢٠١
دودونيون ١٥٨، ١٥٧
دوريون ٣٠٤، ٤٩
دورپا ١٤٧
ديودور الصقلي ٨٧، ٧٦، ٦٦، ٥٢
١٠٩٠، ١٠٩٧، ١٢٧، ١٤١، ١٦٩،
١٨٣، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٥٢، ٢٧٩،
٢٨٣، ٢٩٤، ٢٩٧، ٣٠٩
ديموطيقه « الكتابة الشعبية » ١٢٤
ديوميديس ٢٣٥

(ر)

رعامة ٢٩٠، ١٢٦، ٤٤٤
رع - ددف ٤ « ملك » ٢٥٦، ٢٥٥
رمسيسينثوس « ملك » (أنظر رمسيس
الثالث) ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٥،
٢٤٨، ٢٤٦
رمسيس « الثاني » ٧١، ٢١٩، ٢٢٤،
٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٠،
٢٤٥، ٢٥٣، ٢٤٨، ٢٥٩
رمسيوم « معبد » ٧١
رم (ة) - حت (ر) ٢٩٨
روددة ٢٦٢
رودوپيس « غانية » ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤

علي باشا « والي يانينا » ١٥٥

عمالة ١٥٠

عمر بن الخطاب ٢١٠، ١٠٥، ٩٥

عمرو بن العاص ٢١٠، ١٠٥، ٩٥

(ف)

فاروق « ملك » ٢٢٤

فارناسيس ٥٩، ٥٢

فارزون « آل » ١١٠، ١٠٩، ١٠٨

فرسخ « مقياس » ٧٦، ٧٥

فريبيشون « آل » ٦٣، ٦١

فيثاغورث ٢٤٨، ١٨٨

فيثاغورية ١٨٨

فيثيوس ٢١١

فيروس ٢٢٨

فيغاروس « مذهب » ٣٢

فستكار « قرطاس بردى » ٢٦٢، ٢٤٩

(ق)

قرآن ٢٧٢، ٢٦٠، ١٣٥، ٧٠

قرطاجينيون ١١٢

قبيز « ملك » ٥٥، ٥٤، ٥٣، ٥٢، ٢١

٣١٣، ١١١، ٥٩، ٥٦

قوانين الدواوين « مؤلف » ١٦٠

قورش « ملك » ١٩٢، ٥٩، ٥٣، ٥٢، ٥١

(ك)

كابيرو « = كبيرو » ١٥٤، ١٥٣

كادموس الصوري ٢٧٦، ١٥٠

كارنارقون ٣٤

كاربيشون « شعب » ٢٨٥، ١٦٤، ١٦٣

٢٩٦، ٢٨٦

شباكا - شباكو « ملك » ٢١٣، ٤١، ٤٠

٢٨٥، ٢٧٠، ٢٦٨، ٢٦٤

شيسكاف « ملك » ٢٦٤، ٢٥٦

شمري « الشعرى اليونانية » ١٩٦، ٧٠

شوق « شاعر » ١٧٠

شيرون ١٦٩

شيشنق الأول « ملك » ٢٦٥، ١٠٧

(ص)

صبيشون ١٨٥

صولون ٣١٠

(ط)

طرواديشون ٢٣٨

طهارة « = طهارة » « ملك » ٤٠

٢٧٠، ٢١٩، ٢١٣، ١٣٦، ٤١

٢٧٢، ٢٧١

(ع)

عام الفيل ٢٧٢

عبداللطيف البمدادي « المؤرخ » ٢٥٣

عبدالله ٢٣٧

عبدالمطلب ٢٣٧

عبرانيشون ٢٧٢، ٢٢٠، ١٣٦، ١٣٢

٣٠٤

عثمان أمين « مؤلف » ١٨

عثمان « آل » ٢٢٨

عرب ١٠٥، ٨٩، ٨٤، ٨٣، ٨١، ٧٨، ٩

١٧٩، ١٧٦، ١٢٩، ١٠٩، ١٠٧

٢٩١، ٢٧١، ٢٣٠، ١٨٥، ١٨٠

علاميشون « شعب » ٤٣

(م)

- ماكرونيثون ٢٢١
مانيروس ١٨٦
مثنى « شاعر » ٩
محمد توفيق « خديو مصر » ٢٠٠
محمد طلي « الكبير » ٢٣٠، ٩٣
مروان بن محمد « خليفه » ١٢٩
مسلمون ٢٣٧، ٢٠٣، ١٤٤، ١٢٣
مسيح ٢١٥، ١٥٥
مسيحيون ٢٣٧، ١٨٨
معجم البلدان ١٦٠
ملاحم الهوميريته « ال » ٢٣٥
ملحة القبرصية « ال » ٢٣٦
مكتبيون ٣١١، ١١٥
منا = مينا « ملك » ٧٣، ٧٢، ٦٥، ٣٢
٢٧٣، ٢٣٩، ٢١٣، ٢١٢، ١٥٢
٢٧٨
منتوحات « حاكم » ١٠٧
مونيثون « مؤرخ » ١٠٨، ٧٢، ٤٠، ٣٤
٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ١٤٩، ٢٦٤
٢٧٠
منديثون ١٣٥
منفتاح « ملك » ٢٣٠، ٣٢٩، ٢٢٨
منكاورع (= منقرع) « ملك »
٢٦١، ٢٥٩، ٢٥٨، ٢٥٧، ٢٥٦
٢٦٦، ٢٦٤
موسى ١٣٦
مويريس (موريس) « ملك » ٢٤
٢١٦، ١٧٥، ٨٥، ٨٤، ٧٤، ٧٣
٢٨٣، ٢٨٢، ٢٨٠
ميدثون ٢٩٧، ٥١، ٤٧، ٤٦
ميلايوس ١٥٠، ١٤٩
مينلاوس « ملك » ٢٣٦، ٢٣٥، ٢٣٣
٢٣٧

- كالا سبريس « لباس من الكتان » ١٨٧
٣٠١، ٢٩٨، ٢٩٧
كتاب الموني ٢٣٤
كسانثوس الساموسى ٢٦٣
كشتا « ملك » ٢٧٠، ٢١٣
ككتيئون « شعب » ١١٥، ١١٤
كلجات السكندري ٥٥
كليوباطرة « ملكه » ٢٣٠
كورنياثيون « = كرنائيون » ٩٥
٣١٣، ٣١٢، ١١٤، ١١٠
كورثيون ٣٠٠
كولثيون ٢٢١، ٢٢٠، ٢١٩
كيكي « زيت » = « كاك » ٢٠٧
كيليسستيس « ضرب من الخبز » ١٨٣
كيليكثيون ٩١
كينيسثيون ١١٥
كبيك ١٤٦
كيوپس « ملك » (أنظر خوفو)
٢٥٥، ٢٥٣، ٢٤٨

(ل)

- لاديكي « امرأة » ٣١٣، ٣١٢
لاكيديمونيثون « ال » ٣٠٠، ١٨٦
لجداموس الثاني « ملك » ١٣٠
لوط ٢٦٠
ليثيون ١١٤، ١٠٨، ٩٤، ٤٩، ٢٩
١٨٢، ١٥٧، ١٥٢
ليديون ٢٩٩، ٢٤٥
لينكيوس ٢٠٢
لينوس « أنشوده » ١٨٦، ١٨٥

(ن)

ناپليون الاول ١٢٩

نبوخذ نسر (= نبوكاذ نصر) «ملك»

٢٩٣، ٢١٥

نخاو (= نيخوس = نيكوس) «ملك»

٢٩٣، ٢٩٢، ٢٩٠، ٢٨٥، ٤٧٠، ٤٢

نسامونيشون ١١٤، ١١٣، ١١١

نفر لركارع «ملك» ١٩٠

نقرتاي «ملكة» ٢٤٥

نويشون ٢١٣

نيتوكرس «ملكة» ٢١٤، ٢١٥،

٣٠١، ٢٦٦

نيكاندري «كاهنة» ١٥٧

(هـ)

هكاتيه الملطي (هيكاتيه - هيكاتيوس)

«مؤرخ» ٣٨٠، ٢٨٠، ٢٢٠، ١٤٠، ١٢٠،

٢٧٤، ٩٨، ٩٧، ٨٨، ٧٤

هكتور ٢٣٨

هكسوس ٢٥٧، ٢٢٩، ٩٠، ٥٢، ٣٣،

٢٧١، ٢٧٠

هليلثيون ٣١٢، ١٥١، ١٢٧، ١٧

٣١٣

هومير (= هوميروس) «شاعر» ٦٥

٢٢٣، ١٥٦، ١٥٥، ١٥١، ٩٨، ٧١

٢٣٨، ٢٣٦، ٢٣٤، ٢٣٣، ٢٣١

هيرايطية «كتابه» ١٢٤

هيرو غليفية «كتابه» ١٢٤، ١٢٣

١٨٦

هيسودوس «شاعر» ١٥٦، ١٥٥

(و)

واح - ايب - رع «ملك» ٢٩٥، ٤٨

وازي - حور - رسنة ٥٥

(ي)

يسوعيون ١٠

يعقوب ١٩٦، ١٣٢

يهود ٢٢٠، ١٤٤، ١٢٣، ١٢٠، ٣٢

٢٩٣، ٢٢٩، ٢٢٨، ٢٢١

يوسف ٢٦٤، ٢٦٠، ٢٢٩، ١٩٦، ١٣٢

يوشع ٢٩٣، ٢٧

يوليوس قيصر ٦٩

فهرس الأعلام الجغرافية والأماكن

اسبانيا ١١٥
أسبرطة ٢٣٦،٢٣٢،٥١
أستروس « نهر » ١١٥، ١١٤، ١٠١
١١٦
أستروبوليس ١١٥
اسكوثلانده ٦٢
إسماعيلية « ترعة » ٢٢٤
إسنا « مدينة » ١٢٦
أسوان « مدينة » ٧٨، ٧٤، ٢٤
آسية (= آسيا) ٥١، ٤٧، ١٦، ١٥
٢١٨، ١٩٧، ١٠٨، ٩١، ٩٠، ٥٢
٢٩٣، ٢٩٠، ٢٧٢، ٢١٩
آسية الصغرى ٢٧٢، ٢٢١، ٩١، ٦١، ١٢
أسيوط ١٧٥
إسكندرية ٣١٠، ٢٣٢، ٢٣٠، ٢١٠، ٨٩
أشدود « أنظر أذوتوس » ٢٨٩
أثيون طلاح ١٣٥
أثيونين ١٧٢
أصدة هرقل ١١٥
أفثيس ٢٩٨
أفريقية ١١٣، ١١٢، ٩٥، ٦٠، ١٦، ١٥
١١٧، ١١٥
أفسوس ٢٨٠، ٢٢٢، ٨٠
أكارنانيا ٨١
أكيتان ٤٧
ألبانية ١٥٥
ألبو « جزيرة » ٢٦٩
أقصر ٣٠٧، ١٥٩، ٦٥
أقيانوس ٩٨

(أ)

إبراهيمية « ترعة » ٢٢٤
إبطو « مدينة » ١٦٠
أبو رواش ٢٥٦، ٢٥٤، ٧٨
أبو سنبل ٢٨٥
أبو صيربنا ١٦٠
أبو فوده « جبل » ١٧٥
أبو قير ٨٩، ٤٥، ٤٢
أبو النجا « ترعة » ٩٢
أبيدوس ١٤٦، ١٢٦
أماربيخيس (مدينة) ١٣٣
أتريب - أتريس ٢٩٨، ٤٢، ٤١
أثينا = « أثينا » ٧٧، ٧١، ٦٣، ٢٨
١٥٣، ١٥٢، ١٥٠، ١٠٢، ١٠١
٣٠٦، ٣٠٢، ٢٠٣، ١٨٩، ١٦٠
٣١٣، ٣١٠
أثيوبية = « أثيوبيا » ٥٤، ٤٤، ٤٢
٢٢٣، ١١٠، ١٠٩، ٩٧، ٨٣، ٨٢
٢٩٥، ٢٧٧، ٢٦٨، ٢٢٦
أخميم = « خميم » ٢٠٢، ٢٠١، ٢٠٠
أخيليرؤس « نهر » ٨١
أخيتاديس « جزائر ألبانية » ٨١
إدفو « مدينة » ١٤٦، ١٠٨
أرخاندروس « مدينة » ٢١١
أروتري (= أروتيرى) « بحر »
٢٩٢، ٢٩١، ٢٢٩، ٢١٧، ٨١، ٧٨
أروتري بولوس ٢٢٩
أزوتوس « مدينة » ٢٩٠، ٢٨٩

بنی حسن « بلدة » ٢٦٧، ١٦٩
 بهنسا « مدينة » ١٢٦
 بوبسطة (= بوباسطيس = بوبسطيس)
 ١٦٣، ١٦١، ١٦٠، ١٥٩، ٩٢
 ٢٨٩، ٢٨٧، ٢٦٧، ١٧١، ١٦٩
 ٢٩٨، ٢٩١
 بوزیریس ١٩٨، ١٦٣، ١٦٠، ١٥٩، ١٤٢
 بوطو (= بوتو = بوطون) ١٦٠،
 ٢٢٩، ١٨٩، ١٨٠، ١٧٢، ١٦٤
 ٢٨٩، ٢٨٨، ٢٨٧، ٢٨٥، ٢٦٠

بورینی ١١٤
 بیجه « جزيرة » ١٠٤
 بیوسیا ١٥٠
 پاپریس ٢٩٨، ١٧٧، ١٦٥، ١٦٠
 پاتارمیس ٢٩٦
 پالوس ٢٨٣
 پروسوپتیس ٢٩٨
 پلینتینی « بلدة » ٧٦
 پلینتوس (= پلینتینی) « خلیج » ٧٦
 پناپولیس ٢٠٠
 پروسیوس « مرقب » ٢٠٢، ٢٠١، ١٨٩
 ٢٠٣
 پروسویقی ١٣٣
 پروسیا ٦٢
 پیزا ٧٧
 پولندا ٢٠٣
 پیلاسچیا ١٥٨
 پیلوپونیز ٣٠٤، ٣٠٣
 پیلوزیوس ٢٧١
 پیلوزیوم ١٠٩

(ت)

تاخپسو ١٠٦
 تانیس ٢٩٨
 تراقی « تراقية » ٢٧٧، ٢٦٢، ١٨٨

آهرام ٩٦، ٨٣، ٧٩، ٧٨، ٣٥، ٢٤
 ٢٥١، ٢٥٠، ٢٤٩، ٢٤٨، ٢١٠
 ٢٥٦، ٢٥٥، ٢٥٤، ٢٥٣، ٢٥٢
 ٢٨٠، ٢٦٦، ٢٦٢، ٢٥٧
 إستر « نهر » (أنظر استروس) ١١٥

(ب)

باب المئذب « بوغاز » ٨١
 بابل ٢٩٣، ٢١٥، ٥٢، ٥١، ٤٧، ٤٣
 باتوس ٣١٢
 ببلوس ٢٠٤
 بحر أثمون الرمان ٩٢
 بحر (الأيض المتوسط) = البحر الشمالی
 ١٥٨، ١١٤، ١١١، ٩٢، ٨٢، ٨٠
 ٢٩٢، ٢٩١، ٢٣٢، ٢٠٥
 بحر « الأسود » ٢١٩، ١١٦، ١١٥
 بحر الفزال ٨٧
 بحر « المصری » ٢٣٢
 بحر مویس ٦٢
 بحر یوسف ٢٨٣، ٧٤
 بحيرات « المرقبة » ١٨٠
 بحيرة السُرُس ٢٨٧
 بحيرة التمساح ١٨٠
 بدر « وقمة » ٢٧٢
 بدرشین « مدينة » ٣٠٧، ٧٨، ٦٥
 برالس « جبال » ١١٤
 برانس « مدينة » ١١٤
 برتغال ١١٥
 برج الحمل ١٣٧
 بروج ٧١
 برقة ١١٢، ١١٠، ٦٠، ٥٠، ٤٩
 ركة قارون ٢٨٢
 بقلية ٩٢
 بنط « بلاد » ٢٩٠، ٦٠
 بنها « مدينة » ٢٩٨

(ح)

حبشة ٢٧٥،١٣٦،١٠٤،٩٧،٩٥
حكة - كا - شاح ٩٠

(خ)

خرطوم « مدينة » ٩٥
خليج العربي ٢٩٣،٢٩٢،٢١٧،٨٢
رخييس ٢٩٨،٢٨٨،٢٠٣،٢٠٢،٢٠١
خندق « وقعة » ٢٧٢

(د)

دافنای (== دفنة) ١٠٩،٤٨،٤٥
٢٢٣
دجلة « نهر » ٢٨٤،٤٧
دكرلس ٢٩٨
دلتا ٤١،٤٠،٢٩،٢٧،٢٤
٧٤،٧٣،٧٢،٦٥،٦٢،٤٧،٤٢
٩٣،٩٢،٩١،٩٠،٨٩،٨٨،٨٥
٩٦٠،١٣٣،١٢٦،٩٥،٩٤
٢٠٤،٢٠٣،١٧٥،١٦٦،١٦٤
٢٧٠،٢٦٩،٢٦٦،٢١١،٢٠٧
٢٩٨،٢٩٧،٢٩١،٢٨٨،٢٨٥
٣١١

دلي ٣١١،٢٦٤،٢٦٣،١٥٧
دمياط « فرع » ٩٢
دندره ١٧٥،٧١
دهشور ٢٦٦،٢٥١،٧٨
دودونا ١٥٩،٩٥٧،١٥٦،١٥٥،١٥٤
ديروط « مدينة » ٧٤
ديلوس ٣٠٣
ديوس پوليس هيبيجالى « انظر طيبة » ٣٦

٣٢٩

تركية ١٥٣

تل أبو صفية ٨٩
تل أنزيب « انظر أنزيب » ٢٩٨
تل الرابعة ٢٩٨،٩٢
تل الفراعين = (كوم الفراعين) ٨٩
١٦٤،١٦٠
تل الفرما ١٦٠،٨٩
تل المسخوطة ٢٩١
تل بسطة « أنظر بوبسطيس » ١٦٠
تل بلال ٢٩٨
تل بليم ٢٦٦
نمس « نهر » ٢٩٨
نميس ٢٩٨
نمى الأمديد ٢٩٨
نورين ٦٤،٥٢،١٣
تونة الجبل ١٧٢
تيوكريس ٢٣٦

(ث)

ثاسوس « جزيرة » ١٤١
ثرمودون ٢٢٠
ثيبا (طيبة) ٦٦
ثيوس ٣١٠

(ج)

جبل الحيسة « إقليم » ١٧٩
جبل طارق ١١٥،٦١
جبيلين ١٧٥
جبيل ٢٠٤
جزيرة الفيلة ١٠٣،٩٧،٨٠،٤٥،٣٢
٢١٧
جوزاء ٧٠
جيزة ٢٨١،٦٥

سمشود « مدينة » ٢٩٨،١٦٠،٩٢
 ميرانا « مدينة » ٢٢٢
 سميرقة ٢٢٢
 سنسار ١١٣
 سهيل « جزيرة باسوان » ١٠٣
 سورية = « سوريا » ٨٢،٥٩،٤٧
 ٢٣٦،١١٧،٩٦،٨٩،٨٤،٨٣
 ٢٩٣،٢٩٢،٢٩٠،٢٨٥
 سولوس « رأس » ١١٢
 سويس « خليج » ٨١
 سويني (أسوان) ١٠٣
 سيرتيس ٢٨٣
 سيلان ٢٠١
 سينوث ١١٦،١١٥
 سيوة « واحة » ١٣٦،١١١،٩٤،٩٣
 سيوط (أنظر أسبوط) ٢٤٦،١٧٢،٧٤
 سيوف ٣٠٤

(ش)

شرق (الأدنى = الشرق القريب)
 ٢٩٠،٢٣١،١٤٤
 شرق « العربي » ٧٨
 شرقية ١٦٠
 شلال (الأول) ١٠٤،١٠٣،١٠٢،٩١
 ١٠٧،١٣٥،١٠٦
 شوكاف « هرم » ٢٥٧
 شيخ حسن « آل » ١٧٥

(ص)

صا الحجر ١٩٠،١٦٤،١٠٢،٤٣،٤١
 ٣٠٤،٣٠٣
 صان الحجر ٣٠٢،٢٩٨
 صحراء (الشرقية أو العربية أو العرب)
 ٩٥،٩١،٧٤

(ذ)

ذراع أبو النجا ٦٥

(ر)

رأس الشاقورة ٢٢٢
 رشيد « فرع » ٣٠٤،٩٢
 رمسيس « مدينة » ٢٩١
 رودس « جزيرة » ٣١٢،٢٠٥
 روسية ٢١٨
 رومانيا ١١٥
 رون (نهر) ١١٤

(ز)

زقازيق ٢٩٨،١٦٠

(س)

ساردينيا ٢٢١
 سافو ٢٦٣
 ساموثراقيا ١٥٤،١٥٣
 ساي (أنظر سايس) ١٠٢
 سايس ٥٥٥،٤٥٥،٤٣٤،٤٢٠،٤١٠،٢٩٠،٥٦
 ١٩٠،١٦٤،١٦٠،١٠٢،٥٦
 ٢٩٧،٢٨٥،٢٦٩،٢٥٩،٢٥٨
 ٣٠٤،٣٠٣،٣٠٢،٣٠١،٢٩٨
 ٣٠٩،٣٠٧،٣٠٦

سبخة البردويل ٧٦

سيليتوس ٢٩٨

سدرة « خليج » ١١١

سربونيس ٧٦

سرارثة « بلدة » ١٧٥

سكسونيا ٢٠٣

سكثيا ٩٨

سلسلة (جبال) ١٧٥،١٠٥،٩٧

سلاميس ٣١٤

سلجوق ٢٢٢

(غ)

غابة «السوداء» ١١٤

غاليسيا ١١٥

غزة «مدينة» ٢٨٩،٥٥٣

غيليا «خليج» ١١٣

(ف)

فارباثيس ٢٩٨

فارس ٢٥، ٢٦، ٥١، ٥٤، ٥٥، ٥٦

٢٩٨، ١٩٢

فاسيس «نهر» ٢١٩

فاسيليس ٣١٠

فاشر ١٠٧

فاقوس ٢٩١

فراث «ال» ٢٩٣، ١٦٧، ٤٧

فرمة (= الفرمة) ٩٢، ٧٧، ٥٤

فرنسا ٧١

فلسطين ٢٠٥، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٤٢

٢٩٣، ٢٧٢، ٢٧٠

فوكايا ٣١٠، ٢٢٢

فيتوم ٢٩١

فيلاه ١٠٦، ٩٧

فينيتية (= فينيقتيا) ١٨٥، ١٤٠

٢٣٥

فيثوم «آل» ٤٠، ٢٤، ١٢٦، ٨٤

٢٨٣، ٢٨٠، ٢١٦، ١٧٥

(ق)

قاهرة «آل» ١٩١، ١٨٩، ١٧٢، ٨٩

٢٥١، ٢٢٧، ٢٠١

قبرص ٣١٤، ٢٠٥، ٨٥، ٥٣

قرنة «آل» ٢٠٨

قصر التيه (أنظر أيضاً لا بيرنت) ٣٠٧

قلعة (البيضاء) (أنظر أيضاً منف) ٧٢

صحراء الغربية «الليبية» ٩١، ٧٨، ٦٠

١٨٠، ١١١، ٩٥، ٩٤

صعيد (= مصر أو الوادي) ١٠٧، ١٠

١٩٢، ١٧٩، ١٤٥، ١٢٦، ١٢١

٢٠٢، ٢٠١

صقارة «جبانة» ٢٦٦، ١٦٩

صقلية «جزيرة» ٦٤

صور «مدينة» ٢٣١، ١٤١، ١٤٠

٢٩٥

صومال (قطر) ٦٠

صيدا «مدينة» ٢٩٥، ٢٣٦، ٢٣٥

(ط)

طارف «جبل» ١٧٥

طونة (= الدانوب) «نهر» ١٠١

١١٥، ١١٤

طر كم ٢٥٣

طرواده ٢٣٨، ٢٣٦، ٢٣٢، ١٥٥

٢٧٧، ٢٣٩

طنطا «مدينة» ١٦٨

طهطا «مدينة» ٢٠١، ١٧٥

طيبة «مدينة» ٧١، ٦٨، ٦٦، ٦٥، ٤٢

١٠٣، ٩٠، ٨٠، ٧٩، ٧٤، ٧٣

١٣٥، ١٣٤، ١١١، ١٠٨، ١٠٧

١٥٩، ١٥٨، ١٥٧، ١٥٦، ١٣٦

٢٤٥، ٢٠٨، ٢٠٠، ١٧٩، ١٧٤

٢٩٨

(ع)

عدن ١٨٥

عراق ٤٧

عراة «المدفونة» ٢٥١

عسقلان ٢٨٩

عطبره «نهر» ٩٥

عسكا «مدينة» ٢٢٢

عين شمس «مدينة» ١٩٠، ٢٦٧

كوم سَمْعَدِي ٢١١،٨٩
كيليكيا ١١٦،١١٥،٩١

(ل)

لايرنث «قصر التيه» ٢٧٩،٢٧٨،٢٤٤
٣٠٧،٢٨٢،٢٨١،٢٨٠

لبنان ١٦٧

لندل ٢٣٠

ليبية (= ليبيا) ٨٣،٧٩،٤٩،٤٤

٩٧،٩٦،٩٤،٩٢،٩١،٩٠،٨٩

١٠٩،١٠٨،١٠١،١٠٠،٩٩

١١٦،١١٥،١١٤،١١٢،١١١

١٦٧،١٥٨،١٥٧،١٥٦،١٥٢

٢٨٣

ليديا ٢٢٢،٥٣،٥١

ليكوپوليس ٢٤٦،١٧٢

(م)

ماريا (= مارية) ١٠٩،٩٤،٤٥

مجدو «مدينة» ٢٩٣

مجدوليس (= مجدولوس) ٢٩٣

مجدوبة «نوعة» ٢٩٢،٢٢٤

مدينة هابو ٦٥

مرج ابن طامر ٢٩٣

مرمدة بنى سلامة ١٤٤

مر — ور (= البحيرة المظمية) ٨٤

مروى «مدينة» ١٠٧

مربوط ٩٤،٧٦،٤٥

مصر المتينة ٢٠١

مصطبة فرعون ٢٦٤

ممايدة «بلدة» ١٧٥

ممصرة «بلدة» ٢٥٣

مغرب «أل» ١٨٧

مقطم «جبل» ٧٨

قناة السويس ٢٩٢،٢٢٤

قناطر «الخيرية» ٢٢٤

قنطرة «بلدة» ٢٢٣

قوقاز «جبال» ٦٠

قيصرية ٢٢١

(ك)

كاركاسوروس «بلدة» ٢١١،٩٢،٨٩

كاديثيس «بلدة» ٢٩٣

كاسترزا «مدينة» ١٥٥

كاسيوس ٢٩٢،٧٦

كانوب ١٦٤،٨٩

كتيب القلس ٧٦

كدميلوس ١٥٢

كرميل ٢٩٣،٢٨٩

كرنك ٣٠٧،١٢٠،٩٥

كروفي ١٠٤،١٠٣

كروكوديلوپوليس ٢٧٩

كريت «جزيرة» ٢٠٥،٦٢

كريتوپوليس ٢١٣

كمبة ٢٧٢

كلازومثاي ٣١٠

كلت ١١٤

كُثُفُو ١١٣

كوريثي ٣١٣

كوش ١٠٨،٨٢

كولخس ٢١٩

كوم أبويلو ٢٩٧

كوم اشقاو ٢٠١

كوم الحصن ٢٩٧

كوم القلعة ٢٣٠

كوم أمبو ١٧٥

كوم جعيف ٢١١،٢١٠

كوم دفنه ٢٢٣

٩٦،٩٥،٩٤،٩٣،٩٢،٩١،٨٧
١٠٣،١٠١،١٠٠،٩٩،٩٨،٩٧
١١١،١١٠،١٠٦،١٠٥،١٠٤
١١٨،١١٦،١١٥،١١٤،١١٣
١٨٠،١٧٧،١٧٥،١٣٥،١٣٤
٢٠٦،٢٠١،١٩٩،١٨٦،١٨٢
٢٨٢،٢٥٣،٢٥١،٢٢١،٢١٣
٢٩٠،٢٨٧،٢٦٢،٢٨٤،٢٨٣
٣١١،٣٠٩

نيل « الأزرق » ٩٥

نيجر « نهر » ١١٤،١١٣

نيثوي « مدينة » ٢٨٤،٢٨٣،٤٧

نيويورك ٢٣٠

(هـ)

هاليكارناسوس « مدينة » ٣١٠،١٢

هرقليو پوليس ٤٠

هرموبوليس ١٧٢،١٣٩

هرموتوبيس ٣٠١،٢٩٨

هند ٢٧٧،٢٠١

هليوبوليس ٧٣،٧١،٧٠،٦٨،٦٧،٦٦

١٦٦،١٦٤،١٦٠،٧٩،٧٧،٧٤

٢٧٦،٢٢٩،١٩٠،١٧٨

همدان ٤٧

هوآره ٢٨١

هوريبط ٢٩٨

هياس ١٥١

هيلينيوم ٣١٠

(و)

واحات « الخارجة » ١١٠،٥٧،٥٤

وادي الطميلات ٢٩٠

وادي النهرين ٢٩٣،٢٧١

واوات ٨٢

(ي)

يانينا ١٥٥

ملاطيه = « ملطيه » ٢٧٤،٨٠،٤٢

مليج « ترعة » ٩٢

مناوات « بلدة » ٧٩

منزلة « بحيرة » ٢٦٥،٩٢،٨٩

منشية « بلدة » ٢٠١،٢٠٠

منف = « ممفيس » ٤٠، ٣٣، ٣٢

٦٥،٦٤،٥٧،٥٤،٤٨،٤٢،٤١

٨٠،٧٨،٧٤،٧٣،٧١،٦٨،٦٧

٢٠٧، ١٢٨، ٩٠، ٨٦، ٨٤، ٨٣

٢٣٠، ٢٢٧، ٢١٣، ٢١٢، ٢١٠

٢٨١، ٢٧٠، ٢٣٧، ٢٣٣، ٢٣١

٣٠٢، ٢٩١، ٢٨٧، ٢٨٦، ٢٨٣

٢٢٣، ٣٠٩، ٣٠٨، ٣٠٧

ممنون ٢٢٣

منديس ١٤٤،١٤٣،١٣٥،١٣٤،٩٢

موفي ١٠٤،١٠٣

مومفيس ٣٠١، ٢٩٧، ٥٠

مويكفوريس ٢٩٨

مياندروس « سهل » ٨٠

مياندروس « نهر » ١٠٦

ميت رهينة « بلدة » ٣٠٧، ٣٠٢، ٢٢٧، ٦٥

ميتيليني ٣١١، ٢٦٤

ميديا ٥١، ٤٧

(ن)

نياه « بلدة » ١٠٧

نوبه ١٠٧، ١٠٦، ٨٢، ٦٠، ٥٥، ٥٤

٢٥٥، ٢٢٦، ٢١٧، ١٧٦، ١٠٨

نوكراتيس = « نوكراتيس - نوكراتيس »

٢١١، ٢١٠، ٤٥، ٤٢، ٢٩، ٢٤

٣١١، ٣١٠، ٢٦٤

نيسا ٢٧٧

نيابوليس ٢٠٠

نيل (أل) ٦٠، ٤٧، ٤٠، ٢٤، ٢٣

٨٦، ٨٥، ٨٣، ٨١، ٧٨، ٧٤، ٦٥

فهرس أسماء المعبودات والمقدسات

أزوريس « معبود مصرى » Osiris	(١)
١٢١٠، ١٠٨٠، ٧١٠، ٦٩٠، ٦٢٠، ٥٥٠	إپافوس Epaphus « خل مُقدّس »
١٤٧٠، ١٤٦٠، ١٣٨٠، ١٣٤٠، ١٢٦٠	« أنظر آپيس »
١٦٦٠، ١٦٣٠، ١٥٢٠، ١٥٠٠، ١٤٩٠	أپوفيس (Apophis) « حية مقدسة »
١٩٤٠، ١٩٢٠، ١٨٨٠، ١٨٦٠، ١٨٥٠	٢٠٢٠، ١٧١٠، ١٧٠٠
٢٥١٠، ٢٤٧٠، ٢٤٠٠، ٢١٥٠، ١٩٩٠	أبولون Apollon « من معبودات الإغريق »
٢٨٩٠، ٢٧٦٠، ٢٧٥٠، ٢٧٠٠، ٢٦٠٠	٢٦٣٠، ١٨٩٠، ١٨٦٠، ١٥٠٠، ٧١٠
٣٠٣٠، ٣٠٢٠	٢٨٩٠، ٢٨٨٠، ٢٨٧٠، ٢٧٥٠، ٢٧٤٠
أسكليپوس Asklepius « من معبودات	٣١١٠، ٣٠٣٠، ٢٩٤٠، ٢٩٣٠
الإغريق » ١٩١	آپيس « خل مقدس » ١٢٩٠، ١٢٧٠، ٥٤٠
أفروديت Aphrodite « من معبودات	٢٨٦٠، ١٨٧٠، ١٣٢٠
الإغريق » ١٤٧٠، ١٣٣٠، ٧١٠	آتوم Atum « معبود مصرى » ٧١٠
٣١٢٠، ٢٣١٠، ١٨٦٠	١٧٨
أمفيتريون « من معبودات الإغريق »	آتون Aton « معبود مصرى فى هيئة
٢٧٧٠، ١٤١٠، ١٣٨٠	قرص الشمس » ١٧١٠
ألكينا « من معبودات الإغريق »	أثينا « پلاس » (Athena (Pallas
٢٧٧٠، ١٤١٠، ١٣٨٠	« معبودة يونانية » ١٠١٠، ٧١٠
آمون Amon « معبود مصرى » ٥٧٠	٣٠٦٠، ٢٠٣٠، ١٦٠٠، ١٥٠٠، ١٠٢٠
١١٠٠، ١٠٨٠، ١٠٧٠، ٩٤٠، ٩٣٠، ٧١٠	٣١٣
١٣٦٠، ١٣٥٠، ١٢٤٠، ١١٩٠، ١١١٠	آدون « رمز الربيع » « معبود شرقى »
١٥٩٠، ١٥٧٠، ١٥٦٠، ١٥٠٠، ١٣٧٠	١٨٥
٢٦٦٠، ٢٣٢٠ « أحد عناصر الكون	أدونيس « من معبودات الإغريق » ١٨٥٠
الأربعة »	أرتميس Artemis « معبودة يونانية »
آمونة من عناصر الكون الثمانية وزوجه	٢٢٢٠، ١٨٩٠، ١٥٩٠، ١٥٠٠، ٧١٠
آمون ١٣٩٠، ٧١٠	٢٨٩٠، ٢٨٧٠، ٢٨٢٠، ٢٨٠٠، ٢٦٧٠
أورانوس Uranos « من معبودات	آريس Are « معبود يونانى » ٧١٠
الاهريق » ١٥١٠	١٨٩٠، ١٨٦٠، ١٦٦٠، ١٦٥٠، ١٦٠٠

تيس مندس «تيس مقدس» «أنظر بان»
تيفول «أنظر ست» ١٤٦ ، ١٥٠ ،
٢٨٣،٢٧٦

(ث)

ثامون «مجموعة من ثمانية معبودات» ٧١
ثيمس Themis «معبودة إغريقية»
١٥١

(ج)

جب Geb «معبود مصري» ٧١
جراتيا = جراتسيا Gratia «معبودة
إغريقية» «أنظر خاريتيس»
جوبيتر Jupiter «معبود روماني» ٧١
جيسا Gaea «معبودة إغريقية» ١٥١

(ح)

حاخ «عنصر كوني مذكر» ١٣٩،٧١
حاحة «عنصر كوني مؤنث» ١٣٩،٧١
حتحور «معبودة مصرية» ١٣١،١١٩
٢٦٠،١٦٤،١٣٧،١٣٣،١٣٢
٢٨٧

حري شاف «معبود مصري» ١٣٨
حوريس «معبود مصري» ٦٢،٥٣
١٦٦،١٥٠،١٣٣،٧١،٦٩،٦٦
٢٨٩،٢٧٥،٢٦٩،٢٦٠،٢٤٠
حورس الطفل «أنظر حوريس»

(خ)

خاريتيس (Gratia , Chariten)
«معبودة إغريقية» ١٥١
خنسو «معبود مصري» ١١٩
خنوم «معبود مصري» «أنظر بان»
١٧٣

إيزيس Isis «معبودة مصرية» ٥٥ ،
١٠٢،٩٤،٧١،٧٠،٦٩،٦٢
١٥٠،١٣٤،١٣٢،١٣١،١٠٣
١٦٦،١٦٣،١٦٠،١٥٩،١٥٢
٢٤٧،٢٤٥،٢١٥،٢٠٥،١٩٢
٣٠٩،٣٠٣،٢٨٩،٢٦٠،٢٥٥
إيو «من معبودات الإغريق» ١٣٢
إيزيس ونفتيس «نواحتان» ١٥٧
إيزيس وأزوريس «أسطورة» ٥٥ ،
١٩٩،١٤٨،١٢٦،٦٢

(ب)

بان Pan «من معبودات الإغريق»
٢٧٧،٢٧٦،١٥٠،١٤٣،١٣٧
بتاح Ptah «معبود مصري» ٣٣،٣٢
١٥٠،٦٤،٦٣ ، «بتاح منا»
٢٧٠،٢٦٥،٢٣٠،٢١٣،٢١٢
٣٠٧،٢٧٩،٢٧٣
بختة Pakhet «معبودة مصرية» ٢٦٧
برسيفون ١٥٤
بسته «معبودة مصرية» ١٦٠،١٥٠
٢٦٧
بعل «معبود فينيقي» ١٤٠
بيلوبي ٢٧٧
بوذا «معبود أسوي» ٢٠١
پوسيدون Posidon «معبود إغريقي»
١٥٢،١٥٠،١٣٩،٧١
نوليديكس «معبود إغريقي» ١٥٠

(ت)

تاسوع Ennead «مجموعة من تسعة
معبودات» ٧١
تفتوت Tefnut «معبودة مصرية» ٧١
توت Thoth «معبود مصري» ١٥٠ ،
١٨٢،١٧٢

سكريس Sokaris « معبود مصرى »
١٤٦

سيلي « معبودة إغريقية » ٢٧٧، ٢٧٦
سوخوس « معبود مصرى » ؛ أنظر سبك
سيليني « سيلين » « معبود إغريقى »
٢٤٥، ١٤٧، ١٤٦

(ش)

شو Shu « معبود مصرى » ٧١

(ع)

عشتارة « معبودة أسيوية » ٢٣١

(ف)

فستا Vesta « معبودة رومانية » ٧١
فولكان Vulcan « معبود رومانى »
٧١
فينوس Venus « معبودة إغريقية » ٧١

(ك)

كاستر Kastor « معبود إغريقى » ١٥٠
كالك ١٣٩ ، ٧١
كاكه ١٣٩ ، ٧١
كاموتف ٢٥٩
كبش هناسيا « كبش مقدس » أنظر « بان »
كرونوس Kronos « معبود إغريقى »
١٥١، ٦٢
كبريس « معبودة رومانية » ٧١

(ل)

ليتو Leto « معبودة إغريقية » ١٣٧،
٢٨٨، ٢٨٧، ١٨٩، ١٦٤، ١٦٠
٢٨٩
ليدا Leda « معبودة إغريقية » ١٠٥

(د)

ديانا Diana « معبودة رومانية » ٧١
ديميتر « معبودة إغريقية » ١٣٤، ٧١
٢٤٦، ٢٤٥، ١٦٠، ١٥١، ١٥٠
٣٠٣، ٢٨٩، ٢٤٧
ديوسكورى « معبودان إغريقان »
١٥٠، ١٣٩ Dioskuren
« أنظر أيضاً كاستروبوليديكس »
ديونيسيس Dionisos « معبود إغريقى »
١٣٨، ١٣٤، ١٠٨، ١٠٧، ٧١
١٥٠، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٧، ١٤٦
٢٨٩، ٢٧٧، ٢٧٦، ٢٤٧، ١٥٤
٣٠٣

(ر)

رع « معبود مصرى » ١٧٠، ١٠٨
ريا Rhea « معبودة إغريقية » ٦٢،
١٥١

(ز)

زخة Sekhmet « معبودة مصرية » ١٦٩،
٢٣١، ١٩٢، ١٩١
زيوس Zeus « معبود إغريقى » ١٧، ٦٢،
١٠١، ٩٣، ٨٦، ٧٧، ٧١، ٦٤، ٦٣
١٣٥، ١٣٢، ١٠٨، ١٠٧، ١٠٢
١٥٧، ١٥١، ١٥٠، ١٤٢، ١٣٦
٢٦٦، ٢٣٥، ١٨٩، ١٧٩، ١٥٨
٣١١، ٢٧٧، ٢٧٤
زيوس الطيبى « معبود » أنظر آمون

(س)

سبك Sobk « معبود مصرى » ١٧٥
ست Seth « معبود مصرى » ٧١، ٦٩
١٦٦، ١٦٣، ١٥٠، ١٤٦، ١٣٤
٢٨٩، ٢٧٦، ٢٧٥، ٢٤٠

(هـ)

هرقل Hercules « معبود إغريقي »
أنظر هيراكليس

هرمس Hermes « معبود إغريقي »
١٥٤، ١٥٣، ١٥٢، ١٥٠، ٧١
٢٧٧، ٢٧٢، ٢٦٨، ٢٤٥

هستيا Hestia « معبودة إغريقية »
١٥١، ٧١

هيفايستوس « معبود إغريقي » ٦٣،
٢٢٤، ٢١٣، ١٥٠، ٧١، ٦٥، ٦٤
٢٦٣، ٢٣٩، ٢٣٠، ٢٢٧، ٢٢٦
٢٧٨، ٢٧٣، ٢٧١، ٢٧٠، ٢٦٥
٣٠٨، ٢٨٦، ٢٨٤، ٢٧٩

هليوس « معبود إغريقي » ١٦٠
هيرا Hera « معبودة إغريقية » ١٢،
٢٨٠، ١٥١، ١٣٢، ٧١، ٦٣، ١٣
٣١٣، ٣١١

هيراكليس Herculis « معبود إغريقي »
١٣٧، ١٣٦، ١٣٥، ١٣٤، ٦٤
١٤٢، ١٤١، ١٤٠، ١٣٩، ١٣٨
٢٧٧، ٢٧٦، ٢٣٢، ٢٠١، ١٨٩
هيلينا « معبودة إغريقية » ١٥٠

(ي)

يهوفا « يهوى » « رب العبرانيين »
٢٧٢، ١٣٦، ٣٢
يونو « معبودة رومانية » ٧١

(م)

مارس Mars « معبود إغريقي » ٧١
مركور Mercurius « معبود روماني »
١٥٢، ٧١

ملكارت « معبود فينيقي » أنظر بعل
منديس « معبود » ٢٩٨، ١٣٤

موت Mut « معبودة مصرية » ١١٩
ميتيس Metis « معبودة إغريقية »
١٠٢، ١٠١

مين « معبود مصري » ١٤٣، ١٣٧
٢٠١، ١٥٢، ١٥٠
ميثرا « معبودة رومانية » ٧١

(ن)

نبتون Neptun « معبود روماني »
(أنظر نوسيدون) ١٥٠، ٧١
نفتيس Nephthis « معبودة مصرية »
١٩٢، ١٥٧، ٧١، ٦٩

نوت Nut « معبودة مصرية » ٧١
١١٩
نون ١٧٨، ١٣٩، ٧١

نونة ١٣٩، ٧١
نية Neith « معبودة مصرية » ٥٦
١٥٠، ١٠٢، ١٠١

نيريديس Nereiden « معبودة إغريقية »
١٥١

هذا الكتاب

- **ثاني** كتب هردوت التسعة ٠٠ يتحدث فيه «أبو التاريخ» عن مصر بعد زيارته لها قبل الميلاد بنحو خمسة قرون ٠٠ أحاديث يقرر في مطلعها أنها ستطول « نظرا لما تحمل أرضها من عجائب المخلوقات ومن البسائع والروائع في سائر الفنون والصناعات » ٠٠ ويستطرد ليطلع الدنيا على صور الحياة المشرقة الوضاءة التي عاشها أسلافنا على ضفاف النيل ٠٠ ولا يدع فرصة تمر - وهو يعرض ماسمع ورأى - دون أن يعبر عن إعجابه الشديد بالمصريين ودون أن يشيد بتفوقهم وعظمتهم وسبقهم في ميادين العلوم والمعارف ، ودون أن يمتدح فضائلهم ويستريح إلى تقواهم ونزاهتهم ، ويثبت لهم الفضل في الكشف عن كثير من العلوم والمعارف التي أفادت منها الانسانية عامة وأفاد منها الاغريق خاصة .
- **ترجم** الأحاديث عن الاغريقية المرحوم الأستاذ الدكتور محمد صقر خفاجة ٠٠ العالم العربي الموهوب الذي اختطفه الموت وهو أنصر ما يكون شبابا ، وببلاده أكثر ما تكون أملا ورجاء في علمه ومواهبه وأخلاقه .
- **وقدم** لها وراجعها ٠٠ وحققها ونقدها ٠٠ وتولى شرحها من فيض علمه واحاطته بدقائق تاريخ الحياة المصرية ٠٠ الحجة الثابت على الصعيد العالمي ٠٠ العالم الجليل المتواضع ٠٠ الأستاذ الكبير الدكتور أحمد بدوي .
- **وفي** جلال مهيب ٠٠ كان الأب الروحي الحاني ٠٠ الأستاذ الشيخ ٠٠ يسعى الى المطبعة ٠٠ يشرف على الطبع ويراجع بنفسه التجارب ٠٠ ليخرج هذا الكتاب على هذا النحو تقديرا وتخليدا لذكرى تلميذه الحبيب الذي فجعه القدر مبكرا فيه .

فما أكرم العاطفة وما أعظم الاستاذية !

محمد
العالم